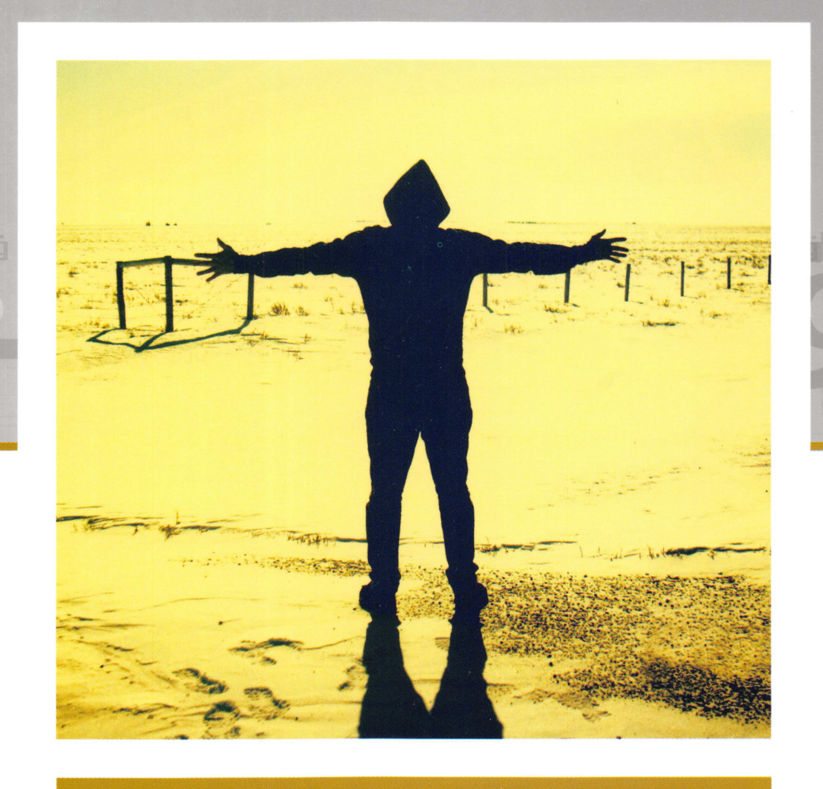


أوراق فكرية (٤)

مفاهيم الحرية وتطبيقاتها

د. عبدالعزيز الحميدي





مفاهيم الحرية وتطبيقاتها

الحرية اسم براق جذاب تتعلق به النفوس وتطرب له القلوب وطالما كتب باسمها المصلحون ورفع شعارها السياسيون وسرقت باسمها أصوات الناخبين فيقع الناس فريسة للإعلام الصاخب لكنه الكاذب ويسقطون في حمأة الشهوات المحمومة لكنها المجنونة فيرتكسون وينحدرون في دركات (العبودية) ولكن باسم ضدها (الحرية).

جاءت رسالة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام لتحرير العباد من ظلم العباد ولضمان الحقوق وردع الظلم وإيصال الحق للضعيف المسكين والبائس الفقير.

في الوقت الذي تقف فيه الأديان الوضعية من جهة والقوانين البشرية من جهة أخرى ضد منهج الله الصالح والمصلح للحياة.

فالأديان الوضعية تنزل العباد من تمام الحرية إلى ذلة العبودية بعبادة حجر أو شجر أو بشر أو بقر من دون الله الواحد الأحد.

والقوانين الوضعية التي وضعها البشر للبشر تدمر الكليات الخمس التي جاءت شريعة الله لصيانتها وهي الدين والعقل والمال والنفس والعرض فترتكس بالبشرية إلى ذل العبودية ..باسم الحرية.

في هذا الكتاب كشف : كيف تُدمّر الحرية باسم الحرية في أثمن موجودات الوجود : الدين ، النفس ، المال.

وكيف يحققها منهج الله واقعاً ملموساً لا شعاراً مرفوعاً.



المملكة العربية السعـودية - ص.ب ١٨٧١٨ جـدة ٢١٤٢٥
هاتف : ٦٢٨٨٦٨٥ ٢ (٩٦٦+) فاكس : ٢٧١٨٢٣٠ ٢ (٩٦٦+)
www.taseel.com - info@taseel.com

مفاهيم الحرية وتطبيقاتها
في
الدين ـ النفس ـ المال

بسم الله الرحمن الرحيم

مفاهيم الحرية وتطبيقاتها
في
الدين - النفس - المال

تاليف
د. عبد العزيز بن أحمد بن محسن الحميدي
كلية الدعوة وأصول الدين - جامعة أم القرى

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

مركز التأصيل للدراسات والبحوث

مفاهيم الحرية وتطبيقاتها في الدين ـ النفس ـ المال

د. عبد العزيز بن أحمد بن محسن الحميدي

مركز التأصيل للدراسات والبحوث

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ/٢٠١٣م

تصميم الغلاف: مركز التأصيل

الحجم: ١٧×٢٤سم

التجليد: غلاف

مركز التأصيل للدراسات والبحوث

المملكة العربية السعودية، جدة، طريق الحرمين (الخط السريع)، بجوار كوبري التحلية.

هاتف: ٦٢٨٨٦٨٥ ٢ ٩٦٦ +   ناسوخ: ٢٧١٨٢٣٠ ٢ ٩٦٦ +

ص ب: ١٨٧١٨ جدة ٢١٤٢٥ المملكة العربية السعودية

الموقع الإلكتروني: www.taseel.com

بريد إلكتروني: taseel@taseel.com

مقدمة

الحمد لله خلق الإنسان، علمه البيان، وأنعم عليه بالسمع والبصر والجنان، وكرّمه وحمله في البر والبحر وفضله على سائر الحيوان.

وأشهد أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له، خلق فسوى، وقدر فهدى، وكل شيء عنده بأجل مسمى.

وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله. وصفيه وخليله. أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله. فتح اللهُ به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، حتى يعبدوا الله وحده لا شريك له.

اللَّهُمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

أما بعد:

فالحرية هي ضد العبودية، وهي مطلب لبني الإنسان طالما نشدوه، وما زالوا ينشدونه، ويطلبونه. ولكنهم قد يخطئون طريق الحرية الحقة التي ينشدون فيضعون لها تصورات منحرفة. ويصطلحون باسمها على أوضاع منحلة، زاعمين

أن هذه هي الحرية، ويضعونها ضمن أهم مرتكزات حقوق الإنسان.

الحرية اسم برّاق، جذاب، تتعلق به النفوس، وتطرب له القلوب. وطالما كتب باسمها المصلحون، ورفع شعارها الناشدون للقيادة والرئاسة، وسرقت باسمها أصوات الناخبين. فيقع الناس فريسة للإعلام الصاخب؛ لكنه الكاذب. ويسقطون في حمأة الشهوات المحمومة؛ لكنها المجنونة. فيرتكسون وينحدرون في دركات «العبودية» ولكن باسم ضدها «الحرية».

• في عالم اليوم لا حدود لجشع التاجر الرأسمالي النهم. ولا لصاحب الفكر المدمر، ولا لصاحب السعار الشهواني المحموم.

فإذا وقع الإنسان المسكين فريسة لهؤلاء. وذهب يطلب حقه المنهوب، وذهب يشتكي أولئك الذين سرقوا ماله وعقله وعرضه. باسم مبادئ التجارة الحرة. والإعلام الحر. وحرية التعبير. ونحو ذلك. جابهوه بتلك العبارة التي تقنّطه من كل حق. فقالوا له: «النظام لا يحمي المغفلين».

• ولكن دعوات الأنبياء والمرسلين ﷺ، وشريعة رب العالمين. جاءت لتحرير هذا الإنسان المسكين. من أولئك الجشعين. المتغولين.

جاءت لتحرير العباد من ظلم العباد، وضمان الحقوق، وردع الاعتداء وتحريم الظلم بجميع صوره وأشكاله. وإيصال الحق إلى الضعيف المسكين، والبائس الفقير. ضمن منهج الله الذي ارتضاه لعباده والذي لا يصلح لهم ولا يصلحهم إلا هو.

في الوقت الذي تقف فيه الأديان الوضعية من جهة، والقوانين البشرية من جهة أخرى ضد منهج الله، الصالح للحياة. فالأديان الوضعية تنزل العباد من تمام الحرية في عبادة الله الواحد الأحد إلى ذلة العبودية بعبادة حجر أو شجر أو بشر أو بقر أو شمس أو قمر من دون الله الواحد الأحد.

والقوانين الوضعية التي وضعها البشر للبشر. تدمر الكليات الخمس التي جاءت الشريعة لصيانتها، وهي: الدين، والعقل، والمال، والنفس، والعرض، باسم ضمان الحريات وحقوق الإنسان.

فلننظر كيف يدعو منهج الله المقدّس البشرية إلى تمام الحرية، وكيف يحققها واقعاً ملموساً لا شعاراً مرفوعاً.

وكيف تدمرها الأديان الهابطة الأرضية. والقوانين والدساتير الوضعية تدميراً. وترتكس بالبشرية إلى ذل العبودية.... باسم الحرية.

وقد وفقني الله تعالى، فجمعت هذا الكتاب، الذي أقدمه للقرّاء الكرام تحت هذا العنوان:

«مفاهيم الحرية وتطبيقاتها
في
الدين - النفس - المال»

وقد جعلته على مقدمة ومدخل عام وأربعة فصول وخاتمة.

أما المقدمة ففيها دوافع الكتابة في هذا الموضوع وعنوان الكتاب وفصوله.

وأما المدخل العام فيبحث في: المحدّدات اللغوية والتعريفية للحرية.

الفصل الأول: التقرير الإسلامي لحرية الإنسان.

الفصل الثاني: الحرية وحفظ الدين بين الشرع الإلـٰهي والتشريع البشري.

الفصل الثالث: الحرية وحفظ النفس بين الشرع الإلـٰهي والتشريع البشري.

الفصل الرابع: الحرية والمال بين الشرع الإلـٰهي والتشريع البشري.

خاتمة: وفيها ثمرات البحث وغاياته.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

د. عبد العزيز بن أحمد بن محسن الحميدي
مكة المعظمة

مدخل عام
المحددات اللغوية والتعريفية للحرية

المحدد اللغوي: في معجم العين للخليل بن أحمد: (الحُرُّ نقيض العبد، حُرٌّ بين الحُروريّة، والحُرِّية والحَرار.

والحُرِّية من الناس: خيارهم، والحُرُّ من كل شيء: أعتقه.

وسحابة حُرَّة: تصفها بكثرة المطر)[١].

والحُر كل شيء فاخر. والحُر الفعل الجميل الحسن. قال طرفة:

لا يكن حبك داءً قاتلاً ليس ذا منك ماويَّ بِحُرّ

أي: بحسن جميل.

ويقال للسحابة إذا كثر مطرها: سحابة حُرّة، قال عنترة:

جادت عليها كل بِكْر حُرَّةٍ فتركن كل قرارة كالدرهم

والحُرّ من الناس: أشرافهم وخيارهم، وحُرّية العرب: أشرافها، قال ذو الرّمة:

فصار حيّاً، وطبّق بعد خوف على حُرِّية العرب الهُزالى

والحرة الكريمة من النساء غير ذات رقٍ ولا دنيئة.

قال الأعشى:

(١) معجم العين (٣/ ٢٤ ـ ٢٥).

حُـرَّة طَـفْـلَـة الأنـامـل تَـرْتَـبُ سُـخـامـاً تـكُـفُّـه بـخـلالِ[(١)]

وفي هذا ما يدل على أن كلمة الحرية والحر استخدم في معاني ما يقابل العبودية، والكريم من الناس والشريف، وكثرة الخير، والفعل الحسن الجميل.

وكان شائعاً عند العرب استخدام الحرية والحر فيما يقابل العبودية والذل والأسر، حتى ربما اختار بعضهم أن يقتل ولا يقع أسيراً في ذلٍّ وعبودية لغريمه.

ومن ذلك شعر مسلم بن عقيل بن أبي طالب رَحِمَهُ اللَّهُ:

أقـسـمـت لا أُقـتـل إلا حُـرّاً وإن رأيت الـموت شـيـئـاً نُـكـراً
أخـاف أن أُكْـذَب أو أُغَـرّا أو يـخـلط البـارد سـخـنـاً ومُـرّاً[(٢)]

وفي كلمة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشهيرة: ما يدل على استخدام كلمة حُرّ في مقابل استعباد الناس وسلبهم حقوقهم، وممارسة نوع من المِلْكِيّة والهيمنة عليهم.

قال رضي الله عنه: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!»[(٣)].

حاول بعضهم[(٤)] عقد مقارنة بين ثلاثة نصوص:

١ ـ نص أمير المؤمنين عمر، هذا: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!».

واعتبره لم يفعل فعله في الفكر العربي الإسلامي.

ونحن نقول له: هذه العبارة المشرقة ليست فلسفة مغرقة في التجريد الذهني والتنظير اللفظي؛ بل هي ترجمة لمنظومة كاملة من الأحكام والتشريعات

---

(١) انظر: لسان العرب (٤/ ١٨٢).

(٢) تاريخ الطبري (٦/ ٢١٠)، ومقاتل الطالبيين، لأبي الفرج الأصبهاني (١٠٣)، وابن الأثير (٤/ ١٤).

(٣) فتوح مصر، لابن عبد الحكم (٢٩٠).

(٤) هو: عبد الأمير الأعسم في «إشكالية الحرية مقاربة بين فلسفة الحرية، وحرية الفلسفة في فكرنا المعاصر»، ضمن أعمال الندوة الفلسفية السابعة عشرة، نشر مركز دراسات الوحدة العربية (ص٣٩).

الإسلامية لتحرير الإنسان من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان والأحكام الوضعية إلى عدل ورحمة الإسلام.

ثم من قالها ليس فيلسوفاً، ينظّر، وإنما هو رأس هرم السلطة في الدولة الإسلامية، يخبر عن حقيقة مقاصد الدين العظيمة.

٢ ـ ونص فولتير الشهير: «لا وجود لوطن إلا بمواطنين أحرار».

ثم عظّم هذه العبارة وأنها أحدثت أثرها، وفعلت فعلها في الفكر الأوروبي في عصر الأنوار وما بعده.

٣ ـ ونص لائحة حقوق الإنسان في فرنسا (١٧٨٩م): «الناس يولدون، ويظلون أحراراً متساوين في الحقوق».

ثم اعترف أنها تتضمن المعنى الحقيقي لمقولة أمير المؤمنين عمر السابقة.

ويعبر شاعر آخر كان مملوكاً رقيقاً: أنه وإن استعبد جسده فلا سبيل لأحد على روحه ونفسه وعقله وقلبه، فنفسه حرة كريمة.

يقول سُحيم عبد بني الحسحاس:

أشعار عبد بني الحسحاس قُمن له ... عند الفخار مقام الأصل والوَرِقِ
إن كنت عبداً فنفسي حُرَة كرماً ... أو أسود اللون إني أبيض الخُلُقِ[1]

ويقول أيضاً:

وما ضرَ أثوابي سوادي وإنني ... لكالمسك لا يسلو عن المسك ذائقُه
كُسِيت قميصاً ذا سواد وتحته ... قميص من الإحسان بِيْض بنائقُه[2]

إشكاليات التعريف:

مفهوم الحرية حار فيه الفلاسفة والمفكرون قديماً وحديثاً، ووضعوا له التصورات المختلفة والمتقابلة. كل على شاكلته وحسب تصوره وفكره.

• يعتبر بعض المفكرين أن مفهوم الحرية عصيٌّ على الفهم والإدراك؛ لذلك سيظل مثار جدال مستمر.

---

(١) كتاب: الأغاني (٢٢/ ٢١٤).

(٢) المصدر السابق (٢٢/ ٢١٣).

يقول الفيلسوف الألماني «كارل ياسبرز»: (الحرية الوجودية عصيَّةٌ عن الإدراك؛ إن الحرية لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تدرك أو تفهم بعمليات فكرية موضوعية. . . الحرية هي موضوع سوء فهم مستمر، كما أنها لا تقدم لنا إلا إشارات غير مباشرة فقط).

ويوافقه على إشكالية التعريف كل من «لافيل» و«غبرييل مارسيل»[١]، وغيرهم.

ويقرر كارل ياسبرز: «أن البحث عن الحرية والشك فيها والإيقان بها، كل ذلك يدخل في صميم وجود الحرية، غير أنني حينما أبحث عن الحرية فإن هذا لا يعني: أن في ذهني مفهوماً أبحث عن مقابل له في العالم الخارجي؛ بل الواقع أن مشكلة الحرية أولاً وأخيراً هي مشكلة في تلك الذات الإنسانية التي تريد أن يكون ثمة حرية فنحن هنا بإزاء ذات مهمومة بوجودها فهي تضع نفسها موضع السؤال متسائلة عن إمكانية حريتها»[٢].

وبناء عليه يقرر «باسبرز»: أن الأوروبي لم يحسن الاستفادة والتوظيف للحرية التي ظفر بها بعد النضال الكبير ضد الاستعباد في القرن التاسع عشر فعادت إلى شكل من الهوى والعبودية.

يقول: «في القرن التاسع عشر انتهى الكفاح في أوروبا ضد السلطات التي يرجع عهدها إلى العصور الوسطى بمنح كل فرد قدراً من الحرية ربما لم يسبق له مثيل في التاريخ، ونجم عن ذلك فيما يظهر أن كثيرين من الناس لم يدركوا ما يصنعون بالحرية التي ظفروا بها. فقد انحرفت وصارت أقرب إلى الهوى والتحكم»[٣].

● واعتبر البعض الآخر أن الحرية تكمن في خضوع واشتراك الفرد ضمن نظام جمعي أعلى وأسمى. كما تخيل ذلك الفيلسوف اليوناني الشهير «أفلاطون». بأن تمام الحرية والانعتاق من الشرور، إنما هو في قيام مدينة سامية فاضلة حرة سماها: «المدينة الفاضلة».

---

(١) مشكلة الحرية، لزكريا إبراهيم (٢٦).

(٢) مشكلة الحرية، زكريا إبراهيم (٢٧).

(٣) مدخل إلى الفلسفة (٢٩١ ـ ٢٩٢).

وتأثر بفكرته هذه بعض الفلاسفة مثل «الفارابي» ونسج على منواله.

ومن المفكرين المحدثين، الفيلسوف «ترايتشكه» «H.Treitsckke».

فراوده حلم وجود دولة هي واحة للحرية الفردية مصدرها كما يقول «حرية الإنسان في دولة حرة»[١].

• بينما يرى فريق ثالث: أن الحرية هي تحقيق هدف ما من خلال وسائل ثقافية ضمن مجتمع إنساني منظم مزود بدوافع ثقافية، وقانون، ونظام اقتصادي، ومؤسسة سياسية يسمونها: «المنظومة الثقافية»[٢].

• كما أن أصحاب الديانات يضع كل منهم تصوره الخاص للحرية.

• ففي الديانات الإغريقية نجد: أن الحرية تكمن في اتفاق الإنسان مع الآلهة. ولكنها الآلهة التي صنعها الإنسان بنفسه، ومنحها من عنده وصف الألوهية.

• نجد في اليهودية، وهم أكثر الشعوب شعوراً بالفوقية وتعنصراً وترفعاً على الآخرين، نجدهم يحددون مفهوم الحرية: في الاستجابة التامة للشريعة التلمودية.

يحاول الحاخام اليهودي «أحابار يعقوب البابلي» أن يتلمس في التلمود كلمة تؤدي مفهوم الحرية فيزعم أن كلمة: «Harut» «رقيم» الواردة في التلمود البابلي تعني تماماً كلمة «Harut»، «حرية».

ويبني على هذا: أن الحرية هي الخضوع للشريعة والتعاليم التلمودية[٣].

يقول «المدراش» اليهودي: «إن الإنسان الحر الوحيد في العالم هو الذي يطبق أحكام ألواح الشريعة»[٤].

• بينما يرى أصحاب الفلسفات التشاؤمية المغرقة في السديمية: أن الحياة كلها أسر وعبودية لا يتحرر منها الإنسان إلا بالموت، فلا معنى للحياة، كما أنه لا معنى للموت أيضاً إلا بقدر ما يخلص الإنسان ويحرره من الحياة.

---

(١) مفهوم الحرية، لفرانز روزنتال (٢١).

(٢) مفهوم الحرية، روزنتال (٢١).

(٣) التلمود البابلي، الطبعة الأوروبية (٥٤).

(٤) Madras Rahh a TExodus (32).

وهي فكرة روّج لها الفلاسفة الغنوصيون: بأن الجسد الإنساني سجن للنفس وأن العالم سجن للإنسان، وأن الموت يعني: التحرر من ذلك السجن.

وقد تسللت هذه الفكرة إلى بعض فلسفة ابن سينا في موقفه الفلسفي من الروح وأنها قدمت من عالم الميتافيزيقيا الرحب الواسع إلى أن سجنت في هذا الجسد الضيق، ولا تتحرر إلا بالانعتاق منه والعودة إلى عالمها الرحب السابق الذي جاءت منه.

ثم جادل في حكمة الإله في إنزالها من عالمها الواسع إلى حبسها في الجسد الضيق وأن الحكمة من ذلك مفقودة والخرق لم يرقع. تجلى ذلك واضحاً في القصيدة العينية في شأن الروح لابن سينا:

هبطت إليك من المحل الأرفع ... ورقاء ذات تعزز وتمنع
وصلت على كره إليك وربما ... كرهت فراقك وهي ذات تفجعِ
فلأي شيء أهبطت من شاهقٍ ... عالٍ إلى قعر الحضيض الأوضع
إن كان أهبطها الإله لحكمة ... خفيت على فهم اللبيب الأورعِ
فهبوطها إن كان ضربة لازبٍ ... لتكون سامعة لما لم تسمعِ
وتعود عالمة بكل خفية ... في العالمين فخرقها لم يرقع
فكأنما برق تألق بالحمى ... ثم انطوى فكأنه لم يلمعِ[(١)]

وبنى ابن سينا على نظرته هذه مذهبه الشهير في شأن الروح وحقيقة المعاد، منكراً المعاد الجسماني؛ لأن الأجساد تفنى.

يعرّف ابن سينا المعاد بأنه: «عَوْد النفوس البشرية إلى عالمها»[(٢)].

وأن الموت عنده هو: قصور الطبيعة البدنية عن إلزام المادة صورتها وحفظها بإدخال بدلٍ ما يتحلل، فالموت هو نظام متوجه إلى غاية هي فعل الطبيعة[(٣)].

---

(١) كتاب: جلاء العينين، لخير الدين الألوسي (١٧٢، ١٧٣)، وانظر فيه: القصيدة بطولها والرد عليه بقصيدة للشيخ رفيع الدين الدهلوي.

(٢) الأضحوية في المعاد (٦٠).

(٣) الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا، محمد عاطف العراقي (١٨٢).

وأن انطلاق الإنسان وسعادته يضاده ويعوقه وجود نفسه أسيرة في بدنه، وأن التحرر والسعادة في تخلص النفس عن البدن وآثار الطبيعة، وتجرده عن كامل اللذات، ناظراً نظراً عقلياً إلى ذات من له الملك الأعظم إلى الروحانيين الذين يعبدونه، وإلى العالم الأعلى، وإلى وصول كماله إليه[١].

ومن أعلام هذه الفكرة الفيلسوف اليوناني «فيثاغورس» (٥٠٠ق.م)، فتتخذ فلسفته منحًى سديمياً مغرقاً في التجرد إلى فصل إرادي بين الروح والجسد الذي هو سجن لها.

رأى فيثاغورس رجلاً بديناً فقال له: «لماذا أنت منشغل إلى هذا الحد برفع جدران سجنك؟!»[٢].

يعلق «فرانزروزنتال» على هذه الفكرة ومدى ارتباطها بمفهوم الحرية فيقول: «ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المجال أنه على الرغم من اعتبار الحياة سجناً، والموت تحرراً؛ فإن الحرية من هذا النوع لم تقد إلى أي شيء يرتبط عادة بمصطلح الحرية، وأبعاده أو مضامينه الدنيوية وكان من المتوقع أن يصبح السبق الميتافيزيقي للحرية قضية تعنى بها النظرية الصوفية»[٣].

● لقد تبنى كثير من المتصوفة هذه الفكرة بأبعاد مختلفة من خلال محورين اثنين:

الأول: الاتجاه بالزهد والتقشف من وضعه الشرعي الطبيعي في البعد عن المحرمات الشرعية والتخفف من زينة الحياة باعتبارها مرحلة قصيرة ودار ممر إلى الدار الآخرة التي هي دار القرار. اتجهوا بالزهد إلى زهد فلسفي رهباني. يهمل كل شيء. ويحمل النفس ما لا قبل لها به. وإلى عزلة عن هداية الخلق وعمارة الأرض. وصناعة الحياة على وفق منهج الله، مما أقام عدائية صارخة لكل ما هو دنيوي لدى من اتجه بالتصوف هذا الاتجاه. فصار تمام الحرية في تمام هذا البعد الكامل والرهبانية التامة.

يقول الأستاذ أبو القاسم القشيري: «(الحرية) ألا يكون العبد تحت رقّ

(١) الأضحوية في المعاد (٨٠).
(٢) انظر: موسوعة أعلام الفلسفة، إعداد: روني إيلي ألف (٢/ ١٩٥).
(٣) مفهوم الحرية (١٦١ ـ ١٦٢).

المخلوقات، ولا يجري عليه سلطان المكوّنات، وعلامة صحته سقوط التمييز عن قلبه بين الأشياء، فتتساوى عنده أخطار الأعراض»[١].

وقال: «سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: من دخل الدنيا وهو عنها حُرّ، ارتحل إلى الآخرة وهو عنها حر»[٢].

وفي «اللمع» لأبي نصر السّراج[٣]: (الحرية): إشارة إلى نهاية التحقيق بالعبودية لله تعالى وهو أن لا يملكك شيء من المكونات وغيرها، فتكون حُرّاً إذا كنت لله تعالى، خلقك حُرّاً فكن كما خلقك، لا ترائي أهلك في الحضر، ولا رفقتك في السفر، اعمل لله ودع الناس عنك».

قال الجنيد: آخر مقام العارف: الحرية.

وقال بعضهم: لا يكون العبد عبداً حقاً ويكون لما سوى الله مسترقاً[٤].

ونقل القشيري عن أبي بكر محمد بن عبد الله الزقاق[٥] قوله: «من كان في الدنيا حُراً منها كان في الآخرة حُرّاً منها»[٦].

ولذلك صار مقام الحرية عند القوم جدّ عزيز ونادر. فلا تكاد ترى حُرّاً ما دام الأمر هكذا.

قال القشيري: «ومقام الحرية عزيز: سمعت الشيخ أبا علي رحمه الله تعالى يقول: كان أبو العباس السياري[٧] يقول: لو صحت صلاة بغير قرآن لصحت بهذا البيت:

أتمنى على الزمان محالاً   أن ترى مقلتاي طلعة حُرِّ»[٨]

---

(١) الرسالة في حال أهل الطريقة، فصل الحرية (٢/ ٣٧١).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٣٧١)، وأبو علي الدقاق هو: الحسن بن علي، توفي سنة (٤٠٦هـ). تاريخ بغداد (٧/ ٢٤٥).

(٣) هو: عبد الله بن علي بن محمد الطوسي، الملقب بطاووس الفقراء، توفي سنة (٣٧٨).

(٤) اللمع في التصوف (٣٦٤).

(٥) توفي سنة (٢٩٠هـ)، تاريخ بغداد (٥/ ٤٤٢).

(٦) الرسالة (٢/ ٣٧١).

(٧) اسمه القاسم بن القاسم، توفي سنة (٣٤٢هـ)، له ترجمة في طبقات الصوفية للسلمي (٤٤٠).

(٨) الرسالة (٢/ ٣٧٢).

وقال القشيري: «أنشدنا الشيخ أبو عبد الرحمٰن قال: أنشدنا أبو بكر الرازي قال: أنشدني منصور الفقيه[١] لنفسه:

ما بقي في الإنس حُرٌّ   لا ولا في الجنّ حُرُّ
قد مضى حُرُّ الفريقين   فحلو العيش مُرُّ»[٢]

ولذلك صار تحقيق هذه الحرية في نظرهم: هو التجرد من كل ما هو دنيوي، واختصار الوجود في الصمت التام، وعدم ممارسة أي نشاط مرتبط بالحياة، والانزواء، وخدمة الفقراء.

قال الأستاذ القشيري: «واعلم أن معظم الحرية في خدمة الفقراء».

ونقل عن يحيى بن معاذ قوله: «أبناء الدنيا تخدمهم الإماء والعبيد، وأبناء الآخرة تخدمهم الأحرار والأبرار».

ونقل عن إبراهيم بن أدهم قوله: «إن الحر الكريم يخرج من الدنيا قبل أن يخرج منها».

ونقل عنه قوله أيضاً: «لا تصحب إلا حُرّاً كريماً يسمع ولا يتكلم»[٣].

وهذا يشبه إلى حد بعيد رهبانية النصارى. التي قال الله فيها: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

وقد قال النبي ﷺ وهو سيد العباد والزهاد: «**إني لم أومر بالرهبانية**»[٤].

وفي لفظ آخر: «**إن الرهبانية لم تكتب علينا**»[٥].

المحور الثاني: الإيغال في التجرد والسعي إلى المطلق في خلط بين الفلسفة السديمية والتصوف. للخلاص والتحرر من سجن الحياة بالفناء عن شهود السوى والرسوم والاتحاد بالذات الإلٰهية.

---

(١) اسمه منصور بن إبراهيم المصري، توفي سنة (٣٠٦هـ)، له ترجمة في طبقات السبكي (٢/ ٣١٧).
(٢) الرسالة (٢/ ٣٧٣).
(٣) الرسالة (٢/ ٣٧٣).
(٤) أخرجه الدارمي (٢/ ١٣٣).
(٥) أخرجه أحمد (٦/ ٢٢٦).

وهذا ظاهر في فلسفة الحسين بن منصور الحلاج.

يقول أحد الدارسين بعمق لفلسفة الحلاج وهو «روجيه أرنالديز»: جرت مناقشات مطولة لمعرفة إذا كان يجب أن تكون الحياة تأملاً في الحياة أو تأملات في الموت، إنها مسألة فلسفية طرحها «سبينوزا» بشكل صحيح؛ ولكن مثل هذا الخيار غير مطروح بالنسبة للحلاج؛ لأنه لا يفرق بين الحياة والموت»[(١)].

ثم يلمس «روجيه أرنالديز» بُعد فلسفة الحلاج الاتحادية: بما أن الله تعالى خالق الموت والحياة فالإحياء والإماتة صفتان لله تعالى. فالاتحاد بالله عند الحلاج يجعل الموت والحياة يستويان.

يقول «روجيه أرنالديز»: هذه التجربة الصوفية العميقة إنما تنبثق عن التأمل في صفتين إلهيتين كشفهما القرآن: فالله هو الذي يحيي وهو الذي يميت، وهو الذي يبعث الأموات أيضاً، هو أخيراً خالق الموت والحياة. إذن بما أن الأمر يتعلق بمَخْلُوقَيْن ينبعان من صفتين من صفات الله، تضمن الوحدة الإلـٰهية التي يتأمل بها المتصوف: الوحدة الأساسية للحياة والموت»[(٢)].

يتجلى ذلك في أبياته هذه:

اقتلوني يا ثقاتي ... إن في قتلي حياتي
ومماتي في حياتي ... وحياتي في مماتي
إن عندي محو ذاتي ... من أجل المكرمات
وبقائي في صفاتي ... من قبيح السيئات
سئمت نفسي حياتي ... في الرسوم الباليات[(٣)]

وفي كتاب: اصطلاحات الصوفية للشيخ كمال الدين عبد الرزاق الكاشاني: (الحرية هي الانطلاق من رق الأغيار، وهي على مراتب:

- حرية العامة: عن رقّ الشهوات.
- حرية الخاصة: عن رقّ المرادات لفناء إراداتهم في إرادة الحق.

---

(١) كتاب: الحلاج، السعي إلى المطلق (١٨ ـ ١٩).

(٢) المصدر السابق (١٩).

(٣) ديوان الحلاج، قصائد (١٠).

- حرية خاصة الخاصة: عن رقّ الرسوم، والآثار، لانمحاقهم في تجلي نور الأنوار)[١].

فالكاشاني يعطي الحرية بعداً فلسفياً فنائياً بزوال الرسوم، والفناء في عين الذات الإلـٰهية كما عرّف هو نفسه الفناء بقوله: (الفناء: بزوال الرسوم جميعاً بالكلية في عين الذات الأحدية مع ارتفاع الإثنينية وهو مقام المحبوبية)[٢].

وهو قريب من تعريف ابن عربي الطائي للحرية بهذا الفناء الاتحادي الذي يجعل هذه الأعيان السارية في الوجود هي عين الذات الإلـٰهية الأحدية.

يقول ابن عربي: (الحرية: من ظلمات أهل الغيب، المكتنفين خلف الحجب الظلمانية لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨]؛ أي: هلاكاً في الحق، فلا يعرفون نفوسهم لشهودهم وجه الحق دونهم)[٣].

● ويتجه فريق من المفكرين والفلاسفة إلى ربط الحرية بالجانب الأخلاقي في الإنسان نفسه غير مرتبطة بالظروف السياسية والاجتماعية.

ومن رواد هذا الاتجاه المبشر بن فاتك، وأبو الحسن العامري الذي يعد من رواد الفلسفة في القرن العاشر.

يقول «المبشر بن فاتك»: «الحرية هي تقدم الإنسان للخير وانهماكه فيه، وبقدر خدمته له تكون حريته؛ لأن من لم يتمسك بالخير فليس بحُرّ»[٤].

ويضيف: «الحُرّ هو الذي لا يضيع حرفاً من حروف النفس لشهوة من شهوات الطبيعة».

«والذي لا يضبط نفسه لا يعد حُراً»[٥].

ويوافقه رشيد الدين ابن خليفة فيقول: «الحرية هي الحياة الخيرة»[٦].

وفي كلام ابن مسكويه ما يوافق هذا.

---

(١) اصطلاحات الصوفية (٣٧).
(٢) المصدر السابق (٣٤٥).
(٣) فصوص الحكم (٧١)، وتفسير ابن عربي (٢/ ٦٤٤).
(٤) كتاب: محاسن الكلم (١١٣).
(٥) المصدر السابق (٦٧).
(٦) طبقات الأطباء، لابن أبي أصيبعة (٢/ ٢٥٤).

يقول في تحديد الإنسان الحر الواصل للسعادة الحقيقة: (فإذا بلغ الإنسان إلى غاية هذه السعادة ثم فارق بجسمه الكثيف دنياه الدنيئة، وتجرد بنفسه اللطيفة التي عُنِي بتطهيرها وغسلها من الأدناس الطبيعية لأخراه العلية، فقد فاز، وأعد ذاته للقيا خالقه ﷻ إعداداً روحانياً: ليس فيه نزاع إلى تلك القوى التي كانت تعوقه عن سعادته، ولا تشوق إليها لأنه قد تطهر منها، وتنزه عنها، ولم يبق فيه إرادة لها، ولا حرص عليها، وقد استخلصها للقاء رب العالمين، ولقبول كراماته، وفيض نوره الذي كان غير مستعد له، ولا فيه قبول من عطائه)[١].

• وإذا انتقلنا إلى الذين عُنُوا بالمحدِّدات والتعريفات للعلوم والمصطلحات والفنون:

فنجد اهتماماً رائعاً من علماء المسلمين في وضع محددات واضحة لمصطلح «الحرية».

• يعرّف الراغب الأصفهاني ؒ الحرية: «الحر خلاف العبد... والحرية ضربان:

الأول: من لم يجر عليه حكم الشيء نحو «الحر بالحر».

والثاني: من لم تتملكه الصفات الذميمة من الحرص والشره على المقتنيات الدنيوية وإلى العبودية، التي تضاد ذلك، أشار النبي ﷺ بقوله: «**تعس عبد الدينار**».

وقول الشاعر: ورِقُّ الأطماع رقٌّ مخلّد.

وقيل: عبد الشهوة أذل من عبد الرِّق.

والتحرير: جعل الإنسان حُرّاً.

.... وحررت القوم: أطلقتهم وأعتقتهم من أسر الحبس»[٢].

يرى «روزنتال»: أن الراغب قدّم تعريفاً للحرية يقيم تمايزاً بين بعدها الشرعي، وبعدها الأخلاقي[٣].

---

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعلاق (١٠٢).

(٢) المفردات (١/١٠٩).

(٣) مفهوم الحرية في الإسلام (٤٩).

• ويقدم الشريف علي بن محمد الجرجاني التعريف التالي للحرية: «الحرية في اصطلاح أهل الحقيقة: الخروج عن رِقّ الكائنات وقطع جميع العلائق والأغيار. وهي على مراتب: حرية العامة عن رق الشهوات، وحرية الخاصة عن رق المرادات لفناء إرادتهم في إرادة الحق، وحرية خاصة الخاصة عن رق الرسوم والآثار لانمحائها في تجلي نور الأنوار»[١].

واضح أن الجرجاني وهو المتكلم، صاحب المنطقية العقلية، لم يأت بجديد؛ بل نقل تعريف الصوفية نصاً. فتعريف الجرجاني هو بعينه التعريف الذي نقله كمال الدين الكاشاني في اصطلاحات الصوفية كما مر ذكره.

• أما التهانوي في كشاف اصطلاحات الفنون فيعرف الحرية: «الحر... لغة الخلوص، وشرعاً خلوص حكمي يظهر في الآدمي لانقطاع حق الغير عنه».

هذا تعريف فقهي استقاه التهانوي من مصدر فقهي حنفي سابق عليه وهو كما ذكر كتاب: «جامع الرموز» لشمس الدين القوهستاني، وهو حاشية فقهية على مذهب الحنفية على كتاب «الهداية» لبرهان الدين المرغيناني.

ثم يقول التهانوي أيضاً: «ومن مجمع السلوك» والحرية عند السالكين: انقطاع الخاطر من تعلق ما سوى الله تعالى بالكلية... والحرية نهاية العبودية، فهي هداية العبد عند ابتداء خلقته»[٢].

وهذا نقله التهانوي من مرجع صوفي سابق عليه، وهو كما ذكر كتاب «مجمع السلوك في بيان الطريق» لصدر الدين الخيرآبادي، المتوفى سنة (٨٨٢هـ) له ترجمة في هدية العارفين[٣].

• أما الرازي محمد بن عمر فيتجه بتعريف الحرية إلى الاتجاه الفلسفي.

يقول الرازي: «النفس إما ألّا تكون تائقة بغريزتها إلى الأمور البدنية، وإما أن تكون تائقة، فالتي تكون تائقة هي الحرة، وإنما سمينا هذه الحالة بالحرية؛ لأن الحرية في اللغة تقال على ما يقابل العبودية، ومعلوم أن

---

(١) كتاب: التعريفات (٩٠ ـ ٩١).

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون (٢٩١)، لمحمد بن علي التهانوي الحنفي.

(٣) (٢/ ٤٣٤).

الشهوات شيء مستعبد، وأما التائق إلى الأمور البدنية فإنه سواء ومعلوم إن لم يتركها؛ فإنه لا يكون حراً؛ بل التائق التارك أسوأ حالاً من التائق الواجد في الحال، من حيث أن التوقان مع الحرمان قد يشغل النفس عن اكتساب الفضائل، وإن كان أحسن منه حالاً في المآل؛ لأن عدم وجدانه لها في الحال، واشتغاله بغيرها؛ ربما يزيل عنها ذلك التوقان في ثاني الحال. فظهر مما قلناه: أن الحرية عفّة غريزية للنفس لا التي تكون بالتعويد والتعليم، وإن كانت تلك أيضاً فاضلة، وهي معنى قول أرسطو: «الحرية ملكة نفسانية حارسة للنفس حراسة جوهرية لا صناعية».

وبالجملة: فكلّما كانت النفس علاقتها البدنية أضعف، وعلاقتها العقلية أقوى، كانت أكثر حرية، ومن كان بالعكس كان بالعكس، وإلى هذا أشار أفلاطون بقوله: «الأنفس المرذولة في أفق الطبيعة وظلها، والأنفس الفاضلة في أفق العقل وضوئه»[١].

يسجّل «روزنتال» هذه الشهادة: «إن مسلمي القرون الوسطى كانوا على وعي بتحديدات الحرية، ويظهر ذلك هنا وهناك، كما في النسيج الاجتماعي، ومهمتنا هنا أن نجمع الإشارات الإسلامية لفكرة الحرية ونقيمها، وسيزودنا ذلك بالوسائل والأدوات التي تمكننا من تقييم دور الحرية حضوراً أو غياباً دونما وقوع في تعميمات ذاتية»[٢].

ويقول: «من الواضح أن المسلمين، كانوا يشعرون بانزعاج كبير عندما يحرمون من حريتهم الفردية، لقد كان هناك أناس كثيرون شديدو الفخر بأنفسهم لا لشيء إلا لأنهم ليسوا عبيداً لأحد.

ولقد سأل ابن حزم أحد هؤلاء مرة عن علة كبريائه المفرطة؟ فأجابه: «أنا حُرّ ولست رقيقاً لأحد».

فأشار ابن حزم إلى أن معظم الناس من حولهما أحرار، ولا توجد إلا قلة من العبيد كانت أكثر قوة من الأحرار في الواقع[٣].

(١) المباحث المشرقية (٢/٤١٣ ـ ٤١٤).

(٢) مفهوم الحرية في الإسلام (٢٤).

(٣) انظر: رسالة مداواة النفوس، ضمن رسائل ابن حزم (١٥٩).

ولا شك أن ابن حزم كان محقاً في مثل هذه الحالة؛ ولكن هذا الموقف من جانب هذا الرجل يظهر لنا التأثير العاطفي المشبوب الذي لعبه مفهوم «الحرية»، ومفهوم الاستغناء والاستقلال في أوساط المسلمين آنذاك»[١].

(١) مفهوم الحرية (١٧٧ ـ ١٧٨).

الفصل الأول

التقرير الإسلامي لحرية الإنسان

الفصل الأول

التقرير الإسلامي لحرية الإنسان

١ ـ الإنسان من حيث هو إنسان هو في الحقيقة عبد ضعيف، فقير، والفقر وصف دائم له، لازم له، لا ينفك عنه أبداً.

فالإنسان فقير محتاج باستمرار. محتاج إلى طعام يأكله، وماء يشربه، وهواء يتنفسه. ولباس يلبسه ودواء يتداوى به وبيت يسكنه. ودابة ووسيلة تُبَلِّغه. وما يقيه الحر عند اشتداد الحر. وما يقيه البرد عند اشتداد البرد. ونحو ذلك.

والقرآن يقرر ذلك ويبين أن الوصف المنطبق على الإنسان انطباق الحد على المحدود، هو وصف الفقر والحاجة المستمرة:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨].

وقال تعالى عن نبيه وكليمه موسى ﷺ: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

فالناس جميعاً بل الخلق كلهم هم من هذه الناحية موصوفون بوصف

«العبودية»، فهم عبيد مربوبون مقهورون لا يخرجون عن الناموس الكوني القدري الذي جعله لهم خالقهم وبارئهم العظيم.

وهذه هي العبودية العامة القهرية الشاملة، وتحرير ذلك: أن العبد يُراد به المعبَّد، الذي عَبَّده الله. فذلَّله ودبَّره وصرّفه.

وبهذا الاعتبار: فالمخلوقون كلهم عباد الله: الأبرار منهم والفجار، المؤمنون والكفار، وأهل الجنة وأهل النار. إذ هو ربهم كلهم ومليكهم، لا يخرجون عن مشيئته وقدرته، وكلماته التامات التي لا يجاوزها برٌّ ولا فاجر، فما شاء كان، وإن لم يشاؤوا، وما شاؤوا إن لم يشأ لم يكن.

كما قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران: ٨٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩].

فهو سبحانه رب العالمين، وخالقهم ورازقهم، ومحييهم ومميتهم، ومقلب قلوبهم، ومصرف أمورهم، لا رب لهم غيره، ولا مالك لهم سواه، ولا خالق لهم إلا هو، سواء اعترفوا بذلك أو أنكروه، وسواء علموا ذلك أو جهلوه.

لكن أهل الإيمان منهم عرفوا ذلك، وآمنوا به، بخلاف من كان جاهلاً بذلك، أو جاحداً له، مستكبراً على ربه، لا يقرُّ ولا يخضع طوعاً له، مع علمه بأن الله ربه وخالقه، فالمعرفة بالحق إذا كان مع الاستكبار عن قبوله والجحد له، كان عذاباً على صاحبه، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٣][1].

قال الإمام أبو جعفر الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أفغير دين الله يبغون. يقول: أفغير طاعة الله تلتمسون وتريدون. وله أسلم من في السماوات والأرض. يقول: وله

---

(١) رسالة العبودية، لشيخ الإسلام ابن تيمية (٤٧ ـ ٤٨) المكتب الإسلامي.

خشع من في السماوات والأرض فخضع له بالعبودية. وأقر له بإقرار الربوبية»[١].

وقال الله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [مريم: ٩٣، ٩٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الأعراف: ١٩٤].

«فذكر إسلام الكائنات طوعاً وكرهاً؛ لأن المخلوقات جميعها مُتَعَبَّدة له التعبد العام، سواء أقر المقرُّ بذلك أو أنكره، وهم مدينون له مدَبَّرون، فهم مسلمون له طوعاً وكرهاً، ليس لأحد من المخلوقات خروج عما شاءه وقدَّرة وقضاه، ولا حول ولا قوة إلا به، وهو رب العالمين ومليكهم، يصرفهم كيف يشاء، وهو خالقهم كلهم، وبارئهم ومصورهم. وكل ما سواه فهو مربوب مصنوع مفطور، فقير محتاج معبَّد مقهور، وهو سبحانه الواحد القهار الخالق البارئ المصور، وهو وإن كان قد خلق ما خلقه بأسباب فهو خالق السبب والمقدِّر له، وهو مفتقر إليه كافتقار هذا، وليس في المخلوقات سبب مستقل بفعل خير ولا دفع ضر، بل كل ما هو سبب فهو محتاج إلى سبب آخر يعاونه وإلى ما يدفع عنه الضد الذي يعارضه ويمانعه، وهو سبحانه وحده الغني عن كل ما سواه، ليس له شريك يعاونه ولا ضد يناوئه ويعارضه»[٢].

٢ ـ ولأن العباد والخلق جميعاً فقراء إلى الله، فالله هو رازقهم ومعافيهم كما كان هو خالقهم وبارئهم.

تكفل بأرزاقهم ومعاشهم، وأودع الأرض أقواتها سواء للسائلين الطالبين.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ﴾ [البقرة: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ٣٣٤).

(٢) رسالة العبودية، لشيخ الإسلام ابن تيمية (١١٧ ـ ١١٨) المكتب الإسلامي.

بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢ ـ ٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق: ٩ ـ ١١].

وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل: ٣ ـ ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود: ٦].

٣ ـ فإذا عرفنا هذا، فإن الإنسان إذن على مفترق طريقين لا ثالث لهما:

ـ فإما أن يختار العبودية لله رب العالمين، الذي خلقه بعد العدم من طين، وركب فيه الحواس، وشقّ سمعه وبصره، وجعله عاقلاً مدركاً، وقدّر له الأقدار، وجعل مصيره في يديه، والعاقبة بعد حين إليه.

- وإما أن يرفض الإنسان العبودية لله رب العالمين، فهنا يتردى ويرتكس ويقع لا محالة في عبوديات مهينة ذليلة لغير الله مولاه وخالقه تستعبده حاجاته ومطامعه، وأهواؤه وشهواته ونزواته، فتستعبده شياطين الإنس والجن، وطواغيت المعبودات من دون الله تعالى.

تصل هذه النفوس في ارتكاسها ومهانتها إلى حد أن يعبد الإنسان العاقل حجراً أو شجراً أو بشراً أو بقراً، فهل بعد هذا الارتكاس والانتكاس من ذل ومهانة؟!

ولفظ العبد مضافاً إلى الله كعبده وعبادي في القرآن: يتناول من عَبَد الله، فأما عبد لا يعبده فلا يطلق عليه لفظ عبده، كما قال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ﴾ [الحجر: ٤٢]، وأما قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]، فالاستثناء فيه منقطع، كما قاله أكثر المفسرين والعلماء، ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين: ٢٨]، ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ [ص: ١٧]، ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [ص: ٤١]، ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص: ٤٥]، ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ [الكهف: ٦٥]، ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم: ١٠]، ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، ونحو هذا كثير.

وقد يطلق لفظ العبد على المخلوقات كلها؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الكهف: ١٠٢]، قد يقال في هذا: إن المراد به الملائكة، والأنبياء، إذ كان قد نهى عن اتخاذهم أولياء، فغيرهم بطريق الأولى، فقد قال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣].

وفي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في الدجال: «فيوحي الله إلى المسيح إن لي عباداً لا يدان لأحد بقتالهم»، وهذا كقوله: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ﴾ فهؤلاء لم يكونوا مطيعين له، لكنهم معبدون، مذللون مقهورون، يجري عليهم قدره، وقد يكون كونهم عبيداً: هو اعترافهم بالصانع وخضوعهم له وإن كانوا كفاراً.

كقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦]، وقوله: ﴿إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]؛ أي: ذليلاً خاضعاً.

ومعلوم أنهم لا يأتون يوم القيامة إلا كذلك، وإنما الاستكبار عن عبادة الله كان في الدنيا، ثم قال: ﴿لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٩٤، ٩٥]، فذكر بعدها أنه يأتي متفرداً؛ كقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقال: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ الآية [الرعد: ١٥]، وقال: ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦]، فليس المراد بذلك مجرد كونهم مخلوقين مدبرين مقهورين تحت المشيئة والقدرة فإن هذا لا يقال طوعاً وكرهاً؛ فإن الطوع والكره إنما يكون لما يفعله الفاعل طوعاً وكرهاً، فأما ما لا فعل له فيه فلا يقال له: ساجد أو قانت؛ بل ولا مسلم؛ بل الجميع مقرون بالصانع بفطرتهم وهم خاضعون مستسلمون، قانتون مضطرون من وجوه.

منها: علمهم بحاجتهم وضرورتهم إليه.

ومنها: دعاؤهم إياه عند الاضطرار.

ومنها: خضوعهم واستسلامهم لما يجري عليهم من أقداره ومشيئته.

ومنها: انقيادهم لكثير مما أمر به في كل شيء، فإن سائر البشر لا يمكنون العبد من مراده؛ بل يقهرونه ويلزمونه بالعدل الذي يكرهه، وهو مما أمر الله به، وعصيانهم له في بعض ما أمر به - وإذا كان هو التوحيد - لا يمنع كونهم قانتين خاضعين، مستسلمين كرهاً؛ كالعصاة من أهل القبلة وأهل الذمة وغيرهم، فإنهم خاضعون للدين الذي بعث به رسله، وإن كانوا يعصونه في أمور. والمؤمن يخضع لأمر الله طوعاً، وكذلك لما يقدره من المصائب؛ فإنه يفعل عندها ما أمر به من الصبر وغيره طوعاً، فهو مسلم لله طوعاً خاضع له طوعاً، والسجود مقصوده الخضوع، وسجود كل شيء بحسبه، سجوداً يناسبها ويتضمن الخضوع للرب.

وأما فقر المخلوقات إلى الله: بمعنى حاجتها كلها إليه، وأنه لا وجود لها ولا شيء من صفاتها، وأفعالها إلا به، فهذا أول درجات الافتقار وهو افتقارها إلى ربوبيته لها، وخلقه وإتقانه، وبهذا الاعتبار كانت مملوكة له، وله سبحانه

الملك والحمد. وهذا معلوم عند كل من آمن بالله ورسله الإيمان الواجب، فالحدوث دليل افتقار الأشياء إلى محدثها، وكذلك حاجتها إلى محدثها بعد إحداثه لها: دليل افتقارها؛ فإن الحاجة إلى الرزق دليل افتقار المرزوق إلى الخالق الرازق.

والصواب: أن الأشياء مفتقرة إلى الخالق لذواتها لا لأمر آخر جعلها مفتقرة إليه؛ بل فقرها لازم لها، لا يمكن أن تكون غير مفتقرة إليه، كما أن غناء الرب وصف لازم له لا يمكن أن يكون غير غني، فهو غني بنفسه لا بوصف جعله غنياً، وفقر الأشياء إلى الخالق وصف لها، وهي معدومة وهي موجودة، فإذا كانت معدومة فقيل عن مطر ينتظر نزوله: هو مفتقر إلى الخالق، كان معناه: أنه لا يوجد إلا بالخالق، هذا قول الجمهور من نظار المسلمين من السلف وجمهور الخلف.

ولكن طائفة تدعي أن افتقارها، وخضوعها، وخلقتها، وجريان المشيئة عليها: هو تسبيحها وقنوتها وإن كان ذلك بلسان الحال، ولكونها دلالة شاهدة للخالق ﷻ، وقل للأرض: من فجر أنهارها، وغرس أشجارها، وأخرج نباتها وثمارها؛ فإن لم تجبك حواراً، وإلا أجابتك اعتباراً، وهذا يقوله الغزالي وغيره، وهو أحد الوجوه التي ذكرها أبو بكر بن الأنباري في قوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾، قال: كل مخلوق قانت له باشر صنعته فيه وجرى أحكامه عليه، فذلك دليل على ذله لربه، وهو الذي ذكره الزجاج في قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، قال: إسلام الكل خضوعهم لنفاذ أمره في جَبْلهم، لا يقدر أحد يمتنع من جِبِلَّة جبله الله عليها، وهذا المعنى صحيح؛ لكن الصواب الذي عليه جمهور علماء السلف والخلف أن القنوت والاستسلام والتسبيح أمر زائد على ذلك، وهذا كقول بعضهم: إن سجود الكاره وذله وانقياده لما يريده الله منه من عافية وحرص وغنى وفقر، وكما قال بعضهم في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ﴾، قال: تسبيحه دلالته على صانعه فتوجب بذلك تسبيحاً من غيره، والصواب أن لها تسبيحاً وسجوداً بحسبها.

والمقصود: أن فقر المخلوقات إلى الخالق ودلالتها عليه وشهادتها له: أمر فطري فطر الله عليه عباده، كما أنه فطرهم على الإقرار به بدون هذه الآيات، كما قد بسط الكلام على هذا في مواضع، وبُيِّنَ الفرق بين دلالة الآيات ودلالة القياس

الشمولي، والتمثيلي؛ فإن القياس البرهاني العقلي سواء صيغ بلفظ الشمول؛ كالأشكال المنطقية، أو صيغ بلفظ التمثيل، وبُيِّنَ أن الجامع هو علة الحكم ويلزم ثبوت الحكم أينما وجد، وقد بسطنا الكلام على صورة القياسين في غير هذا الموضع.

والتحقيق: أن العلم بأن المُحْدَث لا بد له من مُحْدِث هو علم فطري، ضروري في المعينات الجزئية، وأبلغ مما هو في القضية الكلية؛ فإن الكليات إنما تصير كليات في العقل بعد استقرار جزئياتها في الوجود، وكذلك عامة القضايا الكلية؛ التي يجعلها كثير من النظار المتكلمة والمتفلسفة أصول علمهم؛ كقولهم: الكل أعظم من الجزء، أو النقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان، والأشياء المساوية لشيء واحد متساوية ونحو ذلك؛ فإنه أي كلي تصوره الإنسان علم أنه أعظم من جزئيه، وإن لم تخطر له القضية الكلية كما يعلم أن بدن الإنسان بعضه أكثر من بعض وأن الدرهم أكثر من بعضه، وأن المدينة أكثر من بعضها، وأن الجبل أكبر من بعضه، وكذلك النقيضان وهما: الوجود والعدم؛ فإن العبد إذا تصور وجود أي شيء كان وعدمه: علم أن ذلك الشيء لا يكون موجوداً معدوماً في حالة واحدة وأنه لا يخلو من الوجود والعدم، وهو يقضي بالجزئيات المعينة، وإن لم يستحضر القضية الكلية، وهكذا أمثال ذلك[1].

٤ ـ وبهذا يظهر معنى الحرية الحقيقية، والانعتاق البشري من كل ذل والتحرر الإنساني من كل رجس وارتكاس.

إنه في تمام التعبد والعبودية لله وحده لا شريك له، فكلما كان الإنسان أكثر تعبداً لله وعبودية له وحده لا شريك له حقق لنفسه أقصى درجات التحرر، وأسمى منازل الحرية، بانعتاق قلبه وروحه من التذلل لمخاليق مثله، يستذلونه ويصيرونه عبداً ذليلاً.

«فالحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب. كما أن الغنى غنى النفس. قال النبي ﷺ: **«ليس الغنى عن كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس»**[2].

وهذا الحديث أخرجه البخاري بهذا اللفظ[3].

---

(١) مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ٤٣ ـ ٤٨).

(٢) رسالة العبودية، لشيخ الإسلام (٩٧).

(٣) برقم (٦٤٤٦).

وعند ابن حبان من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا أبا ذر أترى كثرة المال هو الغنى؟**» قلت: نعم، قال: «**وترى قلة المال هو الفقر؟**» قلت: نعم يا رسول الله، قال: «**إنما الغنى غنى القلب، والفقر فقر القلب**»[(١)].

«وإنما يحصل غنى النفس بغنى القلب بأن يفتقر إلى ربه في جميع أموره فيتحقق أنه المعطي المانع، فيرضى بقضائه ويشكره على نعمائه، ويفزع إليه في كشف ضرائه، فينشأ عن افتقار القلب لربه غنى نفسه عن غير ربه تعالى، والغنى الوارد في قوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الضحى: ٨]، يتنزل على غنى النفس؛ فإن الآية مكية ولا يخفى ما كان فيه النبي ﷺ قبل أن تفتح عليه خيبر وغيرها من قلة المال»[(٢)].

وقال الإمام أبو العباس القرطبي رحمه الله: «ومعنى الحديث أن الغنى النافع أو العظيم أو الممدوح هو غنى النفس، وبيانه أنه إذا استغنت نفسه كفّت عن المطامع فعزّت وعظمت فجُعل لها من الحظوة، والنزاهة، والتشريف، والمدح أكثر ممن كان غنياً بماله فقيراً بحرصه، وشرهه؛ فإن ذلك يورطه في رذائل الأمور، وخسائس الأفعال لبخله ودناءة همته، فيكثر ذامّه من الناس، ويصغر قدره فيهم، فيكون أحقر من كل حقير، وأرذل من كل صغير»[(٣)].

«وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته، بقضاء حاجته ودفع ضرورته، قويت عبوديته له، وحريته مما سواه، فكما أن طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه، كما قيل: استغن عمن شئت تكن نظيره، وَأَفْضِل على من شئت تكن أميره، واحتج إلى من شئت تكن أسيرَه: فكذلك طمع العبد في ربه ورجاؤه له يوجب عبوديته له، وإعراض قلبه عن الطلب من الله والرجاء له، يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله لا سيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق، بحيث يكون قلبه معتمداً إما على رئاسته وجنوده وأتباعه ومماليكه، وإما على ساداته وكبرائه؛ كمالكه ومَلِكه، وشيخه

---

(١) صحيح ابن حبان (٢/ح٦٨٥).
(٢) فتح الباري، لابن حجر (٢٤/ ٥٥).
(٣) المفهم (٣/ ٩٥).

ومخدومه وغيرهم، ممن هو قد مات أو يموت، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٨﴾[1].

«إذا تبين هذا فكمال المخلوق: في تحقيق عبوديته لله، وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته، ومن توهم أن المخلوق يخرج من العبودية بوجه من الوجوه، أو أن الخروج عنها أكمل؛ فهو من أجهل الخلق؛ بل من أضلهم»[2].

وقد حرّر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هذا المقام الشريف تحريراً بالغاً فقال:

«والقلب فقير بالذات إلى الله من وجهين:

- من جهة العبادة، وهي العلة الغائية.
- ومن جهة الاستعانة والتوكل؛ وهي العلة الفاعلة.

وذلك أن العبد بل كل حي بل وكل مخلوق سوى الله تعالى، هو فقير محتاج إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، والمنفعة للحي هي من جنس النعيم واللذة، والمضرة هي من جنس الألم والعذاب، فلا بد للعبد من أمرين:

أحدهما: هو المطلوب المقصود المحبوب الذي ينتفع ويلتذ به.

والثاني: هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود، والمانع من دفع المكروه، وهذان هما الشيئان المنفصلان: الفاعل، والغاية، فههنا أربعة أشياء:

أحدها: أمر هو محبوب مطلوب الوجود.

والثاني: أمر مكروه مبغض مطلوب العدم.

والثالث: الوسيلة إلى حصول المطلوب المحبوب.

والرابع: الوسيلة إلى دفع المكروه.

فهذه أربعة أمور ضرورية للعبد؛ بل ولكل حي لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها.

ويتبين ذلك بوجوه:

---

(١) رسالة العبودية، لشيخ الإسلام ابن تيمية (٩٤ ـ ٩٥).

(٢) رسالة العبودية (٨٠).

• **الوجه الأول:**

أن الله تعالى هو الذي يجب أن يكون المقصود، المدعو، المطلوب، وهو المعين على قصده، وذكره وشكره، وهو الدافع لما يضاد ذلك، قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل: «**يا معاذ إني لأحبك، فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة: اللَّهُمَّ أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[1].

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥].

فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب، والمستعان هو الذي يستعان به على المطلوب، فالأول من معنى الألوهية، والثاني من معنى الربوبية.

• **الوجه الثاني:**

أن الله تعالى خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته، والإنابة إليه ومحبته والإخلاص له، بذكره تطمئن قلوبهم، وبرؤيته في الآخرة تقر عيونهم، وحاجتهم إليه في عبادتهم إياه وتألههم كحاجتهم وأعظم في خلقه لهم وربوبيته إياهم؛ فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم، وبذلك يصيرون عاملين متحركين، ولا صلاح لهم ولا فلاح، ولا نعيم ولا لذة بدون ذلك بحال؛ بل من أعرض عن ذكر ربه فإن له معيشة ضنكاً. ويحشره ربه يوم القيامة أعمى.

• **الوجه الثالث:**

أن المخلوق ليس عنده للمخلوق مثله نفع ولا ضر. ولا إعطاء ولا منع ولا هدى ولا ضلال؛ ولا نصر ولا خذلان، ولا خفض ولا رفع، ولا عز ولا ذل؛ بل ذلك كله لربه الذي خلقه ورزقه. وهذا الوجه يقتضي التوكل على الله والاستعانة به، ودعاءه ومسألته دون ما سواه، والقرآن مملوء من ذكر حاجة العباد إلى الله دون ما سواه، ومن ذكر نعمائه عليهم. ومن ذكر ما وعدهم في الآخرة من صنوف النعيم واللذات، وليس عند المخلوق شيء من هذا، فهذا الوجه يحقق التوكل على الله والشكر له ومحبته على إحسانه.

• **الوجه الرابع:**

أن تعلق العبد بما سوى الله مضرة عليه؛ فإن من أحب شيئاً لغير الله فلا بد

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٤ ـ ٢٤٥)، وأبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (٣/ ٥٣).

أن يضره محبوبه، ويكون ذلك سبباً لعذابه، فالضرر حاصل له إن وجد أو فقد؛ فإن فُقد عُذِّب بالفراق وتألم، وإن وُجد فإنه يحصل له من الألم أكثر مما يحصل له من اللذة؛ كخوف الفراق وتوقع التغير، وهذا أمر معلوم بالاعتبار والاستقراء، وفي أخبار العشاق من ذلك عبرة.

قال أحدهم:

أحب ليالي الهجر لا فرحاً بها عسى اللّه يأتي بعدها بوصال
وأكره أيام الوصال لأنني أرى كل وصلٍ معقباً بزوالِ

والآخر يقول:

فما في الناس أشقى من محبٍ وإن وجد الهوا حلو المذاق
تراه باكياً في كل حين مخافة فرقةٍ أو لاشتياق
فيبكي إن نأوا شوقاً إليهم ويبكي إن دنوا خوف الفراق

فصارت المخلوقات وبالاً عليه إلا ما كان لله وفي الله؛ فإنه كمال وجمال العبد، وتمام حرّيته.

- **الوجه الخامس:**

أن العبد إذا اعتمد وتوكل على مخلوقٍ مثله فإن ذلك يوجب له الضرر من عين المخلوق الذي رجا منه الخير والنصر واعتمد وتوكل عليه. وهذا معلوم أيضاً بالاعتبار من أحوال الخلق. وما عَلَّق عبد رجاءه وتوكله بغير الله إلا خاب من تلك الجهة. ولا استنصر بغير الله إلا خذل.

وقد حكم الله رب العالمين بذلك فقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

ذكروا في ترجمة الشاعر المشهور المتنبي أنه لازم طويلاً أمير حلب: سيف الدولة ابن حمدان، وبالغ في مدحه واستجدائه وسؤاله والتملّق إليه. فكانت عاقبته أن غضب عليه ممدوحه ومطلوبه فأهانه وأذلّه وطرده وأبعده. فندم المتنبي بعدما فات الأمر، وأتاه من ذات مطلوبه الضر، فقال في ذلك بيتين من الشعر فيهما عبرة، وفيما نحن في تقريره حجة، وهما قوله:

أَبِعين مفتقر إليك نظرتني فأهنتني وقذفتني من شاهق

لستَ الملومَ أنا الملومُ لأنني أنزلتُ آمالي بغير الخالقِ[(١)]

● **الوجه السادس:**

أن الله تعالى هو الغني الحميد. العظيم الكريم. يحسن إلى عباده مع غناه عنهم، ويدعوهم إلى عبادته ليكرمهم ويرفعهم وينعم عليهم لا لحاجة إليهم.

في الحديث القدسي الجليل: «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً. يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم؛ فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه**»[(٢)].

أما العباد فلا يتصور أن يعمل بعضهم لبعض شيئاً إلا لحظوظ أنفسهم؛ فمن أحب إنساناً لشجاعته أو رياسته، أو جماله أو كرمه أو قرابته. فهو يحب أن ينال حظه من تلك المحبة، واعتبر بأحوال أجناد الملوك وخدَّامهم، وأجراء الصُّنَّاع وأعوان الرؤساء؛ فإنهم جميعاً يسعون في نيل أغراضهم وشهواتهم منهم وبهم؛ فإن علاقاتهم ومحابهم تنقطع بمجرد ما تنقطع مصالحهم وتنقضي شهواتهم؛ بل ربما وهذا كثير عاد بعضهم لبعض ذاماً. وصار بعضهم لبعض عدواً.

قال الله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧].

ولذلك يصير في بعضهم عبودية وذلٌّ لبعض بقدر حاجتهم إليهم، حتى الذين هم في بادئ الرأي وظاهر النظر، رؤساء الناس وملوكهم ومقدموهم، فيهم من الذل والحاجة والعبودية لأتباعهم بقدر حاجتهم إليهم لقيام ملكهم، ورئاساتهم. والحفاظ على مصالحهم.

«فكل من علق قلبه بالمخلوقين أن ينصروه أو يرزقوه خضع قلبه لهم. وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك، وإن كان في الظاهر أميراً لهم مدبراً لأمورهم متصرفاً فيهم، فالعاقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر، فهو في

---

(١) انظر: وفيات الأعيان، لابن خلكان (١/ ١٢١).

(٢) أخرجه مسلم رقم (٢٥٧٧).

الحقيقة يرجوهم ويخافهم، فيبذل لهم الأموال والولايات، فهو في الظاهر رئيس مطاع، وفي الحقيقة عبد مطيع لهم»(١).

واعتبر بحال فرعون، ففي الصورة الظاهرة هو ملك على قومه وهم له خاضعون مطيعون؛ بل جعل من نفسه إلهاً لهم، ورباً أعلى عليهم: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، فصار في جنوده، وقومه من الذل له والخضوع له والعبودية له بقدر ما قبلوا من استخفافه بهم وإذلالهم لهم، ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف: ٥٤]، وصار فيه هو نفسه من الذل لهم والحاجة إليهم. وذلك لما جاءه موسى عليه السلام بتلك الآيات البينات والمعجزات القاهرات، ما تزعزع به ملك وصولة فرعون واحتاج إلى السحرة ليبطلوا ما جاء به موسى صار في فرعون من الذلة والحاجة والفقر والعبودية إلى السحرة نظير ما فيهم هم قبل إيمانهم من الذلة والحاجة والفقر والعبودية له، فلذلك استعان بهم واحتاج إليهم وبذل لهم الأموال والولايات لينصروه ويعزوه. أرأيت قولهم متعززين بفرعون: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤]، اسمع قول فرعون لهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الشعراء: ٤١، ٤٢].

أما الله تعالى فإنه يريدك لك، ولمنفعتك بك، لا لينتفع بك، ثم هي منفعة لك بلا مضرة، فتدبر هذا، فملاحظة هذا الوجه يمنعك أن ترجو المخلوق أو تطلب منه منفعة لك.

وهذا المعنى متى فهمه الإنسان وتحلَّاه، أورثه عزاً لا ذل معه، فلا يخاف الناس ولا يرجوهم.

فَخَفِ الله في الناس، ولا تخفِ الناس في الله، وارْجُ الله في الناس ولا ترجُ الناس في الله، وكن ممن قال الله فيهم: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل: ١٧ ـ ٢١].

وقال فيهم: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان: ٩].

---

(١) العبودية (٩٥ و١٨) باختصار وتصرف.

● **الوجه السابع:**

إنك أيها العبد إذا كنت غير عالم بمصلحتك حق العلم، وغير قادر عليها، ولا مريد لها كما ينبغي، فغيرك من الخلق أولى وأحرى أن لا يكون عالماً بمصلحتك، ولا قادراً عليها، ولا مريداً لها.

والله تعالى هو الذي يعلم ولا تعلم، ويقدر ولا تقدر، ويعطيك من فضله العظيم، وفي حديث الاستخارة الذي كان النبي ﷺ يعلمه لأصحابه كما يعلمهم السورة من القرآن: «**اللَّهُمَّ إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم. فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، إنك أنت علام الغيوب**»[١].

فهذا الدعاء المبارك هو الطائر الميمون والطالع المبارك الذي أبدلنا الله به عن أزلام الجاهلية وزجرها الطير، طيرتها واستخبارها الكهان، واستعلامها المنجمين.

● **الوجه الثامن:**

الإنسان كائن حي حساس متحرك بالإرادة. له علم وعمل بإرادته، ولا بد في العمل الإرادي الاختياري من مراد، وهو المطلوب، ولا يحصل المراد إلا بأسباب، ووسائل تحصله.

فصار العبد مجبولاً على أن يقصد شيئاً ويريده، ويستعين بشيء ويعتمد عليه في تحصيل مراده. هذا أمر حتم لازم ضروري في حق كل إنسان، لا ينفك عنه أبداً.

فإذا تدبر الإنسان حال نفسه وحال جميع الناس؛ وجدهم لا ينفكون عن هذين الأمرين، لا بد للنفس من شيء تطمئن إليه وتنتهي محبتها إليه؛ وهو إلهها، ولا بد من شيء تثق به وتعتمد عليه في نيل مطلوبها هو مستعانها، فمن غلب عليه حب المال أو حب شخص أو حب الرئاسة والتملك فإنه يصير عبداً لذلك.

قال النبي ﷺ: «**تعس عبد الدينار. تعس عبد الدرهم. تعس عبد الخميصة. تعس عبد الخميلة. إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط. تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش**»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٣٨٢).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٢٨٨٦، ٢٨٨٧).

ومعنى قوله عبد الدينار: أي: أنه طالبه الحريص على جمعه القائم على حفظه، فكأنه لذلك عبده وخادمه، وجعله عبداً لهما لشغفه وحرصه، فمن كان عبداً لهواه لم يصدق في حقه - إياك نعبد - فلا يكون من اتصف بذلك صديقاً[١].

وعدل في الخطاب عن وصفه بكونه مالك الدينار أو جامع الدينار، مع أن هذه هي الصورة الظاهرة إلى وصفه بأنه عبد الدينار؛ لأنه لشغفه بالدينار والدرهم وإنفاقه عمره في جمعه صار عبداً لهما.

فإذا علمنا أن العبد لا بد له في كل وقت وحال من منتهى يطلبه هو إلهه، ومنتهى يطلب منه هو مستعانه. تبين أن قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، كلام جامع محيط أولاً وآخراً لا يخرج عنه شيء، فتكون أحوال الناس مع هذه الآية على أربعة أقسام.

- **القسم الأول:**

الذين يعبدون غير الله ويستعينون غيره، وذلك هو الكفر والشرك والضلال البعيد، فمن فعل ذلك فقد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين، قال تعالى: ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ۝١٢ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ۝١٣﴾ [الحج: ١٢، ١٣].

- **القسم الثاني:**

الذين يعبدون الله ولكن في قلوبهم التفات إلى غيره واستعانة بغيره مثل كثير من أهل الدين، يقصدون طاعة الله ورسوله، وعبادته وحده ولكن في قلوبهم خضوع ورجاء لمن يستشعرون نصرهم ورزقهم وعزهم أو رهبة منهم، من ملوكهم ورؤسائهم وأغنيائهم ومحبوبيهم ومعشوقيهم.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ [العنكبوت: ١٠].

---

(١) انظر: فتح الباري (٢٤/ ٣٢).

• **القسم الثالث:**

الذين يستعينونه وإن عبدوا غيره أو ضيعوا عبادته، وهذا كثير في ذوي السلطان وأهل المال؛ بل وفي أهل الكفر الصريح به والشرك به. خصوصاً وقت النوائب والمصائب كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنعام: ٦٣، ٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة: ٧٥ ـ ٧٧].

• **القسم الرابع:**

«الذين لا يعبدون إلا إياه ولا يستعينون إلا به، وهؤلاء هم أهل ولايته والمحقوقون لمنزلة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾.

وفي وصية النبي ﷺ لابن عباس ما يحقق هذا المقصد الشريف: «**يا غلام احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك**»[١].

وهذه معرفة الخاصة من المؤمنين، التي تقتضي ميل القلب إلى الله تعالى بكليّته، والانقطاع إليه والأنس به، والطمأنينة بذكره، والرجاء والطمع في فضله ورحمته، والهيبة والخشية منه، ثم عند الوفاة، الفرح بلقائه، والمحبة التامة له.

فقد كان آخر ما تكلم به النبي ﷺ عند وفاته: «**اللَّهُمَّ الرفيق الأعلى، اللَّهُمَّ الرفيق الأعلى**»[٢].

---

(١) أخرجه أحمد (١/٢٩٣)، والترمذي (٢٥١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٦٣)، وبوب عليه: باب آخر ما تكلم به النبي ﷺ.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»، قالت عائشة: فقلت: يا نبي الله كلنا يكره الموت، قال: «ليس كذلك، ولكنّ المؤمن إذا بُشِّر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا بُشِّر بعذاب الله وسخطه، كره لقاء الله وكره الله لقاءه»[1][2].

٥ ـ وبناء عليه يصبح وصفُ «العبودية لله تعالى» أشرفَ الأوصاف وأجلها، ومقامُ التعبد لله هو أعلى مقامٍ يرتقي إليه الإنسان؛ لأنه به، وبه وحده يتحرر ويكون على قمة هرم الحرية الحقة بلا جدال.

لذلك كان وصف «العبودية لله تعالى» هو أجل أوصاف خلق الله تعالى من الملائكة المقربين، والنبيين والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

«إذا تبين هذا فكمال المخلوق: في تحقيق عبوديته لله، وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته، ومن توهم أن المخلوق يخرج من العبودية بوجه من الوجوه، أو أن الخروج عنها أكمل، فهو من أجهل الخلق؛ بل من أضلهم.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٥].

وقال تعالى في المسيح: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزخرف: ٥٩].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٧) معلقاً، ومسلم (٢٦٨٤).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ٢١ ـ ٣٦) مع تصرف وإضافات كثيرة لتوضيح المعنى وتكميله.

وقال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنبياء: ١٩].

وقال تعالى: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء: ١٧٢، ١٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩ ﴿٣٨﴾﴾ [فصلت: ٣٧، ٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٥، ٢٠٦][1].

«بذلك وصف ملائكته وأنبياءه فقال: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠][2].

وبالعبودية نعت كل من اصطفى من خلقه في قوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ [ص: ٤٥].

وقوله: ﴿مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧].

وقال عن سليمان: ﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص: ٣٠].

وقال عن أيوب: ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ [ص: ٤٤].

وقال عن نوح: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ [الإسراء: ٣][3].

---

(١) رسالة العبودية، لشيخ الإسلام ابن تيمية (٨٠ ـ ٨٢).

(٢) المصدر السابق (٤٠).

(٣) المصدر السابق (٨٥).

«وقد نعت الله خاتم رسله محمداً ﷺ بالعبودية في أكمل أحواله وأشرفها وأحسنها وأجلها، فقال تعالى في مقام الإسراء وهو من أعظم الآيات والمعجزات والبراهين والدلالات على نبوته ورسالته: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١].

وقال تعالى في مقام نزول الوحي المقدس عليه: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النجم: ١٠].

وقال تعالى في مقام الدعوة إلى الله والبلاغ عن الله: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝١٩﴾ [الجن: ١٩].

وقال في مقام التحدي للخلق أن يعارضوا كتابه المنزل على نبيه المرسل: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣][1].

وبهذا يظهر التكوين الشرعي الإسلامي الحقيقي لحرية الإنسان الذي هو عبد الله والمضطر إليه اضطراراً في رزقه وحياته ومماته وصحته وعافيته وجميع شأنه.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝١٦٤﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٤].

(١) المصدر السابق (٤٢، ٤٣) بتصرف.

الفصل الثاني

الحرية وحفظ الدين
بين الشرع الإلهي والتشريع البشري

الفصل الثاني

الحرية وحفظ الدين بين الشرع الإلـهي والتشريع البشري

أولاً:

١ ـ كل تجمع بشري، عضوي، حركي، لا بد له من نظام ينتظمه، وقانون يحكمه، وأحكام وتشريعات يُرْجَع إليها لدفع الاعتداء وإيصال الحقوق واستصلاح الحياة.

ثم لا بد لهذا النظام من ثوابت وأسس مسلمات لا يجوز المساس بها، ولا الإخلال بها، ولا تجاوزها تحت أي مبرر.

٢ ـ في الإنسان جانب خضوعي حاجي، وبالوصف القرآني البليغ: الإنسان فقير، والفقر وصف ذاتي له، لازم له لا ينفك عنه أبداً. وقد مر تحرير ذلك بدلائله.

وما دام أنه كذلك، فهو مدفوع ضرورة إلى التسليم لغيره، واللجوء لغيره، وهذا التسليم واللجوء مبرِّره شعور الإنسان بتفوق هذا الغير عليه، وشعوره أن هذا الغير يملك الخير والشر والنفع والضرر، فها هنا تقع المقابلة العظيمة، والمفاصلة الجليلة بين التشريع الإلـٰهي الإسلامي الذي مصدره من عند الله رب العالمين وبين التشريعات الوضعية البشرية أياً كانت.

٣ ـ التشريع الإلـهي الإسلامي يطلب من الإنسان تحويل هذا الجانب الخضوعي التسليمي إلى خضوع وتسليم كامل للغني ذاتاً، المقتدر ذاتاً. الذي يملك الضر والنفع والإعطاء والمنع ويملك الموت والحياة والنشور، وهو الله رب العالمين، أما التشريعات الوضعية البشرية؛ فإنها تُعَبِّد البشر للبشر، في صورة من الصور مهما رفعت تلك التشريعات البشرية شعار الحريات وضمان حقوق الإنسان كما سيأتي توضيحه إن شاء الله.

ثانياً:

إن القرآن العظيم، هو الوثيقة الوحيدة في العالم اليوم الحقيقية الصحيحة الثابتة المتصلة بالله رب العالمين، وفيه المقومات الكبرى التامة لإصلاح الخلق، واستصلاح الأرض ومن عليها، وهي الوحيدة اليوم الضامنة لإيصال الحقوق، وردع الظلم والاعتداء، وتعبيد الخلق جميعاً على السواء لله الخالق وحده لا شريك له، وهو المقوم الوحيد اليوم الصافي الخالص من أهواء البشر وأغراضهم وتدخلهم، ولا حتى النبي الأعظم الخاتم محمد ﷺ. وهذه المقدمة يدل عليها أمور:

- **الأمر الأول:**

إخبار الله تعالى أنه لا يمكن لأحد أن يفتري عليه هذا القرآن العظيم بما فيه من حجج باهرة عظيمة، وإعجاز وتحدٍّ، وبما تضمنه من هدي ورشاد، وأنه لو فُرض أن أحداً حاول أن يفتري على الله كذباً؛ فإن الله تعالى لا بد أن يقصمه، ويذهب افتراءه، ويظهر كذبه، ويُحل عليه عذابه ونقمته، وإخزاءه وإهانته.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [يونس: ٣٧].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «ما كان هذا القرآن ليختلقه أحد من عند غير الله؛ لأن ذلك لا يقدر عليه أحد من الخلق»[١].

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

---

(١) تفسير الطبري (٦/٥٦١).

كذا قال تعالى في آخر آية في هذه السورة الجليلة سورة يوسف، وكان قد افتتح تعالى هذه السورة بنسبة القرآن وإنزاله وقصصه إليه تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف: ١ ـ ٣].

• الأمر الثاني:

أن الله تعالى توعد من افترى عليه الكذب ونسب إليه من القول والكلم ما لم يكن به قد تكلم، ونسب إليه من الدين ما لم يأذن به الله بأنواع عظيمة من العقوبات، وكل هذه العقوبات انتفت في حق النبي المصطفى ﷺ، فدل على أنه عليه الصلاة والسلام لم يفتر على الله شيئاً، ولا نسب إليه قولاً لم يقله تعالى، ولا شرع شيئاً من دون ربه تعالى، وإنما بلّغ رسالة ربه حق البلاغ، وأتمه وأكمله، فرفع الله شأنه، وأعلى مكانه، وشرف مقامه، واتخذه خليلاً صفياً مقرباً، ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: ١ ـ ٤].

وهذه العقوبات التي لمن افترى على الله كذباً بالمرصاد هي:

١ ـ الخيبة والخسارة والفضيحة والعار، وأنه لا يفلح أبداً. هذا وقد أفلح رسول الله ﷺ أحسن الفلاح، ونجح غاية النجاح، وعلا ذكره ودينه أتم العلو وأطيبه وأبركه.

• قال الله تعالى في تهديد نبيه موسى عليه السلام في منازلته المشهورة مع السحرة: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝٦١﴾ [طه: ٦١].

• وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢١﴾ [الأنعام: ٢١].

• وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ۝٩٣﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

فأخبر تعالى في الآية الأولى بخيبة من افترى عليه الكذب، وأخبر في الثانية بأنه أشد الناس ظلماً وأنه لا يفلح وأن الخزي وعذاب الهوان ينتظره، وأن الضلال والإضلال هو نتيجة فعله، وكل هذا منتفٍ في حق رسول الله ﷺ، فقد أفلح وأنجح غاية الفلاح، وهداه الله وهدى به كل من اتبعه إلى الصراط المستقيم.

٢ ـ أن من افترى على الله كذباً فإن الله هو خصمه. ومن كان الله خصمه فهو خاصمه وقاصمه ومهلكه.

• قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾ [الأحقاف: ٨].

• وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [هود: ٣٥].

• وقال الله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٣ ـ ٤٧].

في آيات سورة الحاقة هذه أعظم البرهان. فأخبر تعالى أن هذا القرآن كلامه وتنزيله وهو رب العالمين. ولو فُرِض أن محمداً ﷺ ـ وحاشاه ـ افترى على ربه الأكاذيب وتقول على الله الأقاويل. لما أمهله الله؛ بل عاجله بالعقوبة فأخذه أخذاً شديداً باليمين وقطع نياط وعروق قلبه، وأهلكه أعظم الهلاك وما أحد من الخلق قادر على رد ذلك عنه. وهذا لم يقع؛ بل عز النبي ﷺ وساد وارتفع قدره وذكره وعلا مقامه، فدل على أنه ما صنع من ذلك شيئاً؛ بل بلغ رسالة ربه ونصح لأمته، فانتفاء النتيجة هو بالضرورة انتفاء للمقدمة، وصدق حسان رضي الله عنه إذ قال:

وشق له من اسمه ليجلَّه ... فذو العرش محمود وهذا محمدُ

وضم الإلـه اسم النبي إلى اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذنُ أشهدُ

قال أبو جعفر ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولو تقول علينا محمد بعض الأقاويل الباطلة، وتكذَّب علينا لأخذنا منه باليمين، يقول: لأخذنا منه بالقوة والقدرة، ثم لقطعنا منه نياط القلب، وإنما يعني بذلك: أنه كان يعاجله بالعقوبة ولا يؤخره بها»[١].

وقال العماد ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولو تقول علينا؛ أي: محمد ﷺ، لو كان كما يزعمون مفترياً علينا فزاد في الرسالة أو نقص منها أو قال شيئاً من عنده فنسبه إلينا وليس كذلك لعاجلناه بالعقوبة. . . . والمعنى في هذا بل هو صادق بارٌّ راشدٌ؛ لأن الله تعالى مقرر له ما يبلغه عنه ومؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات»[٢].

● **الأمر الثالث:**

إخبار الله تعالى أنه يذهب افتراء المفترين عليه. ويكشف كذبهم ويبطل باطلهم ويحق الحق بكلماته، وبما أن محمداً ﷺ هو آخر أنبيائه والقرآن الكريم هو آخر كتبه نزولاً، فهو الحق الذي أحقه الله بكلماته. وأن محمداً ﷺ بلغ هذا الكتاب العظيم كما أنزله رب العالمين.

● قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾ [الشورى: ٢٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما المتنبئون الكذابون: فلا يطيل تمكينهم؛ بل لا بد أن يهلكهم؛ لأن فسادهم عام في الدين والدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ﴾ [الشورى: ٢٤]، فأخبر أنه بتقدير الافتراء ـ لا بد أن يعاقب من افترى عليه»[٣].

● وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۙ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ

---

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٢٢٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٧٢، ٣٧٣).

(٣) مجموع الفتاوى (١٤/ ٢٦٩، ٢٧٠).

إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس: ١٥، ١٦].

• ولما حاول عدو الله الشيطان أن يلقي شيئاً من الباطل على قراءة وتلاوة النبي ﷺ في قصة الغرانيق. أبطل الله ما ألقاه الشيطان وأحكم آياته أعظم الإحكام، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج: ٥٢ ـ ٥٤].

• الأمر الرابع:

شهادة الله تعالى للقرآن بأنه كتابه المنزل من عنده وأنه حق. ودفاعه عن نبيه محمد ﷺ أنه لم يفتر على ربه تعالى كذباً قط، والملكوت الأعلى كله يشهد بذلك، وكفى بالله شهيداً.

• قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾﴾ [السجدة: ١ ـ ٣].

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن هذا القرآن الذي أنزل على محمد لا شك فيه أنه من عند الله، وليس بشعر ولا سجع كاهن، ولا هو مما تخرصه محمد ﷺ، وإنما كذَّب جل ثناؤه بذلك قول الذين قالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]، وقول الذين قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤]»[1].

• وقال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء: ١٦٦].

---

(١) تفسير الطبري (١٠/٢٢٩).

قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: شهود والله غير متهمين[١].

قال الزجاج: «الشاهد: المبين لما شهد به، فالله جل وعز يبينه ويعلم مع إبانته أنه حق»[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «قوله: لكن الله يشهد، شهادته هو بيانه وإظهار دلالته وإخباره، فالآيات البينات التي بين بها صدق الرسول تدل عليه ومنها ما ورد في القرآن، هو شهادة بالقول، وهو في نفسه آية ومعجزة تدل على الصدق كما تدل سائر الآيات، والآيات كلها شهادة من الله؛ كشهادة القول، وقد تكون أبلغ. ولهذا لما ذكر هذا في سورة هود لما تحداهم بالإتيان بالمثل فقال: ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۞ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١٣، ١٤]، فإن عجز أولئك عن المعارضة دل على عجز غيرهم بطريق الأولى، وتبين أن جميع الخلق عاجزون عن معارضته، وأنه آية تدل على الرسالة وعلى التوحيد. وكذلك قوله: ﴿لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾، بعد قوله: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، إلى قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقد ذكروا أن من الكفار من قال: لا نشهد لمحمد بالرسالة، فقال تعالى: ﴿لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٦]، وأحسن من هذا أنه لما قال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، نفى حجة الخلق على الخالق فقال: لكن حجة الله على الخلق قائمة بشهادته بالرسالة، فإنه يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه، فما للخلق على الله حجة؛ بل له الحجة البالغة وهو الذي هدى عباده بما أنزله»[٣].

• وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان: ٤ ـ ٦].

---

(١) تفسير الطبري (٤/ ٣٧٠).

(٢) معاني القرآن (٢/ ١٣٤).

(٣) تفسير سورة العلق ضمن مجموع الفتاوى (١٦/ ٤٦٥، ٤٦٦).

قال العماد ابن كثير: «يقول تعالى مخبراً عن سخافة عقول الجهلة من الكفار في قولهم عن القرآن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ﴾؛ أي: كذب، ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ يعنون النبي ﷺ، ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾؛ أي: واستعان على جمعه بقوم آخرين، فقال الله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤﴾؛ أي: فقد افتروا هم قولاً باطلاً، هم يعلمون أنه باطل، ويعرفون كذب أنفسهم فيما يزعمون، ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾ يعنون كتب الأوائل؛ أي: استنسخها؛ ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: تقرأ عليه ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾؛ أي: في أول النهار وآخره، وهذا الكلام لسخافته وكذبه وبهته منهم يعلم كل أحد بطلانه؛ فإنه قد علم بالتواتر وبالضرورة أن محمداً رسول الله ﷺ لم يكن يعاني شيئاً من الكتابة، لا في أول عمره ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحواً من أربعين سنة، وهم يعرفون مدخله ومخرجه، وصدقه ونزاهته وبره وأمانته، وبعده عن الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة، حتى إنهم كانوا يسمونه في صغره وإلى أن بُعِثَ: الأمين، لما يعلمون من صدقه وبره، فلما أكرمه الله بما أكرمه به، نصبوا له العداوة ورموه بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها، وحاروا فيما يقذفونه به، فتارة من إفكهم يقولون: ساحر، وتارة يقولون: مجنون، وتارة يقولون: كذاب، وقال الله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٤٨﴾ [الإسراء: ٤٨]، وقال تعالى في جواب ما عاندوا ها هنا وافتروا: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين إخباراً حقاً صدقاً مطابقاً للواقع في الخارج ماضياً ومستقبلاً ﴿أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾؛ أي: الله الذي يعلم غيب السماوات والأرض ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر»[1].

• **الأمر الخامس:**

إن القرآن نزل بعلم الله الرحمٰن، لا بعلم أحد من الخلق، وكفى بالله عليماً حكيماً، وهذا من أعظم الدلالات وأوضح البينات على أن القرآن حق من عند الله تعالى وما فيه هو علم الله تعالى، خبره وحكمه.

• قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝١٦٦﴾ [النساء: ١٦٦].

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/٥٧٧، ٥٧٨).

• وقال تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود: ١٤].

والباء في قوله في آية النساء (بعلمه)، وفي آية هود (بعلم الله) لها وجهان من التفسير:

• **الوجه الأول:**

أن الباء هي باء المصاحبة؛ أي: أن الله أنزل القرآن العظيم متضمناً لعلمه العظيم مستصحباً له، ولذلك كان القرآن كله من علم الله تعالى فلا يمكن إذن أن يفترى من دونه، ولا يستطيع أحد كائناً ما كان أن يأتي بمثله ولا قريباً منه.

عن عطاء بن السائب قال: أقرأني أبو عبد الرحمٰن السلمي القرآن، وكان إذا أقرأنا قال: أخذت علم الله فليس أحد اليوم أفضل منك إلا بعلم ثم قرأ ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾[1].

وهذا القول هو المأثور عن السلف الصالح، وهو اختيار أكثر العلماء والمفسرين، فما في القرآن من خبر هو خبر بعلم الله تعالى، وما فيه من حكم وشرع هو حكم الله وشرعه؛ لأنه بعلمه ومن علمه وحكمته.

وهذا قول الزجاج: «أي: أنزل القرآن فيه علمه»[2].

وهو اختيار شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، فإنه قال: «وذلك أن ما جاء به الرسول ﷺ هو من علم الله، فما أخبر به عن الله فالله أخبر به، وهو سبحانه يخبر بعلمه ويمتنع أن يخبر بنقيض علمه وما أمر به فهو من حكم الله، والله عليم حكيم».

ثم ذكر الآيتين السابقتين ثم قال: «وقوله: أنزله بعلمه، قال الزجاج: أنزله وفيه علمه. وقال أبو سليمان الدمشقي: أنزله من علمه، وهذا المعنى مأثور عن السلف. . . .»، ثم ذكر أثر أبي عبد الرحمٰن السلمي السابق ذكره، ثم قال ابن تيمية: «قلت: الباء قد تكون للمصاحبة، كما تقول: جاء بأسياده وأولاده. فقد أنزله متضمناً لعلمه، مستصحباً لعلمه، فما فيه من الخبر هو خبر بعلم الله، وما فيه من الأمر فهو أمر بعلم الله، بخلاف الكلام المنزل من عند غير الله؛ فإن

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (٤/١١٢١).

(٢) معاني القرآن وإعرابه (٢/ ١٣٤).

ذلك قد يكون كذباً وظلماً كقرآن مسيلمة، وقد يكون صدقاً لكن إنما فيه علم المخلوق الذي قاله فقط. . . وأما القرآن فهو متضمن لعلم الله ابتداء، فإنما أنزله بعلمه لا بعلم غيره، ولا هو كلام بلا علم، وإذا كان قد أنزله بعلمه فهو يقتضي أنه حق من الله، ويقتضي أن الرسول رسول من الله الذي بيّن فيه علمه»[1].

• **والوجه الثاني من التفسير:**

أن الباء هي باء السبب؛ فإنه تعالى لما قدم شهادته الجليلة المهيبة للقرآن بأنه منزل من عنده، جعل سبب هذه الشهادة أن هذا القرآن أُنزل بعلم الله، والله أعلم بما أنزل، فهو يشهد بعلمه على كلامه، وهو أعلم بصدق رسوله الذي أنزل عليه وأنه أهل للرسالة.

وهذا القول هو اختيار ابن جرير الطبري؛ بل إنه لم يذكر غيره. فقال: «أنزل ذلك إليك بعلم منه بأنك خيرته من خلقه، وصفيه من عباده، ويشهد لك بذلك ملائكته، فلا يحزنك تكذيب من كذبك، وخلاف من خالفك»[2].

وذكر نحو هذا في آية هود.

وهذا المعنى الذي اختاره ابن جرير هو المعنى المراد في آية سورة النحل وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [النحل: ١٠١].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكماً آخر والله أعلم بما ينزل. يقول: والله أعلم بالذي هو أصلح لخلقه فيما يبدل ويغير من أحكامه»[3].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد قيل: أنزله وهو عالم به وبك، قال ابن جرير الطبري في آية النساء أنزله إليك بعلم منه أنك خيرته من خلقه. وذكر الزجاج في آية هود قولين: أحدهما: أنزله وهو عالم بإنزاله، وعالم أنه حق من عنده، والثاني: أنه أنزله بما أخبر فيه من الغيوب، ودل على ما سيكون وما سلف.

---

(١) تفسير سورة العلق ضمن مجموع الفتاوى (١٦/ ٤٦٤، ٤٦٥).

(٢) تفسير الطبري (٤/ ٣٧٠).

(٣) تفسير الطبري (٧/ ٦٤٦).

قلت[١]: هذا الوجه هو الذي تقدم.

وأما الأول: فهو من جنس قول ابن جرير؛ فإنه عالم به وبمن أُنزل إليه وعالمٌ بأنه حق، وأن الذي أُنزل عليه أهل لما اصطفاه الله له، ويكون هذا كقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الدخان: ٣٢]، وهذا الوجه يدخل في معنى الأول؛ فإنه إذا نزل الكلام بعلم الرب تضمن أن كل ما فيه فهو من علمه، وفيه الإخبار بحاله وحال الرسول.

وهذا الوجه هو الصواب، وعليه الأكثرون. ومنهم من لم يذكر غيره، والأول وإن كان صحيحاً فهو جزء من هذا الوجه»[٢].

● **الأمر السادس:**

تحدى الله تعالى الخلقَ جميعاً أن يأتوا بمثل كتابه وكلامه؛ فلو فُرض أن القرآن من نظم محمد وكلامه وافترائه كما يقوله المكذبون؛ فإن محمداً من جنسكم فيصير القرآنُ وما فيه من علوم مقدوراً للبشر أن يأتوا بمثله. فليأتوا بمثله إذاً أو بشيء من مثله، وليجتمعوا على ذلك، فلما عجزوا مع شدة حرصهم ورغبتهم في إبطال أعظم دلالات نبوة محمد ﷺ، وأقروا بالعجز ظهر حقيقة هذا التحدي وهيبته وثبت يقيناً أن القرآن حقاً من عند الله، فهو كلامه الجليل، وما فيه من علمه العظيم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والقرآن ـ نفسه ـ فيه تحدي الأمم بالمعارضة، والتحدي هو أن يحدوهم؛ أي: يدعوهم فيبعثهم إلى أن يعارضوه»[٣].

وآيات التحدي متعددة في القرآن، معلنة بأشد الوضوح في القرآن المكي والمدني.

● قال الله تعالى في الطور: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فها هنا قال: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟

---

(١) القائل شيخ الإسلام ابن تيمية.

(٢) تفسير سورة العلق ضمن الفتاوى (١٦/ ٤٦٧، ٤٦٨).

(٣) الجواب الصحيح (٥/ ٤٢٢).

صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ في أنه تَقَوَّله؛ فإنه إذا كان محمد قادراً على أن يتقوّله، كما يقدر الإنسان على أن يتكلم بما يتكلم به، من نظم ونثر، كان هذا ممكناً للناس، الذين هم من جنسه فأمكن الناس أن يأتوا بمثله»[1].

• وتحداهم بأن يأتوا بعشر سور من مثل القرآن، فقال تعالى في هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود: ١٣].

• ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله فقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس: ٣٨].

وأعلن أنهم عاجزون عن ذلك وهذا أبلغ ما يكون في التحدي أن يتحداهم أن يأتوا بشيء مثل القرآن ثم أعلن أنهم لا يفعلون ولا يمكن أن يفعلوا مهما اجتمعوا ومهما فعلوا، فقال تعالى في الإسراء: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

وهذا التحدي كان في القرآن المكي؛ فإن هذه السور: الطور وهود ويونس مكية، وأعاد التحدي وبقوة ووضوح بعد الهجرة في القرآن المدني.

فقال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولن لنفي المستقبل، فثبت الخبر أنهم فيما يستقبل من الزمان، لا يأتون بسورة من مثله، كما أخبر قبل ذلك، وأمره أن يقول في (سبحان) وهي سورة مكية، افتتحها بذكر الإسراء: وهو كان بمكة... ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨]، فعم بالخبر جميع الخلق معجزاً لهم، قاطعاً بأنهم إذا اجتمعوا كلهم، لا يأتون بمثل هذا القرآن، ولو تظاهروا وتعاونوا على ذلك، وهذا التحدي والدعاء، هو لجميع الخلق، وهذا قد سمعه كل من سمع القرآن، وعرفه الخاص والعام، وعُلم مع ذلك أنهم لم يعارضوه، ولا أتوا

(١) المصدر السابق (٥/ ٤٢٣).

بسورة مثله، ومن حين بعث وإلى اليوم، والأمر على ذلك مع ما عُلم من أن الخلق كلهم كانوا كفاراً قبل أن يبعث، ولما بُعث إنما تبعه قليل وكان الكفار من أحرص الناس على إبطال قوله مجتهدين بكل طريق ممكن. . . . فإذا كان قد تحداهم بالمعارضة، مرة بعد مرة، فمعلوم أنهم لو كانوا قادرين عليها لفعلوها؛ فإنه مع وجود هذا الداعي التام المؤكد ـ إذا كانت القدرة حاصلة، وجب وجود المقدور، ثم هكذا القول في سائر أهل الأرض. فهذا القدر يوجب علماً بيناً لكل أحد بعجز جميع أهل الأرض عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن بحيلة وبغير حيلة»(١).

ثالثاً:

القرآن العظيم هو من أعظم وأجل نعم الله رب العالمين على العالمين أجمعين لو كانوا يعقلون. ولذلك نوّه الله تعالى به وامتن به. وأخبر أنه الكمال والتمام، والنعمة، والرضا والغاية.

قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٣].

أخرج البخاري في «الصحيح»: عن طارق بن شهاب، عن عمر بن الخطاب، أن رجلاً من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرؤونها، لو علينا معشر اليهود نزلت، لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: أي آية؟ قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٣] قال عمر: «قد عرفنا ذلك اليوم، والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ، وهو قائم بعرفة يوم جمعة»(٢).

في هذا الحديث الشريف فوائد نفيسة:

١ ـ يظهر من قول اليهودي: «آية تقرؤونها اتهام من هذا اليهودي للمسلمين بأنهم لا يُقَدِّرون ما نزل عليهم ولا يفهمون عمقه وشرفه، وكأن فيه اتهاماً مبَطَّناً بأنهم غير جديرين بأن ينزل عليهم هذا الكتاب المتضمن مثل هذه المنَّة العظيمة.

---

(١) الجواب الصحيح (٥/٤٢٦، ٤٢٧) باختصار.

(٢) صحيح البخاري حديث رقم (٤٦٠٦).

٢ ـ وفيه تزكية من اليهودي لقومه، وكأنهم العارفون بعظمة معاني الكتاب المنزل، وكأنهم أجدر بمثل هذه الآية من المسلمين، وهم الذين قابلوا نعم الله جميعاً بالنكران والتحريف والكفران.

٣ ـ في جواب عمر ﷺ تحقيق مقاصد جليلة:

أ ـ فيه رد لاتهام اليهودي ـ المبطن ـ بأننا والحمد لله أعلم بمواقع كتابنا ومنازله بدقة كبيرة.

ب ـ فيه غيظ من كفر بهذا الكتاب العظيم المنزل، وهذا النبي الكريم الخاتم ﷺ، وذلك بإخبارهم بأن الله تعالى جمع للمؤمنين بهذا الكتاب المنزل وهذا النبي الخاتم ﷺ بين الشرف والفضل من أطرافه ومجامعه.

- فمُنْزِلُ هذه الآية المتكلم بها: هو الله تعالى، وهو أعظم وأكبر وأجل من كل شيء.
- والنازل بها هو روح القدس أمين الوحي، جليل الملائكة وكبيرهم جبريل عليه السلام.
- والمنزل عليه: هو النبي الأمي الخاتم الذي يؤمن بالله وكلماته.
- في أعظم موقف وهو الموقف بعرفة.
- في أشرف يوم: يوم عرفة الذي وافق يوم جمعة.

جـ ـ في الحديث إشعار بأن اتخاذ الأعياد جزء من التشريع الديني المنزل، فالمؤمنون فيه متبعون لأمر الله، فلما أتم الله على رسوله والمؤمنين النعمة وأكمل لهم الدين، ورضي لهم الإسلام ديناً. كان اليوم الذي يلي يوم عرفة هو يوم العيد الأعظم والحج الأكبر.

وهذا فارق كبير جليل بين هذه الأمة المسلمة المتبعة لهذا النبي الخاتم ﷺ، وبين اليهود وغيرهم من أهل الديانات، الذين يضعون ويصنعون أعيادهم ومواسمهم حسب أهوائهم، ورغبات أحبارهم، وتقديرات رهبانهم، وحياة زعمائهم، فرق كبير بين أمة مؤمنة متبعة لشرع نبيها في كل عظيم وصغير، وجليل ويسير، وبين أمة متلاعبة عابثة مبتدعة تصوغ لها أحبارها ورهبانها دينهم على ما يشتهون ويريدون.

وهذا هو مضمون هذه الآية الكريمة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، فليس بعد

الكمال شيء يُطلب، ويُبحث عنه ويُرغب، إلا من قبل الكافرين بالنعمة المستبدلين الذي هو أدنى بالذي هو خير مما فيه شبه باليهود، وكل عابث أثيم من مرضى القلوب الذين يريدون أن يتخذوا كتاب الله وراءهم ظهرياً، ويحدثون في شرع الله ودينه ما لم ينزل الله به سلطاناً وما ليس لهم به علم.

فكل صاحب بدعة محدثة، وكل من يزعم أن أحكام الشريعة الإسلامية غير مناسبة لمستوى ومتطلبات العصر ففيه شبه باليهود الذين يحرفون الكلم من بعد مواضعه، ويُبَدِّلون ظلماً قولاً غير الذي قيل لهم.

ويجب أن لا يصرفنا فعلهم عن اعتقاد الكمال والتمام لشرع الله المنزل، وأن لا يكدر علينا فعلهم فرحنا بتمام نعمة الله علينا.

ومن تعقيبات القرآن الجليلة: توجيه المؤمنين في خضم معركتهم مع الرافضين لشرع الله المنزل، الكارهين له، المجادلين فيه، من أهل الكفر والفسوق والنفاق ـ أن لا يزلزلهم ذلك، ولا يؤثر فيهم شكاً في أمر الله، ولا يزعزع تسليمهم لحكم الله؛ لأن ذلك هو بحق مقتضى لا إلـٰه إلا الله.

قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود: ١٣، ١٤].

• تأمل قوله تعالى: (لكم) فإنه على أحد تفاسير السلف: محمد ﷺ وأصحابه وأتباعه. وهو تفسير دقيق موفق.

ففيه دليل على استمرار الافتراء، واستمرار الزعم الكاذب بأن القرآن مفترى، واستمرار التحدي بأن يأتوا بعشر سور مثله أو حتى بسورة من مثله.

ثم ذكر هنا ثلاث نتائج وتعقيبات عظيمة:

١ ـ ذكر أولاً أن أعداء القرآن والكافرين به الزاعمين أنه مفترى عاجزون أن يأتوا بمثله بسبب أنه إنما أنزل بعلم الله، كما مر تحريره.

٢ ـ ونبهنا ثانياً نحن المؤمنين قبل الكافرين أنه لا إلـٰه إلا الله. وأن سبب المعركة مع أعداء الله وأعداء رسوله وكتابه هو رفضهم لهذه المسلّمة الجليلة كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات: ٣٥]، ولما كان القرآن العظيم كله دعوة إلى لا إلـٰه إلا الله

عبادة وتشريعاً، جادلوا فيه، وزعموا أنه مفترى، فتحداهم أن يأتوا بمثله إن كانوا صادقين، فلما كذبوا وظهر عجزهم بان أنهم كافرون رادون لهذه المسلمة الجليلة لا إلـه إلا الله.

٣ ـ ثم خاطبنا ثالثاً داعياً ومحذراً بأن نسلم له ونبقى مسلمين له، لا يشككنا في إسلامنا ولا في لا إلـه إلا الله أعداء الله من الكفار والمشركين والمنافقين. فقال لنا تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

قال الإمام مجاهد رحمه الله: عنى بهذا القول أصحاب محمد ﷺ[1].

فحذر الله تعالى النبي الكريم وأتباعه من بعده تحذيراً متواصلاً من أن يستجيبوا لضغط الكفار والمنافقين المجادلين في أحكام وحقائق القرآن العظيم، فيذهب أولئك المؤمنون تفادياً لهذا الضغط أو تخفيفاً منه فيحرفوا معاني كتاب الله، ويخرجوها عن مواقعها ويصرفوا وضوحها وصراحتها، والتي تصب في النهاية في زعزعة هذه المسلمة الجليلة «لا إلـه إلا الله» عبادة وتألهاً «لا إلـه إلا الله» تشريعاً وحكماً وخضوعاً.

وقد تعرض النبي الكريم ﷺ نفسه لضغط من الكفار هائل ليحرف الكلم عن مواضعه، فيكتم شيئاً أو يحرف شيئاً مما أوحاه الله إليه تفادياً لضغطهم واستجابة لإغرائهم ـ وحاشاه ﷺ، فحذره ربه أعظم التحذير ونبهه أشد التنبيه، فقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ٧٣ ـ ٧٥].

ومعلوم أن قوله: ﴿لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾؛ أي: تفتري على الله غير هذا القرآن، والمعنى تفتري على الله أحكاماً وتشريعاً غير ما أنزل الله في القرآن لثبوت عجز البشر جميعاً بمن فيهم رسول الله ﷺ أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فصار المعنى تفتري على الله أحكاماً وشرعاً غير ما حكمه وشرعه في كتابه مما لم يعجب الكفار وأعداء الله ولم يرق لهم.

قال الإمام الطبري رحمه الله: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ١٢).

تعالى أخبر عن نبيه ﷺ أن المشركين كادوا أن يفتنوه عما أوحاه الله إليه ليعمل بغيره، وذلك هو الافتراء على الله»(١).

وبهذا يظهر بجلاء أن دعوات المرسلين هي جهاد باللسان والبيان والسيف والسنان لتحرير البشر المنهكين المستعبدين من الطواغيت والشياطين، والذين استخفوهم واستعبدوهم لأنفسهم وأحكامهم وشهواتهم.

- أدرك فرعون وهامان وجنودهما أن دعوة نبي الله موسى عليه السلام هي دعوة حقيقية لتحرير البشر الذين يستعبدهم فرعون لنفسه؛ البشر الذين لم يخلقهم، ولم يرزقهم، ولا يملك لهم شيئاً لكنه استخفهم وسخرهم لنفسه، وجعل من نفسه رباً أعلى وإلهاً يُرجى.

- قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٢﴾ [الشعراء: ٢٢]، قال مجاهد: «قهرتهم واستعملتهم».

وقال ابن جريج: «قهرت واستعملت وغلبت بني إسرائيل».

وقال قتادة: «أتمنّ علي أن اتخذت بني إسرائيل عبيداً؟!»(٢).

- ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾ [القصص: ٤].

- ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص: ٥، ٦].

- ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝٥٤﴾ [الزخرف: ٥٤].

ولذلك فإن أسرع الناس استجابة للأنبياء هم الفقراء المسحوقون، والبسطاء المنهكون، الذين استذلهم الطواغيت والإقطاعيون، وبارونات الربا، فهتكوا حريتهم واستعبدوهم سخرة لأنفسهم.

- ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ۝١١١ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١١٢ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ۝١١٣﴾ [الشعراء: ١١١ ـ ١١٣].

---

(١) تفسير الطبري (٨/١١٩).

(٢) تفسير الطبري (٩/٤٣٨، ٤٣٩).

- ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].
- في سؤالات هرقل عظيم الروم لأبي سفيان عن النبي ﷺ. قال هرقل لأبي سفيان: أفقراء الناس يتبعونه أم أغنياؤهم؟ قال أبو سفيان: بل فقراؤهم، قال هرقل: كذلك أتباع الأنبياء»[1].
- لأن هؤلاء الفقراء والضعفاء والبسطاء وجدوا في دعوات ورسالات المرسلين، تحريرهم من استعباد الكبراء بغير حق، وظلمهم، والبغي عليهم؛ لأن هؤلاء الفقراء والضعفاء والبسطاء وجدوا في رسالات الرسل الكرام تحرير عقولهم وقلوبهم من الأوهام والأساطير والأكاذيب التي يمليها عليهم قهراً الكبراء.

إنه باختصار الإعلان الوحيد لتحرير الإنسان، ليكون عبداً لربه وخالقه وحده لا شريك له.

رابعاً:

وفي ضمن هذا التقرير الشرعي العظيم للحرية الحقيقية التي لا تكون إلا في تمام الرضا بالعبودية لله تعالى الواحد الأحد، الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، تتم الاستجابة لشريعة الله تعالى المنزلة. التي هي المنهج الوحيد الذي يحافظ على جواهر الحياة الإنسانية الكريمة، من الضياع والفساد والعبثية: وهي الدين والنفس والعرض والمال والعقل.

هذه الجواهر التي أهدرتها وابتزتها جميع القوانين والتشريعات الأرضية الوضعية، وباسم الحرية.

شريعة الله المنزلة جاءت ونزلت ليكون الدين كله لله رب العالمين، لا شريك له. فالشرك ممنوع ومحارب بكل أشكاله وصوره؛ لأنه بالتوحيد لله والعبودية له وحده لا شريك له تتم حرية الإنسان على أكمل وجه كما مر تقريره في الفصل الأول.

---

(١) صحيح البخاري رقم (٧).

إنه تزاوج عظيم واضح بين نوعي التوحيد اللذين تدعو لهما شريعة رب العالمين.

توحيد الله تعالى بالعبودية له وحده لا شريك له.

وتوحيده تعالى في التشريع والحكم.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٤].

يقول الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله: «قل يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام، الذين يسألونك أن تتبع أهواءهم على الباطل من عبادة الآلهة والأوثان: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾: أي: ذبيحتي، و﴿وَمَحْيَايَ﴾: أي: حياتي، و﴿وَمَمَاتِي﴾ أي: وفاتي، ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أن ذلك كله له خالصاً دون ما أشركتم به، أيها المشركون من الأوثان، لا شريك له في شيء من ذلك من خلقه، ولا لشيء منهم فيه نصيب؛ لأنه لا ينبغي أن يكون ذلك إلّا له خالصاً، وبذلك أمرني ربي وأنا أول من أقر وأذعن وخضع من هذه الأمة لربه تعالى»[1].

وقال أيضاً: «قل يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان، الداعين إلى عبادة الأصنام، واتباع خطوات الشيطان: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾؛ أي: أسوى الله أطلب سيداً يسودني؟ ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وهو سيد كل شيء دونه ومدبره ومصلحه»[2].

وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦].

---

(١) تفسير الطبري (٥/ ٤٢٠).

(٢) المصدر السابق (٥/ ٤٢١).

وفي القراءة الأخرى: (ولا تُشرِك في حكمه أحداً).

كما أنه تزاوج واضح أيضاً في ضدهما، فحيثما انحرف البشر إلى الإشراك بالله واتخذوا لهم آلهة دون الله يريدون، نشأ فيهم من يضع لهم الشرائع والقوانين التي تكرس هذا الشرك والضلال وتحفظه؛ بل تزيده وتؤكده.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فإن الله تعالى عاب على المشركين شيئين:

أحدهما: أنهم أشركوا به ما لم ينزل به سلطاناً.

والثاني: تحريمهم ما لم يحرمه الله.

وبين النبي ﷺ ذلك فيما رواه مسلم عن عياض بن حمار رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**قال الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً**»[1].

وقال سبحانه: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فجمعوا بين الشرك والتحريم... وأصل الضلال في أهل الأرض إنما نشأ من هذين:

- إما اتخاذ دين لم يشرعه الله.
- أو تحريم ما لم يحرمه الله»[2].

وقال أيضاً: «فتشبَّه عمرو بن لحي الخزاعي بمن رآه في الشام، واستحسن بعقله ما كانوا عليه، رأى أن في تحريم ما حرمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، تعظيماً لله ديناً، فكان ما فعله أصل الشرك في العرب... وأصل تحريم الحلال، وإنما فعله متشبهاً فيه بغيره من أهل الأرض، فلم يزل الأمر يتزايد ويتفاقم حتى غلب على أفضل الأرض الشرك بالله عز وجل وتغيير دينه إلى أن بعث الله رسوله ﷺ فأحيا ملة إبراهيم عليه السلام، وأقام التوحيد وحلل ما كانوا يحرمونه»[3].

واعتبر ذلك بأحوال العالم في الجاهليات القديمة قبل الإسلام، وكذلك في

---

(١) الحديث رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٨٥، ٨٦) باختصار.

(٣) المصدر السابق (١/ ٣٥١) باختصار.

الجاهليات الحديثة الرافضة لشريعة الله المحاربة لها. تجد ذلك ظاهراً واضحاً.

● لقد كان العالم، كل العالم قبل مبعث خاتم الأنبياء محمد ﷺ في أمس الحاجة إلى رسالة جديدة، واضحة، دقيقة، شاملة، عالمية، يخرج الله بها الناس من ظلمات الجهل والخرافة والظلم، إلى نور الحق والعلم والعدل.

كما قال تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢﴾ [إبراهيم: ١، ٢].

عاش العالم أسوأ أحواله، وأكثرها جهلاً وظلماً وخبثاً في فترة من الرسل، وانقطاع من السبل.

فأظلم العالم، وأحلك ظلامه، مما جعل الخلق في أشد التشوف والتشوق إلى تنفس الصباح، وإشراقة الشمس التي ستبدد هذا الظلام.

وحتى يعلم الجميع مقدار الخير، والرشد، والنور، والعدل، الذي أحدثته الرسالة المحمدية في العالم يجب أن نتعرف على أحوال هذا العالم قبل أن يطرقه أعظم حدث في تاريخ البشرية قاطبة.

أ ـ حالة العرب:

كان العرب يعيشون أسوأ الأوضاع، وأشدها شراً وجهلاً وظلماً:

ـ من جهة المعتقد الديني كانت الخرافة هي المسيطرة على عقولهم وتصوراتهم، يعبدون أصناماً، ويعظمون أوثاناً، يصنعونها بأيديهم ثم يعبدونها. ونظرة في كتاب «الأصنام» للمؤرخ ـ هشام بن السائب الكلبي ـ تكفي لمعرفة مدى الصنمية والوثنية في حياة هؤلاء العرب[١].

في صحيح البخاري عن أبي رجاء العطاردي قال: «كنا معشر العرب نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجراً هو أخير منه ألقيناه وعبدنا الآخر، وكنا إذا نزلنا وادياً أخذنا أربعة أحجار فنظرنا أمثلها فعبدناه وجعلنا الثلاثة الأخرى أثافي للقدر، فإذا لم نجد حجراً جعلنا كومة تراب وأتينا بالشاة فحلبناه عليه حتى يستجمع ثم طفنا به»[٢].

---

(١) انظر: كتاب: الأصنام، لهشام بن السائب الكلبي، تحقيق: الأستاذ أحمد زكي.

(٢) صحيح البخاري رقم (٤٣٧٦).

وعن ابن عباس ﵄ قال: «إذا سرّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠]»[١].

والمقصود الآيات من سورة الأنعام من آية [١٣٥ ـ ١٤٠] فهي كلها في بيان أحوال العرب قبل الإسلام من الجهل والضلال والخرافة والقسوة والتشريعات الضالة وقتل الأولاد ووأد البنات ونحو ذلك من جهالاتهم وضلالاتهم.

وعن ابن عمر ﵄ قال: بينما عمر جالس إذ مر به رجل جميل[٢]، فقال عمر: لقد أخطأ ظني أو إن هذا على دينه في الجاهلية أو لقد كان كاهنهم، عليَّ بالرجل، فدُعي له فقال له ذلك، فقال: ما رأيت كاليوم استقبل به رجل مسلم، قال عمر: فإني عزمت عليك إلا ما أخبرتني، قال: كنت كاهنهم. قال: فما أعجب ما جاءتك به جنِّيتك؟ قال: بينما أنا يوماً في السوق، جاءتني أعرف فيها الفزع، فقالت: ألم تر إلى الجن وإبلاسها، ويأسها من بعد إنكاسها، ولحوقها بالقلاص وأحلاسها[٣]، قال عمر: صدقت. بينما أنا عند آلهتهم إذ جاء رجل بعجل فذبحه فصرخ به صارخ لم أسمع صارخاً أشد صوتاً منه يقول: يا جليح أمر نجيح رجل فصيح يقول: لا إلـٰه إلا أنت. فوثب القوم، وقلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا، ثم نادى: يا جليح أمر نجيح رجل فصيح يقول: لا إلـٰه إلا أنت، فقمت. فما نشبنا أن قيل: هذا نبي[٤].

قال المؤرخ الاجتماعي صاعد بن محمد الأندلسي: «وجميع عبدة الأوثان من العرب، إنما كانت عبادتهم لها ضرباً من التدين بدين الصابئة في تعظيم الكواكب والأصنام الممثلة في الهياكل، . . . وكان جمهورهم ينكر البعث والنشور، ولا يصدق بالمعاد ولا يقول بالجزاء، وكان فيهم من يقر بالمعاد،

---

(١) صحيح البخاري رقم (٣٥٢٤)، وبوب عليه البخاري، باب جهل العرب وقصة زمزم.
(٢) هو: سواد بن قارب السدوسي. انظر: فتح الباري (١٥/ ٢٢).
(٣) زاد في رواية البراء عند البيهقي:

تهوي إلى مكة تبغي الهدى ... ما مؤمنوها مثل أرجاسها
فاسْمُ إلى الصفوة من هاشم ... واسْمُ بعينك إلى رأسها

(٤) صحيح البخاري (٣٨٦٦).

ويعتقد أن من نُحرت ناقته على قبره حُشر راكباً، ومن لم يفعل ذلك حُشر ماشياً، وفي ذلك يقول جريبة بن الأشيم الفقعسي يوصي ابنه:

يا سعد إما أهلكنّ فإنني أوصيك أن أخا الوصاة الأقرب
لا تتركن أباك يعثر راجلاً في الحشر يصرع لليدين وينكب
واحمل أباك على بعير صالح وثق الخطيئة أن ذلك أصوب

فهذه كانت ديانات العرب»[1].

كان النظام الطبقي هو السائد فيهم، قيمة الإنسان بحب قوة ومكانة قبيلته، وكانوا يقيمون الحروب الطاحنة لأتفه الأسباب، وكان الظلم والاستبداد هو خلقهم وديدنهم.

شعارهم: إنما العاجز من لا يستبد.

قال زهير: ومن لا يظلم الناس يظلم.

ينطبق عليهم قول القائل:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعله لا يظلم

حياتهم الحروب والقتل والزنا والخمر، والظلم والبغي وقتل الأبناء ووأد البنات.

قال طرفة:

فَلَوْلا ثَلاثٌ هُنَّ من عِيشَةِ الفَتى وَجَدِّكَ لم أحْفِلْ متى قامَ عُوَّدي
فَمِنْهُنَّ سَبقي العاذلاتِ بشَرْبَةٍ كُمَيتٍ متى ما تُعْلَ بالماءِ تُزْبِدِ
وَتقصِيرُ يوم الدَّجن والدجنُ مُعْجِبٌ بِبَهكَنَةٍ تَحْتَ الخباء المُعَمَّدِ[2]

أما المرأة فهي من جملة المتاع عندهم، تورث إذا مات زوجها كما تورث الدواب والبهائم، وكانوا يستقذرون المرأة ويحتقرونها، وقد سجل القرآن عليهم ذلك في قصة الموؤودة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

---

(١) كتاب: طبقات الأمم (١١٧، ١١٨).

(٢) انظر: الأبيات من معلقة طرفة في جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد القرمشي (١/٤٣٩).

وقال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأنعام: ١٣٩].

ومن جملة أحكامهم القاسية الجاهلية فيما يتعلق بالمرأة أنها تحبس إذا مات زوجها سنة كاملة في شر مكان وأخبثه ولا تمس ماء، فإذا انقضى العام تمسحت بطائر أو حمار أو كلب تفتض به وتعطى بعرة ترمي بها وتخرج.

في صحيح البخاري عن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها قالت: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن ابنتي توفي زوجها وقد اشتكت عينها أفنكحلها؟ قال: «لا»، مرتين أو ثلاثاً كل ذلك يقول: لا. ثم قال رسول الله ﷺ: **«إنما هي أربعة أشهر وعشراً، وقد كانت إحداكن في الجاهلية ترمي بالبعرة على رأس الحول»**.

قال حميد: فقلت لزينب: وما ترمي بالبعرة على رأس الحول؟

فقالت زينب: كانت المرأة إذا توفي زوجها دخلت حفشاً ولبست شرّ ثيابها، ولم تمس طيباً حتى تمر عليها سنة، ثم تؤتى بدابة حمار أو شاةٍ أو طائر فتفتض به، فقلما تفتض بشيء إلا مات، ثم تخرج فتعطى بعرة فترمي بها، ثم تراجع بعد ما شاءت من طيب أو غيره.

سئل مالك رحمه الله: ما تفتض به؟ قال: تمسح به جلدها[1].

قال ابن قتيبة: «سألت بعض الحجازيين عن الافتضاض؟ فذكروا أن المعتدة كانت لا تمس ماءً ولا تقلم ظفراً، ولا تزيل شعراً، ثم تخرج بعد الحول بأقبح منظر ثم تفتض؛ أي: تكسر ما هي فيه من العدة بطائر تمسح به قبلها، وتنبذه فلا يكاد يعيش ما تفتض به»[2].

وكانت الفوضى الجنسية عامة مطبقة فيهم، وهي نتيجة طبيعية للجاهلية المغرقة التي كانوا عليها[3].

تصور أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها هذه الحال فتقول: «كان النكاح في الجاهلية على أربعة أنحاء: منها نكاح الناس اليوم: يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو

(١) انظر: كتاب: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، لأبي الحسن الندوي (٦١ ـ ٧١).
(٢) صحيح البخاري (٥٣٣٦، ٥٣٣٧).
(٣) نقله في الفتح (٢٠/١٧٥).

ابنته، فيصدقها ثم ينكحها، ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً، حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع. ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة، كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت، ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع، حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل، ونكاح رابع: يجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة، لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها، ودعوا لهم القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاط به، ودعي ابنه، لا يمتنع من ذلك، «فلما بعث محمد ﷺ بالحق، هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم»[1].

ب ـ حال أهل الكتاب اليهود والنصارى:

كان المفترض في أهل الكتاب أن يكونوا أصلح من غيرهم؛ بل كان الواجب أن يكونوا مصلحين لغيرهم. ولكن أهل الكتاب غيروا وبدلوا وضلوا ضلالاً بعيداً، حرفوا الكتب المنزلة إليهم، وقتلوا الأنبياء والرسل، وأحلوا ما حرم الله، وحرموا ما أحل الله، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله.

فسدت الكنيسة فساداً عظيماً، وطغت طغياناً كبيراً.

وإن أوثق مصدر سجل على أهل الكتاب انحرافهم وضلالهم وبغيهم وفسادهم هو القرآن الكريم الذي هو عهد الله الأخير للبشرية.

قال الله تعالى عن حال أهل الكتاب واستحكام الظلمة فيهم: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا

(١) صحيح البخاري (٥١٢٧).

حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٢ ـ ١٦].

هذا النص الكريم الموثق في تضييعهم ما عُهد إليهم من الكتاب المنزل إليهم، أما بقية أحوالهم من الفساد والإثم والعدوان، فقال تعالى عن ذلك: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المائدة: ٥٩ ـ ٦٣].

وفي «الأسفار»: «هذا الشعب يكرمني بشفتيه، وأما قلبه فبعيد عني، إنهم بالباطل يعبدونني، فليس ما يُعلِّمون من المذاهب سوى أحكام بشرية»[١].

والنبوة أصبحت عندهم غباءً وجنوناً: «ليعلم إسرائيل أن النبي غبي ورجل الروح مجنون»[٢].

(١) سفر أشعيا (٣٩/١٣).
(٢) سفر هوشع (٩/٧).

«وكان في الغد أن اعترى شاول الروح الشرير من لدن الله فأخذ يتنبأ في داخل بيته»(١).

ثم ذكر الله تعالى استحكام ذلك الفساد فيهم:

فقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [المائدة: ٧٠، ٧١].

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [النساء: ١٥٥ ـ ١٦١].

ثم نتج عن ذلك كله لعن الله تعالى لهم وغضبه عليهم والحكم عليهم بالذلة والمسكنة، فكانوا بحق غير جديرين بأن تكون فيهم كلمة الله وعهده وميثاقه، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة: ٧٧ ـ ٨١].

---

(١) سفر صموئيل الأول (٨/ ١٠).

أما فسادهم الاقتصادي والسياسي فسجله القرآن أيضاً، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾ [التوبة: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المائدة: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المائدة: ٦٢، ٦٣].

وقال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة: ٦٤].

يقول جوزيف لوكلير: «ما أكثر ما تمت الإحالة إلى نصوص الكتاب المقدس واستقاء الشواهد والنماذج منها إثباتاً لحق الأمير في التدخل في المجال الروحي وتبريراً للضغوط والتدابير الصارمة بحق الهراطقة»[1].

ويقول: «إن يهوه ملك إسرائيل الحقيقي، فيما السلطة المنظورة هي بيد الملك البشري أو الشخصية البشرية الممثلة للملك، وهي سلطة جامعة تحكم القبضة على الزمني والروحي والمدني والقدسي بحيث لا يفلت منها شيء»[2].

جـ ـ حال الفرس:

كان الفرس أمة وثنية ثنوية دينها المجوسية، يعتقدون أن العالم له خالقان ربان متكافئان بينهما صراع؛ سديمي: إلـه الخير، ويمثله النور والنار، وإله الشر ويمثله الظلام. ولذلك اتخذوا النار معبودهم وإلههم بناء على ذلك.

---

(١) كتاب: تاريخ التسامح في عصر الإصلاح (٢٩).

(٢) كتاب: تاريخ التسامح في عصر الإصلاح (٢٩).

والاعتقاد بوجود إلهين متكافئين مصادم للفطر وبداهة العقول السليمة.

قال المؤرخ صاعد الأندلسي: «وكان سبب تمجسهم أن زرادشت الفارسي ظهر في زمان «بستاسف» ـ ملك الفرس ـ لثلاثين سنة خلت من ملكه ودعا إلى دين المجوسية من تعظيم النار، وسائر الأنوار والقول بتركيب العالم من النور والظلام واعتقاد القدماء الخمسة والتي هي عندهم الباري ـ تعالى عما يقولون ـ وإبليس والهيولة والزمان والمكان. . . ولم تزل الفرس على دينه وملتزمين شريعته قريباً من ألف وثلاث مائة سنة»[١].

• كان النظام الطبقي هو السائد فيهم: الأسرة الحاكمه أسرة آل ساسان أسرة مقدسة تجري في عروقهم دماء إلٰهية مقدسة، وبقية الشعب ملك لهم وخدم لهم، وعبيد لهم.

• كان الفساد الخلقي والإباحية الصارخة التي طالت كل المحارم حتى الأمهات والبنات والأخوات هي أخلاق وأحوال الفرس المجوس.

يذكر المؤرخ الإمام «الطبري» أن يزدجرد الثاني الذي حكم في أواسط القرن الخامس الميلادي تزوج ابنته ثم قتلها. وأن بهرام جوبين في القرن السادس تزوج أخته.

وشاعت هذه الإباحية المقيتة فيهم وذاعت وعمت وطمت، يسجل المؤرخ الإمام الطبري هذا فيقول: «افترض السفلة ذلك واغتنموه وكاتفوا مزدك وشايعوه، فابتُلي الناس بهم في بلاد فارس وقوي أمرهم، حتى كانوا يدخلون على الرجل داره ويغلبونه على نسائه وأمواله لا يستطيع الامتناع منهم، حتى حملوا الملك قُباذ على ذلك، فشاع ذلك فيهم حتى صاروا لا يعرف الرجل ولده ولا المولود أباه»[٢].

د ـ حال بلاد الهند:

كانت الهند تعتقد بقاء العالم وتناسخ الأرواح وعبادة الأصنام وتعظيم الهياكل والاعتقاد في النجوم والأفلاك.

يقول المؤرخ صاعد الأندلسي: «فمنهم براهمة ومنهم صابئة، فأما البراهمة

---

(١) طبقات الأمم (٦٤، ٦٥).

(٢) تاريخ الأمم والملوك (٢/ ٨٨).

فهي فرقة قليلة العدد فيهم، شريفة النسب عندهم، فمنهم من يقول بحدوث العالم، ومنهم من يقول بأزليته، إلا أنهم مجمعون على إبطال النبوات وتحريم ذبح الحيوان والمنع من إيلامه وأكل أقواته، وأما الصابئة وهي جمهور الهند ومعظمها فإنها تقول بأزل العالم، وأنه معلول لذات علة العلل ـ التي هي الباري جل وعز ـ وتعظم الكواكب وتصور بها الصور تمثلها بها وتتقرب إليها بأنواع القرابين»[1].

أما النظام الاجتماعي: فمنذ القرن الثالث قبل الميلاد فإن القانون الطبقي العنصري الذي يعرف عندهم باسم «سنوشا ستر» هو السائد، وهو يقسم الناس في الهند إلى أربع طبقات:

١ ـ طبقة البراهمة: وهم السادة المقدسون، وتضم هذه الطبقة الكهنة وسدنة الأصنام والمعابد ورجال الدين وملوك الهند.

٢ ـ طبقة شتري: وتضم رجال الحرب والجنود.

٣ ـ طبقة ويسن: وتضم الفلاحين وأهل الصناعات والحرف والزراعة.

٤ ـ طبقة شودر: وهي طبقة المنبوذين الذين هم كالكلاب[2].

هـ ـ حال الشرق الأقصى (الصين):

كانت تسود في الصين ثلاث ديانات كلها وثنية.

- ديانة لاوتسو ـ ديانة ملوك الصين القدماء.
- ديانة الكنفوشوس وهي ديانة الحكماء وأهل المعارف.
- الديانة البوذية التي انتقلت إلى بلاد الصين من بلاد الهند وما حولها[3].

يقول أحد الباحثين: «فمن المعلومات التي نقلت إلينا من الوثائق التاريخية والآثار القديمة والتاريخ المسجل عرفنا الأحوال الدينية والعقائد عند قدماء الصينيين وهي تتلخص في:

١ ـ تأليه قوى الطبيعة وأرواح الموتى؛ فإنه حسب التسجيلات القديمة كانت

---

(١) طبقات الأمم (٥٣).

(٢) انظر: كتاب: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، لأبي الحسن الندوي (٥٥ ـ ٦١).

(٣) انظر: كتاب: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، لأبي الحسن الندوي (٥٣).

عبادة الطبيعة من أقدم صور التدين عند الصينيين حيث شاهدوا القوى الغامضة في الطبيعة فبدؤوا يعبدون السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم وغيرها من قوى الطبيعة[1].

٢ ـ الاعتقاد بما وراء الطبيعة من الأرواح، فاعتقدوا أن لكل الظواهر الطبيعية أرواحاً خفية لها سلطة جبارة، فصاروا يعبدون هذه الأرواح التي تسمى عندهم «شِيْن» «Sheng» بمعنى الآلهة[2].

٣ ـ تأليه الملوك والعظماء، وهذا كان منتشراً فيهم مثل تأليههم «خوان دي» «Haangdi» و«لَوْتِس» «Laozi» من ملوكهم القدماء[3].

٤ ـ الكنفوشسية. وهي مدرسة فكرية فلسفية نسبة للحكيم الصيني كنفوشيوس (٥٥١ ـ ٤٧٦ق.م) وأفكاره ضمنها كتابه «الحوار»، وتقوم على القيم الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية؛ كالفضيلة والواجب والآداب والحكمة والوفاء، ثم نشأت فيهم نزعة التدين بأن ألهوا الملك القديم «Yao» كإلـٰه أعلى وقدسوا كنفوشيوس، وأنه تلقى التعاليم من الإلـٰه الأعلى «Yao»[4][5].

و ـ حال الجاهلية المعاصرة:

ولا تختلف الجاهلية المعاصرة عن تلك السابقة على الإسلام والتي دثرها الدين الحق وحرر الإنسان منها؛ بل إن الجاهلية الحديثة أسوأ إلحاداً وأشد افتراساً لكرامة الإنسان وجعله عبداً لآلهة شتى من الهوى والمال والجنس مع إحياء كل الوثنيات القديمة وترميمها، فعادت العبودية بأسوأ صورها.

يقول وليم جيمس: «لا يزال بعض رجال المذهب الوضعي ينادي اليوم قائلاً: هناك إلـٰه واحد مقدس في جلالته وعظمته بين أنقاض كل إلـٰه غيره، وكل وثن وهو الحقيقة العلمية وليس له إلا أمر واحد وقول واحد وهو أن ليس لكم

(١) العقائد البدائية والآلهة القديمة في الصين، وان شاو دون (١٠٢).
(٢) التعريف بالداوية (٤٠).
(٣) كتاب: عقيدة الإلـٰهية في الديانة الداوية، أيوب نور الحق دين شي رين (١٠).
(٤) مختصر تاريخ الفلسفة الصينية، فون بولان (٤٩).
(٥) للمزيد من التفصيل انظر: كتاب: عقيدة الألوهية في الديانة الداوية، لأيوب نور الحق دين شي رين..

أن تؤمنوا بإله»[١].

يقول الأستاذ محمد أسد: «إن الأوروبي العادي سواء عليه أكان ديمقراطياً أم فاشياً رأسمالياً أم بلشفياً صانعاً أم منكراً، يعرف ديناً إيجابياً واحداً هو التعبد للرقي المادي؛ أي: الاعتقاد بأن ليس في الحياة هدف آخر سوى جعل هذه الحياة أيسر فأيسر، أو كما يقول التعبير الدارج: «طليقة من ظلم الطبيعة»، إن هياكل هذه الديانة إنما هي المصانع العظيمة ودور السينما والمختبرات الكيماوية وباحات الرقص وأماكن توليد الكهرباء، وأما كهنة هذه الديانة فهم الصيارفة والمهندسون، وكواكب السينما، وقادة الصناعات وأبطال الطيران، وإن النتيجة التي لا مفر منها في هذه الحال هي الكدح لبلوغ القوة والمسرة، وذلك بخلق جماعات متخاصمة مدججة بالسلاح ومصممة على أن يفني بعضهم بعضاً حينما تتصادم مصالحها المتقابلة.

أما على الجانب الثقافي فنتيجة ذلك خلق نوع بشري تنحصر فلسفته الأخلاقية في مسائل الفائدة العملية، ويكون أسمى فارق لديه بين الخير والشر إنما هو التقدم المادي»[٢].

إن العلمانية الإلحادية تنتشر اليوم بشكل صارخ ويُراد تعميمها على جميع المجتمعات وهي تأخذ السمات الآتية:

١ ـ الدين الشامل للبشر هو ما يُسمى «بالدين الطبيعي» وهو يقوم على الأفكار الآتية:

أ ـ إن العقل البشري هو الأداة المدركة الكافية لإدراك قوانين الطبيعة والتوصل إلى حقائق الأشياء والقوى الكامنة في الطبيعة، وأن العقل يتوصل إلى ذلك دون الحاجة إلى الوحي والنبوة والكتب المقدسة. وبالتالي يتساوى العقل البشري مع الوحي والنبوة؛ بل يفوق. وإن فكرة وجود خالق للعالم يتم التوصل إليها من خلال إعمال العقل وحده والتأمل في قوانين الطبيعة وآلياتها.

يُعد «جون كين» من أهم منظري العلمانية، وهو ينطلق من منظور ربوبي،

---

(١) وليم جيمس، العقل والدين (٩٨).

(٢) الإسلام على مفترق الطرق (٤٧، ٤٨).

وبالإنجليزية: (Deist) وهي تعني الإيمان بالإله دون الحاجة لوحي، فيما يسمّى «الدين الطبيعي» وقد تبنى «جون كين» موقف المفكر الربوبي الأميركي «توماس بين» الذي دعا في كتابه «عصر العقل» إلى استيعاب الدين في المجتمع، بحيث يتم الإبقاء على فكرة الإله، لكي تظل مصدراً للأخلاق في المجتمع، مع إلغاء أي دور للدين فيما عدا ذلك[1].

وقد لحظ ذلك أيضاً المفكر الإنجليزي: «كولن نيرنر» في كتابه «Islamwithout Allah» وترجمتها: «إسلام بدون الله» وهي فكرة الدين الطبيعي ويكون الإسلام العملي لنشاطات الحياة إما للقانون أو النظام أو الدولة أو الفقيه والملا عند المذهب الشيعي فيما يعرف بولاية الفقيه. وهم الذين قصدهم «كولين تيرنر» بكتابه هذا.

ب ـ إن ثمة ديناً واحداً طبيعياً في كل الأديان ينتظمها ويشكل وحدة توازن وتقابل وتكامل بين الأديان. فكل العقائد يوازي بعضها بعضاً في واقع الأمر.

وهذا يشكل الأرضية لكل دعاة ما يسمى وحدة الأديان أو تقارب الأديان، وحرية الاعتقاد رغم ما بين العقائد المختلفة من تضاد وتنافر؛ لكن الدين الطبيعي يوفر التوازي بينها؛ لأنهم جميعاً في النهاية يصلون إلى حقيقة مشتركة عقلية طبيعية أن للعالم خالقاً موجداً وكلٌ بعد ذلك له الحرية في تصور وتحديد هذا الخالق المبدع للعالم.

جـ ـ إن خالق العالم تنحصر مهمته في خلق العالم، ولا علاقة له بعد ذلك بالعالم ولا بشؤونه، وأن فكرة وجود إله مدبر للعالم تتحول إلى قانون مادي طبيعي كقانون الجاذبية وقوانين الحركة الآلية، وبالتالي يتم استبعاد الإلـه والإيمان بالغيب تماماً من المنظومة الأخلاقية التي تحكم حياة البشر، وبالتالي يكون الإنسان حراً في الإيمان بالخالق وفي تجاهله؛ لأن الإله الخالق لا علاقة له بالدنيا ولا علاقة له بالمعرفة الأساسية.

د ـ وبالتالي تسقط أهمية الغيبيات تماماً، فلا قداسة للكتب المقدسة، ولا للنبوة والأنبياء، ولا البعث بعد الموت، وقضايا الثواب والعقاب والوحي

(١) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، للدكتور عبد الوهاب المسيري (١/١٠٩).

إما خرافة لا وجود لها، وإما مجرد أساطير لتخويف العامة الجهلاء. أما النخبة المثقفة فيمكنها الوصول إلى الحقائق والمصالح المطلقة من خلال عقلها دون وحي أو كتب منزلة أو أنبياء مرسلة.

وإذا صدَّقوا بشيء من ذلك فإنما يصدقون به كتراث وإرث شعبي قومي. قديم محنّط مجفف في متاحف التاريخ.

هـ ـ تسقط أهمية الشعائر الدينية التعبدية التي تعبر عن حاجة الإنسان إلى خالقه وربه.

و ـ تستبعد جميع القيم الدينية والإيمانية من النظريات السياسية والبرامج الاقتصادية وأنظمة الحكم وإدارة شؤون الناس تماماً وتصبح المنفعة الطبيعية هي الهدف المحرك لكل هذا النشاط.

٢ ـ في ظل ذلك يتم توجيه الإنسان وعلمنته وإخضاعه وسلبه إنسانيته وكرامته. وتعبيده لشهوته ونزوته وثروته ودولته. وتصبح هذه كلها آلهة تُخضع الإنسان وتسلبه كل شيء ويقع الإنسان في عبوديتها الذليلة المهينة. والغريب أن يتم كل هذا باسم الحرية والانعتاق.

إذا كان الجاهليون القدماء قد رفضوا العبودية للإله الحق ربهم وخالقهم الله رب العالمين واتخذوا من دونه آلهة شتى في صور أصنام وأوثان وأحجار وغير ذلك، فإن الجاهليين في العالم الحديث ومن خلال العلمانية والدين الطبيعي يرفضون وبكل شراسة وصلف ألوهية الله رب العالمين وهيمنة شريعته وحكمه على حياتهم ـ باسم الحرية والانعتاق ـ ولكنهم يقعون في تأليه غيره وبعبودية مهينة لغيره.

٣ ـ يتم إخضاع الإنسان لحكم الدولة المطلقة والهيمنة المطلقة للدول الكبرى التي ترشده وتخضعه لها ولأحكامها، ويتم إخضاعه لسياسة السوق وشهوة المال.

ومن هنا ظهرت الدولة المطلقة كإله من دون الله يخضع لها كل شيء: الأرض والاقتصاد والإنسان، وهي مرجعية عليا، وسلطة كبرى تدعو بالحرف الواحد إلى ما دعا إليه فرعون من قبل: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤﴾ [النازعات: ٢٤]،

التي تشعر بالفوقية والعلو، والأحقية بتحديد مصير البشر، و﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، باستبعاد ألوهية الله تعالى، تماماً، وإخضاع البشر لألوهيته والتوجه والتذلل إليه.

إن ألوهية «الدولة المطلقة»، وألوهية سياسة السوق النفعية هي أصنام هذا العصر. وآلهة هذا العالم المصطنعة، التي تستذل الإنسان وتستعبده بأحط وأسوأ الصور التي تفقده آدميته وإنسانيته، وتحول الإنسان إلى رقم أو مسمار في آلة أو قطعة غيار لخدمة الدولة المطلقة ومصالحها، وإذا لم يفعل أو تمرد يتم استبعاده والتخلص منه بكل سهولة.

- يحدد «ميكافيللي» (١٤٩٦ ـ ١٥٢٧م) أن القائد «الأمير» مطلق القدرة مَثَله على الأرض مثل الآلهة في السماء على حد قوله، وهمّه مبدأ سلامة الدولة ومصلحتها العليا وأنه عليه أن يضحي في سبيل ذلك بكل شيء: البشر والقيم والأخلاق[١].
- ويقرر «هوبز»: أن وجود الدولة المطلقة حتمية باعتبار الإنسان كائناً طبيعيّاً ماديّاً، والعقل مادة والحب والكره والعواطف حركات آلية، وأنه عنصر ضمن مجموع، وعلاقته بالمجتمع علاقة جذب ومقاومة، لذلك لا بد لكل إنسان طبيعي التنازل عن جزء من حريته المطلقة لصالح المجموع، وهذا التعاقد الآلي المادي هو القاعدة التي تقوم عليها الدولة، لذلك لا بد أن يخضع الجميع لها.

فالدولة عند «هوبز» هي كل شيء، فلا يكون فيها حرية للرأي ولا للضمير، وتصبح الدولة هي المرجعية النهائية لكل شيء، ويصبح الرئيس أو القائد تتمثل في شخصيته الدولة كلها، وتكون إرادته وأوامره هي القانون النافذ؛ بل ألَّه «هوبز» الدولة المطلقة صراحة عندما قال: «إنها إلـه زمني ومرتبط بالإلـه الخالد»[٢].

ثم جاء «أسبينوزا» فكرس ذلك، فقرر أن الأفراد في ظل الدين الطبيعي يتنازلون عن رغباتهم وحقوقهم لصالح هيئة حاكمية عليا[٣].

---

(١) كتاب: الأمير (١٤٤).

(٢) توماس هوبز، كتاب: التنين نقلاً عن: موسوعة أعلام الفلسفة (٢/٥٤٩).

(٣) نقلاً عن كتاب: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، للدكتور عبد الوهاب المسيري (٢/ ٧٦، ٧٧).

٤ ـ فالدولة المطلقة في كل مجتمع تأخذ السمات الآتية:

- الدولة المطلقة تستند إلى القانون الطبيعي، وهو قانون منفصل عن أي منطلقات دينية أو عقائد دينية أو أخلاقية أو إنسانية.
- الدولة المطلقة هي المرجعية النهائية، منها يأخذ كل شيء شرعيته ووجوده، وإليها تصب كل نتائج النشاطات والجهود البشرية الخاضعة لها.
- الدولة المطلقة شمولية تغطي نشاطاتها وسيطرتها كل شيء بما في ذلك الدين والأخلاق والفرد نفسه، وهي وحدها مصدر القيم التي تحدد ما هو الصالح للفرد والمجتمع.
- الدولة المطلقة مهيمنة ومتغولة تتضخم وتفوق سلطاتها وبطشها أي شيء، ولا ترجع إلى أي مرجع ديني أو أخلاقي أو ضميري، إنما آلهتها القائد ودينها المصلحة العليا للدولة.
- في الدولة المطلقة تصبح مشكلة الإنسان ليس فصل الدين عن الدولة وإنما هيمنة الدولة على كل شيء حتى الدين والفرد ذاته، إنه بعبارة صريحة تصبح الدولة والقائد والملك آلهة يخضع لها وتعبد، ويدين لها الأفراد بالولاء الكامل من دون الله رب العالمين؛ إنها العبودية المهينة من جديد يسقط فيها الإنسان بكل بلاهة وغبار عندما يرفض العبودية لله خالقه والخضوع لدينه وشرعه. هكذا يقرر أصحاب الدين الوضعي هذا الأمر[1].

٥ ـ الوسائل:

تسلك الدولة المطلقة في عالم اليوم لإخضاع الناس لها وحدها عدة وسائل:

الوسيلة الأولى: تهميش وإضعاف وتفتيت أي شيء من شأنه إضعاف ولاء المواطن للدولة؛ كالدين والأسرة والقبيلة. فالدين تتعامل الدولة المطلقة في عالم اليوم معه بالوجوه الآتية:

الوجه الأول: محاربته ونفيه وحصره داخل النفس بدون أثر خارجي، وإلغاء أوحدية الحق، وامتلاك الحقيقة، ولم يعد المهم ما يعتقد الإنسان وما هو

---

(١) المصدر السابق.

انتماؤه الديني، وما هو سلوكه الشخصي، المهم هو مدى ولائه للدولة المطلقة والوطن ومدى نفعه لها.

الوجه الثاني: ترميم واستدعاء المذاهب والطوائف التي تخدم هذا التوجه. فالإرجاء مثلاً هو الضالة المنشودة؛ لأن الإرجاء يكرس هذا الانفصام، ويسهل تقبل كل فعل لكل قول، ولو كان نقضاً للدين ورفضاً له على أساس أن الإرجاء يحصر ويكرس كل أو أغلب النشاط الديني داخل النفس؛ فهو قناعة فحسب، ولو كان العمل والأثر بعيداً عنها، ثم لا نقض ولا تخطئة ولا تجريم لأي سلوك وفعل؛ لا من النخب ولا من الأفراد؛ لأن التخطئة والتجريم إنما تتعلق فقط بمضمرات القلوب ودواخل النفوس فحسب ولا طريق لأحد عليها ولا سبيل لأحد بمعرفتها، وقديماً قال أحد الأئمة وهو النضر بن شميل: «الإرجاء دين الملوك». أما الأفعال والأقوال التي تمس القائد والحاكم والملك والأمير، أو تتعارض مع قانون الدولة المطلقة أو تؤثر في هيمنتها فهي الجريمة الكبرى والخيانة العظمى التي حكمها في قانون الدولة المطلقة أشد العقوبات وسلب كل الحقوق، والإعدام هو المصير المنتظر، ويتم ذلك بتقبل تام من النخب والأفراد وربما من المؤسسات الدينية التي هي في الدولة المطلقة جهاز من أجهزتها[١].

ومن ذلك أيضاً دعم وترويج التوجهات الصوفية واستدعاؤها. وإبراز رموزها قديماً وحديثاً، لما للتصوف من أثر في عزل الدين وتحويله إلى طقوس وشعائر وخرافات؛ ولكون الصوفي يشعر بأن له انتماءً دينياً بينما هو يتقبل كل شيء وأي شيء، أقصى درجات الخرافة وأسوأ أنواع الإباحية، فهو علمانية بل عليها يزيد.

يقول «دانيال بايبس» رئيس منتدى الشرق الأوسط للأبحاث بالولايات المتحدة: «إن الغرب يسعى إلى مصالحة التصوف الإسلامي ودعمه لكي يستطيع ملء الساحة الدينية والسياسية وفق ضوابط فصل الدين عن الحياة وإقصائه نهائياً عن قضايا السياسة والاقتصاد، وبالطريقة نفسها التي استخدمت في تهميش المسيحية في أوروبا والولايات المتحدة»[٢].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) نقلاً من صحيفة الزمان عدد (١٦٣٣) في (٢/ ١٠/ ٢٠٠٣م).

ويقول «ستيفن شوارتز»: «من الواضح جداً أن على الأمريكيين أن يتعلموا المزيد عن الصوفية وأن يتعاملوا مع شيوخها ومريديها وأن يتعرفوا على ميولها الأساسية، يجب على أعضاء السِّلك الدبلوماسي الأمريكي في المدن الإسلامية من بريشتينا في كوسوفو إلى كشغار في غرب الصين، ومن فاس في المغرب إلى عاصمة أندونيسيا جاكرتا أن يضعوا الصوفيين المحليين على قائمة زياراتهم الدورية، يجب أن ينتهز الطلاب الأمريكيون ورجال الأعمال وعمَّال الإغاثة والسائحون فرص التعرف على الصوفيين، والأهم من ذلك أن أي شخص داخل أو خارج الحكومة يشغل موقعاً يسمح له بالتأثير على مناقشة ورسم سياسة الولايات المتحدة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط يمكنه أن يستفيد من فهم هذا التقليد الفطري من التسامح الإسلامي»[(١)].

ويقول المستشرق نيكولسن: «من المعروف جيداً أن مذاهب الصوفية المسلمين وتأملاتهم أثرت في الإسلام تأثيراً قوياً، وإلى حد ما فإنها توفر أرضاً مشتركة يمكن أن يلتقي فيها أناس من ديانات مختلفة مع بقائهم مخلصين للديانة التي يؤمن بها كل واحد منهم، يلتفون بروح التسامح والتفاهم المتبادل»[(٢)].

وفي دراسة جادة للأستاذ: «فريد الدين آيدن» عن النقشبندية. يقول فيها: «إن استغلال السلطة للنقشبنديين كان الهدف منه ترويضهم على السير طبقاً للقواعد المرسومة لهم، وعلى الطاعة العمياء في الخطوة الأولى، فاستخدمتهم بصورة فعلية في خلق جو مطلوب لإذابة الجموع المضادة للزمرة الحاكمة في بوتقة العلمنة والإلحاد كمرحلة ثانية وترسيخ قواعد الرأسمالية ضد المستضعفين، وسد الانتباه ضد الصحوة الإسلامية التي بدأت منذ سنين تنتشر في أنحاء العالم كخطوة ثالثة»[(٣)].

إذن مهمة الصوفية في هذه المرحلة ذات أبعاد ثلاثة:

البعد الأول: تكريس هيمنة «الدولة المطلقة» والطاعة العمياء لها. وبمعنى آخر: تأليهها وجعلها في مقام الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، تعالى الله رب العالمين.

---

(١) مجلة ويكلي ستاندرد (٧/ ٢/ ٢٠٠٥م).

(٢) انظر: موسوعة المستشرقين (٤١٦).

(٣) النقشبندية بين ماضيها وحاضرها (٢٨٤).

والبعد الثاني: المساهمة الجادة في إشاعة العلمانية والإلحاد، وما يتبع ذلك من إباحية وفساد خلقي عريض. وإشاعة نظام السوق الاستهلاكي لتمكين النظام الاستغلالي الرأسمالي ضد المسحوقين البؤساء.

والبعد الثالث: سد الطريق ضد أي حركة أو دعوة من شأنها إيقاظ الناس وإعادتهم إلى حقيقة الدين، والتعبد لرب العالمين، والعمل بشريعته عن طريق إشاعة هذا النظام الوسيط ذي المسحة والقالب الديني، والمفرغ تماماً من المضامين الدينية الذي هو «الصوفية».

ويواصل الأستاذ فريد الدين آيدن بحثه ذاكراً النتيجة والأهداف التي يراد الوصول إليها في الأمة المسلمة: «فقد تحققت هذه الأهداف إلى حدود بعيدة؛ فإن كثيراً من الناس الذين ما زالوا يعتزون بالإسلام، ويهتفون باسمه، تغيرت المفاهيم القرآنية في عقليتهم واتخذت صورة أخرى غريبة والتبس عليهم الحق بالباطل، وأصبح الإسلام في اعتقادهم عبارة عن سلسلة من حكايات الصالحين، وحفلات المولد النبوي، وزيارة القبور، وتعظيم الموتى والاستشفاع بهم، فإن خلاصة ما يُعْرَف من مفهوم الإسلام اليوم في معتقد العامة، أنه لا يعدو عن علاقة شخصية للعبد بمعبوده فحسب، دون أي شيء آخر من علاقاته ونشاطاته وأفعاله مع بني جنسه في بقية مجالات الحياة»[1].

الوجه الثالث: الهيمنة على الدين من قبل الدولة المطلقة لاستخدامه في تكريس شرعيتها. وما يُسْمَح به من هياكل ومؤسسات دينية ومناصب دينية إنما يستمد وجوده وشرعيته وقوته من وجود وقوة الدولة المطلقة لا من الدين ذاته.

الوجه الرابع: إحلال شعائر شبه دينية تكرس الملوك والقادة وهيمنة الدولة المطلقة والدينونة لها بالولاء الكامل؛ مثل إجلال العَلَم وعدم جعله يلامس الأرض، والوقوف بصمت وإجلال عند رفعه، وترديد الأناشيد الوطنية والوقوف حال ذلك وتقدير التراب الوطني.

الوسيلة الثانية: استخدام أجهزة الإعلام والمؤسسات التربوية والتثقيفية التي تقوم بتدجين الفرد والمواطن من الداخل والخارج ليصبح مبرمجاً على الخضوع التام للدولة المطلقة والولاء التام لها، ويصبح عنده استجابة عاطفية غير

---

(١) المصدر السابق.

دينية ولا علاقة لها بأي أهداف ومنطلقات إنسانية مثل: «مصلحة الدولة العليا»، و«هيبة النظام»، و«التراب الوطني»، و«الحاكم الملهم»، لتصبح الدولة هي القيمة العليا التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

الوسيلة الثالثة[١]: في كل دولة مطلقة توجد نخبة حاكمة يتم تحديد المصلحة العليا للوطن على ما تتصوره وهي التي تبني الإستراتيجيات العامة للدولة المطلقة، والمفترض فيها أن تكون توجهاتها وطنية محضة، ولكن لكي تتم سيطرة القوى العظمى الغربية خاصة على دول العالم الثالث ومقدرات شعوبها، بل وثقافة تلك الشعوب وأديانها، بما فيها، بل وعلى رأسها الإسلام والمسلمون؛ فإن القوى العالمية تسيطر على النخب الحاكمة وتخترقها وتغرقها في الفساد حتى تسهل تلك النخبة للقوى العظمى أنظمة الحكم في بلدانهم من خلال نفوذهم في جهاز الحكم واختراق الشعوب وتفكيكها.

يقول المؤرخ الأمريكي الشهير زبيجنيو بريجينسكي: «يدير العالم اليوم نخب غير قطريين يتكونون من ساسة، ورجال أعمال، وعلماء ومهنيين وموظفين عامّين، أما الروابط بين هذه النخب فإنها تتخطى صبغتها القومية والوطنية حيث أصبحت مصالحهم تحمل صبغة المصالح الذاتية أكثر من كونها وطنية»[٢].

إن هذا الإفساد للنخب الحاكمة يتم بعدة صور ووسائل:

- تدويل تلك النخب السياسية والثقافية وربما أيضاً الدينية وجعلها مرتبطة بالسوق العالمية والشركات العابرة للقارات وثقافة الفضائيات العالمية.

- إفساد تلك النخب السياسية والثقافية والدينية عن طريق إغراقها في الثراء الفاحش من خلال حلب ثروات الوطن واستغلال الشعوب، بينما يرزح غالبية تلك الشعوب في فقر تتفاوت درجاته. ويتم ذلك أيضاً عبر العمولات الضخمة والرشاوى الهائلة وصفقات السلاح العديمة الفائدة والتوكيلات والدعايات ولعبة الأسهم والشركات الوهمية التي تحقق لتلك النخب أرباحاً خيالية، ويتم غسل جميع الأموال التي في أيدي الناس عبر تلك العمليات، وما لعبة الأسهم التي

---

(١) انظر: كتاب: إمبراطورية الشرق الجديدة، د. عبد الحي زلوم (٣٨٢ ـ ٣٨٤)، وكتاب: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، د. عبد الوهاب المسيري (٨٧ ـ ٩١).

(٢) كتاب: ما بين عصرين (٢٧٩).

يشارك الخطاب الديني فيها إلا نموذجٌ صارخٌ لذلك، إذ تتبخر في لحظة واحدة مليارات الدولارات، ولا يدري أحد أين ذهبت.

• تقوم النخب السياسية والثقافية والدينية بإشاعة خطاب فلسفي سياسي وثقافي وديني لكنه دولي، هذا الخطاب ذو طابع عقلاني مستنير لكنه تدجين استسلامي، خطاب يصف نفسه بالواقعية والوسطية والمرونة وعدم نفي الآخر، والإفادة من أديان وثقافات الشعوب الأخرى، خطاب يفقد إحساسه بخصوصيته وتاريخه؛ بل وكونه يستند إلى الحق المتمثل في دين الله الحق الإسلام، خطاب يطلب منا أن نعترف بتقسيم الحقيقة بين الأديان غير الإسلام، ونسقط العداوة ونعترف بالعدو ونتقبل الباطل، لذلك تكثر في هذه الأثناء المؤتمرات التي تقرب بين الأديان والثقافات، وتذيب الخصوصيات الدينية والثقافية، وتصحح أديان اليهود والنصارى والوثنيين، وتفتت الحق الثابت في الإسلام باعتباره دين الله الحق الذي لا يقبل الله غيره، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

هذا الجهد كله يخرج إنساناً ومواطناً ليس عبداً لله خالقه وربه، لا يعبد إلا إياه ولا يعظم إلا خالقه ولا سلطان على قلبه وروحه وعقله إلا سلطان الله وشرعه وحكمه، وإنما إنسان نفعي يعظم المتعة واللذة، الهدف الأكبر عنده تحقيق نفعه الشخصي، إنسان اقتصادي تتحكم فيه ثقافة الاستهلاك والسوق، إنسان تذوب فرديته وإنسانيته، بل وحريته الحقيقية في آليات السياسة للدولة المطلقة وآليات اقتصاد السوق.

إنسان موضوعي مستعد لتغيير ثوابته الدينية؛ بل ربما بلا ثوابت، ويساهم الخطاب الديني المدجن والموجه في تذويب ثوابته الدينية، وإحداث الاستعداد لدى هذا الإنسان ليكون مرناً واقعياً يستطيع أن يعيد بناء شخصيته لتواكب التطور ولو على حساب قيمه ودينه.

وبهذا يتم استهلاك هذا الإنسان وتدمير ثوابته وإلغاء خصائصه. وبعبارة واضحة استعباده لسلطة الدولة المطلقة، ومصالحها العليا، ولحاجات السوق الاقتصادية والاستهلاكية، ولثقافة الفضائيات والصحف. وكل ذلك على حساب حريته الحقيقية التي هي عبوديته الخالصة لربه وخالقه الله رب العالمين.

ولأن الإسلام بعقائده التوحيدية الصافية، وشرائعه الكريمة

المكرمة للإنسان، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ [الإسراء: ٧٠]، وبمصادرة اليقينية الثابتة الممتنعة على التبديل والتحريف: هو الدين الحق الوحيد في العالم اليوم، وهو المخلص الحق الوحيد في العالم اليوم لبني الإنسان من كل هذه العبوديات المهينة؛ فإن الجميع سوف يحاربه ويواجهه ويحارب كل من يدعو إليه ويعمل به.

لقد أعلنها الجميع حرباً على الإسلام كل من جهته وعلى طريقته؛ لأن الإسلام بحقائقه الثابتة الراسخة وفطريته الصافية هو الإعلان الحق الوحيد اليوم لحقوق الإنسان، وهو الطريق الوحيد لحريته ليتخلص هذا الإنسان المدجن المعلمن من كل هذه العبوديات المهينة لكرامته وآدميته المسخرة له لسلطان السوق والاستهلاك وسلطة الدولة المطلقة، ويتوجه للحرية الصادقة والقيمة العليا بتعبده لله رب العالمين، وهيمنة شريعته الكريمة عليه.

• أمام حشد وجمع كبير في لندن ألقى هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكي الأسبق محاضرة بتاريخ (٣١/ ١٠/ ٢٠٠١م) وقال: «إن السلام مع الإسلام مستحيل، وإن الحرب ضد الإرهاب يجب أن تستخدم كفرصة لإعادة تشكيل النظام العالمي الجديد. وإن هناك اختلافاً أساسياً مع الإسلام قد لا يفهمه حتى الآن سوى بريطانيا وأمريكا»[(١)].

ويقول صامويل هنتنغتون: «إن المشكلة بالنسبة للغرب ليست في التطرف الإسلامي؛ بل في الإسلام كطريقة مختلفة للحياة اقتنع المسلمون بسموها وتفوقها على غيرها»[(٢)].

ويقول: «الصراع كان من ناحية نتاج اختلاف، وعلى وجه الخصوص رؤية المسلمين لدينهم على أنه وسيلة للسمو والارتقاء وتوحد الدين والسياسة»[(٣)].

ويخلص هنتنغتون إلى: «أن الصراع بين الإسلام والغرب هو أمر مفروغ منه، فطالما بقي الإسلام هو الإسلام ـ وهو ما سيحدث ـ والغرب هو الغرب ـ وهذا أمر مشكوك فيه ـ فإن الصراع الرئيس بين حضارتين عظيمتين وطريقتين

---

(١) المصدر: كتاب: إمبراطورية الشر الجديدة، د. عبد الحي يحيى زلوم (٥٦).
(٢) صراع الحضارات (١١٧).
(٣) المصدر السابق (١٢٩).

مختلفتين في الحياة سيبقى يميز العلاقة بينهما في المستقبل»[(١)].

وتقول كارين آرمسترونغ: «يبدو الآن أن الحرب الباردة ضد الإسلام ستحل محل الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفيتي، ويربط المسلمون اليوم الإمبريالية الغربية والحملات التبشيرية المسيحية بالصليبيين، وهم ليسوا على خطأ فيما ذهبوا إليه»[(٢)].

ولكن هذه الحرب لم تعد باردة؛ بل هي ساخنة وسافرة وتدميرية أيضاً.

يعترف صموئيل هنتنغتون بذلك فيقول: «تورطت الولايات المتحدة خلال السنوات الخمس عشرة بين عامي (١٩٨٠ و١٩٩٥م) طبقاً لتقارير من وزارة الدفاع الأمريكية في سبع عشرة عملية عسكرية في الشرق الأوسط كانت كلها موجهة ضد المسلمين مباشرة. ولم تحدث أية عمليات من هذا القبيل إطلاقاً من قبل القوات العسكرية الأمريكية ضد أي شعب أو حضارة أخرى»[(٣)].

هذا قبل شن الولايات المتحدة لحربيها المدمرتين لأفغانستان المسلمة، والعراق المسلمة، ودمرتهما تدميراً؛ بل قد صرح السكرتير العام لحلف شمال الأطلسي (الناتو) عام (١٩٩٥م) بـ: «أن الإسلام السياسي كان خطراً بمقدار خطورة الشيوعية على الغرب»[(٤)].

بل إن الغرب يستعيد كل أحقاد الماضي ويصنفون أنفسهم أعداءً بامتياز للإسلام، بعد سقوط غرناطة المسلمة عام (١٤٩٢م) انطلق «كرسْتُفَر كُلُمبس» ومعه تسعون بحاراً على ثلاث سفن لاكتشاف العالم الجديد، وعكس كلمبس العنصر الديني المسيحي المعادي للإسلام والمسلمين، بحقد مستعر، ففي مفكرته عن رحلته الأولى بتاريخ (٣ آب ١٤٩٢م) استهل كلمبس مفكرته بهذه العبارة: «باسم إلٰهنا يسوع المسيح»، ثم قال: إن سموّكم كاثوليكيين ومسيحيين وأمراء أحبوا العقيدة المسيحية ويتوقون لرؤيتها تتوسع، وكأعداء لملة محمد «Maomet»، وكل الوثنيين والهراطقة والذين ارتأوا أن من المناسب أن يرسلوني

---

(١) المصدر السابق (١٣٠).

(٢) كتاب: الإسلام (٦١).

(٣) صراع الحضارات (٢٧٧).

(٤) انظر: كتاب: إمبراطورية الشر الجديدة (٣٩٤).

أنا كرستفر كلمبس إلى الأجزاء المسماة بالإنديز للنظر في الطريقة الممكنة لتحويلهم إلى عقيدتنا المقدسة»[١].

وحتى لا يقال: إن هذه أمور قديمة ومضت، وأن العالم خصوصاً الغرب قد تغير، فقد أصدر الكاتب والباحث الأمريكي «اليهودي» الشهير «توماس فردمان» كتاباً بعنوان «العالم مسطحاً»، «التاريخ الملخص للقرن ٢١»، اختار فردمان أن يضع مقدمة كتابه هذا ما كتبه «كرستفر كلمبس» في مذكرته الأولى الآنفة الذكر «يا صاحب السمو كاثوليكيين وأمراء، أحبوا العقيدة المسيحية ويتوقون لرؤيتها تتوسع وكأعداء لملة محمد، وكل الوثنيين والهراطقة...»[٢].

إذن هي الحرب القديمة الحديثة على الإسلام؛ لأنه هو الدين الحق؛ ولأنه هو سبيل البشر للتحرر من العبودية المهينة ولتبقى الشعوب في العالم غافلة مسحوقة، ولتبقى الدول الاستعمارية والقوى الكبرى والشركات الكبرى وبارونات الربا تحصد دماء وعرق وجهد هذه الشعوب الغافلة المسحوقة.

لما كان يوم القادسية العظيم سنة (١٤هـ) ووقفت جنود الله المسلمة لتحرير العباد، جرت مفاوضات مع القادة الفرس، وسأل القائد الفارسي «رستم» الجندي المسلم المجاهد «رِبعي بن عامر ﷺ» فقال له: ما الذي جاء بكم؟ فكان جوابه: «جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة»[٣].

أما الغرب فهو يقيم الحروب وينشئها لمصالحه الاستعمارية الخاصة. إنه فعلاً أحادي النظرة والنزوة، إنه أناني، إنه يصنف كل من لا يحقق له مصالحه أنه بالضرورة شرير ويستحق القتل والإبادة.

في سنة (١٧٨٣م) وقف الملك البريطاني «جورج الثالث» وقال: «إن كل من يخالفني فهو خائن ووغد وسافل».

واليوم في سنة (٢٠٠١م) يقف الرئيس الأمريكي «جورج دبليو بوش» يقول

---

(١) المصدر: كتاب: الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، للأب مايكل بْرَيَر، ترجمة: أحمد الجمل وزياد منى (ص٨١).

(٢) توماس فردمان، العالم مسطحا (٤) النسخة العربية.

(٣) ذكر ذلك الإمام الطبري في التاريخ، حوادث سنة (١٤هـ) (٢/٤٠١).

للعالم كله: «من لم يكن معي فهو ضدي»، ويروج هو وطاقم إدارته لفكرة محور الشر، ويضع في هذا المحور كل من لم يحقق المصلحة الأمريكية والإسرائيلية كما يراها هو، وصدق الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة: ٢١٧].

وقال تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٨٩].

ومن هذا كله يظهر بجلاء أن الإسلام بعقائده الراسخة ومصادره الصادقة وأحكامه العادلة هو الإعلان الوحيد والطريق الوحيد لتحرر الإنسان وتحقيقه أعلى معدلات الحرية الحقة.

الفصل الثالث

الحرية وحفظ النفس
بين الشرع الإلهي والتشريع البشري

أولاً: قيمة النفس وحفظها في الشرع الإسلامي

النفس الإنسانية قيمة ثمينة؛ بل هي أثمن موجودات هذا العالم. وأكرم مخلوقات الله الخالق العظيم.

وتظهر قيمة هذه النفس الإنسانية وتكريمها عند الله خالقها في الأمور الآتية:

١ ـ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ [الإسراء: ٧٠].

• كرمهم الله بالعقل وبالنطق وبتعديل القامة وتجميلها، وبالمطاعم والمشارب والملذات، وبحسن الصورة وبتسخير جميع المخلوقات الأخرى لهم.

وأجمع علماء الإسلام أن جسد الآدمي طاهر وشعره وعرقه.

واستدل الشافعي بهذه الآية على أن جسد الآدمي لا ينجس بالموت[١].

• كرم الله هذا المخلوق البشري على كثير من خلقه. كرمه بخلقته على تلك الهيئة، كرمه بتسخير القوى الكونية له في الأرض، كرمه بالاستعدادات العقلية والنفسية والبدنية التي عمر بها الأرض يغيّر فيها وينتج وينشئ، ويركب ويحلل، ثم كرمه بإعلان هذا التكريم كله في كتابه المنزل من الملأ الأعلى إلى هذه الأرض، الدار التي عمرها الإنسان[٢].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/ ١١٥)، والقرطبي (١٠/ ١٩٠ ـ ١٩١)، وروح المعاني للألوسي (٥/ ١١٧ ـ ١١٨).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٤/ ٢٢٤١) بتصرف.

٢ ـ كرم الله بني آدم بأن خلق عنصرهم الأول أباهم آدم بيده ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته الكرام المقربين.

وقد نص القرآن على هذا التبجيل والتكريم لأبينا آدم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ [الأعراف: ١١].

وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝٧٢ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٧٣﴾ [ص: ٧١ ـ ٧٣].

٣ ـ كرم الله الخالق العظيم هذا المخلوق البشري «الإنسان» بالفطرة السليمة، العارفة بخالقها، العالمة بربها، التي لولا العوارض والصوارف لما عبدت إلا الله خالقها ومسويها وربها ومولاها.

قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ [الروم: ٣٠].

وقد فسر جماعات العلماء أهل التفسير من السلف الفطرة هنا بالإسلام؛ أي: أن الله فطر الناس من أصل خلقتهم مسلمين له مؤمنين، لولا ما يعرض لهذه النفس من عوارض ويصرفها عن دينها من صوارف لما عبدت إلا الله تعالى، وهذه هي حقيقة الإسلام[١].

وهذا قول الصحابة؛ كأبي هريرة، والتابعين، ومن بعدهم: كابن زيد، ومجاهد، وعكرمة وغيرهم. وقد دل الحديث الصحيح على ذلك:

فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه. كما تُنتجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟ حتى تكونوا أنتم تجدعونها**». قال أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾[٢].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٠/١٨٣ ـ ١٨٥)، والقرطبي (١٤/٨).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٥٩)، ومسلم (٢٦٥٨).

وكلمة «فطرة» في الآية منصوبة بالفتحة عند جميع القرّاء.

ووجه نصبها على قولين:

القول الأول: أنها منصوبة على أنها مفعول به بتقدير فعل اتبع أو الزم، فيكون المعنى: اتبع فطرة الله. وهذا قول الزجاج[١].

والقول الثاني: أنها منصوبة على المصدر، فيكون المعنى: فطر اللهُ الناس على ذلك فطرةً، وهذا قول الطبري[٢].

والرسل ﷺ جاؤوا بتذكير الفطرة ما هو معلوم لها، وتقويته، وإمداده ونفي المغيِّر للفطرة. فالرسل ﷺ بعثوا بتقرير الفطرة وتكميلها، لا بتغيير الفطرة وتحويلها، والكمال يحصل للفطرة المكملة بالشريعة المنزلة[٣].

٤ ـ كرم الله تعالى الإنسان بالعلم وميزه حتى على الملائكة، وجعل ذلك هو مقوم استخلاف الإنسان في هذه الأرض.

وقد ذكر الله تعالى ذلك مفصلاً، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: ٣٠ ـ ٣٣].

يقول الحافظ العماد ابن كثير: «يخبر تعالى بامتنانه على بني آدم بتنويهه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾»[٤].

وقال أيضاً: «هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة بما اختصه من علم أسماء كل شيء دونهم، وهذا كان بعد سجودهم له، وإنما قدم

---

(١) معاني القرآن (٤/ ١٨٤).

(٢) تفسير الطبري (١٠/ ١٨٣).

(٣) انظر: (١٦/ ٣٤٨) من مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية.

(٤) تفسير القرآن العظيم (١/ ٦٩).

هذا على ذاك لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليقة حين سألوا عن ذلك، فأخبرهم بأنه يعلم ما لا يعلمون. ولهذا ذكر الله هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم»(١).

وقال تعالى أيضاً: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

هذه الآيات الجليلات أول ما نزل من الوحي الكريم على رسول الله محمد ﷺ، وفيها من تكريم الإنسان وتشريفه أمور جليلة:

أ ـ فيها بيان أن الله العظيم الخالق هو الذي برأ هذا الإنسان وكونه وأنشأه وطوّره، ونقله في خلقته من العلقة المهينة إلى الصورة الحسنة، والخلقة التامة.

ب ـ أنه كرم الإنسان بالعلم ورفعه به، بأن خلق فيه أدوات التعلم والفهم من السمع والبصر والعقل والحواس، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾ [النحل: ٧٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فجعله عليماً، والعليم لا يكون إلا حياً، وكرّمه أيضاً بأن يكون قديراً سميعاً، بصيراً، والأكرم الذي جعل غيره عليماً هو أولى أن يكون عليماً، وكذلك في سائر صفات الكمال والمحامد»(٢).

جـ ـ علّم الإنسان بأن أوجد له أدوات الكتابة والتعلم ووسائلها ومن أشرفها وأجلها القلم. فالباء في قوله: (بالقلم) باء السبب؛ أي: القلم سبب ووسيلة للعلم والتعليم وكتابة العلوم، وحفظها في المدونات.

ولذلك أقسم الله بالقلم لشرفه وعظيم مهنته وفائدته، فقال تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ [القلم: ١، ٢].

والقلم هنا: المراد به قلم التقدير الأول: الذي سطر الله به مقادير كل شيء قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب

---

(١) المصدر السابق (١/ ٧٣).

(٢) تفسير سورة العلق ضمن مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٦١).

مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء». رواه مسلم[١].

وهو اسم جنس يدل على أقلام كثيرة، ليس قلماً واحداً، كما في الحديث الصحيح: **«رفعت الأقلام»**[٢]، فإذا كان الله تعالى كتب من علمه المحيط بالخلق بالقلم دلّ ذلك على شرف القلم، وشرف كتابة العلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «أَقْسَمَ سُبْحَانَهُ بِالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ؛ فَإِنَّ الْقَلَمَ بِهِ يَكُونُ الْكِتَابُ السَّاطِرُ لِلْكَلَامِ: الْمُتَضَمِّنِ لِلأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْإِرَادَةِ وَالْعِلْمِ الْمُحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ؛ فَالْإِقْسَامُ وَقَعَ بِقَلَمِ التَّقْدِيرِ وَمَسْطُورِهِ، فَتَضَمَّنَ أَمْرَيْنِ عَظِيمَيْنِ تَنَاسُبَ الْمُقْسَمِ عَلَيْهِ.

أَحَدُهُمَا: الْإِحَاطَةُ بِالْحَوَادِثِ قَبْلَ كَوْنِهَا وَأَنَّ مَنْ عَلِمَ بِالشَّيْءِ قَبْلَ كَوْنِهِ أَبْلَغُ مِمَّنْ عَلِمَهُ بَعْدَ كَوْنِهِ فَإِخْبَارُهُ عَنْهُ أَحْكَمُ وَأَصْدَقُ.

الثَّانِي: أَنَّ حُصُولَهُ فِي الْكِتَابَةِ وَالتَّقْدِيرِ يَتَضَمَّنُ حُصُولَهُ فِي الْكَلَامِ وَالْقَوْلِ وَالْعِلْمِ مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ؛ فَإِقْسَامُهُ بِآخِرِ الْمَرَاتِبِ الْعِلْمِيَّةِ يَتَضَمَّنُ أَوَّلَهَا مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ؛ وَذَلِكَ غَايَةُ الْمَعْرِفَةِ وَاسْتِقْرَارُ الْعِلْمِ إِذَا صَارَ مَكْتُوباً. فَلَيْسَ كُلُّ مَعْلُومٍ مَقُولاً وَلَا كُلُّ مَقُولٍ مَكْتُوباً، وَهَذَا يُبَيِّنُ لَك حِكْمَةَ الْإِخْبَارِ عَنِ الْقَدَرِ السَّابِقِ بِالْكِتَابِ دُونَ الْكَلَامِ فَقَطْ أَوْ دُونَ الْعِلْمِ فَقَطْ»[٣].

د ـ أنه تعالى علَّم الإنسان ما لم يعلم؛ وذلك يكون بطريقين:

طريق الحس والمشاهدة واستحثاث العقل للوصول إلى المعارف من كتاب الكون الفسيح الهائل.

والطريق الثاني: تعليم الإنسان ما لم يعلم ولا يمكن أن يعلمه لا بحس ولا بعقل، وهو ما أرسل به رسله وأنزل به كتبه من أنواع العلم العظيم من علوم الغيب العظيمة ومن علوم التشريع التي بها صلاح النفوس.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وَالتَّعْلِيمُ يَتَنَاوَلُ تَعْلِيمَ مَا أَنْزَلَهُ كَمَا

---

(١) مسلم (٢٦٥٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢٦٦٩)، والترمذي (٢٥١٦)، وصححه.

(٣) مجموع الفتاوى (٦٢/١٦).

قَـــــالَ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿بِٱلۡقَلَمِ﴾ يَتَنَاوَلُ تَعْلِيمَ كَلَامِهِ الَّذِي يُكْتَبُ بِالْقَلَم. وَنُزُولُهُ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ الَّتِي أَنْزَلَ فِيهَا كَلَامَهُ وَعَلَّمَ نَبِيَّهُ كَلَامَهُ الَّذِي يُكْتَبُ بِالْقَلَمِ دَلِيلٌ عَلَى شُمُولِ الْآيَةِ لِذَلِكَ»[1]. «ودلت هذه الآيات على جميع الأصول العقلية»[2].

لذلك استحقت النفس الإنسانية الحفظ والصيانة من كل ما يدنسها ويفسد فطرتها من الشرك والكفر والفجور والآثام.

ويتمثل حفظ وصيانة النفس الإنسانية في التشريع الإسلامي في الأمور الآتية:

الأمر الأول:

حفظها مما يفسدها ويخبثها ويدنسها ويجعلها مظلمة شريرة، والنفس البشرية إنما يفسدها أعظم الإفساد ويخبثها أعظم الخبث: الشرك بربها، والكفر بخالقها وما يجر ذلك من العمل السيئ الفاسد الخبيث، الذي تظلم به النفوس، وتنقلب إلى وحوش لا تعرف إلا شهوتها ولا تحقق إلا نزوتها.

قال تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «قد أفلح من زكى الله نفسه، فكثر تطهيرها من الكفر والمعاصي وأصلحها بالصالحات من الأعمال»[3].

فبالإيمان والعمل الصالح: تزكو النفوس البشرية وتسمو وتشرق وترتفع وتصفو وتصبح خيّرة طاهرة زكية نقية. تنتج الخير والإحسان والمعروف؛ فإذا تطهرت وزكت وسمت بالإيمان والعلم بالله وعبادته والعمل الصالح أصبحت هذه النفس الإنسانية من جنس نفوس الملائكة الشريفة؛ بل ربما أفضل، فاستحقت أن تنزل عليها الملائكة وتثبتها وتخالطها.

قـــال الله تـــعـــالـــى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ

(١) المصدر السابق (١٦/ ٣٦٤).
(٢) المصدر السابق (١٦/ ٣٦٢).
(٣) تفسير الطبري (١٢/ ٦٠٣).

ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٣].

ويصبح المؤمنون الصالحون أكمل حالاً ومآلاً باعتبار كمال ما انتهوا إليه من الملائكة الكرام، وإن كان الملائكة أفضل باعتبار كمال ما هم عليه الآن في منازلهم في الملكوت الأعلى منزهين عما يلابسه بنو آدم من الأحوال والشهوات[1].

أما إن كفر بنو آدم وعبدوا غير خالقهم تعالى وعملوا السيئات، فتظلم نفوسهم وتقسو قلوبهم، وينحطون في أحط الدركات وأخبث المنازل، حتى إنهم يكونون في حكم خالقهم أحط من البهائم منزلة، وأضل من الأنعام سبيلاً.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤].

وذلك يتبين بوجوه:

الأول: أن البهيمة منزوعة العقل إلا العقل الغريزي الفطري لمعاشها. فلا سبيل لها إلى أن تتكمل بعلم أو عمل أو صلاح أو إصلاح أو رشد أكثر مما هي عليه، أما الإنسان ففضل بالعقل والإدراكات والحواس والمواهب التي بها يتكمل ويصلح، فإذا تعطل عن بلوغ صلاحه وكماله الذي خلق من أجله بان نقصه وانحطت منزلته وظهر خسرانه.

الثاني: أن البهائم غير مكلفة ولا ينتظرها ثواب ولا عقاب ولا مصير من الشقاوة أو السعادة، وأما الإنسان فهو مكلف من قبل خالقه، وإنما خلقه لذلك، وله مصير محتوم هو صائر إليه: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ

(١) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٤/ ٣٤٣).

وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: ١٠٥ ـ ١٠٨].

أما البهائم؛ فإنها وإن حُشرت: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾﴾ [التكوير: ٥]، وبُعثت واقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء؛ فإن ذلك لتمام عدل الله تعالى.

قال رسول الله ﷺ: **«لَتُؤدُّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى إنه ليُقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»**(١).

ثم يقال لها: كوني تراباً، عندها يتمنى الكافر لما يعاين من الأهوال وينتظره من المصير المؤلم الرهيب أن لو كان مصيره مصير هذه البهائم: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠].

الوجه الثالث:

أن جميع الكائنات بما فيها البهائم مؤمنة بخالقها تسبحه وتصلي له إلا كافر وفاجر بني آدم؛ فإنه كافر بربه، متمرد على خالقه، يعبد ويسبح غير ربه ومولاه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾﴾ [الرحمٰن: ٦].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النور: ٤١].

الأمر الثاني:

مما تحفظ فيه النفس الإنسانية وتصان في التشريع الإسلامي:

---

(١) أخرجه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة (٨/ ١٨، ١٩)، والترمذي (٢/ ٦٨).

أنها تحفظ من حرمانها في اختيار ما تريد بما لا يعود بالفساد والمضرة عليها ولا على غيرها حتى الدين؛ فإن الله تعالى مع أنه أبطل جميع الأديان ولا يقبل غير الإسلام: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف: ٨٥]، إلا أنه تعالى منعنا أن نُكْرِه أحداً على قبول هذا الحق، وأن نرغم أحداً على الدخول في الإسلام وقبوله عنوة على قاعدة: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وسبب ذلك وحقيقته أن الدين لا يُكْره أحد عليه؛ لأنه قناعات واعتقادات ومحبة وشعور. فكيف يكره أحد على هذا؟! لأن الإكراه في حقيقته هو حمل الإنسان بالقوة والإجبار ليوافق بظاهره على ما هو كاره له وغير مريد له بباطنه.

قال أحمد بن فارس: «الكاف والراء والهاء: أصل صحيح واحد يدل على خلاف الرضا والمحبة»[١].

وفي «اللسان»: «أكرهته: حملته على أمر هو له كاره»[٢].

وقال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإكراه إلزام الغير بما لا يريده»[٣].

وهذا معنى هذه الآية: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾.

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «فتأويل الكلام إذن: قد وضح الحق من الباطل واستبان لطالب الحق والرشاد وجه مطلبه فتميز من الضلالة والغواية، فلا تكرهوا أحداً من أهل الكتابين ومن أبحت لكم أخذ الجزية منه على دينكم دين الحق؛ فإن من حاد عن الرشاد بعد استبانته له فإلى ربه أمره وهو وليُّ عقوبته في معاده»[٤].

وقال الإمام العماد ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام؛ فإنه بيّن واضح جلي دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحدٌ

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٩٢٣).
(٢) لسان العرب (١٢/٥٨).
(٣) فتح الباري (١٢/٣١١).
(٤) تفسير الطبري (٣/١٩).

على الدخول فيه؛ بل من هداه الله إلى الإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الإسلام مكرهاً مقسوراً»(١).

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: «إن قضية العقيدة كما جاء بها هذا الدين قضية إقناع بعد البيان والإدراك، وليست قضية إكراه وغصب وإجبار. ولقد جاء هذا الدين يخاطب الإدراك البشري بكل قواه وطاقاته، يخاطب العقل المفكر... يخاطب الكيان البشري كله... بكل جوانبه... في غير قهر حتى بالخارقة المادية التي قد تلجئ مشاهدها إلجاءً إلى الإذعان...»(٢).

ومما يدل على أن الله تعالى: لا يريد إلجاء الخلق إلى الإيمان إلجاءً تخضع له أعناقهم ويستسلم له ظاهرهم ذلة ورهبة قوله تعالى في أول سورة الشعراء: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾ [الشعراء: ٤].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «فظلت أعناقهم ذليلة، للآية التي ينزلها الله عليهم من السماء»(٣).

وهذه الآية جاءت في السياق مباشرة بعد قوله تعالى في الآية قبلها: ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾ [الشعراء: ١ ـ ٤].

فذكر تعالى آيات الكتاب وهو القرآن المنزل على صفوة وخاتم رسله محمد ﷺ، ووصفه بأنه كتاب مبين ظاهر الحجج واضح الدلالة، ومع ذلك أعرض عنه القوم وكذب به أكثرهم، وعاندوا حججه، مما جعل النبي ﷺ يكاد يقتل نفسه كمداً وحزناً وقهراً. وهذا معنى قوله: ﴿بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ [الشعراء: ٣] بسبب عدم إيمانهم وإعراضهم عن هذا القرآن مع عظيم بيانه، وقوة حججه، وظهور براهينه، وعجزهم عن معارضته.

كما قال تعالى في سورة الكهف: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف: ٦]، بعد قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٦٥).
(٢) في ظلال القرآن (١/ ٢٩١).
(٣) تفسير الطبري (٩/ ٤٣٢، ٤٣٣).

عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ [الكهف: ١، ٢]، فهو كتاب عظيم منزل من عند الله لا عوج فيه، ولا اختلاف، قيم: يهدي للتي هي أقوم وأحسن.

وكتاب هذا وصفه ينبغي أن تقبل عليه القلوب والعقول: به تهتدي، ومنه تستقي، وعليه تستقيم. ولكن الذي يقع من الخلق أو أكثرهم الإعراض عنه وتكذيبه مما يجعل النبي الكريم ﷺ يكاد يقتل نفسه كمداً وألماً وحسرة عليهم وأسفاً من إعراضهم بسبب عدم إيمانهم بهذا الحديث الذي هو القرآن العظيم، مع كل هذه القيمية التي هو فيها، والاستقامة التي هو عليها.

يقول الإمام القرطبي رحمه الله: «لعلك قاتل نفسك لتركهم الإيمان: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾؛ أي: معجزة ظاهرة، وقدرة باهرة، فتصير معارفهم ضرورية؛ ولكن سبق القضاء بأن تكون المعارف نظرية»[1].

«وقد كان الله قادراً على أن يلوي أعناقهم كرهاً إلى الإيمان، بآية قاهرة تقسرهم عليه قسراً... ولكنه سبحانه لم يشأ أن يجعل مع هذه الرسالة الأخيرة آية قاهرة، لقد جعل آيات القرآن منهاج حياة كاملة، معجزاً في كل ناحية، معجزاً في بنائه التعبيري باستقامته على خصائص واحدة لا يختلف ولا يتفاوت... معجزاً في بنائه الفكري فلا فلتة فيه ولا مصادفة، كل توجيهاته وتشريعاته تلتقي تتناسق وتتكامل وتحيط بالحياة البشرية وتستوعبها... معجزاً في يسر مداخله إلى القلوب والنفوس، ولمس مفاتيحها، وفتح مغاليقها واستجاشة مواضع التأثر والاستجابة فيها، وعلاجه لعقدها ومشكلاتها في بساطة ويسر عجيبين...

لقد شاء الله أن يجعل هذا القرآن هو معجزة هذه الرسالة، ولم يشأ أن ينزل آية قاهرة مادية تلوي الأعناق وتخضعها وتضطرها إلى التسليم، ذلك أن هذه الرسالة الأخير رسالة مفتوحة للأمم كلها، وللأجيال كلها... فناسب أن تكون معجزتها مفتوحة كذلك للبعيد والقريب، لكل أمة ولكل جيل...»[2].

---

(١) تفسير القرطبي (١٣/ ٦١).

(٢) في ظلال القرآن (٥/ ٢٥٨٤، ٢٥٨٥) باختصار.

وقد ضرب الله لنا مثلاً في القرآن بما صنعه بني إسرائيل لما كرهوا أمر الله ورفضوا التوراة وتمردوا على أحكام الله وعاندوا نبيهم موسى ﷺ، فأكرههم الله تعالى إكراهاً وألجأهم إلجاءً إلى الأخذ بها، ففعلوا تحت تهديد هذا الإكراه فما إن زال عنهم هذا الإكراه حتى نكثوا وعادوا إلى غيهم وتكذيبهم وتمردهم.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف: ١٧١].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ﴾: يقول من العمل بالكتاب، وإلا خر عليكم الجبل فأهلككم، فقالوا: بل نأخذ ما آتانا الله بقوة، ثم نكثوا بعد ذلك».

وقال قتادة: «جبل نزعه الله من أصله، ثم جعله فوق رؤوسهم، فقال: لتأخذن أمري أو لأرمينكم به».

وقال ابن جريج: «لتؤمنن بالتوراة ولتقبلنها، أو ليقعن عليكم»[1].

فلما جاء الإسلام عقب ذلك، جاء يعلن هذا المبدأ الكبير: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾.

وفي هذا المبدأ يتجلى تكريم الله للإنسان، واحترام إرادته، وفكره، ومشاعره، وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد، وتحميله تبعة عمله، وحساب نفسه... وهذه هي أخص خصائص التحرر الإنساني...

إن حرية الاعتقاد هي أول حقوق «الإنسان» التي يثبت له بها وصف «إنسان»، فالذي يسلب إنساناً حرية الاعتقاد، إنما يسلبه إنسانيته ابتداءً[2].

ثم لاحظ هنا أن أسلوب الخطاب في قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ﴾ أسلوب إنشائي خبري وإن كان المراد به الطلب، بنهي المؤمنين أن يكرهوا أحداً على دينهم.

وعدل في الخطاب هنا من أسلوب الطلب بالنهي إلى أسلوب الإنشاء بالخبر ليبين أن الإكراه والإلجاء لا تأثير له البتة في قبول الدين؛ لأنه قناعات

(١) انظر هذه الأقوال في: تفسير الطبري (٦/١٠٨، ١٠٩).

(٢) في ظلال القرآن (١/٢٩١).

وإرادات ومحبة وشعور. فمتى أكره عليها قبلها ظاهراً وله مخرج بالنفاق بأن يبطن خلاف ما يظهر.

قال الإمام العماد ابن كثير رحمه الله: «أي: لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام؛ فإنه بين واضح جلي دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه؛ بل من هداه الله إلى الإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره؛ فإنه لا يفيده الدخول في الإسلام مكرهاً مقسوراً»(١).

وقال الشيخ ابن سعدي رحمه الله: «هذا بيان لكمال هذا الدين الإسلامي، وأنه لكمال براهينه، واتضاح آياته، وكونه هو دين العقل والعلم، ودين الفطرة والحكمة، ودين الصلاح والإصلاح، ودين الحق والرشد، فلكماله وقبول الفطرة له، لا يحتاج إلى الإكراه عليه؛ لأن الإكراه إنما يقع على ما تنفر عنه القلوب، ويتنافى مع الحقيقة والحق، أو لما تخفى براهينه وآياته، وإلا فمن جاءه هذا الدين، ورده ولم يقبله، فإنه لعناده، فإنه قد تبين الرشد من الغي»(٢).

وقال الطاهر بن عاشور رحمه الله: «إن المراد بنفي الإكراه نفي تأثيره في إسلام من أسلم كرهاً فراراً من السيف على معنى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ [النساء: ٩٤]، وهذا القول تأويل في معنى الإكراه وحمل للنفي على الإخبار دون الأمر»(٣).

وقال الأستاذ سيد قطب رحمه الله: «والتعبير هنا يرد في صورة النفي المطلق: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾... نفي الجنس كما يقول النحويون..؛ أي: نفي جنس الإكراه، نفي كونه ابتداء، فهو يستبعده من عالم الوجود والوقوع، وليس مجرد نهي عن مزاولته، والنهي في صورة النفي ـ والنفي للجنس ـ أعمق إيقاعاً وآكد دلالة»(٤).

لذلك فإن هذه الأمة المسلمة هم خير الناس للناس، وأنفع الخلق للخلق،

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٦٥).
(٢) تفسير ابن سعدي (١/ ٢٠٤).
(٣) التحرير والتنوير (٢/ ٢٨).
(٤) في ظلال القرآن (١/ ٢٩١).

وأعدل أمة وأرحمها، فاستحقت تفضيل الله وتكريمه وجعلها هي الأمة الخيِّرة العدل الشاهدة على جميع الأمم، القيمة على الكتاب الوارثة له القائمة به، الداعية إليه، المنقذة للبشرية من ظلمات الشرك والخرافة وتسلط الطواغيت ومصادرة العقول والقلوب.

قال الله تعالى في وصفها: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ اللهُ: «كما هديناكم أيها المؤمنون بمحمد ﷺ، وبما جاءكم به من عند الله، فخصصناكم بالتوفيق لقبلة إبراهيم وملته، وفضلناكم بذلك على من سواكم من أهل الملل، كذلك خصصناكم ففضلناكم على غيركم من أهل الأديان بأن جعلناكم أمة وسطاً»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ يحتمل الجعل الشرعي؛ أي: أمرناكم باتباع الشرائع التي شرعناها لكم التي هي متوسطة بين طرفين.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ: «وأرى أن الله ـ تعالى ذكره ـ إنما وصفهم بأنهم «وسطاً» لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلوٍ فيه غلوّ النصارى الذين غلوا بالترهب، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه. ولا هم أهل تقصير فيه تقصير اليهود الذين بدّلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم وكذبوا على ربهم، وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه. فوصفهم الله بذلك إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها»[(٢)].

ويحتمل أن يكون الجعل القدري: أي: أن الله تعالى أخرج هذه الأمة وشرع لها أحسن الشرائع وأتمها وأعدلها لتكون في واقع الأمر كذلك عدولاً خياراً.

ليكونوا شهداء على الأمم كلها في الدنيا والآخرة. وقد كانوا كذلك.

أما في الدنيا فبإيمانهم بجميع أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام، وموالاتهم جميعاً، ومحبتهم وتعظيمهم بدون تفريق بين أحد منهم، فهم أولى الناس بالرسل، وألصق الأمم بالأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

---

(١) تفسير الطبري (٢/٨).

(٢) المصدر السابق (٢/٨، ٩).

وجمع الله لهم في شريعتهم المنزلة بين الحزم والعدل، وبين الرحمة والإحسان والفضل ما ليس لغيرها من الشرائع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «الشَّرَائِعُ ثَلَاثَةٌ: شَرِيعَةُ عَدْلٍ فَقَطْ، وَشَرِيعَةُ فَضْلٍ فَقَطْ، وَشَرِيعَةٌ تَجْمَعُ الْعَدْلَ وَالْفَضْلَ، فَتُوجِبُ الْعَدْلَ، وَتَنْدُبُ إِلَى الْفَضْلِ، وَهَذِهِ أَكْمَلُ الشَّرَائِعِ الثَّلَاثِ وَهِيَ شَرِيعَةُ الْقُرْآنِ الَّذِي جُمِعَ فِيهِ بَيْنَ الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ. مَعَ أَنَّا لَا نُنْكِرُ أَنْ يَكُونَ مُوسَى عليه السلام أَوْجَبَ الْعَدْلَ وَنَدَبَ إِلَى الْفَضْلِ، وَكَذَلِكَ الْمَسِيحُ ـ أيضاً ـ أَوْجَبَ الْعَدْلَ وَنَدَبَ إِلَى الْفَضْلِ. يقول تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦] فهذا عدل، ثم قال: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ فهذا فضل، وقال تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥] فهذا عدل، ثم قال: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ فهذا فضل، وقال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] فهذا عدل، ثم قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فهذا فضل»[1].

وقال تعالى عن رسالة خاتم أنبيائه محمد ﷺ وما تحمله من عدل ورحمة وإحسان للعالم ولليهود والنصارى على وجه الخصوص: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾﴾ [التين: ١ ـ ٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «أقسم بالأمكنة الشريفة المعظمة الثلاثة التي ظهر فيها نوره وهداه، وأنزل فيها كتبه الثلاثة: التوراة والإنجيل والقرآن، كما ذكر هذه المواضع الثلاثة في التوراة بقوله: «جاء الرب من سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران»[2].

---

(١) الجواب الصحيح (٥/٦١، ٦٢) باختصار.

(٢) هذا النص في سفر تثنية الاشتراع الإصحاح: ٣٣ (١ ـ ٣)، وبدل: «استعلن»: سطع.

فإن إشراقه من ساعير ظهور نوره بالمسيح، كما أن مجيئه من طور سيناء هو ظهور نوره بموسى، واستعلانه هو ظهور نوره بمحمد ﷺ، وفي نص التوراة: رتبها على ترتيبها الزماني فقدم الأسبق فالأسبق، وأما القرآن فأقسم بها على وجه التدريج درجة بعد درجة فختمها بأعلى الدرجات»(١).

أما في الآخرة، فأخرج البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يدعى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم يا رب، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلغ**»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: عدلاً، ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(٢).

وعن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه، أنه قال في هذه الآية: «كانوا شهداء على الناس يوم القيامة، كانوا شهداء على قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وغيرهم أن رسلهم بلغتهم وأنهم كذبوا رسلهم»(٣).

وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

هذه الآية الجليلة تشريفية للأمة المسلمة من جهة؛ لكنها تكليفية لها من جهة أخرى، فقد وصف الله تعالى ـ وقوله الحق ـ هذه الأمة بأنها خير أمة وجدت على ظهر الأرض فهم خير الناس. وأجل أمة وأشرفها.

عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده معاوية بن حيدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنتم متمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله**»(٤).

وتظهر خيريّتها في الأمور الآتية متى قامت بها، ورعتها حق رعايتها:

---

(١) الجواب الصحيح (٣/٣٧٣، ٣٧٤) و(٥/٢٠٧، ٢٠٨).

(٢) صحيح البخاري (٤٤٨٧) و(٧٣٤٩).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٣٣٦)، وقال الحافظ ابن حجر: إسناده جيد. فتح الباري (١٧/٣٤).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٠٠١) وحسنه، وابن ماجه (٤٢٨٨)، والحاكم (٤/٨٤) وصححه، وقال الحافظ ابن حجر: وهو حديث حسن صحيح، وفي حديث علي عند أحمد بإسناد حسن؛ أن النبي ﷺ قال: «**أنتم خير الأمم**» فتح الباري (١٧/٨٦).

١ - ما اشترطه الله عليها في الآية لضمان الخيرية وبقائها واستمرارها، وهو قوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، فإن جملة تأمرون وتنهون وتؤمنون: جملة فعلية في محل النصب على الحال؛ أي: أنتم خير أمة أخرجت للناس حالة كونكم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله تعالى.

فعلى هذا فإنه يختل من الخيرية بقدر ما يختل من الشروط السابقة.

رُوي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ قال: «هم أصحاب رسول الله ﷺ ومن صنع مثل صنيعهم»[(١)].

ورُوي عنه أنه قال ﷺ: «من أراد أن يكون من تلكم الأمة فليؤدِّ شرط الله منها: تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»[(٢)].

وقال الإمام مجاهد رحمه الله: «معناه على الشرط المذكور: تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»[(٣)].

ولذلك تفقد الأمة من هذه الخيرية بقدر ما تضيع وتفرط في أمر الله والقيام بكتابه وأداء هذه الشروط العظيمة.

قال رسول الله ﷺ: «**إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم بأذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد في سبيل الله سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم**»[(٤)].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**ولينزعن الله المهابة من قلوب أعدائكم وليلقين في قلوبكم الوهن**». قيل: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**»[(٥)].

واعتبر بحال بني إسرائيل فقد كانوا يوماً من الأيام أمة مختارة مصطفاة لما كانوا يؤمنون بالله وكان فيهم أنبياء الله وكان فيهم الكتاب والحكم والنبوة.

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ٣٩٠).
(٢) الطبري (٣/ ٣٩٠).
(٣) الطبري (٣/ ٣٩٠).
(٤) أخرجه أبو داود (٣٤٦٢)، والبيهقي (٥/ ٣١٦).
(٥) أخرجه أبو داود (٤٢٩٧)، وأحمد (٢٢٣٩٧).

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٢ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا مُّبِينٌ ۝٣٣﴾ [الدخان: ٣٢، ٣٣].

وقال تعالى أيضاً عنهم: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝١٧﴾ [الجاثية ١٦، ١٧].

فلما كفروا بآيات الله ونعمه. وقتلوا أنبياء الله. وتمردوا على شريعة الله، بل امتدت أيديهم الآثمة إلى كتاب الله فحرفوه وبدلوه، وقالوا كذباً وافتراءً: هذا من عند الله، فانقلب ذلك التفضيل إلى تخسير، وتحول ذلك الاختيار إلى لعن وطرد واندثار.

فوصل بهم الحال إلى أن قال الله عنهم: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٧٩ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ۝٨٠﴾ [المائدة: ٧٨ ـ ٨٠].

٢ ـ وتظهر خيرية هذه الأمة كذلك وفضلها وشرفها أنها أمة العدل والمساواة، الجميع في حكم الله سواء. شعارها الذي قامت عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝١٣﴾ [الحجرات: ١٣].

يقول رسول الله ﷺ: **«ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى»**[١].

أمة لما قامت وسادت شريعتها أمن الناس كل الناس على حرماتهم وأموالهم وأعراضهم.

أمة يقول نبيها ﷺ: **«من قتل معاهداً لم يَرَحْ رائحة الجنة»**[٢].

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٣٤٨٩)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٠٠).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٦٩١٤).

أمة في ظل شريعتها الغراء ردع الاعتداء، ووصلت الحقوق إلى الأرامل والأيتام والضعفاء.

يقول نبيها ﷺ: **«لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع»**[١].

قال الإمام عكرمة في تفسير آية الخيرية هذه: «كان من قبلكم لا يأمن هذا في بلاد هذا، ولا هذا في بلاد هذا، فلما كنتم أنتم أَمِنَ فيكم الأحمر والأسود»[٢].

وقال عكرمة أيضاً: «لم تكن أمة دخل فيها من أصناف الناس مثل هذه الأمة»[٣].

٣ ـ وتظهر خيريتها كذلك في أن هذه الأمة تستنقذ الناس من الكفر بالله والشرك به. ومن العبودية لغير الله تعالى من العبوديات المهينة للطواغيت والجبابرة من الكياسرة والأقاصرة، ومن وهم الخرافة وضلال العقول وظلمة النفوس إلى روح الإيمان وطاعة الرحمٰن وعدل الإسلام؛ بل إنها تقاتل وتجاهد من أجل تحرير البشرية كلها من رق العبودية وذل الخضوع للطواغيت والملوك الجبابرة لتنعم البشرية بعدل الإسلام ولو لم تدخل فيه وتتدين به، ثم إنها تنقذ بدعوتها وأخلاقها وجهادها أمماً من جحيم عذاب الله تعالى في الآخرة، وعظيم وأليم عقابه ونقمته لتنعم هذه الأمم بروح الله ورحمته، والفوز بجنته والنجاة من عذابه، ولو كانت ربما في أول الأمر كارهة.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل»**[٤].

وفي لفظ موقوف على أبي هريرة قال: **«كنتم خير أمة أخرجت للناس: خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام»**[٥].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٤٢٦).
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (٣٩٧٢).
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (٣٩٧٣).
(٤) أخرجه البخاري (٣٠١٠).
(٥) البخاري (٤٥٥٧).

والمعنى: أنهم يُؤسرون في الجهاد، يأسرهم المسلمون فيأتون بهم في السلاسل، فإذا رأوا وعاينوا عدل الإسلام ورحمته وكيف يعيش المسلمون في إيمان وعدل ورحمة أحبوا الإسلام فأسلموا طوعاً، فصار مصيرهم إلى الجنة والنجاة.

قال الإمام ابن الجوزي رحمه الله: «معناه: أنهم أسروا وقيدوا فلما عرفوا صحة الإسلام دخلوا طوعاً فدخلوا الجنة، فكان الإكراه على الأسر والتقييد هو السبب الأول»[1].

والجهاد إنما شُرع في الإسلام ليتحرر البشر كلهم من كل العبوديات المهينة المشينة لغير الله خالقهم، ليكونوا جميعاً عبيداً لله خالقهم، عابدين له لا يخضعون بالدينونة إلا له تعالى.

قال الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنفال: ٣٩]، وقال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه لما بعثه لفتح خيبر: «**انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم**»[2].

فهداية الناس للخير والحق واستنقاذهم من الكفر والعبودية لغير الله هو الهدف والغاية في الإسلام من عقد الألوية ونصب رايات الجهاد وبعث السرايا والجيوش.

وقال الصحابي الجليل ربعي بن عامر رضي الله عنه لرستم قائد جيش الفرس المجوس لما سأل رستم: ما الذي جاء بكم؟ فقال ربعي: «جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة»[3].

فنتج من حركة الجهاد والفتوحات الإسلامية العظيمة أن اهتدى الناس ودخلوا في دين الله أفواجاً وأحبوا الإسلام رغبة لا رهبة، وصلحت الأرض بعد فساد، وأضاءت بعد ظلام.

---

(١) انظر: فتح الباري (١٢/١١١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٢١٠).

(٣) ذكره الطبري في تاريخه (٣/٤٠١)، وانظر: الإصابة، لابن حجر (٣/١٥٨).

وكان من اختار دينه من أهل البلاد المفتوحة يتمتع بعدة مزايا لم تحصل في تاريخ الحروب كلها:

- إنهم يُقَرُّون على دينهم ولا يكرهون على تركه ولا يجبرون على الدخول في الإسلام على قاعدة ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ كما مر.
- إنهم يُؤَمَّنون على أموالهم وأعراضهم ودمائهم. بلا عدوان عليها. قال رسول الله ﷺ: «**من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة**»[(١)].
- إنهم لا يُسْتَرَقُّون؛ بل يبقون أحراراً متى كفوا عن القتال ووافقوا على شروط الذمة، ودفعوا مقداراً زهيداً من المال جزية.
- إنهم لا يُكَلفون بالقتال على المسلمين. بل يقاتل عنهم المسلمون ويحمونهم.

ترجم الإمام البخاري رحمه الله في كتاب الجهاد من الجامع الصحيح فقال: «باب يُقَاتل عن أهل الذمة، ولا يسترقون»[(٢)].

وفقه هذه الترجمة أن أهل ذمة المسلمين أمنهم من واجب المسلمين، وأن المسلمين يقاتلون في الدفاع عنهم وعن ممتلكاتهم ولا يكلفون هم بقتال؛ بل ولا يسترقون ويبقون أحراراً يقرون على دينهم ما اختاروه ورضوا به حتى ولو نقضوا العهد مع المسلمين وخانوا.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «ولا يسترقون؛ أي: ولو نقضوا العهد»[(٣)].

ونقل فيه ابن قدامة رحمه الله الإجماع على ذلك[(٤)].

وترجم البخاري في كتاب الجهاد من «الجامع الصحيح» فقال: «باب إذا قالوا: صبأنا ولم يحسنوا أسلمنا... وَقَالَ عُمَرُ: إِذَا قَالَ مَتْرَسْ فَقَدْ آمَنَهُ، إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ الأَلْسِنَةَ كُلَّهَا، وَقَالَ: تَكَلَّمْ لَا بَأْسَ»[(٥)].

أما الأثر الأول: فقد قال الحافظ في «الفتح»: «وصله عبد الرزاق عن

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٦٦).
(٢) فتح الباري (١٢/ ١٤٠).
(٣) فتح الباري (١٢/ ١٤٠).
(٤) المصدر السابق.
(٥) فتح الباري (١٢/ ٣٦٣).

طريق أبي وائل قال: جاءنا كتاب عمر ونحن نحاصر قصر فارس. . . وفيه: وإذا لقي الرجلُ الرجلَ فقال: لا تخف فقد أمنه، وإذا قال مترس فقد أمنه، إن الله يعلم الألسنة كلها»[١].

والمراد: أن أي رجل مسلم من المجاهدين قال أي كلمة بأي لغة أشعر فيها الكافر المحارب بالأمان فقد عقد له ذمة الإسلام، ووجب على المسلمين تأمينه وحقن دمه. وكلمة «متَّرس» كلمة فارسية معناها: «لا تخف».

وأما الأثر الثاني: فقد قال الحافظ أيضاً في «الفتح»: «وروى ابن أبي شيبة ويعقوب بن سفيان في «تاريخه» من طرق بإسناد صحيح عن أنس بن مالك قال: حاصرنا تستر فنزل الهرمزان على حكم عمر، فلما قدم به عليه استعجم فقال له عمر: تكلم لا بأس عليك. وكان ذلك تأميناً من عمر، وفي لفظ: بعث معي أبو موسى بالهرمزان إلى عمر فجعل عمر يكلمه فلا يتكلم فقال له عمر: تكلم، قال: أكلام حي أم كلام ميت؟ قال: تكلم لا بأس. قال: فأرادوا قتله، فقال عمر: لا سبيل إلى ذلك قد قلت له: تكلم لا بأس»[٢].

فيالله! هذا ملك أسير من ملوك الفرس أمن بين جميع المسلمين على دمه بكلمة واحدة من أمير المؤمنين: «لا بأس»، ثم انظر إلى هذه المفارقة: هذا الهرمزان الذي تمتع بكل هذا التأمين والأمان قابل ذلك كله بالنكران والكفران والغدر، فكان أحد رؤوس المتآمرين على قتل هذا الخليفة المبارك الفاروق عمر ﷺ. فأين أخلاق المسلمين النبيلة وأين غدر ولؤم هؤلاء الكفار؟!

ثم روى البخاري في الباب المذكور عن عمرو بن ميمون عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ قال في وصيته للخليفة بعده: «وأوصيه بذمة الله، وذمة رسوله ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم»[٣].

وبوّب البخاري أيضاً فقال: «باب: الوصاة بأهل ذمة رسول الله ﷺ»[٤].

---

(١) فتح الباري (١٢/ ٢٦٤).
(٢) المصدر السابق.
(٣) البخاري برقم (٣٠٥٢).
(٤) فتح الباري (١٢/ ٢٥٤).

وأخرج الحديث السابق.

بل إن الذمي مع تمتعه بكل هذه المزايا؛ فإن للعفو عنه والصفح مجالاً عظيماً حتى مع غدره وجرمه وعدوانه وإضراره بالمؤمنين.

ترجم الإمام البخاري في كتاب الجهاد من «الصحيح» فقال: «باب إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يعفى عنهم!»[(١)].

ثم أخرج حديث أبي هريرة ﷺ قال: «لما فتحت خيبر أهديت للنبي ﷺ شاة فيها سم فقال النبي ﷺ: **«اجمعوا إلي من كان ها هنا من يهود»**، فجمعوا له، فقال: **«إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقي عنه؟»** فقالوا: نعم، قال لهم النبي ﷺ: **«من أبوكم؟»** قالوا: فلان. فقال: **«كذبتم؛ بل أبوكم فلان»**، قال: صدقت، قال: **«فهل أنتم صادقي عن شيء إن سألت عنه؟»** فقالوا: نعم يا أبا القاسم وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا، فقال لهم: **«من أهل النار؟»** قالوا: نكون فيها يسيراً، ثم تخلفونا فيها، فقال النبي ﷺ: **«اخسؤوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً»**، ثم قال: **«هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟»**، فقالوا: نعم يا أبا القاسم، قال: **«هل جعلتم في هذه الشاة سماً؟»** قالوا: نعم، قال: **«ما حملكم على ذلك؟»** قالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريح، وإن كنت نبياً لم يضرك»[(٢)].

وهذا السم الذي وضع في الشاة وأكل منها النبي ﷺ وبعض أصحابه تضرر منه النبي الكريم عليه الصلاة والسلام وكان سبباً رئيساً في مرضه الذي توفي منه، وقد قال قبل وفاته عليه الصلاة والسلام: **«وما زلت أجد أثر الأكلة التي أكلت بخيبر، وهذا أوان انقطاع أبهري»**[(٣)].

ومات بسبب هذا السم بعض أصحابه وهو الصحابي: بشر بن البراء بن معرور ﷺ.

ومع هذا لم يعاقب النبي ﷺ يهود بشيء، ولم يقتل المرأة وهي زينب بنت الحارث زوج سلام بن مشكم التي وضعت السم في الشاة؛ بل عاملهم مزارعة

---

(١) فتح الباري (١٢/ ٢٦٠، ٢٦١).

(٢) صحيح البخاري (٣١٦٩).

(٣) صحيح البخاري (٤٤٢٨).

على القيام بأرضهم على نصف الخارج منها[١].

وترجم البخاري أيضاً: «باب هل يعفى عن الذمي إذا سحر؟ وقال ابن وهب: أخبرني يونس، عن ابن شهاب، سئل: أعلى من سحر من أهل العهد قتل؟ قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قد صنع له ذلك فلم يقتل من صنعه، وكان من أهل الكتاب»[٢].

والقتال إنما شرع في الإسلام أولاً لحفظه وردع العدوان عليه من الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ولحفظ بيضته وحقن دماء أهله.

وشرع ثانياً لإيصاله لأهل الأرض قاطبة وكسر كل الحواجز المعيقة لوصوله للناس كي يبصروا نور الله وهدى الله ثم يقررون بمحض إرادتهم الدخول فيه إن شاؤوا أو البقاء على أديانهم وما هم عليه.

«لقد انتضى الإسلام السيف، وناضل وجاهد في تاريخه الطويل لا ليكره أحداً على الإسلام؛ ولكن ليكفل عدة أهداف كلها تقتضي الجهاد.

• جاهد الإسلام وأهله أولاً ليدفع عن المؤمنين الأذى والفتنة التي كانوا يسامونها وليكفل لهم الأمن على أنفسهم وأموالهم وعقيدتهم، وقرر ذلك المبدأ العظيم ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾، ففي هذه الآية جعل القرآن العظيم الاعتداء على الدين الحق وإيذاء أهله لفتنتهم وصرفهم عنه أشد من الاعتداء على الحياة ذاتها. ومن هنا أخذ الفقهاء مسألة إذا تضايقت الضرورات قدّم الأهم، فإذا تضايقت كلية الدين وضرورته مع كلية الحياة وحفظ النفس قدم ضرورة حفظ الدين والثبات عليه على حساب فقد النفس وذهاب الحياة، فلو ألجئ مسلم إلى الكفر أو يقتل اختار القتل على أن يبقى مسلماً لا يكفر بالله، فالدين الحق أعظم قيمة من الحياة وفق هذا النص العظيم.

وإذا كان المؤمن مأذوناً له في القتال ليدفع عن حياته وماله فهو من باب أولى مأذون له في القتال ليدفع عن عقيدته ودينه.

• وجاهد الإسلام ثانياً لإيصال الحق والخير للناس وإزالة العقبات من طريق إبلاغ هذا الخير وإيصال هذا الحق للناس كافة كما جاء من عند الله للناس

---

(١) انظر: فتح الباري (١٦/٨١).

(٢) فتح الباري (١٢/٢٦٦).

كافة، فقد جاء الإسلام بأكمل تصور للوجود والحياة، وبأرقى نظام لتطوير الحياة، جاء بهذا الخير ليهديه إلى البشرية كلها، وليبلغه إلى أسماعها وإلى قلوبها، فمن شاء بعد هذا البيان والبلاغ فليؤمن ومن شاء فلا، فلا إكراه في الدين كما تقرر آنفاً.

• وجاهد الإسلام ثالثاً: ليقيم في الأرض منهجه وحكمه الذي أنزله الله تعالى وارتضاه ولا يقبل ديناً سواه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥]، ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠]، ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة: ١٩٣]، ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وفي نظام الإسلام وحده تتحقق حرية الإنسان. لأن الإسلام وحده هو الذي يقرر أن هناك عبودية واحدة لا غير، هي العبودية لله الكبير المتعال، كما قررناه آنفاً.

فليس في الإسلام فرد أو طبقة أو جماعة تشرع للناس أحكاماً وتستذلهم عن طريق هذا التشريع، في الإسلام التشريع وأحكامه حق لله الواحد الأحد، والجميع بدون استثناء يتجهون إلى الله وحده بالخضوع والطاعة والعبودية»[1].

الأمر الثالث:

مما تصان به النفس الإنسانية في التشريع الإسلامي هو حفظها، وصيانتها من العدوان عليها بالقتل وإزهاقها وحرمانها الحياة ظلماً وعدواناً.

دبّت الحياة في هذه الأرض بعد أن أهبط الله تعالى أبانا آدم عليه السلام، وأمنا حوّاء إلى هذه الأرض؛ لتكون مستقراً للبشر، ومتاعاً إلى حين.

قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: ٣٦].

وعظّم الله ـ الخالق العظيم ـ شأن الحياة التي هي نفخة كريمة من روحه

---

(١) في ظلال القرآن (١/٢٩٣ ـ ٢٩٦) بتصرف واختصار.

في الطين اللازب، وجعل الحياة آية كريمة من آياته العظيمة المبرهنة على عظمة الخالق تعالى وقدرته وكماله وجلاله.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الروم: ٢٠].

ولتعظيم شأن الحياة وتكريمها؛ لأنها نفخة كريمة من روح الله ـ الخلاق العليم ـ أمر الله تعالى الأملاك الكرام والأرواح العظام، وفيهم جبريل ـ روح القدس ـ وميكائيل ـ صاحب القطر والمطر والسحاب، وإسرافيل ـ صاحب النفخ في الصور لبعث الحياة مرة أخرى ليوم المعاد ـ أمرهم جميعاً بالسجود لهذا الطين اللازب بعد أن صار بشراً سوياً بأن نفخ الله فيه من روحه.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [ص: ٧١ ـ ٧٣].

وكان أول ذنب عُصي الله تعالى به في هذه الأرض، وأول جريمة ارتُكبت: هي جريمة العدوان على هذه النفخة الكريمة من روح الله ـ الخلاق العليم ـ.

إنها جريمة القتل، وإزهاق النفس البريئة، وإراقة الدم الحرام، وذلك في قصة ابني آدم «قابيل وهابيل».

ولعظيم أمرها، وشناعة إثمها، وفحش خطيئتها ذكرها الله تعالى في كتبه المنزلة على أنبيائه الكرام.

قال الله تعالى في كتابه الحكيم: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة: ٢٧ ـ ٣١].

وفي التوراة التي بأيدي يهود والكتاب المقدس العهد القديم عند النصارى نجد النص الآتي: «وقال قاين لهابيل أخيه: لنخرج إلى الحقل، فلما كانا في

الحقل، وثب قاين على هابيل أخيه فقتله. فقال الرب لقاين: أين هابيل أخوك؟ فقال: لا أعلم أحارس لأخي أنا؟. فقال: ماذا صنعت؟! إن صوت دماء أخيك صارخ إليَّ من الأرض، والآن فملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دماء أخيك من يدك، وإذا حرثت الأرض فلا تعود تعطيك ثمرها تائهاً شارداً تكون في الأرض...»[1].

ثم بعد أن ذكر الله تعالى جريمة القتل الأولى عقّب تعالى بتحذير الناس عموماً وبني إسرائيل خصوصاً من خطورة سفك الدماء، وإزهاق النفوس البريئة.

وخص بني إسرائيل بذلك لعلمه بكثرة ما سيفعلون من هذه الجريمة التي طالت حتى الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

فقال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة: ٣٢].

نعم لقد أسرف بنو إسرائيل عبر تاريخهم في الدماء كثيراً كما قال الله تعالى عنهم.

في إنجيل متى الحواري: «أيها الحيّات أولاد الأفاعي، كيف لكم أن تهربوا من عقاب جهنم؛ من أجل ذلك ها أنا ذا أرسل إليكم أنبياء وحكماء وكتبة، فبعضهم تقتلون، وتصلبون، وبعضهم في مجامعكم تجلدون، ومن مدينة إلى مدينة تطاردون حتى يقع عليكم كل دم زكي سُفك في الأرض، من دم هابيل الصّدّيق إلى دم زكريا بن بركيا الذي قتلتموه بين المقدس والمذبح، الحق أقول لكم: إن هذا كلّه يقع على هذا الجيل»[2].

وفي إنجيل لوقا: «ولذلك قالت حكمة الله: سأرسل إليهم الأنبياء والرسل وسيقتلون منهم، ويضطهدون، حتى يُطَالَب هذا الجيل بدم جميع الأنبياء الذي سُفِكَ منذ إنشاء العالم، من دم هابيل إلى دم زكريا الذي هلك بين المذبح

---

(١) الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح: ٤ (٧ ـ ١٦).

(٢) الكتاب المقدس، العهد الجديد، إنجيل متى (٢٣/٣٣ ـ ٣٦).

والهيكل. أقول لكم: أجل؛ إنه سيطالب به هذا الجيل»[1].

فحكم الله في القرآن والإنجيل: أن من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً. ومن أحياها واستبقاها فكأنما أحيا الناس جميعاً.

قال الإمام الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: «إن قاتل النفس الواحدة يصير إلى النار، كما لو قتل الناس جميعاً»[2].

وأخرج الإمام البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها؛ لأنه أول من سن القتل**»[3].

فهذا أعظم ما يكون في حفظ النفس البريئة، وعصمة الدماء المعصومة في التشريع الإسلامي النبيل.

(١) الكتاب المقدس، العهد الجديد، إنجيل لوقا (١١/٤٩ ـ ٥١).
(٢) تفسير الطبري (٤/٥٤٠ ـ ٥٤١)، وانظر: فتح الباري (٨/٢٦).
(٣) البخاري (٦٨٧٦).

ثانياً: قيمة حفظ النفس في التشريع البشري

إذا نظرنا تشريعاً وواقعاً إلى قيمة النفس الإنسانية في الديانات المحرفة (اليهودية والنصرانية) أو الوضعية أو القوانين الأرضية التي صاغها البشر؛ فإن الأمر مختلف، لقد أُهدرت إنسانية الإنسان وتحول إلى سلعة تصادر وتباع وتشترى.

أصبح القتل والإبادة الجماعية، والتطهير العرقي والإثني، ولأجل الطمع في ثروات الشعوب الضعيفة والمغلوبة هو سمت البشرية خصوصاً في العصور المتأخرة.

- **اليهود تشريعهم وواقعهم:**

اليهود شعب عنصري احتقاري، يحتقر شعوب الأرض، ويرى أنها إنما وُجدت لخدمته.

ثم هو شعب إبادي يعشق الدماء والقتل، وإزهاق النفوس البريئة، لا لشيء إلا لتفريغ شحنة الحقد الأسود، ضد كل من ليس يهودياً.

حتى قال عنهم مارتن لوثر كينغ: «لم تشرق الشمس يوماً على شعب أكثر دموية وحقداً من اليهود»[1].

ويقول جوزيف هيللر أحد منظّري الصهيونية مبيّناً النفسية الاستعلائية لدى اليهود: «فاليهود ليسوا طائفة دينية فحسب، وإنما لهم طبع قوي متميّز، وفردية

(١) نقلاً عن كتاب: الخديعة الكبرى، للدكتور محمد جمال طحّان (١٢١).

خاصة بهم، احتفظوا بها على مدى التاريخ، وإسرائيل لم تكن قط كنيسة، وإنما تعتبر نفسها شعباً مقدساً له مهمة روحية واجتماعية رفيعة، واليهود لا يؤلفون أمة كغيرهم من الأمم؛ فإن جوهر الشعب اليهودي ووجوده وتكونه العقلي، ومصيره الأخير، وماضيه وحاضره، وذكرياته التاريخية، ومثله العليا لا يمكن أن تنفصل بعضها عن بعض، وتتميز عن أصوله الروحية، وموقفه أمام الحياة»(١).

ويظهر حقد اليهود ودمويتهم واستعلائهم على شعوب الأرض في الأمور الآتية:

أ ـ ماديتهم التي جعلتهم يجسّدون الإله «يَهْوَه» في صورة عجل، أو ثور، وتارة أفعى:

يقول المؤرخ الشهير «وِلْ ديورانت»: «إن العبريين في أول ظهورهم على مسرح التاريخ، كانوا بدواً رحّلاً، يعبدون الصخور، والماشية والضأن، وأرواح الكهوف والجبال، ولم يتخلصوا قط من عبادة العجل الذهبي(٢)؛ لأن عبادة العجول كانت ولا تزال حيّة في ذاكرتهم، فكانوا في مصر وظلوا زمناً طويلاً يتخذون هذا الحيوان القوي آكل العشب رمزاً لإلههم، وإنا لنقرأ في سفر الخروج(٣): كيف أخذ اليهود يرقصون وهم عراة أمام العجل الذهبي، وكيف أعدم موسى واللاويين ثلاثة آلاف منهم عقاباً لهم على عبادة هذا الوثن، وفي تاريخ اليهود الباكر شواهد كثيرة تدل على أنهم عبدوا الأفعى، ومن هذه الشواهد صورة الأفعى التي وُجدت في أقدم آثارهم، ومنها الأفعى النحاسية التي صنعها موسى والتي عبدها اليهود في الهيكل إلى أيام حزقيا (حوالي ٧٢٠ ق.م) وكانت الأفعى تبدو حيواناً مقدساً لليهود كما كانت تبدو لشعوب كثيرة عداهم وذلك لأنها رمز للذكورة المخصبة من جهة، ولأنها من جهة أخرى تمثل الحكمة والدهاء والخلود، وكما أن آثار عبادة الآلهة الكثيرة البدائية قد بقيت في عبادة الملائكة القديسيين، وفي الأصنام الصغيرة المتنقلة التي كانوا يتخذونها آلهة

---

(١) نقلاً عن كتاب: اليهودية وحربها المستمرة على المسيحية، لإيليا أبو الروس (١١٠).

(٢) قال الله تعالى عنهم: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣].

(٣) انظر: النص في: الكتاب المقدس «العهد القديم»، سفر الخروج، الإصحاح: ٣٢ (٢٥ ـ ٢٨).

لبيوتهم كذلك، ظلت المعتقدات السحرية التي كانت منتشرة في العبادات القديمة باقية عند اليهود إلى عهود متأخرة»[١].

وقد كانت هذه النزعة المادية في تجسيد الإلـٰه في صورة وثن من حجر أو حيوان من ذهب ونحو ذلك نزعة ملازمة لليهود.

فقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم أنهم بمجرد خروجهم من مصر وإنجاء الله لهم من فرعون وجنوده بتلك المعجزة الباهرة ومعهم وبصحبتهم نبي الله موسى ﷺ ومع ذلك يقول تعالى عنهم: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨ ـ ١٤٠].

وفي سفر الخروج[٢]: «فقال الرب لموسى: هلم انزل فقد فسد شعبك الذي أصعدته من أرض مصر فسرعان ما حادوا عن الطريق الذي أمرتهم به، وصنعوا لأنفسهم عجلاً مسبوكاً، فسجدوا له وذبحوا له وقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر».

في سفر الملوك الأول[٣]: «فاستشار الملك وعمل عجلين من الذهب وقال لهم: كثير عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم. هذه آلهتك، يا إسرائيل التي أصعدتك من مصر، وجعل أحدهما في بيت إيل، والآخر وضعه في دان».

وسجّل القرآن العظيم عليهم شيئاً من ذلك، وذلك في طلبهم الصريح من نبي الله ورسوله موسى عليه الصلاة والسلام أن ينزل الله إليهم وأن يروه جهرة.

فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة: ٥٥، ٥٦].

وهؤلاء الذين طلبوا من موسى هذا الطلب هم خيار بني إسرائيل في ذاك الوقت وصحبة نبي الله موسى، كما قال تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت (٣٨٨ ـ ٣٣٩)، المجلد الأول والجزء الثاني.
(٢) الإصحاح: ٣٢ (٧ ـ ٩).
(٣) الإصحاح: ١٢ (٢٨ ـ ٢٩).

لِمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وقال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿١٥٣﴾﴾ [النساء: ١٥٣].

ولما تركهم نبيهم موسى عليه السلام وذهب إلى ميقات ربه أربعين ليلة فقط اتخذوا العجل الذي صنعوه من حليهم، وعبدوه من دون الله، وجعلوه هو الإلـه، في كفر صارخ وشرك فاضح، ضاربين عرض الحائط كل نعم الله العظيمة عليهم، وإنجاءهم من فرعون وقومه، وإهلاك فرعون وجنوده أمام أعينهم، وتظليل الغمام عليهم، وإنزال المن والسلوى وغير ذلك، وهارون عليه السلام معهم وبينهم يحذرهم وينذرهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾ [البقرة: ٥١].

وقال تعالى عن السامري: ﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه: ٨٨ ـ ٩١].

قال الإمام محمد بن جرير الطبري رحمه الله: «فذكرهم بذلك جل ذكره اختلاف آبائهم، وسوء استقامة أسلافهم لأنبيائهم، مع كثرة معاينتهم من آيات الله جل وعز وعِبَره ما تثلج بأقلها الصدور، وتطمئن بالتصديق معها النفوس، وذلك مع تتابع الحجج عليهم، وسبوغ النعم من الله لديهم، وهم مع ذلك مرة يسألون نبيهم أن يجعل لهم إلـهاً غير الله. ومرة يعبدون العجل من دون الله. ومرة يقولون: لا نصدقك حتى نرى الله جهرة. وأخرى يقولون له إذا دعوا إلى القتال: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون. ومرة يقال لهم: قولوا: حطة وادخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطاياكم، فيقولون: حنطة في شعيرة! ويدخلون الباب من قبل أستاههم، مع غير ذلك من أفعالهم التي آذوا بها نبيهم عليه السلام، التي يكثر إحصاؤها»[1].

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٢٩).

ب ـ الفوبيا اليهودية:

الفوبيا اليهودية: مرض مستقر في نفسية كل يهودي. وهو الخوف من المستقبل دائماً بشكل مبالغ فيه، والاعتقاد بأن اضطهاداً ما سيحدث يوماً لإبادة اليهود من قبل الأغيار: وهم كل من ليس يهودياً، إنه ـ الحقد على الماضي والخوف من المستقبل ـ هذه الفوبيا تدخل في تكوين فسيولوجية الطفل اليهودي وتكوين ثقافته الاعتقادية. إنه يتشبع بقضيتين:

- قضية تقول له: «لا تنس» ما جرى لليهود من كره وحقد وإبادة من قبل كل من ليس بيهودي.
- وقضية تقول له: «لا تغفر» لمن فعلوا بك ذلك أو يمكن أن يفعلوا.
- لا تنس أنك شعب الله المختار.
- لا تنس كره الأغيار لك.
- لا تنس الاضطهاد العالمي لليهود.
- لا تنس مئات السنين من العبودية في مصر.
- لا تنس السبي الآشوري والسبي البابلي.
- لا تنس تدمير الإمبراطور «تيطس» لأورشليم.
- لا تنس الاضطهاد النازي لليهود والهوليكست وغيرها.

تقول الدكتورة سناء عبد اللطيف: «يسعى أدب الأطفال العبري الموجّه إلى أطفال اليهود إلى إبراز اتجاه هام جداً من الاتجاهات الأيدولوجيّة الصهيونية، وهو: «أبدية الاضطهاد اليهودي»، فمن المعروف أن الأيدلوجيا الصهيونية روجت فكرة مؤدّاها أن اليهود تعرضوا للاضطهاد والتنكيل الذي توافرت فيه ثلاثة أبعاد:

البعد الأول: الامتداد التاريخي، بمعنى: أن الاضطهاد الذي حاق باليهود استمر منذ بداية التاريخ اليهودي الحالي بشكل دائم.

والبعد الثاني: الامتداد الجغرافي، بمعنى: أن الاضطهاد شمل اليهود في كل مكان.

والبعد الثالث: الفارق الكيفي بمعنى أن الاضطهاد الذي لقيه اليهود كان

من الضخامة والشراسة بحيث لا يمكن أن يعادله أي اضطهاد لأي جنس آخر في العالم»[١].

ونظراً لهذه العقدة اليهودية أنشأ اليهود ما يسمى «معاداة السامية» وهي تعني معاداة كل شيء يهودي، واستطاعوا عن طريق الأمم المتحدة والولايات المتحدة والغرب أن يلزموا بها العالم، بأن كل شيء فيه مطالبة لليهود أو ردع لهم ولجرائمهم هو معاداة للسامية.

يقول المفكر اليهودي الشهير «يهوذا بنسكر»: «إن معاداة السامية هو الرفيق الذي لا مهرب منه لليهودية على مدى التاريخ»[٢].

واستطاع مؤسس الحركة الصهيونية «ثيودور هرتسل» أن يحدد مفهومه للأمة اليهودية بأنها الأمة السامية المتميزة مؤكداً أن جميع الشعوب الأخرى لا سامية وأنها تتربص باليهود.

يقول هرتسل: «إن جميع الشعوب مجتمعة أو منفصلة، والتي يعيش بينها اليهود دائماً هي ذات نزعة لا سامية ظاهرة أو خفية... إن اللّاسامية موجودة منذ الأزل وباقية إلى الأبد»[٣].

ويؤكد هذا الأمر المفكر الصهيوني الشهير «نحمان سيركين» إذ يقول: «منذ بدء تعرُّف اليهود إلى العالم والتوتر قائم بين هذا العالم وبينهم. ولقد اتخذ هذا التوتر في العصر الحديث شكل اللاسامية، إن هذه العداوة ما بين اليهود والأغيار مجودة في كل زمان ومكان»[٤].

وها هو «ديفيد بن غوريون» مؤسس دولة إسرائيل على أرض فلسطين المغصوبة يلقي خطاباً أمام قادة حزب العمل بتاريخ ٧ كانون الأول سنة (١٩٣٨م)؛ أي: قبل خطابه بإعلان دولة إسرائيل بنحو عشر سنوات فيقول: «لو خُيِّرت بين إمكانية إنقاذ كل أطفالنا في ألمانيا بنقلهم إلى إنكلترا، وإنقاذ نصفهم بنقلهم إلى إسرائيل لاخترت الحل الثاني. علينا أن لا نأخذ بعين الاعتبار حياة

---

(١) كتاب: كيف يربي اليهود أطفالهم (٤٣).
(٢) نقلاً عن كتاب: أرض الميعاد، د. عبد الوهاب المسيري (٤٤).
(٣) كتاب: الدولة اليهودية (ص٢٢).
(٤) نقلاً عن كتاب: الفكرة الصهيونية، لأنيس صايغ (ص٢١٦).

هؤلاء الأطفال ولكن أيضاً تاريخ الشعب الإسرائيلي»[١].

هذه الفوبيا اليهودية ولَّدت في نفوس كل اليهود جميع أنواع الحقد على كل من ليس بيهودي، وسهلت لدى اليهود قتل وإبادة الأغيار ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

«لذلك يظهر اليهود حقدهم غير القابل للشفاء تجاه أمم الأرض وشعوبها، فاليهود متمردون دائماً وهم دائمو الشك والريبة والحسد، وتجدهم أذلاء في العسر، وقحون حاقدون في اليسر، وهم أعداء القيم الإنسانية الرفيعة وهم أكثر شعوب الأرض إجراماً... لقد شكل اليهود دائماً خطراً على غيرهم من الشعوب، فهم سبب الكوارث التي حلت بتلك الشعوب... وقد حرف اليهود الحقيقة دائماً، ونشروا عوضاً عنها الأباطيل الكاذبة ويجرؤ اليهود بوقاحة على إعلان حقدهم الأسود للشعوب، فهم يركعون أذلاء حينما يحيق بهم سوء، ويتمردون بوقاحة عندما يسرقون النعمة ورغد العيش، إن كنت لا تصدق فاذهب إلى فلسطين فهناك تستطيع أن تتكلم أحقر لغة»[٢].

جـ ـ عنصرية اليهود ودمويتهم:

طوال تاريخ اليهود وهم شعب قاسٍ متعجرف عنصري سفاك للدماء، دائم التمرد، مادي، أناني، ليس للرحمة والشفقة إليه سبيل.

ولقد ذكر الله تبارك وتعالى من إثمهم وجرائمهم وحقدهم وتمردهم شيئاً كثيراً. فقد قتلوا الأنبياء الكرام، وسفكوا الدم الحرام عتواً وظلماً، وأكلوا الربا، وفعلوا الفواحش، وسَبُّوا رب العالمين، وأضافوا إليه القبائح تعالى الله عن كفرهم وإثمهم علواً كبيراً، وحرفوا كتب الله، ووضعوا من عندهم كتب الإثم والكفر والفجور «كالتلمود» و«الكبالا» وملؤوها بالإثم والكفر والقتل والحقد، وعظموها أكثر من كتب الله المنزلة.

فصاروا بامتياز أعداء الله تعالى، وأعداء الرسل الكرام والأنبياء العظام، وأعداء الحق والعدل والسلام، وأصبحوا أساس كل الفواحش والجرائم والقبائح

(١) نقلاً عن كتاب: الخرافات المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، لروجيه جارودي (ص٦٥).

(٢) انظر: كتاب: صورة الله الوثنية والدموية في التوراة (ص١٦٢)، للأب حنا حنا.

في العالم أينما وجدوا وحيثما حلوا، فلنسمع لحديث القرآن العظيم الحق عنهم، وتحذيره الواضح منهم.

قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [النساء: ١٥٥ ـ ١٦١].

يقول الأب «إيليا أبو الروس»: «لقد كان خطر اليهود قائماً، وهم مشتتون مبعثرون في أنحاء الأرض، فكيف بهم وقد أصبح لهم «دولة»، تمدها شراذمهم ومسخروهم في الخارج بالمعونة والغذاء، وينفثون سمومهم في الداخل والخارج بالحقد والبغضاء، إن على آبائنا ومفكرينا وسياسيينا أن لا يغفلوا قط عن هذا الخطر الداهم الذي يمثل تعاليم الوحشية، وسفك الدماء، والإبادة في عقيدة دينية لا أخلاقية، ينسبونها إلى النبي موسى من إلـٰههم «يَهْوَه» إلـٰه الجنود»[١].

ويقول المؤرخ اليهودي «جان جستر» في رسالته الجامعية عن يهود الإمبراطورية الرومانية مؤكداً الطبيعة الإجرامية لليهود: «كل الجرائم التي ارتكبها البشر، ارتكبها اليهود أيضاً»[٢].

ويقول الأب «جورج وليمز» عن غزو اليهود مع الفرس مدينة القدس سنة (٦١٤م) والجرائم الفظيعة التي ارتكبوها بحق المسيحيين من سكان القدس: كل الأعمال الرهيبة التي رافقت نهب جيش بربري للمدينة عزّزها حقد اليهود... لقد تبع اليهود الفرس من الجليل لإرضاء انتقامهم بذبح المؤمنين، وهدم أكثر كنائسهم قدسية، لقد غرقوا بشكل كامل في الدم، وفي غضون أيام سقط قتيلاً

---

(١) اليهودية العالمية وحربها المستمرة على المسيحية (٥).

(٢) نقلاً عن كتاب: تلفيق صورة الآخر في التلمود، زياد منى (٢٤١).

(٩٠,٠٠٠) مسيحي من كلا الجنسين ومن كل الأعمار والمهن، ضحية كراهيتهم التي لا تستثني أحداً»[١].

في سفر النبي «أشعيا» من وصف اليهود ما يوافق ما ذكر الله عنهم في القرآن العظيم: «يد الرب لا تقصر عن الخلاص، وأذنه لا تثقل عن السماع؛ لكنّ آثامكم فرقت بينكم وبين إلٰهكم، وخطاياكم حجبت وجهه عنكم فلا يسمع؛ لأن أكفكم تلطخت بالدم، وأصابعكم بالإثم، وشفاهكم نطقت بالكذب، وألسنتكم تمتمت بالإثم، ليس من مُدَّعٍ بالبر ولا محاكم بالصدق يتكلون على الخواء وينطقون بالباطل، يحبلون بالظلّم ويلدون الإثم، ينقفون بيض الحيات، وينسجون خيوط العنكبوت وبيضهم من أكل منه يموت، وما كسر منه ينشق عن أفعى، خيوطهم لا تصير ثوباً، ولا يكتسون بأعمالهم؛ لأن أعمالهم أعمال إثم، وفعل العنف في أكفهم، أرجلهم تسعى إلى الشر، وتسارع إلى سفك الدم البريء، أفكارهم أفكار الإثم، وفي مسالكهم دمار وتحطيم، لم يعرفوا طريق السلام، ولا حق في سبلهم، قد جعلوا دروبهم معوجة، كل من سلكها لا يعرف السلام، لذلك ابتعد الحق عنا ولم يدركنا البر، نترقب النور فإذا بالظلام، والضياء فإذا بنا سائرون في الديجور... لأن معاصينا معنا وآثامنا قد عرفناها:

- العصيان والكذب على الرب.
- والارتداد من وراء إلٰهنا.
- والنطق بالظلم والتمرد.
- والحَبَل بكلام الكذب.
- والتمتمة به في القلب.
- فارتد الحكم إلى الوراء، ووقف البر بعيداً؛ لأن الحق عثر في الساحه، والاستقامة لم تقدر على الدخول فصار الحق مفقوداً...»[٢].

هذا حديث كتابهم ونبيهم عنهم. ولا أظن أحداً يقرأ هذا السجل الحافل بالشر والعتو والجريمة والإثم إلا حسب أنه حديث عن أسوَأ بشر وأحط قبيل وأقذر قوم وجدوا على ظهر الأرض.

(١) كتاب: المدينة المقدسة، ملاحظات تاريخية وطبوغرافية من القدس (٢٤٤).

(٢) سفر أشعيا، العهد القديم (١/٥٩ ـ ١٥).

يقول العالم والمؤرخ اليهودي «برنار لازاريه»: «اقتنع الرأي العام العالمي لأسباب كثيرة بميل اليهود إلى السحر. والأمر الذي يدعو إلى القلق هو اقتناعهم بهذه الفكرة وأن لها نصيباً من الصحة إلى حد ما... في التلمود دروس خاصة في الدجل ونحن عاجزون عن تتبع العلوم الإبليسية الواردة في التلمود وخاصة في «كبالا»[١]، وكلنا يعرف أن أعلى درجات السحر هو الذي يتم بدم الإنسان، كما نعرف جيداً أخبار الصبية من غير اليهود الذين ذهبوا ضحية على أيدي اليهود في الطقوس الدموية اليهودية»[٢].

ويقول العالم والمؤرخ المسيحي الأب قسطنطين: «إني أظن أن الشيطان عند حضوره الكوكب الأرضي إنما يحضر متقمصاً الشكل اليهودي، وأقطع فوق ذلك بحضوره منتسباً إلى «كبالا»؛ فإن كبالا أقصر جسر يربط بين المرء الضال والشيطان، إنه جسر مبتور لا رجعة منه للضال»[٣].

«بإمكاني القول: إنني أعرف شعباً واحداً فقط يحس أن بإمكانه الادعاء بأنه تسلم أمراً إلهياً لإبادة كل السكان الذين انتصر عليهم؛ وهذا هو إسرائيل، وفي هذه الأيام من النادر أن يمعن المسيحيون واليهود النظر في وحشية «يَهْوَه» التي تفتقر إلى الرحمة التي لا تتكشف في النصوص المعادية فحسب وإنما أيضاً في الأدب ذاته الذي يعدونه مقدساً»[٤].

يقول الأب «مايكل بُرَبَر» رئيس كلية اللاهوت والدراسات الكتابية في كلية سانتا ماري بجامعة سَرِي: «على المرء أن يعترف بأن أجزاء كثيرة من التوراة، ومن سفر التثنية بشكل خاص، تحوي عقائد مخيفة وميولاً عنصرية وكراهية

---

(١) كبالا: كتاب آخر لليهود لا يقل قبحاً ولا إجراماً عن التلمود ويضم الأفكار والاعتقادات التي ترفضها جميع الأديان. وهو كتاب مليء بالسحر الأسود الذي يبحث في علم الشيطان والأرواح الشريرة وعلم الأموات. ويتمسك معظم اليهود في العالم به ويسير عندهم جنباً إلى جنب مع التلمود وهو أقدم من التلمود وهو قسمان: **الأول**: «سفر يتزيرا»؛ أي: كتاب التكوين، **والثاني**: «سفر هازهار»؛ أي: كتاب الضوء والنور، وفيهما من الرعب والإرهاب والعلوم الشاذة والغريبة. انظر: دائرة المعارف اليهودية (٧/ ٦٥٠)، ط. الأولى (١٩٠٤م).

(٢) كتاب: مناهضة الشعوب السامية (٢/ ٢١٥).

(٣) كتاب: اليهود في كفة التاريخ (١٨٧).

(٤) G.E.M.de ste Croix, in said 1988 (166).

للغرباء، ودعماً للقوة العسكرية... وقد قدمت على أنها تفويض من السماء، في إطار سفر تم الاعتراف به نصاً مقدساً»[١].

ويقول المؤرخ البريطاني الشهير آرنولد توينبي: «إن جرائم إسرائيل أفظع من جرائم النازية»[٢].

لقد هاجمت الصحف اليهودية الأمريكي توينبي واتهمته بمعاداة اليهود. فكتب مقالاً في شهر فبراير سنة (١٩٥٥م) قال فيه: «إن المكابيين أجبروا «أدوم» و«الجليل» على اعتناق اليهودية بالقوة. وبذلك مهدوا لأن يكون هيرودس «والمسيح» يهوديين، وليسا من الأمميين... وإنه لمحزن حقاً أن تكون مجرماً بالتعصب أو أن تكون ضحية له، وقد كان اليهود على التعاقب مجرمين به، وضحايا له منذ القرن الثاني قبل الميلاد، إن مأساة التاريخ اليهودي الحديث هي أنها بدلاً من أن يتعلم اليهود من مصائبهم وآلامهم قد صنعوا بغيرهم «العرب» ما صنعه الآخرون بهم؛ أي: النازيون»[٣].

- «وأما مدن هؤلاء الأمم التي يعطيها لكم يهوه إلٰهكم ملكاً، فلا تبقوا أحداً منها حياً؛ بل تحللون إبادتهم، وهم الحثيون والأموريون والكنعانيون والفرزيون والحوِّيون واليبوسيون، كما أمركم يهوه إلٰهكم، لئلا يعلموكم أن تفعلوا الرجاسات التي يفعلونها في عبادة آلهتهم فتخطأوا إلى يهوه إلٰهكم»[٤].
- «وأخرج داود الشعب الأسرى الذين بقوا في المدينة ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد، وفؤوس حديد، وأحرقهم في أُتُون الآجر، وهكذا صنع بجميع الأسرى من مدن عمُّون»[٥].
- «أما الدانيُّون فقد أقبلوا إلى لايش ومعهم أصنام ميخا والكاهن فوجدوا شعباً آمناً مسالماً فهاجموها، وقتلوا أهلها بحد السيف وأحرقوها»[٦].

---

(١) كتاب: الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، للأب مايكل بْرَيَر (٢٢ ـ ٢٣).
(٢) كتاب: دراسة في التاريخ، فصل: اليهود والغرب الحديث (١١٩/٨).
(٣) نقلاً عن كتاب: اليهودية العالمية وحربها المستمرة على المسيحية، لإيليا أبو روس (ص١٣٥).
(٤) الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر التثنية الاشتراع: ٢٠ (١٦ ـ ١٨).
(٥) المصدر السابق، سفر صموئيل الثاني: ١٢ (٣١).
(٦) المصدر السابق، سفر القضاة: ٢٧ (١٨).

● «وحرموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة وطفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف»(١).

● «فالآن اذهب واضرب «عماليق»، وحرموا كل ماله ولا تعف عنهم؛ بل اقتل رجلاً وامرأة وطفلاً ورضيعاً، بقراً وغنماً وجملاً وحماراً»(٢).

● «كل من وُجد يُطعن، وكل من هرب يسقط بالسيف، وتحطَّم أطفالهم أمام عيونهم، وتنهب بيوتهم وتفضح نساءهم»(٣).

● «متى أتى بك الرب إلـٰهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها وطرد شعوباً كثيرة أمامك، ودفعهم الرب إلـٰهك أمامك وضربتهم؛ فإنك تحرمهم لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم»(٤).

هذه النصوص «مقدسة» من الكتاب «المقدس» الذي يدين به ويعتنقه اليهود في العالم؛ بل وكل النصارى المؤمنون بالعهد القديم كجزء عظيم من الكتاب المقدس، وهي نصوص تثير الرعب، وتأصِّل القتل لكل شيء.

لذلك عاث اليهود في الأرض فساداً وبرروا لأنفسهم قتل الأغيار، وإراقة الدماء، وحرفوا التوراة وحشوها بالحقد والقتل، ووضعوا الكتب المزورة المليئة بالقتل والشر والفساد والإفساد العظيم في الأرض.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة: ٦٤].

وسأذكر طرفاً من جرائمهم البشعة:

أ ـ اليهود هم قتلة الأنبياء بامتياز وقتلة كل داعٍ للخير والعدل والسلام والهدى عبر تاريخهم الإجرامي الحافل والطويل:

يقول عنهم رب العالمين في كتابه المبين:

---

(١) المصدر السابق، سفر يشوع: ٢١ (٦).
(٢) المصدر السابق، سفر صموئيل الأول: ١٥ (٣).
(٣) المصدر السابق، سفر أشعيا: ١٥ (١٣).
(٤) المصدر السابق، سفر تثنية الاشتراع: ٧ (١٠ ـ ٢٣).

• قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣)﴾ [آل عمران: ١٨٣].

• وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧)﴾ [البقرة: ٨٧].

• وقال تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١].

• وقال تعالى عنهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

• وقال تعالى عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١)﴾ [آل عمران: ٢١].

• وقد همّوا بقتل نبي الله هارون عليه الصلاة والسلام لما نهاهم عن عبادة العجل من دون الله تعالى، فقال تعالى في هذا: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠)﴾ [الأعراف: ١٥٠].

• وهمّوا وعزموا على قتل نبي الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه المسيح عيسى ابن مريم ﷺ. ولولا أن الله تعالى أنقذه ونجاه ورفعه إليه لكان قد فعلوا جريمتهم النكراء، ولكن شُبّه لهم، ومع هذا يعتقدون بل ويفاخرون بأنهم قتلوا المسيح ﷺ انتقاماً ونكاية.

قال تعالى فيهم: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧)﴾ [النساء: ١٥٦، ١٥٧].

• قتلوا نبي الله زكريا وابنه السيد الحصور يحيى عليهما الصلاة والسلام:

في إنجيل لوقا[١]: «سأرسل إليهم الأنبياء والرسل، سيقتلون منهم ويضطهدون يطالب هذا الجيل بدم جميع الأنبياء الذي سفك منذ إنشاء العالم من دم هابيل إلى دم زكريا الذي هلك بين المذبح والهيكل».

وفي متى[٢]: «يقع عليكم كل دم زكي سفك في الأرض من دم هابيل الصديق إلى دم زكريا بن بركيا الذي قتلتموه بين المقدس والمذبح».

يقول أحد شراح الكتاب المقدس: «إن مقتل هابيل وزكريا هو المقتل الأول والأخير الوارد ذكرهما في الكتاب المقدس العبري (تك ٤/٨ ـ ١٠ وأخ ٢٤/٢٠ ـ ٢٢) وهما يمثلان كافة جرائم التاريخ المقدس بصرف النظر عن الشهداء اللاحقين كشهداء زمن المكابيّين الوارد ذكرهم في العهد القديم اليوناني».

• بل إنهم ليكملوا سلسلة جرائمهم القذرة ضد مصدر كل خير وعلم وهدى، وهم الأنبياء ﷺ حاولوا مراراً قتل سيد الرسل وخاتم الأنبياء سيدنا ونبينا محمد ﷺ ليطفئوا بزعمهم أمل البشرية بالحق والهدى والنجاة، وليفصموا بأيديهم الآثمة آخر حلقة من سلسلة الاتصال بالسماء، بمحاولتهم الخاسرة قتل خاتم الأنبياء، فداه أبي وأمي ونفسي ﷺ.

• خرج رسول الله ﷺ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ إلى يهود بني النضير، وَكَلَّمَهُمْ أَنْ يُعِينُوهُ فِي دِيَةِ رجلين من قبيلة كلاب قَتَلَهُمَا رجل من أصحابه اسمه عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ في قصة حصلت، فقَالت يهود لرسول الله ﷺ: نَفْعَلُ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، فاجْلِسْ هَاهُنَا حَتَّى نَقْضِيَ حَاجَتَكَ، وَخَلَا بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وَسَوَّلَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ الشَّقَاءَ الَّذِي كُتِبَ عَلَيْهِمْ، فَتَآمَرُوا بِقَتْلِهِ ﷺ، وَقَالُوا: أَيُّكُمْ يَأْخُذُ هَذِهِ الرَّحَا وَيَصْعَدُ على ظهر البيت، فَيُلْقِيهَا عَلَى رَأْسِ محمد يَشْدَخُهُ بِهَا؟ فَقَالَ: أَشْقَاهُمْ عمرو بن جُحَاش: أَنَا، فَجَاءَ الْوَحْيُ عَلَى الْفَوْرِ إلى رسول الله ﷺ بِمَا هَمُّوا بِهِ، فَنَهَضَ مُسْرِعاً، ثم لَحِقَهُ من معه من أَصْحَابُهُ، وَقَالُوا له: نَهَضْتَ وَلَمْ نَشْعُرْ بِكَ، فَأَخْبَرَهُمْ بِمَا هَمَّتْ به يَهُودُ، وكان ذلك نقضاً للعهد منهم مع

---

(١) الإصحاح (١١/٤٩ ـ ٥١).

(٢) الإصحاح (٢٣/٣٥ ـ ٣٦).

رسول الله ﷺ. وكان سبب غزوة بني النضير وإجلائهم. وفي خبرهم وشأنهم نزلت سورة الحشر وكان ذلك في شهر ربيع الأول سنة أربع من الهجرة[١].

• ومرة أخرى وضعوا له ﷺ السمّ في لحم الشاة المشوية غدراً وجرماً؛ فإنه لما فتح خيبر أهدت له امرأة من يهود خيبر شاة مشوية ووضعت فيها السم. وسألت: أي اللحم أحب إليه؟ فقالوا: الذراع، فأكثرت السم في الذراع، فلما وضعت له ﷺ رفعت إليه الذراع فنهش منها، فأخبره الذراع أنه مسموم، فقال عليه الصلاة والسلام: «**اجمعوا لي من ها هنا من اليهود. فسألهم: أجعلتم في هذه الشاة سماً؟** قالوا: نعم. قال: **ما حملكم على ذلك؟** قالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريح منك وإن كنت صادقاً لم يضرك»[٢].

وكان هذا السمّ هو سبب مرض رسول الله ﷺ بعد ثلاث سنوات مرضه الذي توفي فيه؛ فإنه عليه الصلاة والسلام قال في مرضه ذاك: «**ما زلت أجد أثر الأكلة التي أكلت من الشاة بخيبر، وهذا أوان انقطاع أبْهُري**»[٣].

قال الإمام الزهري رحمه الله: فتوفي رسول الله ﷺ شهيداً[٤].

ب ـ مذابح ومجازر سنة (٦١٤م):

بعد سقوط القدس تحت الاحتلال الساساني الفارسي في سنة (٦١٤م) دخل اليهود بصحبة الجيش الفارسي الغازي المحتل وارتكبوا أبشع أنواع المجازر والقتل بحق كل السكان النصارى في ذاك الوقت، وكان الذين قتلوا أكثر من (٩٠,٠٠٠) شخص من الرجال والنساء والأطفال.

يقول المؤرخ الإنجليزي «هنري هارت فلمان» وهو رئيس كاتدرائية «سان بول» بلندن: «جاء ذلك في نهاية انتظار طويل لانتصار وانتقام، وهم لم يهملوا الفرصة، فقد غسلوا تجديف المدينة بدم المسيحيين وقد قيل: إن الفرس باعوا الأسرى المساكين وكان انتقام اليهود أقوى من جشعهم، فهم لم يترددوا في

---

(١) انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد، للإمام ابن قيم الجوزية (٣/ ١٢٧ ـ ١٢٩).

(٢) صحيح البخاري رقم (٣١٦٩)، وانظر: زاد المعاد (٣/ ٣٣٥).

(٣) صحيح البخاري (٤٤٢٨) في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، وانظر: زاد المعاد (٣/ ٣٣٦).

(٤) زاد المعاد (٣/ ٣٣٧).

التضحية بثرواتهم لشراء العبيد؛ بل قاموا بقتل كل من اشتروه ودفعوا ثمنه غالياً وأشيع في ذلك الزمن أن عدد الذين قتلوا كان (٩٠,٠٠٠) شخص»[١].

ويقول الأب «جورج وليمز» عن مجازر سنة (٦١٤م): «كل الأعمال الرهيبة التي رافقت نهب جيش بربري للمدينة عززها حقد اليهود... لقد تبع اليهود الفرس من الجليل لإرضاء انتقامهم بذبح المؤمنين، وهدم أكثر كنائسهم قدسية، لقد غرقوا بشكل كامل في الدم، وفي غضون أيام سقط (٩٠,٠٠٠) مسيحي، من كلا الجنسين، ومن كل الأعمار والمهن، ضحية كراهية اليهود التي لا تستثني أحداً»[٢].

ويقول القس الفلسطيني «أنطيوخوس سترا نيغوس» في كتابه «الاستيلاء على أورشليم»: «ابتهج اليهود الأدنياء بشدة، ذلك أنهم يكرهون المسيحيين ورسموا خطة شيطانية... وفي هذا الفصل اقتربوا من حافة البركة ونادوا أبناء الرب المحبوسين فيها قائلين: إذا أردتم النجاة من الموت فصيروا يهوداً وأنكروا المسيح، تتخلصوا آنئذ من الوضع الذي أنتم فيه سنحرركم بأموالنا، وستستفيدون منا... ولما تبين لليهود الأنجاس صمود المسيحيين وإيمانهم الذي لا يتزعزع، استثيروا بغضب شديد... كم من أرواح زهقت في بركة «ما ميلا»، كم مات منهم جوعاً وعطشاً، كم قُتل من القسيسين والرهبان بحد السيف... من يستطيع إحصاء تلال جثث المذبوحين في أورشليم»[٣].

جـ - شهداء وشهيدات نجران:

إنها مذبحة تضاف إلى سجل اليهود الأسود المليء بالإجرام والقتل والخراب والكراهية لكل ما هو من الأميين والأغيار.

وصدق الله العظيم في وصفهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

وقد اتفق على ذكر هذه الجريمة النكراء المصادر الإسلامية والمصادر المسيحية.

---

(١) كتاب: تاريخ القدس «History of Chetews». نقلاً عن كتاب: تلفيق صورة الآخر في التلمود، تأليف: زياد منى (ص٢٤٢).

(٢) كتاب: المدينة المقدسة، ملاحظات تاريخية وطبوغرافية من القدس (٢٤٤).

(٣) نقلاً عن كتاب: تلفيق صورة الآخر في التلمود، زياد منى (ص٢٤٨، ٢٤٩).

وأعظم وأوثق مصدر سجلها هو كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

فقال الله تعالى: ﴿وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ الْأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝١٠﴾ [البروج: ١ ـ ١٠].

قال أبو محمد بن هشام رحمه الله: «وَبِنَجْرَانَ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ دِينِ عِيسَى ابن مَرْيَمَ عليه السلام عَلَى الإِنْجِيلِ، أَهْلِ فَضْلٍ، وَاسْتِقَامَةٍ مِنْ أَهْلِ دِينِهِمْ، لَهُمْ رَأْسٌ يُقَالُ لَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ الثَّامِرِ، وَكَانَ مَوْقِعُ أَصْلِ ذَلِكَ الدِّينِ بِنَجْرَانَ... فَسَارَ إِلَيْهِمْ ذُو نُوَاسٍ بِجُنُودِهِ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ، وَخَيَّرَهُمْ بَيْنَ ذَلِكَ وَالْقَتْلِ، فَاخْتَارُوا الْقَتْلَ، فَخَدَّ لَهُمْ الأُخْدُودَ، فَحَرَقَ مَنْ حَرَقَ بِالنَّارِ، وَقَتَلَ بِالسَّيْفِ وَمَثَّلَ بِهِم حَتَّى قَتَلَ مِنْهُمْ قَرِيباً مِنْ عشرين ألفاً، فَفِي ذِي نُوَاسٍ وَجُنْدِهِ تِلْكَ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ الْأُخْدُودِ ۝٤﴾ الآيات»[1].

وقال أبو عبد الله القرطبي رحمه الله: «واجتمع أهل نَجْرَانَ عَلَى دِينِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الثَّامِرِ، وكان على ما جاء به عيسى ابن مَرْيَمَ مِنَ الإِنْجِيلِ وَحُكْمِهِ. ثُمَّ أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَ أَهْلَ دِينِهِمْ مِنَ الأَحْدَاثِ، فَمِنْ ذَلِكَ كَانَ أَصْلُ النَّصْرَانِيَّةِ بِنَجْرَانَ. فَسَارَ إِلَيْهِمْ ذُو نُوَاسٍ الْيَهُودِيُّ بِجُنُودِهِ مِنْ حِمْيَرَ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ، وَخَيَّرَهُمْ بَيْنَ ذَلِكَ أَوِ الْقَتْلِ، فَاخْتَارُوا الْقَتْلَ، فَخَدَّ لَهُمُ الأُخْدُودَ، فَحَرَّقَ بِالنَّارِ وَقَتَلَ بِالسَّيْفِ، وَمَثَّلَ بِهِمْ حَتَّى قَتَلَ مِنْهُمْ عِشْرِينَ أَلْفاً. وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفاً. وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: كَانَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ سَبْعِين ألفاً»[2].

هذا الصحيح إن شاء الله في خبر هؤلاء المؤمنين الذين حُرِّقوا في الأخدود وأنزل الله فيهم سورة البروج.

---

(١) السيرة النبوية (١/ ٣١) و(١/ ٣٥ ـ ٣٦)، وانظر: تاريخ الأمم والملوك، للإمام الطبري (١/ ٤٣٥، ٤٣٦).

(٢) تفسير القرطبي (١٩/ ١٩٢).

ولا يشكل على هذا ما أخرجه الإمام مسلم رَحِمَهُ اللهُ في أواخر الجامع الصحيح من حديث عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، عَنْ صُهَيْبٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ...، فذكر قصة الغلام والساحر والراهب وفيه: فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ، فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ، فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا» الحديث[١].

فهذا الحديث مختلف في رفعه ووقفه، فأخرجه مسلم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى فرفعه، وليس فيه ذكر أن هذه القصة هي التي عناها الله تعالى في سورة البروج.

وأخرجه الترمذي[٢] من طريق معمر بن راشد عن ثابت عن عبد الرحمٰن موقوفاً من كلام صهيب، وفي حديثه ذكر في آخره يقول الله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥﴾ إلى العزيز الحميد.

فالذي يظهر أنها قصة أخرى غير ما ذكره الله في سورة البروج[٣]. والله أعلم.

وفي رسالة «ماري شمعون الأورشمي»: «جمع اليهود كل الشهداء وأحضروها إلى الكنيسة وكدّسوها هناك، ثم أحضروا الكهنة والشماسة الإنجيليين والأفدياقون والقراء والمكرسيين رجالاً ونساءً. وحسب أقوال الذين قدموا من نجران غصت الكنيسة من جدارها إلى جدارها بحوالي ألفي شخص. ثم جمعوا الحطب حول الكنيسة من الخارج وأضرموا النيران، وهكذا أحرقوا الكنيسة بكل من فيها تَمَّ إحراق البيعة ومن فيها من الشهداء القديسين والأسقف بولس ورجال الإكليروس، وسائر الناس كما ذكرنا سابقاً في الخامس عشر من تشرين الثاني. وفي اليوم ذاته استشهدت الشماسة أليصابات ورفيقاتها..»[٤].

---

(١) صحيح مسلم رقم (٣٠٠٥).
(٢) الترمذي رقم (٣٣٣٩)، وقال: حسن غريب.
(٣) انظر: فتح الباري (١٨/ ٣٥٠).
(٤) انظر نص الرسالة كاملاً في كتاب: قدّيسات وملكات من المشرق السرياني وجزيرة =

د ـ جرائم مذابح اليهود في فلسطين وغيرها في العصر الحديث:

حدد «تيودور هرتسل» (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤م) أهداف قيام دولة اليهود على أرض فلسطين بأن الدولة اليهودية ستكون: «جزءاً من المتراس الأوروبي ضد آسيا، ومخفراً متقدماً للحضارة في مواجهة البربرية»[١].

وعندما ناقش ما إذا وجب إقامة الدولة في الأرجنتين أو في فلسطين قال هرتسل: «فلسطين هي وطننا التاريخي الذي نتذكره على الدوام، إن اسم فلسطين تحديداً سوف يجذب شعبنا بقوة دفع عجيبة»[٢].

ويؤكد هرتسل على تفوق العِرق اليهودي على غيره. وهي العنصرية الملازمة لكل يهودي.

فيقول هرتسل: «إن عرق مجتمعنا خاص ومتميز لأننا مرتبطون سوية من خلال إيمان آبائنا فحسب»[٣].

واستخدم هرتسل مفاهيم «الشعب المختار» و«العودة إلى أرض الميعاد» كوسائل لتعبئة الرأي العام اليهودي.

وفي أول مؤتمر صهيوني الذي عقد في شهر آب أغسطس سنة (١٨٩٧م) في مدينة «بازل» السويسرية حدّد هرتسل هدف المؤتمر فقال: «إنه لمن مصلحة الأمم المتحضرة أكثر فأكثر وللحضارة بشكل عام أن تقام محطة متمدنة على أقصر طريق يؤدي إلى آسيا. والمحطة هي فلسطين، ونحن اليهود حماة رايات المدنية مستعدون للتضحية بممتلكاتنا وأرواحنا من أجل قيامها»[٤].

وبعد صدور كتاب الدولة اليهودية «Der Judenst Uat» لتيودور هرتسل، التقى هرتسل «مؤسس الحركة الصهيونية اليهودية» في العاشر من مارس سنة (١٨٩٦م) بقسيس إنجليزي الأصل يُعد من الروّاد الأول للحركة الصهيونية

= العرب، تأليف: سبستين بُرُك، وسوزان هارفي، وغلف بَوَدْسُك، ترجمة: فريدة بولس، وميسون الحجيري (ص١٢٣).

(١) كتاب: الدولة اليهودية (٩٦).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق (١٤٦).

(٤) المصدر: كتاب: الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، تأليف: الأب مايكل برير (ص١٥٣).

المسيحية اسمه «وليم هِتشلر» «William Henry Hechler»[١].

وهذا اللقاء الأول بين الصهيونية اليهودية من جهة، والصهيونية المسيحية من الجهة الأخرى.

وقام كل منهما بتأليف كتاب عن إعادة اليهود إلى فلسطين، فأصدر هرتسل كتابه الشهير «الدولة اليهودية» صدرت الطبعة الأولى منه سنة (١٨٩٦م).

وأصدر هِتشلر قبل ذلك كتابه: إعادة اليهود إلى فلسطين طبقاً للنبوءة «Die Bevor steh ende Rueckkehr der Juden nach polaes tina».

وصدر سنة (١٨٨٢م).

وعن هذا اللقاء كتب هرتسل في مذكراته: «في العاشر من آذار مارس (١٨٩٦م) زارني وليم هِتشلر، قسيس السفارة البريطانية في فيينا، إنه رجل محبب حساس... وهو يعد حركتي «أزمة نبوءة» تكهن بها قبل عامين، لقد كان وفقاً لنبوءة تؤرخ من عهد حكم عمر[٢] (٦٣٧ ـ ٦٣٨م): أن فلسطين بعد اثنين وأربعين شهراً نبوياً؛ أي: بعد ألف ومئتين وستين سنة ستكون أعيدت لليهود..»[٣].

لقد اعتمدت الحركة الصهيونية اليهودية وكذا شقيقتها الحركة الصهيونية المسيحية على نبوءات أسفار الأنبياء في الكتاب المقدس خصوصاً هذه النبوءة من سفر أشعيا[٤]:

«جزر البحر تنتظر الرب.

وسفن ترشيش في الطليعة.

لتحمل بنيك من بعيد.

---

(١) انظر معلومات مفصلة عنه في كتاب: الصهيونية المسيحية، تأليف: بول مِركلي (ص٢٩).

(٢) يقصد الفتح الإسلامي للقدس ودخول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ مدينة القدس وتنظيفه بنفسه موقع المسجد الأقصى الذي حوله النصارى إلى مزبلة ثم صلى فيه، ثم بناء المسجد وحكم المسلمون بيت المقدس وكتب لهم عمر الأمان كما هو مفصل في كتب التاريخ وكان ذلك ابتداء من سنة (١٥هـ الموافق ٦٣٦م)، والسنة التي تليها (١٦هـ ـ ٦٣٧م). انظر: تاريخ الطبري (٢/٤٤٨ ـ ٤٥٠).

(٣) نقلاً من كتاب: الصهيونية المسيحية، تأليف: بول مركلي (ص٢٦).

(٤) الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر أشعيا، الإصحاح: ٦٠ (٩ ـ ١٤).

ومعهم الفضة والذهب، لاسم يهود إلـٰهك.
لقدوسي إسرائيل الذي مجَّدك».
وقال يهوه: «الغرباء يبنون أسوارك.
وملوكهم يكونون في خدمتك.
كنت في غضبي عاقبتك.
وفي رضائي الآن رحمتك.
أبوابك تتفتح دائماً.
لا تنغلق نهاراً وليلاً.
ليجيء إليك الأميون بكنوزهم.
وتنقاد إليك ملوكهم.
فالأمة التي لا تخدمك تبيد.
ومملكتها تخرب خراباً.
مجد لبنان يأتي إليك.
وبنو الذين عذبوك يأتون إليك منحنين.
ويسجد لأخمص قدميك.
كل من استهان بك.
ويدعونك «مدينة الرب».
«صهيون قدوس إسرائيل».
ترضعين لبن الأمم.
وترضعين ثدي الملوك».

يقول بول مِركلي معلقاً على هذا النص: «إذا كانت «ترشيش» تعني كما درج الباحثون الكتابيون على الزعم، جزر البحر الأبيض المتوسط وشواطئها...، والناس الذين يأتون ببنيك من بعيد، كانوا متمثلين على نحو واضح ببريطانيي عهد أوليفر كرمويل[1]، إن البريطانيين هم الذين سيبنون أسوارك

(١) أوليفر كروميل رئيس وزراء بريطانيا أول من رحب بعودة اليهود إلى إنجلترا ووضع حداً =

في أزمان قادمة وملوكهم يخدمونك»[١].

وفي النص: أن السكان الأصليين لفلسطين بحسب النص وبحسب توظيف الصهيونية اليهودية والمسيحية هم: أبناء الذين عذبوا اليهود ويجب بناء على ذلك أن يأتوا منحنين ويسجدوا تحت أقدام يهود، وينظروا لليهود على أنهم مقدسون.

ويجب بناء على النص: أن يبتزوا جميع الأمم ويرضعوا ثرواتهم وأن على الأمميين من حولهم وملوكهم أن يأتوا إلى إسرائيل بثرواتهم وكنوزهم ويقدموها لهم، وينقادوا إليهم وتصبح إسرائيل هي فوق كل القوانين وكل الأنظمة يحق لها فعل أي شيء تريد.

وأن الأمة التي لا تخدمها فإن على من أنشؤوا إسرائيل تخريبها وإبادتها، هل هذا هو ما حصل ويحصل وتعمل إسرائيل وبريطانيا وأمريكا وغيرها عليه؟

وبناء عليه تقوم إسرائيل بإبادة وترحيل «ترانسفير» الشعب الفلسطيني في عملية إبادة وتصفية عرقية ليس لها في التاريخ الحديث مثيل، وبدعم من الصهيونية المسيحية ممثلة في بريطانيا وأمريكا.

إنها أبشع وأفظع جريمة قتل وإبادة وتطهير عرقي في التاريخ الحديث تتم باسم الربّ والنبوءات والكتب المقدسة.

وباشتراك أثيم بين الصهيونية المسيحية والصهيونية اليهودية.

يقول بول مِركلي: «إن الحماسة للإعادة اليهودية لم يكن بأي حال من الأحوال محصوراً بـ(البيوريتانيين) من أمثال كرمويل، فالأنغليكان من كل الانتماءات حتى الكثير من مشاهير العقلانيين، تشاركوا في عناصر الإيمان. ففي كتاب «تعليقات على رسائل القديس بولس» كتب جون لوك: «يستطيع الرب أن يجمعهم في كيان واحد... وأن يوفر لهم ظرفاً مزدهراً في وطنهم الخاص بهم»[٢].

وحتى «إسحاق نيوتن» فقد ترك أبحاثه العلمية لدراسة حركات الأجرام

= للحظر الرسمي البريطاني المفروض عليهم من أيام الملك إدوارد الأول عام (١٢٩٠م). انظر: كتاب: الصهيونية المسيحية (ص٦١).

(١) كتاب: الصهيونية المسيحية (ص٦٣).

(٢) كتاب: الصهيونية المسيحية (ص٦٢).

السماوية وكرّس آخر سِني حياته لإعداد كتاب تأملي هائل حول أحداث آخر الزمان، تعلم لأجله اللغتين العبرية والآرامية وهما لغتا أنبياء العهد القديم، واهتم بدراسة النبوءات، فأصدر كتابه الشهير: «نبوءات دانيال ورؤيا القديس يوحنا».

((Observa tilons upon the prophec ies of daniel and taa ocalypse of st john)).

وبناء على نبوءة منقولة من سفر دانيال[١] والنبوءة السابقة من سفر أشعيا.

قال إسحاق نيوتن: «إن أمر العودة قد لا يأتي من اليهود أنفسهم؛ بل من مملكة أخرى صديقة لهم»[٢].

كتب «إسرائيل زانغفيل» «Zangwill Israel»: «نادراً ما ألقى حدث مقبل بمثل هذا الظل الكثيف قبل وقوعه في الحقيقة مثلما فعل تدخل بريطانيا لمصلحة فلسطين يهودية»[٣].

وحتى «نابليون بونابرت» القائد الفرنسي الشهير في زحفه واحتلاله للمشرق الإسلامي وفلسطين وحربه ضد الدولة العثمانية واحتلاله فلسطين سنة (١٧٩٩م) وجه بياناً لجميع اليهود في العالم ليهبوا للعودة إلى أرضهم أرض الميعاد.

ثم في الثاني من تشرين الثاني سنة (١٩١٧م) صدر وعد بلفور الشهير بإنشاء وطن قومي للعِرْق اليهودي في فلسطين.

كتب «يوسف فايتس» «Yosef Weitz» مدير دائرة الأراضي التابعة للصندوق القومي اليهودي ورئيس لجنة ترحيل العرب من فلسطين (ترانسفير) في مذكرته بتاريخ ٢٠ كانون أول (١٩٤٠م) فقال: «يجب أن يكون واضحاً فيما بيننا أن لا مكان في هذا البلد لشعبين... الحل الوحيد هو أرض إسرائيل بدون عرب... ليس هنالك من طريق آخر نسلكه سوى القيام بترحيل العرب إلى البلاد المجاورة... يجب ألا نبقي على قرية واحدة، يجب ألا نبقي على قبيلة

---

(١) «فاعلم وافهم أنه من صدور الأمر بإعادة بناء أورشليم إلى رئيس مسيح سبعة أسابيع ثم في اثنين وستين أسبوعاً تعود تبني السوق والسور...»، الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر دانيال، الإصحاح: ٩ (٢٥ ـ ٢٧).

(٢) نقلاً عن كتاب: الصهيونية المسيحية (ص٦٢).

(٣) المصدر السابق (٦١).

واحدة...»[١].

«من أجل غزوهم لفلسطين، كان اليهود بحاجة إلى تاريخ يبشر بغزو وإبادة أي كائن بشري لا يعتنق ديانتهم، كما قلت بداية، فإن اللغة الدينية يمكن أن تكون عنيفة جداً، لذلك أصبح هذا الأدب عنيفاً يشرعن الأشياء المقرفة مثل التطهير العرقي الذي مثلته فصول عزرا النساخ... في سفر إشعيا النبوئي حيث يلام الجميع تقريباً ويحكم عليهم بالتدمير المستقبلي؛ لأنهم لم يلتفتوا إلى «يهوه» وخالفوا تعاليم التوراة. إن هذا يفسر الكراهية في العهد القديم ضد أي شخص تقريباً ليس عضواً في المجتمع اليهودي، ويفسر على نحو خاص فكرة أن الكنعاني الجيد هو الكنعاني الميت؛ لأنك عندما لا تكون فرداً من شعب الرب المختار، فأنت جيد ميتاً»[٢].

رغم علمانية الدولة، وأن زعماء الحركة الصهيونية المؤسسين لإسرائيل علمانيون يحرص اليهود على تجذير العمق الديني والبعد التاريخي في نفوس أطفالهم وشبابهم في امتلاك فلسطين وأنها حق خاص لهم، وأنه بناء على ذلك يحق لهم فعل كل شيء من القتل والإبادة والتطهير العرقي والترحيل (الترانسفير) للأغيار من سكان البلاد الأصليين.

وقد ازدادت نسبة التدين داخل المجتمع الإسرائيلي في فلسطين المحتلة، يؤكد الباحث الإسرائيلي «سامي سموحة»: أن الشعب اليهودي وكذا الجيش مشبع بثقافة دينية حَرِيديَّة[٣] تقوم على ثلاثة أسس:

١ ـ العصبية والتميز العرقي (الشوفينية).

٢ ـ القوة العسكرية المتفوقة.

٣ ـ الكره والتشكيك في الأغيار «كل من ليس يهودياً».

فيقول: «إن هذه الثقافة السياسية الجديدة تتغذى من مشارب الصهيونية بتأويلاتها اليمينية، والتي تعتمد على العصبية، والقوة العسكرية والجسدية؛

(١) المصدر: كتاب: الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، للأب مايكل برير (ص١٧٧).

(٢) يشوع والعنف الغربي، نيلز لمكة (ص١١٨)، ضمن كتاب الجديد في: تاريخ فلسطين القديمة.

(٣) مصطلح يعني: التشدد والتزمت الديني.

والأمة والأرض والتشكيك في الأغيار... وأن هذه الثقافة الجديدة تبشر بصيغة جديدة للصهيونية. تدمج بين القومية والقيم التقليدية والتراث الديني»[١].

يقول الباحث الفلسطيني نبيه بشير: «كشف لنا مؤخراً بحث يستند إلى نتائج استطلاع رأي في هذا الصدد أن نسبة أبناء المجتمع الإسرائيلي الذين يُعَرِّفون أنفسهم بأنهم متدينون أو (حريديم) لم تتغير منذ العقد السادس حتى يومنا هذا. وتبلغ نسبة المتدينين في المجتمع الإسرائيلي اليوم حوالي (٥٣٪)[٢]. ينتمون إلى ثلاثة أنماط. حريديم (٥٪)، ومتدينون (١٢٪)، وتقليديون (٣٥٪)، في حين تبلغ نسبة العلمانيين حوالي (٤٣٪) و(٥٪) فقط معادون للدين»[٣].

ويضيف أيضاً: «أما على صعيد عدد المقاعد في الكنيست؛ فإن تغييراً كبيراً حصل في هذا الصعيد، ففي حين نال المتدينون في الكنيست الأولى عام (١٩٤٩م) ستة عشر مقعداً فقط فقد نالت الأحزاب الدينية في الكنيست الخامس عشر لسنة (١٩٩٩م) سبعة وعشرين مقعداً... أي: أن هناك زيادة مقدارها (٧٠٪) في عدد مقاعد المتدينين في البرلمان الإسرائيلي، بالإضافة إلى ثلاثة مقاعد أخرى لمتدينين في أحزاب غير دينية»[٤].

وبهذا تحولت اليهودية في أذهان اليهود أنفسهم إلى نوع من النزعة العرقية. التي تعتقد أن الرب (يَهْوَه) حَلَّ فيهم دون سواهم.

لذا فإن الشعب اليهودي حسب كل التفسيرات اليهودية المهيمنة هم مقدسون يحل بهم الرب ويسكن فيهم.

ويعتمدون على ما جاء في سفر التثنية[٥]: «أنتم أولاد ليَهْوَه إلـٰهكم... لأنك شعب مقدس ليَهْوَه إلـٰهك. وقد اختارك يَهْوَه لتكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض».

هناك فقرات عديدة في التوراة تصف اليهود وبني إسرائيل بأنهم مقدسون.

---

(١) نقلاً عن كتاب: عودة إلى التاريخ المقدس، لنبيه بشير (ص٢١).
(٢) أي: أكثر من نصف المجتمع.
(٣) عودة إلى التاريخ المقدس، الحريدية والصهيونية (ص٢٤).
(٤) المصدر السابق (٢٥).
(٥) الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر التثنية، الإصحاح: ١٤ (١ ـ ٢).

• في سفر اللاويين[١]: «إني أنا يَهْوَه إلـهكم فتتقدسون وتكونون قدّيسين؛ لأني أنا قدّوس. إني أنا يهوه الذي أصعدكم من أرض مصر ليكون لكم إلـهاً. فتكونون قديسين».

• في سفر التثنية[٢]: «وواعدك يَهْوَه اليوم أن تكون له شعباً خاصاً، وتحفظ جميع وصاياه، وأن يجعلك مستعلياً على جميع القبائل التي عملها في الثناء والاسم والبهاء، وأن تكون شعباً مقدساً ليهوه إلـهك».

في القرآن الكريم ذكر لهذه النفسية اليهودية الزاعمة أنها من نسل الإلـه وأنهم أبناؤه وأحباؤه، وأنهم يعتقدون أن هذا عهد أبدي سرمدي لا ينحل بصرف النظر عن كفرهم بالله وجرائمهم وقسوتهم وقتلهم الأنبياء الذي بسببه لعنهم الله بعد التقريب وطردهم وأبعدهم بعد الاختيار والاصطفاء.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة: ١٨].

قام الباحث الاجتماعي والنفسي الإسرائيلي، «جورج تَمَرين» «Georges Tamarin» بالبحث في آثار التعصب القومي والديني على التكوين الخلقي والنفسي لدى الشباب الإسرائيلي ومدى تأثير «الكتاب» خصوصاً سفر يشوع عليهم، وقام بهذا الإجراء سنة (١٩٩٣م).

وقد خرج بنتيجة: أن التكوين الثقافي والنفسي لغالبية الشباب اليهودي تقوم على عناصر ثلاثة:

١ ـ مفهوم (الشعب المختار)؛ أي: تفوق العنصر اليهودي على سائر الشعوب خصوصاً العرب.

٢ ـ تفوق الديانة اليهودية.

٣ ـ تسويغ أعمال الإبادة الجماعية والتطهير العرقي التي قام بها أبطال توراتيون.

---

(١) الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر اللاويين، الإصحاح: ١١ (٤٤ ـ ٤٥).

(٢) الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر التثنية، الإصحاح: ٢٦ (١٨ ـ ١٩).

اختار جورج تمرين سفر يشوع نظراً لمكانته الخاصة في النظام التربوي الإسرائيلي، إذ يقوم كتاريخ قومي وركيزة أساسية من ركائز الخرافة القومية الإسرائيلية.

واختار مجموعات من التلاميذ تتراوح أعمارهم بين ثمانية أعوام ونصف وأربعة عشر عاماً. وطرح عليهم مقاطع من سفر يشوع وهي هذه:

• «فنفخ الكهنة في الأبواق، فهتف الشعب عند سماع صوتها هتافاً شديداً، فسقط السور في مكانه. فاقتحم الشعب المدينة، لا يلوي أحدهم على شيء، واستولوا عليها، وقتلوا بحد السيف جميع ما في المدينة من رجال ونساء وأطفال وشيوخ حتى البقر والغنم والحمير»[1].

• «واحتل يشوع في ذلك اليوم «مَقِيدة» وضربها وقتل ملكها بحد السيف وكل نفس فيها ولم يبق فيها باقياً واجتاز يشوع ورجاله من «مقيدة» إلى «لبنة» فضربها بحد السيف وقتلوا كل نفس فيها، ولم يبقوا فيها باقياً واجتاز يشوع ورجاله من لبنة إلى «لخيش» وأحاط بها وحاربها فاستولوا عليها في اليوم الثاني وضربوها بحد السيف وقتلوا كل نفس فيها كما فعلوا بلبنة»[2].

ثم سألهم هذين السؤالين:

١ ـ هل تعتقد أن يشوع وبني إسرائيل تصرفوا تصرفاً سليماً أم لا؟

٢ ـ افترض أن الجيش الإسرائيلي استولى على قرية عربية في معركة هل تعتقد أن من المستحسن أن يتصرف تجاه السكان كما فعل يشوع تجاه شَعْبَيْ أريحا ومقيدة ولبنة ولخيش؟

وخلص تَمَرين إلى نتائج أظهرت وجود موقف مفعم بالضغينة بين عدد غير قليل من الذين قدموا إجابات. وهو ما يسُوِّغ الميول التمييزية الدينية والعصبية العنصرية.

وفسَّر تَمَرين هذه النتائج بأنها برهان قاطع على تأثير الشوفينية والضغائن الدينية القومية على الموقف الخلقي.

---

(١) الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر يشوع، الإصحاح: ٦ (٢٠ ـ ٢١).

(٢) الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر يشوع، الإصحاح: ١٠ (٢٨ ـ ٣٢).

وخلص تَمَرين إلى أن ما توصل إليه كان اتهاماً شديداً للنظام التربوي الإسرائيلي.

وأثار هذا البحث ضجة كبيرة وأطلق على المسألة (فضيحة تَمَرين). وفَقَد كرسيه في جامعة تل أبيب، وفي رسالة وجهها إلى مجلس أمناء الجامعة قال فيها: «لم أكن أحلم بأن أصبح آخر ضحايا يشوع عندما استولى على أريحا»[١].

هذا ما لقيه «جورج تمرين» اليهودي من الصهاينة اليهود.

وهو يشبه عندي موجة الغضب والضغط التي تعرض لها باحث آخر مسيحي ولكن من قبل الصهاينة المسيحيين:

فقد أصدر الباحث البريطاني «كِيث وَايتْلام» «Keithw. Whitelam» رئيس قسم اللاهوت بجامعة شفيلد ببريطانيا دراسة واسعة ممحَّصة. استغرقت منه زهاء عشر سنوات (١٩٨٤م ـ ١٩٩٣م) بعنوان «تلفيق إسرائيل التوراتية، طمس التاريخ الفلسطيني»[٢] «TAE INNENTION OF ANCIENT ISRAEL»، وهي دراسة تكشف كل تلفيقات الصهيونية بالحق التاريخي والتوراتي بفلسطين.

قال عنها «ستيفن هَلَوي» رئيس رابطة المكتبات اللاهوتية الأمريكية: «هذه دراسة رائدة تأتي في وقتها المناسب، وسط حقل ألغام، ستثير الاستحسان في بعض الأوساط ولكنها ربما أثارت مخاطر الاتهام بالقذف والتشهير، وتهديدات بالقتل للمؤلف من آخرين، يستحق الكاتب أن يُهنأ على تقديم مرآة استفزازية إلى أقصى الحدود وفي معظم الأحيان أمينة، يستطيع مبدأ الدراسات الكتابية من خلالها أن يرى صورته كما هي في حقيقتها دون رتوش، وتجميل، يستحق هذا الكتاب أن يوزع على نطاق واسع ليس فقط بين قراء مجلة الأدب الكتابي؛ بل وبين المتخصصين، وغير المتخصصين المهتمين بالمصداقية الثقافية السائدة للاستشراق»[٣].

كتب «كيث وَايتْلام» في مقدمة الطبعة العربية لكتابه: «أثار ظهور كتاب:

---

(١) كتاب: الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، للأب مايكل برير (٥٩ ـ ٦٢) باختصار.

(٢) صدرت الطبعة الأولى باللغة العربية سنة (٢٠٠٠م)، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق.

(٣) من تقريض للكتاب، مجلة الأدب الكتابي.

تلفيق إسرائيل التوراتية: طمس التاريخ الفلسطيني». في مطلع عام (١٩٩٦م) جدلاً كبيراً في الصحافة المحلية في المملكة المتحدة، إضافة إلى مراجعات نقدية كثيرة في: صنداي تايمز، وهايَر إديوكِشن سَبلمِنْت في التايمز، واكتسب النقاش حول تاريخ فلسطين القديمة في العصر الجديد أهمية فائقة وازدادت حمّيّته، بحيث أنه لفت الاهتمام خارج الحدود الضيقة للعالم (الأكاديمي) متجلياً في مقالات: ذِكرُ نِكَل أدف هايَر إديُوكِشن، وعلى الصفحة الأولى من: وول ستريت جورنال الأمريكية، وتراوحت ردود الأفعال في العالم (الأكاديمي) بين المجاملات والتأييد إلى النقد البناء، والهجمات العنيفة التي تشكك في أهليتي ودوافعي...

لقد ساعدت العديد من الأبحاث. والأعمال الهامة التي حققها علماء الحفريات على دعم وتقوية الطروحات والاستنتاجات الأساسية في كتاب: تلفيق إسرائيل التوراتية: طمس التاريخ الفلسطيني، وجاء أفضل توضيح لإحدى المسائل الأساسية في الكتاب والقائلة: إن دراسة تاريخ إسرائيل قد ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالتوجّهات السياسية الحديثة في الغرب...

من بين أقسى ردود الأفعال على طروحاتي: كتب «هِرْشِل شانْكس» في آذار نيسان عام (١٩٩٦م) افتتاحية بعنوان «كيث وايتلام يدّعي أن الدراسات الكتابية تقمع التاريخ الفلسطيني لصالح الإسرائيليين» بمجلة «بِلِكل أركيو لوجست رفيُو...» وقد ادّعى أني ماكر وخطير وغير متوازن ودنيء الروحية ومليء بدهاء كبير وأني معادي للصهيونية، وأني أكاديمي مزيف، ولديّ شهوة قتل الأب، وأن ما قدمته تاريخ مسيَّس بشكل خطير... ثم انتهى إلى القول: إننا لا نستطيع أن نأمل إلا في أن أناساً مثل «وايتلام» لن يكتسبوا القوة الكافية لتدمير مجال عملنا في الوقت الذي يبذل السياسيون الدبلوماسيون أقصى جهدهم لإحلال السلام في الشرق الأوسط...

وكذلك حاول «وليم دِفَر» أحد أبرز الآثاريين الأمريكيين أن يشكك أيضاً في طروحاتي عن تلفيق إسرائيل التوراتية. وقد صارت من الشائع الإشارة إليّ وإلى باحثين من أمثال «فيليب دِفِيس» و«نيلز لِمْكة»[1]. و«توماس

(١) البرفسور نيلز لمكة من الدانمارك له عدد من الكتب من أهمها: يشوع والعنف الغربي، =

طُمْسُن»[١] الذين أثاروا التساؤلات حول الطريقة التي تم بها تحقيق تاريخ بني إسرائيل ووصفهم بأنهم «تحريضيون» و«مقلّون» و«عدميون» في محاولة للتشكيك في صدقية أعمالهم.

وقد طرح «دِفَر» مؤخراً أنه من المهم: «مواجهة [التحريفيين] الذين هم في الواجهة لأنهم يتحولون بسرعة إلى دعاة فكريين، وفكرهم يشكل خطراً على الدراسات الكتابية، وعلى الحفريات الأثرية الفلسطينية ـ السورية، وعلى الدراسات اللاهوتية والدينية، وعلى حياة كل من الكنيس والكنيسة، وحتى على الوضع السياسي في الشرق الأوسط»[٢].

جرائم يهود في فلسطين:

- **المرحلة الأولى:**

ما قبل قيام دولة إسرائيل إلى قيامها سنة (١٩٤٨م).

بعد ذلك التحضير الهائل الفكري والديني والسياسي لقيام دولة لليهود على أرض فلسطين سبق ذلك أيضاً تحضير إجرامي بالقتل والتهجير.

كتب «هرتسل» في مفكرته بتاريخ (١٢ حزيران ١٨٩٥م): «عندما نحتل الأرض سوف نقدم منافع فورية للدولة التي تستقبلنا. علينا أن نصادر بهدوء الممتلكات الخاصة الموجودة على الأرض المخصصة لنا. ويجب أن نسهل انتقال السكان المعدمين خلسة عبر الحدود عن طريق خلق فرص عمل لهم في بلاد المرور ويجب أن تنفذ عمليتي المصادرة وانتقال الفقراء بتكتم وباحتراز»[٣].

وفي رسالة أرسلها «حاييم وايزمان» أول رئيس للدولة اليهودية في فلسطين

= واستخدام التاريخ ذريعة للاستيلاء على الأرض. طبعا باللغة العربية ضمن الجديد في تاريخ فلسطين القديمة، دار قدمس، دمشق (٢٠٠٤م).

(١) البرفسور توماس طمسن له عدد من الكتب في هذا المجال من أهمها: هل ينبغي أن نترك التاريخ لعلماء الآثار، ومن العصر الحجري إلى إسرائيل، طبعا ضمن الجديد في تاريخ فلسطين القديمة، دار قدمس، دمشق (٢٠٠٤م).

(٢) كتاب: تلفيق إسرائيل التوراتية، طمس التاريخ الفلسطيني (٩ ـ ١٨)، وانظر بقية هذا الكتاب لأهميته.

(٣) نقلاً عن: الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني (١٥٧).

إلى «آرثر بلفور» وزير الخارجية البريطاني وصاحب الوعد المشهور ـ بتاريخ (٣٠ آيار سنة ١٩١٨م) قال فيها: «فيما يتعلق بفلسطين فإننا لا ننوي حتى الخوض الشكلي في استثارة رغبات السكان الحاليين. إن الدول الكبرى الأربع ملتزمة بالصهيونية، سواء كانت على صواب أم خطأ، سواء كانت جيدة أم سيئة، فهي متجددة في التقاليد منذ الأزل وفي الاحتياجات الحالية، وفي آمال المستقبل ذات شأن أكبر بكثير من رغبات سبعمائة ألف عربي يقطنون الآن تلك الأرض»[١].

وكتب **يوسف فايتس** ـ رئيس لجنة ترحيل السكان الأصليين (ترانسفير) ومدير دائرة الأراضي التابعة للصندوق القومي اليهودي ـ بتاريخ (٢٠ كانون أول سنة ١٩٤٠م) فقال: «يجب أن يكون واضحاً فيما بيننا، أن لا مكان في هذا البلد لشعبين إذا ما غادرها العرب، ستصبح البلد شاسعة ورحبة لنا، الحل الوحيد هو أرض إسرائيل دون العرب، ولا مكان هنا للمساومات ليس هناك من طريق آخر نسلكه سوى القيام بترحيل العرب إلى البلاد المجاورة؛ أي: أن نقوم بترحيلهم جميعاً. . . يجب أن لا نبقي على قرية واحدة، ويجب أن لا نبقي على قبيلة واحدة، يجب أن يتم الترحيل «الترانسفير» باتجاه العراق وسوريا، وربما شرق الأردن، ومن أجل تحقيق هذا الهدف لا بد من تدبير الأموال، بعد الترحيل فحسب، سيصبح هذا البلد قادراً على استيعاب الملايين من إخوتنا، عندها لن تبقى هنالك مشكلة يهودية قائمة، وليس هناك من حل آخر»[٢].

١ ـ رسم المخططون العسكريون الصهاينة خطتين (خطة: ج) و(خطة: د) وكان هدف الخطتين الاستيلاء على أكبر قدر ممكن من الأراضي العربية وطرد أكبر عدد ممكن من الفلسطينيين.

وكان **المخطط** الرئيس لهذه الخطط هو: «بيغال يادين» القائد العسكري لعصابات (الهاغاناه).

وكانت (خطة: ج) خطة مناورة لكسب الوقت لتعبئة القوات من أجل تنفيذ (خطة د) التي تقضي باحتلال الأماكن والأراضي والمواقع التي ستخليها القوات البريطانية.

(١) المصدر السابق (١٧١).

(٢) المصدر: كتاب: الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، للأب مايكل برير (١٧٧، ١٧٨).

وكانت الخطة تقضي بالقيام بهجوم أكبر مباغت ضد السكان المدنيين وكانت محطات إذاعة للهاغاناه تبث التهديدات للسكان العرب بإنزال أشد العقوبات بهم إذا لم يهربوا.

ووفقاً لبنود (خطة د) تدمر القرى التي قاومت ويطرد سكانها، وسقطت القرى العربية تباعاً على نحو متسارع (القسطل وقالونيا وخلدا وساريس وبدر وبيت سوريك وغيرها). ومع ذلك حتى القرى التي لم تبد أي مقاومة دُمِّرت وكان تدميرها انحرافاً عن بنود (خطة: د) لكنها جاءت متطابقة مع الحلم والنفسية الصهيونية[1].

٢ ـ مذبحة دير ياسين:

في ليلة التاسع من نيسان (١٩٤٨م) بدأت قوات مشتركة من منظمتين (إرغون[2]) و(شترون[3]) قوامها نحو (١٣٢) عضواً مسلحاً تدعمهم مدفعية الهاون التابعة للهاغانا هجوماً على قرية (دير ياسين) الفلسطينية في ضواحي مدينة القدس الغربية، وفي اليوم التالي اكتشف أن (٢٥٤) فلسطينياً من سكان القرية بينهم أكثر من (١٠٠) امرأة وطفل قد ذبحوا ذبحاً وألقوا بعد رش جثثهم بالكيروسين في بئر وأضرمت فيها النيران. وتم اكتشاف حالات تمثيل بالجثث وحالات اغتصاب.

ومن العجب أن اثنين من رؤساء هاتين المنظمتين المجرمتين المسؤولتين عن هذه المذبحة البشعة أصبحا لاحقاً رئيسين للوزراء في دولة إسرائيل وهما: (مناحم بيغن) قائد الإرغون في الفترة من ١٩٤٣ ـ ١٩٤٨م، والآخر: (إسحق شامير) القائد المساعد لمنظمة شتيرن.

كان لتنفيذ (خطة د) وقع مدمر على السكان الفلسطينيين. وكانت هذه المجازر هي التفسير لرحيل معظم العرب من فلسطين، فقد غرق مئات الرجال والنساء والأطفال من مدن يافا وحيفا وعكا الساحلية وهم يتدافعون للحصول

---

(١) المصدر السابق (١٨٢) بتصرف.

(٢) اسمها: (إرغون زفاي لئومي): المنظمة العسكرية القومية وهي مجموعة يهودية مسلحة تشكلت سنة (١٩٣١م) من قادة صهاينة ملتزمين إنشاء وطن قومي لليهود بفلسطين.

(٣) نسبة إلى اسم مؤسسها: أفرهام شيترون المنشق عن الإرغون وهي تدعو إلى إجلاء قسري للسكان العرب من فلسطين.

على قوارب نجاة تنقلهم إلى بر الأمان، ولقد تم طرد مئات الآلاف عبر الحدود بواسطة الألوية اليهودية والعصابات الصهيونية.

وما كاد شهر نيسان من سنة (١٩٤٨م) ينتهي حتى حققت (خطة د) أهدافها[١].

• **المرحلة الثانية: من قيام إسرائيل ١٩٤٨م إلى ١٩٧٣م:**

أعلن «دافيد بن غورين» في ١٤ آيار/مايو (١٩٤٨م) قيام دولة إسرائيل أي: بعد ٥٠ سنة من مقولة مؤسس الحركة الصهيونية هرتسل عندما قال ملخصاً أعمال المؤتمر الصهيوني الأول في بازل بسويسرا سنة (١٨٩٨م): «إذا طُلب مني أن ألخص المؤتمر في جملة فسوف أحترس من البوح بها علناً، ستكون على هذا النحو: في بال أقمت الدولة اليهودية فلو قلت هذا بصوت عال اليوم، فسوف أستقبل بسخرية عارمة، ربما سيتعرف عليها كل الناس في غضون خمس سنوات، وفي غضون خمسين سنة بكل تأكيد»[٢].

ثم ربطوا ذلك بالكتاب المقدس لأن الخمسين سنة تعكس المصدر السماوي لاستحواذ الأراضي والاحتفال بالسنة الخمسين وسموها (السنة اليوبيلية) وقد سميت هكذا لأنها كانت تعلن نفخاً بالبوق «يوبل».

في سفر الأحبار[٣]: «واحسب لك سبعة أسابيع من السنين؛ أي: سبع مرات سبع سنين، فتكون لك أيام أسابيع السنين السبعة تسعاً وأربعين سنة. وانفخ في بوق الهُتاف في اليوم العاشر من الشهر السابع في يوم التكفير تنفخون في البوق في أرضكم كلها. وقدسوا سنة الخمسين ونادوا بإعتاق في الأرض لجميع أهلها. فتكون لكم يوبيلاً فترجعوا كل واحد إلى ملكه... سنة الخمسين تكون لكم يوبيلاً... إنها يوبيل فتكون لكم مقدسة».

بعد إعلان قيام إسرائيل دخلت بعض الجيوش العربية إلى فلسطين وقامت حرب مع القوات الصهيونية المتفوقة عليها، وهُزِمَت، وفي نهاية الحرب سيطرت إسرائيل على عموم فلسطين الواقعة تحت الانتداب البريطاني.

---

(١) انظر: كتاب: النكبة، عارف العارف (١/٢١٧).

(٢) مذكرات هرتسل (٢/٥٨).

(٣) الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر الأحبار، الإصحاح: ٢٥ (٨ ـ ١٢).

ووقعت النكبة الفلسطينية[١]:

قُتِلَ فوراً الآلاف نحو (١٣,٠٠٠) فلسطيني وشرد نحو (٨٠٠,٠٠٠) فلسطيني. أصبحوا مهجَّرين[٢].

وحسب تقرير وكالة الغوث التابعة للأمم المتحدة الصادر سنة (١٩٩٤م): فإن عدد المهجرين في الضفة الغربية (٥٠٤,٠٧٠) مهجر؛ أي: ما نسبته (٤٢٪) من السكان الفلسطينيين و(٦٤٣,٠٠٠) مهجر في قطاع غزة؛ أي: ما نسبته (٧٥,٧٪) من إجمالي السكان.

وحسب تقرير منظمة (الأنروا) الصادر سنة (١٩٩٥م) فإن عدد المهجرين (٤,٦٤٥,٢٤٨) أربعة ملايين وستمائة وخمسة وأربعون ألفاً ومئتان وثمانية وأربعون مهجراً فلسطينياً يعيشون في أقصى درجات الفقر والبؤس في مخيمات في سورية ولبنان والأردن والشتات.

لقد تم تفريغ مئات القرى الفلسطينية من سكانها وتدميرها، وعلى عجل تم توزيع أكثر من ستة ملايين دونم من الأراضي الفلسطينية بين المستوطنات اليهودية التي تم إنشاؤها تباعاً بطريقة متسارعة.

لقد تم تدمير مئات القرى تدميراً كاملاً، وبحسب المؤرخ الفلسطيني وليد الخالدي فإن نحو (٤١٨)[٣] قرية فلسطينية دُمِّرت وشرد أهلها أو قتلوا.

وبعد تقديمه دراسة شاملة عن تدمير كل قرية مزودة بمواد إحصائية وطبوغرافية وتاريخية وأثرية. يقول وليد الخالدي مصوراً الأبعاد القاسية والخطيرة لهذه النكبة العظيمة: «إن استعادة الأحداث كما في هذا الكتاب لا يدعو إلى قلب حركة التاريخ ولا يدعو إلى نزع شرعية الصهيونية؛ بل هي دعوة إلى قطع سلسلة السببية التي قد كانت خلقت أبعاد مأساة الشعب الفلسطيني... بهذه

---

(١) انظر: أبعاد وحجم هذه النكبة العظيمة في كتاب: النكبة، للمؤرخ الفلسطيني: عارف العارف، طبع: المكتبة العصرية، بيروت (١٩٦٠م).

(٢) هذه هي التسمية الصحيحة. لا كما يشير قرار مجلس الأمن رقم (٢٤٢) أنهم لاجئون؛ لأن ميثاق الأمم المتحدة يعرف اللاجئ بأنه الشخص الذي يسعى للإقامة في بلد أجنبي. لا ذلك الذي أخرج بالقوة من بلده.

(٣) وليد الخالدي، النكبة (٢٨٦).

الروحية تم تجميع هذا المجلد. ليكون مذكراً بالمساعي الإنسانية وأن ما يعمله الإنسان لنفسه غالباً ما يكون مصحوباً بتدمير الآخر»[١].

وبعد هزيمة ١٩٦٧م احتلت إسرائيل الضفة الغربية بما فيها القدس الشرقية ومرتفعات الجولان السورية وغزة وسيناء من مصر.

وأقدمت إسرائيل مباشرة بتدمير أكثر من (١٣٥) بيتاً فلسطينياً في حي المغاربة بالقدس القديمة لفتح الطريق إلى إقامة ساحة حائط المبكى وأعلنت إسرائيل بأن القدس بأكملها: الشرقية والغربية يجب أن تكون العاصمة الأبدية لإسرائيل.

«إن الاستيلاء المنظم على الممتلكات الفلسطينية الخاصة والعامة الذي أعقب الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وغزة، والتطورات منذ ذلك الحين توحي بأن الحرب كانت مرحلة إضافية في إستراتيجية الاستيطان الصهيوني على أرض إسرائيل التوراتية، واتبعت كل الحكومات الإسرائيلية منذ عام (١٩٦٧م) سياسة الاستيلاء على الأراضي العربية.

بدأت جماعة (غوشي إيمونيم[٢]) بالاستيطان في كل أرض إسرائيل، وتصاعدت عملية التهويد مع مجيء حكومة الليكود من عام (١٩٧٧ ـ ١٩٨٤م) وتم تبني وبشكل علني هدف غوش إيمونيم فيما يعرف (بخطة دروبس) (Drobess plan) كسياسة ممنهجة للحكومة. وكان غرضها دعم الاستيطان اليهودي والشامل والتأكيد بأن الوجود العربي لن يعود»[٣].

- **المرحلة الثالثة: من حرب ١٩٧٣م إلى الآن:**

بعد قصف إسرائيل للبنان عام (١٩٨٢م) مستخدمة ذريعة لذلك محاولة الاعتداء على حياة السفير الإسرائيلي في لندن شلومو آرغوف.

قام الطيران الإسرائيلي والزوارق الحربية بقصف المواقع الفلسطينية في جنوب لبنان وبيروت الغربية. وكان هدف إسرائيل القضاء النهائي على المشاعر الفلسطينية بالعودة إلى فلسطين.

---

(١) وليد الخالدي، النكبة (٣١٩).

(٢) المجموعة الاستيطانية الرئيسة تأسست عام (١٩٧٤م).

(٣) الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، للأب مايكل بْرَير (١٨٩).

ونتج من هذه العمليات العدوانية:

• عدد القتلى (١٧٨٢٥) وعدد الجرحى (٣٠٢٢٠٣) مع احتمال كبير أن تكون هذه الأرقام دون المستوى الحقيقي.

• وبلغ عدد المهجَّرين من الفلسطينيين اللبنانيين ما بين (٥٠٠,٠٠٠) و(٨٠٠,٠٠٠) مهجر.

• في الأعوام من (١٩٨٤ ـ ١٩٨٨م) وأثناء فترة حكومة ائتلاف من (الليكود والعمل) حدث تسارع كبير في برنامج الاستيطان.

وما كاد عام (١٩٨٨م) ينصرم حتى سيطر اليهود على أكثر من (٥٢٪) من الضفة الغربية، و(٤٠٪) من قطاع غزة أرض دولة.

ووصل عدد المستوطنات في الضفة الغربية وحدها إلى (١١٧) مستوطنة كلها بنيت على أراضي استولوا عليها بالقوة وهجّر أهلها قسراً.

إضافة إلى ثماني مستوطنات كبرى يهودية بلغ عدد سكانها أكثر من (١٠٠,٠٠٠) يهودي، شيدت كلها في القدس الشرقية التي نزعت بالقوة.

وفي قطاع غزة بلغ عدد المستوطنات (١١٤) مستوطنة يهودية.

وجرّد السكان الفلسطينيون من جميع أراضيهم وممتلكاتهم حتى مياه الشرب والمياه الصالحة للاستخدام والتي هي حق للإنسان وحتى الحيوان والشجر والطير.

عمدت إسرائيل إلى استغلال وقح وقذر للمياه الجوفية حتى صارت فعلياً وحصرياً لصالح اليهود.

في عام (١٩٨٧م) قامت شركة المياه اليهودية (ميكوروت) بحفر عشرات الآبار العميقة من موارد المياه الجوفية العميقة في الضفة الغربية تضخ أكثر من (٤٢) مليون متر مكعب في السنة من المياه لكي توزع حصراً على المستوطنات اليهودية.

وقامت شركة (ميكوروت) أيضاً بحفر آبار عميقة بالقرب من الينابيع التي يستخدمها المزارعون الفلسطينيون مما أدى إلى جفاف الينابيع وضرر واضح للسكان الفلسطينيين.

ويقدر أن إسرائيل تضخ ثلث احتياجاتها السنوية من المياه وهو ما يقدر

بنحو (١,٨) بليون متر مكعب من أحواض المياه الجوفية في الضفة الغربية. لتحقق ثلاثة أهداف:

١ ـ تزويد إسرائيل بالمياه المناسبة.

٢ ـ تزويد المستعمرات اليهودية في الضفة والقطاع بالمياه المناسبة.

٣ ـ عملية تعطيش وإضرار واضحة للشعب الفلسطيني البائس الواقع تحت الاحتلال[١].

إنها جريمة بكل المعاني.

وبعد انطلاق مدريد عام (١٩٩١م) وأوسلو وغيرها مما سُمِّيَ عملية السلام ارتكبت إسرائيل الجرائم الآتية:

١ ـ عملية الحساب من ٢٥ ـ ٣١ من شهر تموز عام (١٩٩٣م) وأرغم القصف المنظم المتواصل على لبنان إلى تهجير (٤٠٠,٠٠٠) مهجر رحلوا شمالاً وقتل أكثر من (١٣٠) شخصاً من المدنيين وأضرار جسيمة في نحو (٦٠) بلدة وقرية.

٢ ـ مذبحة الجامع الإبراهيمي في الخليل في ٢٥ شباط (١٩٩٥م) قام متدين يهودي «باروخ غولد شتاين» بقتل (٢٩) مسلماً يؤدون الصلاة بالجامع الإبراهيمي، إنها ليست جريمة فردية رعناء قام بها شخص متهور؛ بل جريمة منظمة يرعاها المستوطنون بتواطؤ من الدولة اليهودية. ولا أدلّ على ذلك من تحويل قبر هذا المجرم باروخ غولد شتاين إلى «نصب الشهيد» مطلاً على الحديقة المقامة على منتزه لتخليد ذكرى المجرم كاهانا[٢] في مستوطنة «كريات أربع» وهي مزودة بخدمات الصلاة للقادمين لزيارة الضريح وجهاز خاص لإشعال الشموع لتخليد ذكرى هذا المجرم.

ويخاطب الحاخام «دوف ليور» ابن غولد شتاين «يأكوف يائير» ويقول له: «يأكوف يائير اتبع خطى والدك، لقد كان على حق وهو بطل عظيم»[٣].

---

(١) انظر: كتاب: النكبة، عارف العارف (٢/ ١١٠ ـ ١١٤)، والكتاب المقدس والاستعمار (١٩٠ ـ ١٩١).

(٢) هو مئير كاهانا مؤسس حزب كاخ الصهيوني المتطرف.

(٣) انظر: تقرير القدس الصادر في (١٢ ديسمبر ١٩٩٦م) (ص١٠).

أصبح قتل المصلين من خلف ظهورهم في المسجد حقاً مؤكداً عند هذا الحاخام المجرم وهذا القتل الغادر بطولة عظيمة. هذه هي النفسية اليهودية عبر التاريخ، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

٣ ـ في شهر نيسان عام (١٩٩٦م) قامت إسرائيل بعملية عنيفة جداً جنوب لبنان أطلقها رئيس الوزراء شمعون بيريز سميت «عناقيد الغضب» وتسبب القصف الجوي والبحري والبري الذي دام (١٦) يوماً في مقتل المئات من المدنيين بينهم عدد كبير من الأطفال، وإحداث دمار شامل للحياة المدنية في جنوب لبنان وإحداث حالة مأساوية بترحيل نحو نصف مليون مدني من منازلهم وقراهم هرباً من جحيم القصف، حتى الكتيبة الفيجية التابعة للأمم المتحدة في قانا قصفت، ومن السخرية أن الذي أمر بهذه العملية الإجرامية شيمعون بيريز هو الحائز على جائزة نوبل للسلام.

ومن المفارقات المثيرة للاشمئزاز أنه وفي أثناء عملية عناقيد الغضب الإجرامية حدث أمران مثيران:

الأول: في أثناء شهر نيسان وأثناء القصف اليهودي المركز يُعْقَد مؤتمر في لندن في نيسان (١٩٩٦م) بمناسبة مرور مئة عام على صدور الطبعة الأولى من كتاب ثيودور هرتسل «الدولة اليهودية» في سنة (١٨٩٦م) في فيينا بسويسرا.

والثاني: في ١٥ نيسان (١٩٩٦م) يقدم رجل اسمه «زيمون سيرا فنيوفينس» وهو يبلغ من العمر (٨٥ سنة) يقدم للمحاكمة أمام محكمة جرائم حرب وكانت التهمة الموجهة له، قتل ثلاثة يهود خلال شتاء عام (١٩٤١ ـ ١٩٤٢م)؛ أي: قبل (٥٥ سنة) وتم إحضار نحو (١٦) شاهداً من كل بقاع الدنيا. وقد صفق الرئيس التنفيذي لمجلس النواب البريطاني لهذا العمل. وقال: «لتأخذ العدالة مجراها...»[١].

٤ ـ أصدر مركز المعلومات الوطني الفلسطيني إحصاءات حول انتفاضة الأقصى للفترة من ٢٩/٩/٢٠٠٠م إلى ٣١/١٢/٢٠٠٣م.

على النحو الآتي:

---

(١) انظر: كتاب: الصهيونية المسيحية (١٩ ـ ٢٠)، والكتاب المقدس والاستعمار (٣٧٦).

١ ـ عدد الشهداء (٣٤٤٣) شهيداً.

٢ ـ من الأطفال (٥٢٦) شهيداً.

٣ ـ من النساء (١٨٨) شهيدة.

٤ ـ الشهداء عن طريق الاغتيالات (٣٠٠) شهيد.

٥ ـ الشهداء من المرض بسبب الحواجز (١٠٣) شهيد.

٦ ـ الشهداء بسبب اعتداء المستوطنين اليهود (٤٢) شهيداً.

٧ ـ إجمالي عدد الجرحى (٤٦٦٧٩) جريحاً.

٨ ـ إجمالي عدد الأسرى في السجون اليهودية (١١١١٢) معتقلاً موزعين على ٢٢ سجناً يهودياً من بينهم ٦٨ امرأة.

٩ ـ عدد الأشجار التي تم اقتلاعها (٩٨٢١٥٤) شجرة تشمل الزيتون والبرتقال وغيرها.

١٠ ـ إجمالي ما تم تجريفه من الأراضي (٦٢٢٠٣) دونماً.

١١ ـ إجمالي عدد المنازل التي هدمت أو تضررت (٥٩٩٠٠) منزلاً.

١٢ ـ نسبة الفقر في الأرض الفلسطينية بسبب سياسة الإغلاق والحصار (٦٠٪).

١٣ ـ نسبة العاطلين تماماً عن العمل (٤٢,٧٪).

٥ ـ وبعد توقيع (أوسلو ٢) فرضت إسرائيل عقوبات جماعية قاسية جداً على الشعب الفلسطيني ولكن مدعمة هذه المرة بالشرطة التابعة للسلطة الفلسطينية. وأدى الإغلاق الداخلي لمدن وقرى الضفة الغربية وقطاع غزة إلى زرب المواطنين الفلسطينيين في كنتونات أشبه بمعتقل كبير يشبه ما كان يسمى في جنوب أفريقيا أيام الحكم العنصري «بانتوستانس» «Bantustans»، وما كان يسمى في أمريكا اللاتينية أيام الاستعمار الأسباني: «Congregation's».

٦ ـ وأخيراً ويظهر أنه ليس آخراً في ديسمبر (٢٠٠٨م) وأوائل يناير (٢٠٠٩م) ترتكب إسرائيل اليهودية متغذية بكل أحقاد الماضي جريمة من أبشع الجرائم في التاريخ الحديث على مرأى ومسمع من العالم كله الذي ظل متفرجاً لا يحرك ساكناً، قامت إسرائيل وعلى مدى (٢٣) يوماً بقصف عنيف ومركز جوي وبحري وبري على قطاع غزة المحاصر أصلاً. وتستخدم علناً وعلى مرأى العالم أجمع ما يسمى بالأسلحة المحرمة دولياً كالفسفور الأبيض وغيره، لتقتل

وتبيد العزّل من الرجال والنساء والأطفال وتحرق كل شيء بدون استثناء، ونتج من هذه العملية الإجرامية:

١ ـ قتل أكثر من (١٥٠٠) فلسطيني ومنهم نحو (٦٠٠) طفل.

٢ ـ تدمير مئات المنازل على رؤوس أهلها لتصبح مئات العائلات تحت البرد الشديد في العراء.

٣ ـ قصف محطة الكهرباء الوحيدة وتدميرها لتغرق غزة في برد وظلام دامس.

٤ ـ إغلاق جميع المعابر بما فيها مع الأسف معبر رفح المصري لمنع جميع الطواقم الطبية والهيئات الإغاثية والمساعدات الإنسانية والطواقم الإعلامية إمعاناً في الجريمة ودفناً لها تحت ركام غزة المدمرة.

ولا يزال القتل والفساد والتدمير اليهودي مستمراً.

لقد قابل اليهود بأفعالهم هذه، بالنكران كل التسامح الكبير الذي وجدوه من المسلمين في القرون الوسطى وما قبلها وبعدها.

اعترف بذلك كثير من مؤرخيهم مع حقائق التاريخ والواقع.

فمنذ أن دمّر البيزنطيون مدينة القدس سنة (٧٠م) لم يجد اليهود ملاذاً آمناً على أنفسهم ودينهم وكتبهم. وكذا الموحدون من النصارى كطائفة الأريسيين أتباع «آريوس». أسقف الإسكندرية، لم يجدوا لهم ملاذاً آمناً أيضاً إلا في الجزيرة العربية وأطرافها، وهذا ما يفسر وجود طوائف وقبائل اليهود في الجزيرة العربية كالمدينة وتيماء وخيبر واليمن، وكذا النصارى بنجران والحيرة ونحوها، وانتظاراً للنبي الخاتم الموعود الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل.

يسجل «لودفيغ هاغِمن» هذه الشهادة: «فمنذ تدمير الرومان «القدس» في عام (٧٠م) هاجر اليهود إلى شبه الجزيرة العربية، واستقروا في الواحات الواقعة على طريق القوافل الغربية الذي يسمونه «درب البخور». كما وصل المسيحيون أيضاً إلى ذلك الطريق، ولا سيما أثناء المشاحنات المسيحية المتعلقة بطبيعة المسيح التي حدثت في القرنين الرابع والخامس حيث كان يجد الملاذ هنا بوجه خاص مسيحيون ينتمون إلى مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح «ونساطرة» يؤمنون بطبيعتين منفصلتين للمسيح إلهية وبشرية، وتمكنوا من الإفلات من قبضة كنيسة

الإمبراطورية البيزنطية»[١].

وقد كان في زمن النبي ﷺ بقايا من موحدي النصارى رافضين لفكرة «بولس» و«بطرس» الإنطاكي وغيرهم في التثليث ونسبة الولد إلى الله تعالى، ومنهم «الآريسيون» أتباع «آريوس» أسقف الإسكندرية[٢] الذي ناظر بقوة الأسقف «أثنا سيوس» رئيس شماسة الإسكندرية في بلاط الإمبراطور «قسطنطين» بأثنا في مجمع «نيقية» الشهير سنة (٣٢٥م)[٣] وقد توفي بعد ذلك بعد عودته إلى الإسكندرية في ظروف غامضة[٤].

ولما كتب النبي ﷺ كتابه المشهور إلى «هرقل» عظيم الروم يدعوه إلى الإسلام، حمّل النبي ﷺ هرقل إثم هؤلاء «الأريسيين» الرافضين للتثليث، المؤمنين ببشرية المسيح وما يلقونه من اضطهاد.

ففي كتابه عليه الصلاة والسلام لهرقل: «**أسلم تسلم؛ يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت؛ فإن عليك إثم الأريسيين**»[٥].

قال ابن الأثير رحمه الله: «قال بعضهم: إن في رهط هرقل فرقة تعرف بالأروسية فجاء على النسب إليهم»[٦].

ويقول أستاذ دراسات الشرق الأوسط بجامعة برنستون بالولايات المتحدة «مارك ر. كوهين»: «أنفقت جُلّ حياتي العلمية كمؤرخ للقرون الوسطى، في دراسة التاريخ الاجتماعي لليهود الذين أقاموا في البلاد الإسلامية، وقد سعيت في هذا الكتاب الذي طبع أول مرة سنة (١٩٩٤م) إلى فهم السبب الذي جعل القرون الوسطية الإسلامية (أي: الفترة الممتدة ما بين ظهور الإسلام وحكم المماليك) أكثر أمناً وسلاماً بالنسبة إلى اليهود مما كانت عليه حياتهم في شمال أوروبا المسيحية وغربها»[٧].

---

(١) كتاب: مسيحية ضد الإسلام، حوار انتهى إلى الإخفاق (٢٩).
(٢) انظر عنه كتاب: تاريخ الأقباط، زكي شنودة (١/ ١٥٠).
(٣) انظر: المصدر السابق (١/ ١٥٤).
(٤) انظر: دائرة معارف القرن العشرين، فريد وجدي (١٠/ ٢٠٣).
(٥) صحيح البخاري رقم (٧).
(٦) النهاية في غريب الحديث (١/ ٣٨).
(٧) بين الهلال والصليب، وضع اليهود في القرون الوسطى (١١).

ويقول أيضاً: «كان الرأي الشائع وقتئذ يذهب إلى أن اليهود «تحت نفوذ الهلال» قد تمتعوا بالاستقرار وحماية عظمى، ودرجة عالية من الاندماج السياسي والثقافي أكثر مما حظي به اليهود الذين كانوا «تحت نفوذ الصليب»، كان هذا صحيحاً خصوصاً في ما يتعلق بالاضطهاد الذي لحق باليهود «الأشكناز» في أوروبا الغربية فالتكافل «Symbiosis» الديني الإسلامي اليهودي المثمر. مثلما عبّر عنه «س. د. جويتاين ـ S. D. Goitein» وهي عبارة أدق من عبارة «عصر ذهبي» فيما كان أستاذي «جرسون د. كوهين» « Gersnd. Cohen» يتكلم عن نخبة من فئات قليلة من الرجال الذهبيين. تناقض بشكل صارخ السجل المحزن للمواجهات بين اليهود والمسيحيين في بلاد الأشكناز»[١].

ويقول المؤرخ «كلود كاهين ـ Claude Cahen»: «ليس ثمة شيء في الإسلام في القرون الوسطى يمكن تسميته تحديداً بمعاداة السامية».

«إن الموضوعية تحتم علينا أن نحاول مقارنة عدم التسامح المسيحي بنظيره الإسلامي لما لهما من أوجه شبه وأوجه اختلاف. إن الإسلام بغض النظر عن عديد من الاضطرابات قد أظهر من التسامح إزاء اليهود الذين عاشوا في بلاد المسلمين أكثر مما أظهرته أوروبا»[٢].

ويقول المؤرخ الشهير «حاييم خليل بن سسون ـ Haim Hillel Ban Sasson»: «إن الوضع القانوني والحماية التي كان يتمتع بها اليهود في البلاد الإسلامية كان عموماً أفضل مما كان عليه الحال في البلاد المسيحية؛ لأن اليهود في السياق الأول لم يكونوا الكفار الوحيدين، فبالمقارنة مع المسيحيين، كان اليهود أقل خطراً وأكثر ولاء للحكم الإسلامي، ثم إن سرعة الغزوات الإسلامية واتساع مجالها قد فرضتا على المسلمين تخفيف الاضطهاد وضمان إمكانات كبيرة لبقاء أتباع عقائد أخرى في بلدانهم»[٣].

لقد كان للمؤرخين اليهود موقفان وهم يؤرخون لأحوال اليهود وأوضاعهم تحت الحكم الإسلامي، وفي المقابل أحوالهم تحت الحكم المسيحي الأوروبي.

---

(١) المصدر السابق (١٥).
(٢) نقلاً عن كتاب: بين الهلال والصليب، مارك ر. كوهين (٢٠ ـ ٢١).
(٣) المصدر السابق (٢١).

فأحوالهم تحت حكم الصليب عرف بـ«الفهم البكائي لتاريخ اليهود».

وأحوالهم تحت حكم الإسلام عرف بـ«التعايش الديني المثالي في بلاد الإسلام».

يمثل هذا الاتجاه بوضوح عميد مؤرخي اليهود في القرن التاسع عشر الميلادي وهو «هانريش غرايتز Heinrich Graetz».

يذكر في كتابه «تاريخ اليهود» أحوالهم في البلاد العربية فيقول: «إن عين الملاحظ لتقف مبتهجة لحال اليهود في شبه الجزيرة العربية عندما تضيق بتأمل حالتهم التعيسة في موطنهم القديم، في البلاد الأوروبية، وترهقها رؤية الضغينة المتمكنة في المسيحية، فهنا كان اليهود أحراراً ليرفعوا رؤوسهم، ولم يحتاجوا أن ينظر إليهم نظرة تخويف وإذلال، خشية أن يحيق بهم الغضب الكنسي أو أن يغمرهم جاه السلطة الدنيوية، هنا لم يوصد الباب دونهم وسبيل المجد، لا ولم يُمْنعوا من حظوة الدولة، بل الأمر على العكس، فقد سُمح لهم أن يُطوّروا قواهم دون عوائق، ضمن شعب حر بسيط ومبدع، ليظهروا شجاعتهم الرجولية، فينافسوا من أجل نيل شهرة ويطاولوا أعداءهم السيوف بيد مجربة»[١].

ثانياً: النصارى:

• «الله محبة، فمن أقام في المحبة أقام في الله، وأقام الله فيه»[٢].

• «أحبوا أعداءكم وصلّوا لأجل من يضطهدكم لكي تكونوا أبناء أبيكم السماوي الذي يشرق شمسه على الأبرار والفجار»[٣].

• «كل ما تكره لا تفعله لأحد من الناس»[٤].

• «كل ما تحبون أن يفعل الناس لكم فافعلوه أنتم لهم»[٥].

• «المحبة تصبر، المحبة تخدم ولا تحسد...، لا تحنق، ولا تبالي

---

(١) نقلاً عن: المصدر السابق (٣٣).

(٢) الكتاب المقدس، العهد الجديد، إنجيل يوحنا، الإصحاح: ٤ (٨).

(٣) المصدر السابق، إنجيل لوقا، الإصحاح: ٥ (٤٤ ـ ٤٥).

(٤) المصدر السابق، سفر طوبيا، الإصحاح: ٤ (١٦).

(٥) المصدر السابق، إنجيل متى، الإصحاح: ٧ (١٢)، ولوقا، الإصحاح: (٦/ ٣١).

بالسوء، . . . وهي تعذر كل شيء وتصدق كل شيء وترجو كل شيء وتتحمل كل شيء»[١].

لما اعتمد النصارى على مختلف طوائفهم توراة يهود وأسفار الأنبياء ضمن الكتاب المقدس، تحت مسمّى «العهد القديم» ظهر التناقض الصارخ بين الدموية، والدعوة للحرب والقتل والإبادة التي تطفح بها كتب يهود كما ذكرنا قبل خصوصاً سفر «يشوع» وسفر «تثنية الاشتراع»، وبين هذه النصوص في الأناجيل وكتب العهد الجديد الداعية للمحبة والتسامح، حتى مع الأعداء.

لقد لحظ بعضهم[٢] ذلك وسجّل اعتراضه فقال: «كيف يأمر الله اليهود بواسطة موسى أن يلتمسوا الغنى والسلطة، ويتكاثروا حتى يملؤوا الأرض، وأن يقتلوا أعداءهم ويذبحوا الأطفال، ويفنوا الشعوب عن بكرة أبيها، ثم يطلع علينا بعدها ابنه الناصري[٣] بتعاليم مغايرة جداً تقول: أن لا الغني ولا الطامح إلى السلطة مؤهل للإقامة بجوار أبيه، وأنه يفترض بك إذا ما تلقيت صفعة من أحدهم، أن تعرض نفسك لاستقبال أخرى! فمن تراه يكذب؟ موسى أم يسوع؟ وهل نسي الله عندما أرسل ابنه ما سبق أن قاله لموسى وجهاً لوجه؟»[٤].

وقد تصدى للرد عليه فيلسوف لاهوتي يدعى «أوريجانس»[٥] سالكاً مسلك التأويل الشديد على أنها نضال الروح ضد الجسد[٦]، فلم يقدم جواباً بل زاد إشكالاً.

هذه النصوص التي يتغنى بها المصلون في كنائس النصارى على اختلاف طوائفهم لم تغن شيئاً دون بروز الرغبة في نفوس النصارى بالتفوق على بقية البشر

---

(١) المصدر السابق، الرسالة الأولى إلى أهل قورنثس، الإصحاح: ١٣ (٤ ـ ٧).

(٢) هو: الفيلسوف سابليوس وثني عاش في القرن الثاني الميلادي. انظر: موسوعة أعلام الفلسفة، لروني إيلي ألفا (١/ ٥٣١).

(٣) يقصد المسيح ﷺ.

(٤) نقلاً عن كتاب: تاريخ التسامح في عصر الإصلاح، جوزيف لوكلير (٦٧، ٦٨).

(٥) هو: الفيلسوف «أوريجينس» لاهوتي يوناني توفي سنة (٢٥٣م)، في كتابه: الرد على «سابليوس». انظر: موسوعة أعلام الفلسفة، إعداد: الأستاذ روني إيلي ألفا (١/ ١٤٧).

(٦) انظر: كتاب: تاريخ التسامح في عصر الإصلاح (٦٨).

ووجوب حمل السلاح وإخضاع العالم تارة للكنيسة وتارة لأطماع الملوك والدول المسيحية المتعاقبة.

بل استخدموا مصطلحات «الحرب المقدسة»، «الحرب من أجل يسوع»، «الحرب العادلة»، وغيرها من الشعارات لتأجيج المشاعر ثم ممارسة القتل والحرب والإبادة باسم السيد المسيح والكتاب المقدس ومباركة الرب.

ووجد الرهبان والقسس والأباطرة والملوك في الكتاب المقدس وفي العهد الجديد أيضاً مضافاً إلى ما يطفح به العهد القديم ما يسند هذه النفسية المتعطشة للقتل والإبادة من أجل شهواتها ومن أجل الاستغلال وتوسيع الممالك. ونحو ذلك من الأهداف الدنيئة.

- في إنجيل متى[١]: «لا تظنوا أني جئت لأحمل السلام إلى الأرض، ما جئت لأحمل سلاماً بل سيفاً، جئت لأفرِّق بين المرء وأبيه، والبنت وأمِّها، والكَنَّة وحماتها، فيكون أعداء الإنسان أهل بيته».
- وفي إنجيل لوقا[٢]: «من لم يكن معي كان عليَّ[٣]، ومن لم يجمع معي كان مبدِّداً».
- وفي متى[٤]: «من لم يكن معي كان عليَّ، ومن لم يجمع معي كان مبدداً».
- وفي لوقا[٥]: «أتظنون أني جئت لأجل السلام في الأرض؟ أقول لكم: لا؛ بل الانقسام. فيكون بعد اليوم خمسة في بيت منقسمين ثلاثة منهم على اثنين، واثنان على ثلاثة، سينقسم الناس فيكون الأب على ابنه، والابن على أبيه، والأم على ابنتها، والبنت على أمها، والحماة على كنتها، والكنة على حماتها».

---

(١) الكتاب المقدس، العهد الجديد، إنجيل متى، الإصحاح: ١٠ (٣٤ ـ ٣٦).
(٢) المصدر السابق، إنجيل لوقا، الإصحاح: ١١ (٢٣).
(٣) تُرى هل كان الرئيس الأمريكي جورج بوش «الصغير» مستحضراً هذه الجملة من الإنجيل. عندما أعلن في أعقاب أحداث (١١/٩/٢٠٠١م) أن من لم يكن معنا فهو ضدنا، ليقسم العالم كله إلى أنصار له، وأعداء. ولو لم يسجلوا أي موقف عدائي لأمريكا.
(٤) الكتاب المقدس، العهد الجديد، إنجيل متى، الإصحاح: ١٢ (٣٠).
(٥) المصدر السابق، إنجيل لوقا، الإصحاح: ١٢ (٤٩ ـ ٥٣).

يقول الأب مايكل بْرَير: «تقدم الحروب الصليبية مثالاً صارخاً على الرابطة بين الدين والسلطة السياسية، وتمثل كيف تم توظيف «الكتاب» أداة للقمع، ويكفي هنا أن نشير إلى نمط التفكير الديني واللاهوتي اللذين قدَّما تسويغاً لمثل ذلك التصرف. ويمكن العثور على جذور التسويغ البابوي للعنف في إنكار القديس أغسطين الذي لجأ إلى «العهد القديم» ليظهر أن من الممكن أن يأمر به الرب مباشرة، لقد كانت الحرب التي شُنَّت باسم الرب «حرباً عادلة» بامتياز. وعُدَّ إنكار خُلُقية شن حرب موافق عليها سماوياً نقياً لوجود العناية الإلـٰهية بحد ذاتها. علاوة على ذلك فإن الرب سيساعد أولئك الذين خاضوا حروباً باركتها السماء كما ساعد الربُ بني إسرائيل في الانتصار على الأموريين»[١].

يقول المؤرخ الشهير آرنولد توينبي: «إن اعتقاد بني إسرائيل المسجل كتابياً بأن «يَهْوَه» حضهم على إبادة الكنعانيين هو الذي أقر للإنجليز الاستيلاء على أمريكا الشمالية وإيرلندا وأستراليا، وأقر للهولنديين الاستيلاء على جنوب أفريقية، وللبروسيين الاستيلاء على بولندا، وللصهاينة الاستيلاء على فلسطين»[٢].

ويقول الأب مايكل بْرَير: «اكتشفت بعد عودتي من القدس في آب عام (١٩٩٤م) أن بعض التقاليد الكتابية، إضافة إلى كونها انتشرت دعماً للصهيونية؛ فإنها أيضاً قدمت جزءاً من التسويغ العقدي للفصل العنصري في جنوب أفريقيا أيضاً، وفوق ذلك قدم اللاهوت المسيحي الدعم الفكري للغزو الإسباني لأمريكا اللاتينية. إذن بدا واضحاً الآن أن القصص الكتابية أسهمت في معاناة أعداد لا تحصى من المواطنين المحليين الأصليين... إن القصص الكتابية قد شجعت فعلياً كل أشكال الاستعمار العسكري المنبعث من أوروبا من طريق تزويده بالشرعية السماوية للمستعمرين الغربيين في حماسهم لزرع «مراكز تقدم» في «قلب الظلام»... أن التفسير النزيه للتقاليد الكتابية التي تأمر بالأعمال الفظيعة. وجرائم الحرب قد قدمت العزاء والسلوى لأولئك المصممين على استغلال الأراضي الجديدة على حساب الشعوب المحلية الأصلية. هناك دليل وافر بأن

(١) الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني (٥٧).

(٢) المصدر السابق.

«الكتاب» كان ولا يزال إلى حد ما المثل الأعلى الذي يسعى إلى استلاب الأرض بالفتوحات»[١].

إن ما أصاب اليهود من فوبيا ضد الأغيار، واستغلال للنصوص المقدسة لتبرير القتل والإبادة واستلاب الثروات، أصاب نظيره النصارى مع زيادة إرغام الناس على المسيحية أو القتل والإبادة باعتبار أنهم لا يستحقون الحياة.

وهي مخالفة صريحة لأعظم تعاليم «بولس الرسول» التي يتغنى بها النصارى من دعوته الصريحة لحرية الإنسان وأن قبول المسيحية إنما هو للتحرر من عبودية الفساد، ولذا برّر لأتباعه تحمل اضطهاد اليهود لهم، تمسكاً بالحرية التي وفّرها لهم إيمانهم بيسوع المخلص.

في رسالته إلى أهل رومية نجده يقيم تعارضاً بين «عبودية الفساد» و«حرية أبناء الله ومجدهم»، فيقول: «وأرى أن آلام الزمن الحاضر لا تعادل المجد الذي سيتجلى فينا، فالخليقة تنتظر بفارغ الصبر تجلي أبناء الله، فقد أُخضعت للباطل لا طوعاً منها؛ بل بسلطان الذي أخضعها، ومع ذلك لم تقطع الرجاء لأنها هي أيضاً ستحرر من عبودية الفساد، لتشارك أبناء الله في حريتهم ومجدهم»[٢].

وفي رسالته إلى أهل غلاطية يقول: «إن المسيح قد حررنا تحريراً، فاثبتوا إذاً، ولا تدعوا أحداً يعود بكم إلى نير العبودية»[٣].

لقد تميز العالم المسيحي عبر عصوره بالنزعة إلى الإبادة والاحتلال. وفي هذا العصر الحديث بشكل كبير، الذي يستحق أن يسمى بحق «عصر الرعب»؛ فإن العالم البشري كله اليوم يشهد في هذا العصر من الاضطراب والفوضى، وسوء المستقبل، وتجهم المصير ما يرعب القلوب ويزلزل الأفكار... وقد أمسك بزمامها أمم كافرة ـ مسيحية ـ عملاقة «تستعمل قوة العفاريت بعقول الأطفال ـ كما قاله جود ـ... ومع سباق التسلح الرهيب، والتنافس في نشر أسلحة الفتك المبيد أحس الناس بالهلع الذي يقض المضاجع»[٤].

---

(١) الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني (٢٢ ـ ٢٤) باختصار.

(٢) الكتاب المقدس، العهد الجديد، رسالة إلى أهل رومة (٨/١٨ ـ ٢٠).

(٣) المصدر السابق، رسالة إلى أهل غلاطية (٥/١).

(٤) من مقدمة كتاب: منهج الأشاعرة في العقيدة، للدكتور سفر بن عبد الرحمٰن الحوالي (٣، ٤) باختصار.

يقول المفكر الألماني «ديتر تسمرلنغ» «Dieter Zimmerling»: «بالنسبة إلى كثيرين في العالم بأسره تحول قرننا إلى عصر رُؤْيَوي، كنا نحن الآخرين محض نظَّارة وإن كنا لم نبق بمنأى عن المشاركة فيه، من المنطقي إذاً أن يدور الحديث بالنتيجة عن: «عصر الخوف» و«عصر الحروب العالمية» و«نهاية كل أمان» وأخيراً عن «نهاية العصر الحديث»».

تلك النزعة الإبادية كانت قد توطنت الخواطر، وهي تتلقى كل يوم غذاءً جديداً وتمدها كل نظرة نلقيها على الجريدة أو شاشة التلفاز بزاد وفير.

تقسم شعاراتها وتكثيفاتها الكلامية مثل: بيئة، مناخ، غابات، إبادة الشعوب، مجاعات، حروب، أوبئة، طاقة نووية، فائض السكان، وغير ذلك من كلمات مرعبة... لقد بدأ الإنسان رحلة إلى الجحيم لا أحد غيره مسؤول عنها... سيهلك العالم ما دام هناك بشر، لذلك ثمة تصورات حول نهاية ما في مختلف الثقافات والأديان... غير أن المسيحية اخترقت هذا التصور وجعلت للزمان والمكان بداية ونهاية قطعيتين.

تخلت العلوم الطبيعية الحديثة التي تكونت في ركاب العقلانية والتنوير عن هذه التصورات، وركزت اهتمامها على تهيئة علاقات «فردوسية» للإنسان على الأرض... كما عُقِدت الآمال على رفع الإنسان إلى سوية أخلاقية أعلى؛ لكن لم يتحقق هذا الهدف في أي مكان كما يبدو... وكل الذي حدث هو ترقية نوعية الحياة على الصعيد المادي فقط في ما يسمى اليوم «العالم الغربي»[(١)].

ويقول المؤرخ والمفكر الأمريكي الشهير «نعوم تشومسكي» «Noam Choms;ky»: «كان الأوروبيون يحاربون بهدف القتل، وكان لديهم من الوسائل ما مكّنهم من إرضاء شهوة الدم عندهم، فقد دهش السكان الأصليون في المستعمرات الأمريكية من وحشية الأسبان والبريطانيين، وبالمثل أرعب غضب آلة الحرب الأوروبية المدمرة شعوب أندونيسا في الطرف الآخر من العالم»[(٢)].

ويقول «باركر»: «إن هيمنة الأوروبيين على العالم قد اعتمدت بشكل حاسم على الاستخدام المستمر للقوة، وبفضل تفوقهم العسكري، لا بفضل أية ميزة

---

(١) كتاب: النهايات، الهوس القيامي الألفي (٧ ـ ٩) باختصار.

(٢) كتاب: سنة (٥٠١م)، الغزو مستمر (ص١٨).

اجتماعية أو أخلاقية أو طبيعية، تمكن البيض من بناء وقيادة أول هيمنة عالمية في التاريخ وإن لفترة وجيزة»(١).

ويقول ديتر تسمرلنغ: «نشأ الفرسان في ألمانيا من غير الأحرار، فكانوا يقاتلون من أجل سيدهم النبيل، ثم يتباهون ويتفاخرون بعد ذلك بأفعالهم ويبالغون فيها إلى درجة أغرت إثارتها النبلاء بالانتساب إليهم».

وصف الأسقف «بوتز يوسوتري» من إيطاليا العليا ـ توفي عام (١٠٩٩م) في مؤلف وضعه عام (١٠٩٠م) عنوانه: «كتاب عن الحياة المسيحية»، ما كان منتظراً من المحاربين؛ أي: الفرسان، إنه بين أمور أخرى: القتال حتى الموت في سبيل خير الجماعة العامة، ومحاربة المرتدين والهراطقة، والدفاع عن الفقراء والأرامل والأيتام، والالتزام بقسم الولاء وعدم الشعور بالحسد تجاه سادتهم»(٢).

لقد استخدم النصارى منذ القديم مصطلح «الحرب العادلة» لإبادة الشعوب الأخرى، والاستيلاء على أراضيهم ثم تنصيرهم بالقوة بعد ذلك.

يقول الأب مايكل بْرَير: «وهكذا أرسى «التنصير» الذي مارسته الكنيسة أساسات سلطة الدولة النهَّابة، ومنحها السلطة على ثقافة الشعوب الأصلية، وتمت مماهاة الرب بالغزاة الأوروبيين والشيطان بالكفار البرابرة، قدم التنصير الأساس العقدي للإخضاع تماماً كما قدم البارود والحصان الأساس العسكري، وكان كلاهما في خدمة الهدف الحقيقي للغزوات وهو الإخضاع الاقتصادي للمنطقة. وقد استمد «دكرتو دوكراسيانو» «Decreto de Graciano»: التسويغ الأساسي للحرب المقدسة من العهد القديم (يشوع والقضاة وشاول وداود) عاكساً التفويض السماوي بشن حرب مقدسة للسيطرة على الأرض الموعودة، وإحكام قبضتهم عليها وثم تلطيف الشكوك بكون ذلك عدواناً عسكرياً من خلال ادعاء «أغستين» اليقيني بأن الحرب التي أمر بها الرب هي «حرب عادلة» حيث من غير الممكن أن يكون في الرب شر»(٣).

ويقول أستاذ اللاهوت الألماني لودفيغ هاغِمن: «أما تاريخ المسيحية

(١) المصدر السابق.

(٢) كتاب: النهايات، الهوس القيامي الألفي (١٢٢).

(٣) كتاب: الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني (٨٢).

الغربية فقد وَضَع من جانبه، متأثراً بالأفكار الفلسفية في العصر القديم، النظرية التقليدية عن «الحرب العادلة/ Cbellum iustum» وكان هذا في الحقيقة تناقضاً واضحاً مع المسيحية في أقدم أشكالها، وهي التي كانت تتخذ لنفسها من الحرب والخدمة العسكرية مكاناً قصيّاً»[١].

وقد اعتمدوا في إجبار الناس على الدخول في المسيحية والخضوع لها. على ما جاء في إنجيل لوقا[٢]: «أخرج إلى الطرقات والدروب وألزم الناس بالدخول حتى يمتلئ بيتي».

فأفادت عبارة: «ألزم الناس بالدخول»، في تسويغ حرب عادلة على الهراطقة.

حاول بعض شراح الكتاب المقدس تفادي ما في هذه العبارة من استخدام القوة لإرغام الناس على الدخول في المسيحية فقال: «ليس المقصود هو العنف، بل دعوة ملحّة، هناك تفسيرات متأخرة أرادت استخدام هذا النص في سبيل الاهتداءات بالقوة ليس لها أي مبرر في هذا المثل، وكم بالأحرى في روح الإنجيل».

ثم يأتي «توما الأكويني» «Thomas Von Aquen» فيذكر المعايير الأخلاقية التي تسوغ شن الحروب والتي تحدد أهداف الحرب العادلة في الدفاع عن النفس أو الإحساس بالظلم وخدمة السلام. ونحو ذلك.

ولكن قبل أن يضع توما الأكويني في القرن الثالث عشر الميلادي معاييره الأخلاقية كانت الممارسات الحربية في المسيحية قد انتشرت وشاعت، وكان رجال الكنيسة من أمثال «البابا غريغوريوس الأول» بين عامي (٥٩٠ ـ ٦٠٤) يدعو إلى الحرب لنشر المسيحية.

وكانت الحرب تعد وسيلة مناسبة للانتقام من إهانة فعلية أو متوهمة للمسيح، أو المساس بالعقيدة المسيحية.

---

(١) مسيحية ضد الإسلام (٥٠).

(٢) الكتاب المقدس، العهد الجديد، إنجيل لوقا، الإصحاح: ١٤ (٢٣، ٢٤).

بل إن الحرب كذلك تأمن مجال النفوذ المسيحي وتوسيعه، ونتج من ذلك الحملات الحربية الشعواء التي قام بها الإمبراطور «شارلمان» ضد شعوب الجرمان والسُّلاف. وضد المسلمين في أسبانيا على ضفاف جبال البيرنيه[١].

وهكذا ارتبطت فكرة «الحرب العادلة» بمفهوم الحرب على الكفار.

وضَمِنَ البابوات من أمثال «البابا ليون الرابع» (٨٤٧ ـ ٨٥٥م) و«البابا يوحنا الثامن» (٨٧٢ ـ ٨٨٢م) الحياة الأبدية والاتصال بالمسيح للذين يسقطون في القتال ضد المسلمين وضد النورمانديين الوثنيين.

وهكذا أصبحت الحرب المقدسة لتوسيع نفوذ الكنيسة والرعاية البابوية لها هي التي مهدت لفكرة الحروب الصليبية على نحو حاسم وجعلتها في النهاية تتحول إلى حقيقة واقعة.

يقول المفكر الألماني ديتر تسمرلنغ: «طاف البابا أوربان الثاني منذ أشهر فرنسا داعياً لمشروعه الكبير: حملة الصليب، مدعياً أن الشرق طلب بإلحاح عوناً مسلحاً ضد السلاجقة المسلمين. قال البابا: إن الفرسان النبلاء يتكاسلون ويتشاجرون في حين يحتل الوثنيون الأماكن المسيحية المقدسة ويتوطنون فيها، إنه يعتقد بوجود فرصة سانحة لتوجيه فائض قوة الفروسية نحو أهداف جديدة، أهداف أعلى، ليسود السلام في الداخل، وتنقل الحرب إلى الخارج»[٢].

والعصر الحاضر لا يختلف عن سابقه في حب الغرب المسيحي للحرب والقتال إن لم يكن أشد وأقسى. ودخول البعد الديني فيه واضح.

يقول البرفسور الدانماركي «نيلز لمكة»: «منذ سنوات قليلة، دُعيت لإلقاء محاضرة على قساوسة الجيش الدانماركي عن موضوع «الحرب في العهد القديم» كما دُعي زميلي في دراسات العهد الجديد بالأسلوب نفسه لإلقاء محاضرة عن «الحرب والعهد الجديد» قبلت الدعوى بسرور بدافع من قناعتي أن ثمة الكثير لأقوله... في اليوم المحدد للمحاضرة وصلت إلى الحفل لا أحمل معي سوى نسختي من الكتاب المقدس، وأنا أقول: بإمكاننا أن نختار صفحة من العهد

(١) مسيحية ضد الإسلام (٥٠، ٥١)، وكتاب: الحرب المقدسة، تأليف: جان فلوري (١٣٠ ـ ١٣٥)، وكتاب: ورثة الإمبراطورية الرومانية، تأليف: ريتشارد، أ. ساليفان (١٠٩ ـ ١١٨).

(٢) النهايات، الهوس القيامي الألفي (١٢٦).

القديم لا على التعيين، وسيكون هناك بالتأكيد شيء ذو صلة بموضوعنا، وما تبين في النهاية، من دون امتلاك أي نوع من المخطوط أو المذكرات، تمكنت بسهولة من تسلية الحضور لمدة حوالي ساعة عن الحرب في العهد القديم.

هذا جانب واحد من جوانب الموضوع، أما الجانب الآخر فله علاقة بالعنف الغربي، الذي له تاريخ طويل جداً، منذ عدة سنوات، عندما وصلت النزعة الإجرامية «HOOLI GANISM» في كرة القدم إلى أسوئها، شرح عالم اجتماع بريطاني أسباب هذه النزعة في الرياضة الحديثة، وفسّرها على هذا النحو: «نحن الأوروبيون ببساطة نحب القتال»...

إن القتال ينتمي على نحو ما إلى موروثات الإنسان الغربي، قد تتغير الطريقة التي نقاتل بها، لكننا بالأساس نحب القتال، إن هدف هذه المحاضرة هو مع ذلك ليس أن أعد ملخصاً لنشاطات القتال، ولا أن أعلق على الشؤون الحديثة في هذه المنطقة، فهي ليست محاضرة سياسية؛ بل أن أجمع الشهوة الواضحة لدى الغربيين للحرب والغزو مع العقيدة الموجودة في أحد الأعمدة الأساس للحضارة الغربية، أي: العهد القديم...

إن ما أود التشديد عليه هو أن العنف الذي لا معنى له، الذي هو جزء من الحروب الأوروبية قد يكون له ألوان عقدية، يمكن أن تمثلها على سبيل المثال فظاعات الحرب العالمية الأولى في الخنادق، مع الحرب الكيميائية بوصفها الوسيلة النهائية للحرب، أو الحرب العالمية الثانية التي وصلت إذا جاز القول خاتمتها المشهدية «Spectacular» عندما تم إلقاء قنبلتين نوويتين فوق مدينتين يابانيتين»[١].

ويقول أيضاً: «بهذه الطريقة كان على النمط السائد للتاريخ أن يقدم خلفية لأجل خبرة المستقبل ودولة أمة (دولة قومية) يمكنها أن تستدعي مواطنيها الكثيرين إلى شن الحرب لمصلحة الأمة، فكانت النتيجة مدمرة. إن حروب «نابليون بونابرت» كلفت خمسة ملايين شخص على الأقل أرواحهم، والحروب الألمانية ربما كلفت عشرة أضعاف هذا الرقم[٢]»[٣].

(١) يشوع والعنف الغربي، ضمن الجديد في تاريخ فلسطين القديمة (١٠٣ ـ ١٠٥).

(٢) الكاتب هنا يتحدث عن كلفة الحروب في أوروبا أما ما فعله الاستعمار الغربي في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية فأمر مهول حقاً.

(٣) يشوع والعنف الغربي (١١٤).

ويضيف لمكة: «تتغير الأحوال عندما يقدم الدين عقيدة الحرب، عندما تصبح الحرب حملات صليبية تهدف إلى تدمير العقيدة المنشقة، ويقدم التاريخ أمثلة كثيرة على ذلك قديماً وحديثاً، من الواضح أن عقيدة الصليبيين في العصور الوسطى كانت توجهها عواطف كتلك التي صاغها سفر يشوع: إنها إرادة الرَّب «Deus Vult» صرخة الحرب الشهيرة للصليبيين قبل أن يقوموا بذبح سكان القدس لكي ينتقلوا إلى كنيسة الضريح المقدس ليسبّحوا بحمد الرب ويحتفلوا بانتصاره، من الواضح مع ذلك أن الطرفين [المتحاربين] في أثناء الحرب العالمية الثانية كانا يحملان مثل هذه العواطف وخاضا حرباً كان ينظر لها الطرفان على أنها حملة صليبية مقدسة، فكانت في عيني الأمريكي حرباً حقيقية بين الخير والشر، هكذا كانت مذكرات الحرب الخاصة بالجنرال «أيزنهاور». التي حملت عنوان «حرب صليبية في أوروبة» «Acrusade in Europe»، وقد خيضت بوحشية لا سابق لها، ليس أقله في روسيا حيث كان ثمة عقيدتان متعارضتان الشيوعية والنازية: لا رحمة، لا قيود، ولا قواعد للاشتباك»[١].

استشهد «نيلز لمكة» بصليبية «أيزنهاور» وهذا كاتب آخر هو: «كرستفر هتشنز» «Christopher Hitchens» يضع كتاباً حافلاً[٢] في حروب وزير الخارجية الأمريكي الشهير: «هنري كيسنجر» «Henry Kissinger». ومدى الصليبية والوحشية وانعدام الهدف الذي سبقها وصحبها.

يقول كرستفر هتشنز في مقدمة كتابه: «إلى ضحايا هنري كيسنجر البواسل الذين ستعمر أمثولتهم أكثر منه، ومن سمعته. وإلى «جوزيف هيلر» «Joseph Heller» الذي أدركها مبكراً، وفهمها كاملاً. في رأيه المحافظ يرى «غولد» «Gold» أن التاريخ لن يذكر هنري كيسنجر كشبيه «بيسمارك» «Bismerck»، أو «ميترنخ» «Metternch»، أو «كاسلريغ» «Castlereagh»؛ بل كإنسان بغيض صنع الحرب بسرور»[٣].

---

(١) المصدر السابق (١١٩).

(٢) هو كتاب: محاكمة هنري كيسنجر، طبع دار قدمس، دمشق، الطبعة العربية الأولى سنة (٢٠٠٢م).

(٣) محاكمة هنري كيسنجر (١٠).

ويضيف هتشنز أيضاً: «جل اهتمامي في هذا الكتاب منصب فقط على تلك الإساءات (الكيسنجرية) التي يمكن؛ بل يجب أن تشكل قاعدة وأساساً لمقاضاة شرعية وقانونية لجرائم الحرب، والجرائم ضد الإنسانية، والإساءات الموجهة للقانون العام أو العرفي أو الدولي، بما في ذلك التآمر والتواطؤ لاقتراف جرائم القتل والخطف والتعذيب»[١].

يضيف هتشنز: «ما زالت استنتاجات تقرير عضو (الكونغرس) «أوتيس بايك» «Otis Pike»، تسبب صدمة لدى قراءتها، وتكشف لا مبالاة «هنري كيسنجر» الشديدة تجاه الحياة البشرية، وحقوق الإنسان»[٢].

ويضيف هتشنز: «إن عدداً من شركاء كيسنجر في الجرائم، إن لم نقل معظمهم، في السجن الآن، أو أنهم ما يزالون بانتظار المحاكمة، أو أنهم عوقبوا ولحق بهم الخزي، أما حصانة كيسنجر الموحشة فهي فاسدة إذ فاحت رائحتها لتصل إلى السماء، فإذا أتيح لها أن تستمر فسنكون عندئذ ندافع بشكل مخجل عن الفيلسوف القديم «آناخارسيس» «Anacharsis» الذي قال: «إن القوانين شبيهة ببيت العنكبوت قوي بما يكفي لاحتجاز الضعيف فقط، وأضعف من أن يستطيع احتجاز القوي»، حان الوقت كي تتخذ العدالة مجراها باسم الضحايا المعروفين والمجهولين الذين لا يمكن حصرهم[٣]»[٤].

يصور لنا «ديتر تسمرلنغ» صورة قاتمة ومرعبة لما ينتظر البشرية.

فيقول: «كان لا بد من وقوع حرب عالمية ثانية، وبناء قنبلة ذرية جربت فعلياً على عدو، ومن ممارسة النهب الأكثر فظاعة للمواد الأولية الطبيعية، ومن نمو سكاني انفجاري الطابع، وتدمير حادث أو مرتقب لمجالات حياة الإنسان،

---

(١) المصدر السابق (٣١).

(٢) المصدر السابق (٣١).

(٣) يظهر أن ما قاله المؤلف هتشنز سيبقى أمنية؛ لأن القضية لا تخص كيسنجر بقدر ما هي منهجية سلوكية ونفسية فسيولوجية ذات بعد ديني أيضاً للإنسان الغربي والأمريكي خصوصاً صناع القرار وصناع الحرب، وهذا يذكر بإصدار الولايات المتحدة قانوناً من الأمم المتحدة يعطي حصانة لجنودها الذين ارتكبوا الفظائع في العراق وأفغانستان يبقيهم خارج المساءلة القانونية!!.

(٤) المصدر السابق (٣٣، ٣٤).

والحيوان والنبات، كان لا بد من مرور زمن لا نهاية له، قبل أن يدرك أناس بصيرون، خاصة أن له أبعاداً قيامية وأن الإنسان صنعه بنفسه فلا يجوز أن تسأل عنه أية قوة متعالية إلا إذا كان يرى فيه فعل الشيطان كي يبرئ نفسه»[١].

يضيف تسمرلنغ: «جسدت الأسلحة النووية الإسهام الأكثر قذارة في الموت المعاصر للعالم بعد أن جرب الأميركيون عام (١٩٤٥م) باليابانيين ما يمكن لأسلحتهم النووية فعله بالبشر، وتعادل الاتحاد السوفيتي مع أميركا في تقنية السلاح الذري، بدأ سباق التسلح النووي إلى أن صار بوسع كل واحدة من القوى النووية القضاء مرات عديدة على مختلف أنواع الحياة في الأرض»[٢].

يضيف: «وفقاً للاتجاهات المسيطرة في السياسة، ولتقنيات التدمير، يعدّ نشوب حرب عالمية ـ ثالثة ـ محتمل الحدوث كما استخلصت دراسة نشرت في لندن، عنوانها: الصراع في الفضاء الكوني. قالت الدراسة: «إن الشرق والغرب سيحتاجان ذات يوم إلى خوض تجربة قوة من أجل تسوية تناقضاتهما»[٣].

يضيف: «تريد إسرائيل إضافة السلاح النووي إلى ترسانتها، كي تحافظ على تفوقها العسكري حيال جيرانها العرب، وقد كدست مائتي رأس نووي[٤] إلى الآن، ورفضت كالهند وباكستان توقيع اتفاقية حظر انتشار الأسلحة النووية»[٥].

ألقت الولايات المتحدة قنبلة نووية على هيروشيما باليابان، وأخرى على ناغازاكي يوم السادس من آب عام (١٩٤٥م).

لم يغب البعد الديني والتجذير الإيماني لمباركة هذا التدمير الإجرامي الذي لم يعرف له البشر مثيلاً.

---

(١) النهايات: الهوس القيامي الألفي (١٨٧).

(٢) المصدر السابق (١٩٣).

(٣) المصدر السابق (١٩٣ ـ ١٩٤).

(٤) أثبت الصحفي الأمريكي الشهير: «سيمور هيرش» بالوثاق امتلاك إسرائيل لنحو (٣٠٠) رأس نووي تستطيع تدمير العالم العربي ثلاث مرات وتدمير نفسها أيضاً على مبدأ «الخيار شمشون»؛ لأنه يعتني بمقولة شمشون كما تروي التوراة الذي هدم المعبد على نفسه وعلى آسريه الفلسطينيين بعد معركة دامية. انظر: كتاب: الخيار شمشون، لسيمور هيرش.

(٥) المصدر السابق (١٩٦).

فيقول «ديتر تسمرلنغ» في اندهاش وسخرية: «كتب شخص بخط يده على التقرير المسجل يوم (٢٦) تموز من عام (١٩٤٥م) حول المادة الانشطارية المستخدمة في قنبلة هيروشيما يقول: «هذه المادة التي استعرضناها نقلها «بارسن» و«تيبت»[١] لتكون حصة هيروشيما من يوم القيامة».

واستنزل الكاهن الميداني «وليام دوناي» بركة الرب على بعثة هيروشيما من خلال الصلاة التالية: «أيها الأب العلي القدرة الذي يصغي إلى صلوات من يحبونه، نرجوك أن تقف إلى جانب من يحلقون في أعالي سمائك لينقلوا القتال إلى أعدائنا... نضرع إليك أن تجعل نهاية الحرب وشيكة كي ننعم من جديد بالسلام على الأرض... سنواصل معتمدين عليك طريقنا لأننا نعرف أننا تحت حمايتك: الآن وإلى الأبد... آمين، استجاب الرب لدعائه»[٢].

دعوى التسامح الديني لدى النصارى:

لقد نشأت حركة تسامح في زمن الإصلاح في المذاهب والمجتمعات المسيحية في أوروبا، وإن كانت ضعيفة وفردية في جوانب كثيرة. ثم إنها جميعها تدعو للتسامح مع المسيحيين من الطوائف الأخرى، إلا في المعاداة للإسلام والمسلمين. فتختفي دعوى التسامح. لتحل محلها «الفوبيا» بتصوير الإسلام على أنه العدو الأكبر للمسيحية.

يعترف أحد أكبر من أرخوا للتسامح في عصور الإصلاح بقلة المعلومات وتشويشها في هذا الجانب.

يقول «جوزيف لوكلير»: «نحن على يقين من أن المعلومات التاريخية حول هذه الأمور تشكو من الغموض، والتقطع لدى كثيرين من معاصرينا، إذا ما عسانا نعرف، في الأحوال العادية، عن تطور مسألة التسامح منذ بداية العصور الحديثة؟

إن المعلومات المتوافرة لدى اللاهوتيين؛ بل المؤرخين أيضاً، تبقى مشوشة، إن لم تكن مغلوطة، في معظم الأحيان باستثناء بعض الشخصيات الشهيرة، والأحداث الباهرة، ولا لوم عليهم؛ لأن وضع الأبحاث الراهن حول

---

(١) الطياران اللذان قادا الطائرة التي ضربتا هيروشيما.

(٢) المصدر السابق (١٩٧، ١٩٨).

هذا الجانب من التاريخ الديني هو أقل تطوراً مما يمكن تصوره، وما أسهل التحقق من ذلك!»[١].

ويقول الأبوان «جوزيف كوك» «J.Cuoq»: و«لويس غارديه» « L. Cardet». في الكتاب الذي أصدراه باسم الفاتيكان عقب المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢ ـ ١٩٦٥م): «يجب علينا كمسيحيين ونحن نخاطب المسلمين؛ أن نفكر قبل كل شيء في صعوبات وعوائق الحوار مع المسلمين، والتي تتعلق بنا إلى حد كبير، وإلى الظلم والجور الذي أحاط به الغرب ذو التربية المسيحية المسلمين واقترف ذنوباً وآثاماً عديدة بحقهم؛ المرارة العميقة، قبل كل شيء يجب أن نأخذ في اعتبارنا أن العصور الماضية كالسنوات الحالية قد تركت في الأذهان والأفكار، وخاصة في بعض المناطق، مرارة عميقة حيال الغرب. إن المسيحيين قد أوقفوا؛ بل حطموا انطلاقهم الحضاري نتيجة الحروب الصليبية التي أسهمت بوضع حد لأكثر الأوقات ازدهاراً في التاريخ الإسلامي، يضاف إلى هذا الاستعمار الذي حال دون نهضتهم التي بدأت بشائرها تظهر في القرن التاسع عشر، علينا أن نعترف بكل أمانة وصدق بالمظالم التي ارتكبها الغرب، وأن نعطي الدليل بأننا نتخلى عن تضامننا مع التفكير والذهنية اللتين سادتا الماضي، ومع بعض التصرفات في الوقت الحاضر لنتحرر من أفكارنا المسبقة، فمن الضروري أن لا نستسلم لهذه النظرات والآراء السريعة والكيفية والاعتباطية في أكثر الأحيان والتي لا تنطبق إطلاقاً على المسلم المخلص والصادق..»[٢].

يقول الدكتور «رضوان السيد»: «ظهر مجال بحثي جديد هو ما عرف بصراع الحضارات أو حوارها، والذي ابتدعه «برنارد لويس» وركز عليه «هنتنغتون» في كتابه المعروف: صدام الحضارات (١٩٩٣ ـ ١٩٩٦م). وكان يمكن القول: إنه لا شأن لهذه الاهتمامات المستجدة لدى الأمريكيين والأوروبيين بأوروبا الوسيطة، لولا أن العلاقات بين الغرب والإسلام، وبين العرب والغرب في العقدين الماضيين، أفضت لتأمل العلاقة الوسيطة المتأزمة، ودور الإسلام فيها، بدلاً من التركيز على المسؤولية الأوروبية عن الجهل والتوتير

---

(١) تاريخ التسامح في عصر الإصلاح (١٧، ١٨).

(٢) نقلاً عن كتاب: صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى، لريتشارد سوذرن (١١، ١٢).

ومحاولات الإلغاء بالحروب الصليبية، ثم بالغزوات الاستعمارية. وهكذا جرى استخدام «تاريغانيات لويس»، ونظريات «أرنست غلز» الأنثروبولوجية، لإلقاء المسؤولية على كاهل الإسلام منذ ظهوره في القرن السابع وحتى اليوم»[١].

وسنذكر هنا رموز دعاة التسامح في عصر الإصلاح في العصور الوسطى وما قبلها وما بعدها، وكيف أنهم هم بأنفسهم دعاة الخوف من الإسلام، وصنّاع الفوبيا ضد الإسلام، ومنظرو الحرب العادلة ضده.

١ - «يوحنّا الدمشقي»:

اسمه منصور بن سرجون ولد في دمشق عام (٦٧٥م) تمتع بتسامح كبير من المسلمين وعمل وزيراً لبعض الأمويين وكان كاتباً وجابياً للضرائب إلى أن سرّحه الخليفة الأموي «عمر بن عبد العزيز» سنة (٧٢٠م) فانعزل في دَيْر «مارسابا» ببيداء البحر الميت بفلسطين، وألف الكتب في الرد على الإسلام ومهاجمته إلى أن رسمه البطريرك «يوحنا الخامس الأورشليمي» كاهناً، وأصبح مستشاره الخاص.

يعتبر يوحنا الدمشقي رأساً في مهاجمة الإسلام ورسم صورة الفوبيا عنه.

يقول المفكر الفرنسي «روجيه جارودي» عن «دير مارسابا»: «في عام (٤٧٨م) أقام أحد النساك الذين ظل يجوب في صحراء يهوذا على مدى خمس سنوات وعُرف فيما بعد باسم «القديس سابا» في مغارة تقابل دير ما تزال آثاره ماثلة حتى اليوم، راح مريدوه يتوافدون عليه، ثم أقيم عام (١٠٠٥م) على المغارة دير يعد من أشهر الأديرة في الشرق، وقد مرّ بهذا الدير أو عاش فيه قديسون كبار كالقديس «تنيودور» والقديس «كير بلوس»، ولا سيما الشخصية المرموقة: القديس «يوحنا الدمشقي» (٦٧٥ - ٧٥٣م) الذي أمضى في هذا الدير ثلث القرن، وكتب فيه كل أعماله التي تعد نقطة انطلاق لحوار بين المسيحيين والمسلمين، ولكن بصيغة جدلية هجومية»[٢].

ثم يقول جارودي: «إن يوحنا الدمشقي في صومعته بدير القديس سابا في

---

(١) مقدمة كتاب: صورة الإسلام في أوروبا (٦).

(٢) المصدر: كتاب: مخطوطات البحر الميت، قصة الاكتشاف، لأسامة العيسة (٦٨، ٦٩).

فلسطين التي أصبحت مسلمة، كان يناظر بحرّية، ويجادل مبادئ الإسلام نفسه، ويدافع عن العقيدة المسيحية الرسمية»(١).

فها قد استفاد يوحنا الدمشقي من جو الحرية التي توفرت له في حكم المسلمين. وتحت حمايتهم ليهاجم الإسلام. ويعده هرطقة ويدعو إلى حربه، ويدعو إلى عقيدته المسيحية، في الوقت الذي يصدر البيزنطيون المسيحيون من بني دينه حرماناً قاسياً في حق يوحنا الدمشقي.

فقد عقد الإمبراطور البيزنطي «كونستانتين كو برونيم» مجمعاً مسكونياً من (٣٣٨) أسقفاً ليصدروا الحرمان الآتي:

«اللعنة على منصور بن سرجون الذي خان المسيح، والذي يميل قلبه على المسلمين، اللعنة والحرمان لعدو الإمبراطورية يوحنا الدمشقي المبشر بالجحود والمعظم للأيقونات»(٢).

ألّف يوحنا الدمشقي كتاب «ينبوع المعرفة» وفي القسم الثاني في هذا الكتاب: «حول الهرطقة» «De Haeresibus»، جعل الإسلام ضرباً من الهرطقات، وجعل النبي ﷺ تلقى معلوماته من راهب آريوسي، وأن تعاليم محمد بصدد شخص المسيح هرطقة مسيحية ذات طابع آريوسي.

وهو هنا يكرر ما سبق أن قاله المشركون أعداء النبي ﷺ: أنه يتلقى القرآن من رجل رومي اسمه «بلعام» أو «جبر» أو «يعيش» أو غير ذلك(٣).

وقد ردّ الله ذلك وكذبه بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣].

ولقد تلقى النصارى هذا التهافت عن يوحنا الدمشقي مع تغييرهم في الشخصية التي يتلقى منها النبي ﷺ تعاليمه.

يقول لودفيغ هاغمن: «هذه الأطروحة الخاصة بتأثر محمد براهب مسيحي تظل المرة بعد الأخرى، تلقى التأييد والاحتضان على مدى التقليد الطويل

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) انظر: حاشية تفسير الطبري، لأحمد شاكر (١/ ٥٤).

الخاص بالجدل المذهبي المعادي للإسلام سواء أكان ذا مصدر بيزنطي أم لاتيني...

وفي الروايات البيزنطية واللاتينية اللاحقة يصبح الراهب الآريوسي الذي ورد الحديث عنه عند يوحنا الدمشقي: «سرجيوس» أو «نسطوريوس» أو «جيورجيوس» أو «نيقولاوس»... إلخ.

ومرة يظهر على أنه نسطوري، ومرة يظهر من أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة، ومرة يظهر مرتداً وحتى مؤلفاً للقرآن، ويصور على أنه مصدر غامض لمعلومات محمد»[1].

٢ ـ بطرس المبجّل:

هو رئيس دير كلوني (١٠٩٤ ـ ١١٥٣م)، يدين له الغرب المسيحي بأنه صاحب أول ترجمة للقرآن في القرن الثاني عشر الميلادي، وقام بها في مدينة طليطلة الإسلامية وهو يتمتع بالحرية تحت حكم المسلمين.

أ ـ أنجز أول ترجمة إلى اللاتينية قام بها بمساعدة «روبرت الكيتوني»، وأنجزت عام (١١٤٣م).

وحتى نعلم خطورتها في تشويه الإسلام والقرآن وأنه مصدر للشر والخوف، وحتى نعلم دورها في صناعة الفوبيا الإسلامية، نقرأ ما يقوله «لودفيغ هاغمن»: «وحين قُدر في القرن السادس عشر للترجمة الكيتونية للقرآن أن تطبع مرة في بال تحولت إلى موضوع نزاع بين المسيحيين، إذ ذهب فريق منهم إلى تأييد طبعها، ومال آخرون إلى إعلان معارضتهم لذلك، ولم يُصرح بطبعها إلا في (١١) كانون الثاني عام (١٥٤٣م) بناء على تدخل من «مارتن لوثر».

وقد وقف مارتن لوثر إلى جانب الطبع المتنازع عليه في تلك الأيام بتسويغ ورد في قوله: «لأن المرء لا يستطيع أن يلحق بمحمد أو بالأتراك شيئاً أكثر إثارة للغيظ، ولا أن ينالهم بضرر وإيذاء هما أشد من كل ما عداهما من الأسلحة كالذي يلحق بهم حين يكشف عن قرآنهم لدى المسيحيين، لكي يروا كم هو

(١) كتاب: مسيحية ضد الإسلام (٤٦ ـ ٤٧).

كتاب ملعون، شائن إلى أقصى الدرجات وكم هو حافل بالأكاذيب والخرافات وكل الفظائع»[١].

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

ب ـ يكرر بطرس المبجل فرية يوحنا الدمشقي السابقة من أن النبي ﷺ تلقى معلوماته من راهب نسطوري، ولكن بطرس المبجل جعله: «سرجيوس النسطوري».

ويقول بطرس المبجل في رسالته إلى «برنارد فون كليرفو»: «إن سرجيوس هذا جادل في ألوهية المسيح، وكسب محمداً إلى جانبه في هذا الاعتقاد»[٢].

جـ ـ ثم ألف كتابه الحافل: «الخلاصة الجامعة لهرطقات المسلمين» ليكون مرجعاً موثقاً لكل من هاجم الإسلام من قسس ورهبان النصارى بعد»[٣].

٣ ـ توما الاكويني «Thomas Von Aquin»، (١٢٢٥ ـ ١٢٤٧م):

أ ـ يعترف توما أن الإيمان لا يجبر أحد عليه ولا يكون بالإكراه.

يقول في «الخلاصة اللاهوتية»: «من غير المؤمنين من لم يتم تبشيرهم بالإيمان، كاليهود والوثنيين، هؤلاء لا ينبغي أن يدفعوا إلى الإيمان دفعاً؛ لأن الإيمان قضية طوعية»[٤].

ولكن لتوما الأكويني موقفان متناقضان.

ففي شأن الوثنيين واليهود في أوروبا أظهر تسامحاً ملفتاً للنظر.

وأما في شأن المسلمين الذين يعدهم (هراطقة) فالإعدام والحرب والقسوة هي موقف توما منهم. حيث يشرّع لإعدامهم ويضع كما سنرى أصول الحرب العادلة المقدمة ضدهم.

يقول «جوزيف لوكلير»: «أما القديس توما فإن قسوته على الهراطقة لن تمنعه، كما سنرى من أن يظهر تسامحاً مع الوثنيين، وإذا كان قد حرم كل

(١) مسيحية ضد الإسلام (٦٩).
(٢) المصدر السابق (٤٧).
(٣) المصدر السابق (١١٤).
(٤) الخلاصة اللاهوتية (٢٢).

تواصل بين المؤمنين والهراطقة أو المحرومين، فقد أجازه عموماً مع اليهود وغير المؤمنين»[(١)].

لذلك يشرّع أنه مع هؤلاء الوثنيين الخاضعين زمنياً للكنيسة، فليس للكنيسة إدانتهم على المستوى الروحي ولا إرغامهم على الإيمان المسيحي.

أما الهراطقة فلهم شريعة أخرى. فيقول توما: «يجوز معاقبة الهراطقة بصرامة تفوق تلك التي يستحقها المذنبون بجريمة القدح والذم الملكيين... لذا كان العدل أن يحكم عليهم بالموت»[(٢)].

ب ـ ألف توما الأكويني كتاب «الخلاصة ضد الأمّيين» وقد ألفه بإيعاز من: «رِمُند دي بينا فور» «Raimund Von Pena Fort» أحد كبار نظام رهبانية الدمنيكان الذي كان يعمل في تبشير المسلمين ونشر المسيحية بينهم بأسبانيا.

يقول لودفيغ هاغِمن: «تشير كل المظاهر إلى أن كتاب «الخلاصة ضد الأميين» كان يقصد به أن يكون كتاباً تعليمياً للكليات التي أنشأها نظام رهبانية الدمنيكان لتدريب مبشري المستقبل»[(٣)].

ج ـ ثم يضع توما الإكويني بنفسه المعايير الأخلاقية والمسوغات الكتابية التي تسوّغ أي حرب ضد الأميين (المسلمين) وهي التي توارد قسس ورهبان وباباوات النصارى على تسميتها «الحرب العادلة».

يقول لودفيغ هاغِمن: «أما تاريخ المسيحية الغربية فقد وضع من جانبه متأثراً بالأفكار الفلسفية في العصر القديم، النظرية التقليدية عن الحرب العادلة «bellum iustum»، وكان هذا في الحقيقة في تناقض واضح مع المسيحية في أقدم أشكالها، وهي التي كانت تتخذ لنفسها من الحرب والخدمة العسكرية مكاناً قصياً وكان الرائد في هذا: «أغسطينوس» بين عامي (٣٥٤ ـ ٤٣٠م) وكان منطلقه في الاحتجاج على الهراطقة هو ما ورد في لوقا (١٤:٢٣): «أخرج إلى الطرقات والدروب وألزم الناس بالدخول حتى يمتلئ بيتي».

أفادته عبارة «ألزم الناس بالدخول «Compelle intrare»»، في تسويغ حرب

---

(١) تاريخ التسامح في عصر الإصلاح (١١٧).

(٢) المصدر السابق.

(٣) مسيحية ضد الإسلام (٧٨).

عادلة على الهراطقة. . . ويذكر توما الأكويني بالاستناد إلى أغسطينوس المعايير الأخلاقية التي يمكنها كما يرى أنه تسوّغ أي حرب من الحروب»[١].

وهذه معايير توما للحرب ضد الكفار:

١ ـ السلطة الشرعية هي السلطة المختصة التي تُشَنّ الحرب بأمر منها.

٢ ـ مستوى الوسائل والقدرات.

٣ ـ السبب الذي يسوغ الحرب، كالدفاع عن النفس والإحساس بالظلم ونشر الإيمان والعدل.

٤ ـ النيّة الحقيقية التي تنطوي على هدف يتمثل في خدمة السلام.

يشرح لودفيغ هاغمن هذه النية الحقيقية فيقول: «فالنية الحقيقية الماثلة في هذه النظرية عن الحرب العادلة لم تكن بموجب ذلك حصر الحرب بجملة من المعايير الأخلاقية؛ أي: أن السؤال الأساسي لم يكن: كيف أستطيع أن أنشئ ضميراً حياً من أجل الحرب؟ بل كان: بأي معايير تقييدية يوصي الرب بالحرب في كل الأحوال»[٢].

٤ ـ «مارتن لوثر»: الكاهن الألماني الشهير (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦م):

كتب لوثر (١٥٢٠م): «الإيمان وحده يكفي المسيحي فلا حاجة به إلى عمل، وبالتالي فهو في حلّ من الوصايا والشرائع كلها، ومتى تأكد ذلك فقد تأكدت حريته بالفعل، تلك هي الحرية المسيحية التي يولدها الإيمان»[٣].

أحدث لوثر نقلة إصلاحية لا يستهان بها. فقد حدد معالم الحرية المسيحية باختصار:

لا كهنوت يمارس باسم المسيح.

المساواة بين جميع المسيحيين والكهنوت العام.

فالكنيسة الحقيقية هي جماعة المؤمنين المسيحيين.

والرابطة روحية تضم المسيحيين، المتحدين بالمسيح عن طريق الإيمان.

---

(١) مسيحية ضد الإسلام (٥٠).

(٢) المصدر السابق (٥٠).

(٣) نقلاً عن كتاب: تاريخ التسامح في عصر الإصلاح (١٩٨).

وهو بذلك يسير كما يرى على خطى «بولس» المؤسس الحقيقي لهذه المسيحية. عندما يقول: «لقد حررنا المسيح لكي نبقى أحراراً فاثبتوا إذا ولا تدعوا أحداً يعود بكم إلى نير العبودية»[١].

ولقد حدد بعضهم ما أحدثه لوثر من إصلاح في المسيحية في عدة أمور:

- تعزيز مكانة الضمير عملاً بالأناجيل ووسائل القديس بولس.
- مبدأ الحرية من أجل الدخول في الإيمان.
- مبدأ الحسم الإيماني للإيمان المطلق بالمحبة على حد قول بولس: «إن عملنا للحق بالمحبة نمونا وتقدمنا في جميع الوجوه»[٢].
- استقلال الكنيسة عن المجتمع السياسي.
- لا يمكن لأحد فرض قوانين على المسيحيين إلا في حال موافقتهم عليها لأنهم أحرار في كل شيء.
- الكتاب المقدس فقط هو قاعدة الإيمان الموضوعية، ولا يقيد الضمائر شيء إلا كلمة الله، وأن الكتاب المقدس واضح من تلقاء ذاته ويقيني يفسّر نفسه بنفسه»[٣].

وقع تطور لافت في حياة لوثر الفكرية. فقد كان يسجل موقفاً متسامحاً مع الهراطقة والكفار ويدخل في هذا ـ اليهود والمسلمون ـ وكان يندد باستخدام العنف والإكراه لإدخال الناس في المسيحية.

يقول جوزيف لوكلير: «كذلك يرفض لوثر بالفعل الإقرار بسلامة طرق محاكم التفتيش كتب عام (١٥٢٠م) يقول: «ولا ننتصر على الهراطقة بالنار؛ بل بالكتاب كما كان يفعل الآباء القدماء، ولو كانت البراعة تكمن في الانتصار على الهراطقة بالنار لكان الجلادون أعلم العلماء»[٤].

يقول لوثر: «الهرطقة شأن روحي، لذا كان يستحيل أن تضرب بالحديد،

(١) الكتاب المقدس، العهد الجديد، الرسالة إلى أهل غلاطية، الإصحاح: ٥ (١).

(٢) المصدر السابق، الرسالة إلى أهل أفسس، الإصحاح: ٤ (١٥).

(٣) انظر: كتاب: تاريخ التسامح في عصر الإصلاح، لجوزيف لوكلير (٣٧) و(١٩٩، ٢٠٠)، وكتاب: عودة إلى التاريخ المقدس، لنبيه بشير (٤٦، ٤٧).

(٤) تاريخ التسامح في عصر الإصلاح (٢٠١).

أو تحرق بالنار أو تغرق بالماء، وحدها كلمة الله تستطيع أن تجهز عليها؛ لأنه كما يقول القديس بولس: «ليس سلاح جهادنا بشرياً، ولكنه قادر في عين الله على هدم الحصون[1]»»[2].

يقول لوثر: «ليس للسلطة المدنية أن تمنع أحداً من تعليم ما يشاء والإيمان بما يشاء سواء كان الإنجيل حقيقة أم وهماً كاذباً»[3].

يسجل جوزيف لوكلير تعجبه فيقول: «مثل هذه التصريحات تبعث على العجب عندما نفكر بمدى اتساع السلطات الدينية التي ستعطى فيما بعد للأمراء في البلدان البروتستانتية»[4].

والتطور اللافت في حياة لوثر الفكرية هو تباين موقفه من كل من اليهود والمسلمين من جهة أخرى.

أما موقفه من اليهود: فقد كان لوثر يعادي اليهود باعتبارهم قتلة يسوع المسيح وصالبوه، ثم لما آمن بحرفية الكتاب المقدس، وجد أن العهد القديم طافح بالثناء على شعب الله المختار (إسرائيل) وأنهم أبناء الإلٰه (يهوه) وأنهم أصحاب التعاليم والشريعة، فانقلب لوثر معظماً لليهود أشد التعظيم، وأن تعظيمهم يدخل في الجذر الإيماني للمسيحي المؤمن بالكتاب.

حتى قال كلمته الأخيرة التي سجل منها موقفه الأخير المعظم جداً لليهود، قال لوثر: «يجب أن نكون لليهود كالكلاب التي تأكل من الفتات المتساقط من موائد أسيادها»[5].

قامت على رؤى لوثر الدول البروتستانتية في أوروبا إلى قيام الولايات المتحدة الأمريكية. و«إسرائيل» و«شعب الله المختار اليهود». في جذر الاعتقاد الإيماني المسيحي اللوثري البروتستانتي.

---

(١) الكتاب المقدس: الرسالة الثانية إلى أهل قورنثس، الإصحاح: ١٠ (٤).
(٢) تاريخ التسامح في عصر الإصلاح (٢٠٢).
(٣) المصدر السابق (٢٠٣).
(٤) المصدر السابق (٢٠٣).
(٥) نقلاً عن: موقف لوثر من اليهود، عبد الله المعراوي، مجلة الإنسان عدد (٤٩١) نوفمبر (١٩٩٥م).

يقول «بيتر غروس» في كتابه «إسرائيل من منظور أمريكي»: «إن الأمريكيين والإسرائيليين متحدون مترابطون معاً لا تشبههما في ذلك شعوب ذات سيادة، وبينما كان التراث اليهودي يجري في عقول المستوطنين الأمريكيين الأوائل، وساعدهم على تشكيل الجمهورية الأمريكية الجديدة، عملت إسرائيل على استعادة رؤى الحلم الأمريكي وحمله، لقد تلاحم التراث الأمريكي والإسرائيلي في كلٍ واحد»[1].

وتقول «كاثلين كرِستسن»: «يفترض في إطار المرجعية في انحيازه نحو إسرائيل وجود رابطة فريدة من نوعها بين الولايات المتحدة وإسرائيل تنبثق من تراث توراتي مشترك ومن اعتقاد في أنه يجب أن يحصل اليهود على وطن نتيجة المحرقة، ومن قرون طويلة من معاناة اليهود وبحثهم عن وطن، وكذلك من معرفة مميزة لدى الولايات المتحدة لما تسميه «الأسلوب الوطني» خاصة في بدايات الريادة، والتزامها بالديمقراطية الغربية، أما لدى البعض خاصة أولئك اليهود في أمريكا، والذين بث فيهم إسرائيل مشاعر اليهودية الإسرائيلية؛ فإن العلاقة معهم تكافلية تعايشية»[2].

لقد كان للوثريّة تأثيرها البالغ في تعظيم إسرائيل في العقل المسيحي البروتستانتي خصوصاً الأمريكي.

ومن العمل الدؤوب للبروتستانت في الغرب لدعم اليهود في عملية سطو لشطب الحقائق، وإلغاء التاريخ وتوريث من لا يستحق ما لا يستحق ودعم عملية اغتصاب لا للأرض فقط؛ بل للإرث الحق والإنسان والزمان، استناداً إلى اعتقاد ديني وتأصيل توراتي ودعم من الكتاب المقدس.

ومن آخر محاولات تثبت هذا التجذير الديني لليهود وإسرائيل في الإيمان المسيحي البروتستانتي (اللّوثري): بيان نُشر في شهر سبتمبر من عام (٢٠٠٠م) وقع عليه أكثر من (١٥٠) حاخاماً يهودياً يمثلون الطوائف اليهودية في الولايات المتحدة الأمريكية[3]. مع المئات من القسس والرهبان ورجال الدين البروتستانت وعنوانه: «دبرو آمت»؛ أي: (قولوا الحق).

---

(١) إسرائيل من منظور أمريكي (٩٧).

(٢) فلسطين في العقل السياسي الأمريكي (٢١).

(٣) الطوائف اليهودية بالولايات المتحدة هي: التركيبيون والإصلاحيون، والمحافظون، والنموسيون. راجع: الموسوعة اليهودية، لدكتور عبد الوهاب المسيري..

واستغرق الإعداد له بضع سنوات لكنه أُعد بعناية فائقة.

وموضوعه الرئيس: العلاقة بين المسيحيين واليهود خصوصاً بشأن إسرائيل وأرض الميعاد وأحقية اليهود بها، بشأن التبشير باقتراب بناء هيكل الرب بالقدس.

وسأسوق هنا بعض فقرات هذا البيان مع بعض التعليق عليها.

• **الفقرة الأولى**: «اليهود والمسيحيون؛ يعبدون الرّب نفسه، وقبل المسيحية كان اليهود وحدهم الذين يعبدون ربّ إسرائيل. إلا أن المسيحيين أيضاً يعبدون ربّ إبراهيم وإسحاق ويعقوب[1]، خالق السماء والأرض. فإنه يسّر علماء الإلٰهيات اليهود أن يكون الملايين من المسيحيين قد ارتبطوا بعلاقة مع رب إسرائيل».

هذه الفقرة تدل على علاقة تراتيبيّة بين اليهودية السابقة الأصلية التي لها حق التقدم باعتبار الأصل والسبق، وبين دين المسيحية اللاحقة الفرعية المنبثقة أصلاً من اليهودية، ففيه تكريس الإشعار للمسيحي بالفوقية اليهودية والاستعلاء اليهودي.

• **الفقرة الثانية**: «اليهود والمسيحيون يستمدون الشرائع من الكتاب نفسه «الكتاب المقدس» الذي يسميه اليهود «التاناخ» ويسميه النصارى «العهد القديم». نحن جميعاً نلجأ إلى هذا الكتاب، ونجد فيه الدروس نفسها: الله هو خالق الكون، الله أقام عهداً على شعب إسرائيل، الله في النهاية سوف يخلّص إسرائيل».

هذه الفقرة تضع إسرائيل «الشعب اليهودي» في عمق وصلب الإيمان المسيحي، وهذا التعمق والتجذير هو تحضير تأسيسي للفقرة الآتية.

ولكن يلاحظ تجاهل البيان التام للعهد الجديد وأناجيل النصارى وعدم دعوة اليهود حتى لمجرد الاعتراف بها على أنها كتب مقدسة. ومع ذلك يتقبل

(١) قال الله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٣]، وكما ترى في بيانهم تجاهلوا ذكر إسماعيل عليه السلام؛ لأنه أبو العرب وجد النبي محمد ﷺ.

المسيحيون هذا بصدر رحب، ويحبون ويعظمون اليهود قتلة يسوع المخلص (ربهم) كما يزعمون، ومنكري أناجيلهم المقدسة، ويصبون جام حقدهم وكرههم وحربهم للإسلام والقرآن الكريم الذي دافع أحسن الدفاع وأطيبه عن المسيح ﷺ وأمه الصديقة مريم ﷺ. أليس هذا أمراً عجيباً؟!.

- **الفقرة الثالثة**: «يمكن للمسيحيين احترام مطالبة الشعب اليهودي بأرض إسرائيل، فالحدث الأهم لليهود منذ المحرقة كان إعادة إحياء الدولة اليهودية في أرض الميعاد، والمسيحيون يفهمون أن أرض إسرائيل موعودة وموهوبة لليهود حيث إنها المركز الفعلي للعهد القائم بينهم وبين الرب، فالمسيحيون يؤيدون دولة إسرائيل لاعتبارات أعمق من مجرد السياسة، ونحن كيهود نرحب بهذا التأييد».

إذن: فأرض الميعاد (فلسطين) أرض إسرائيل هي الجوهر الأساسي في الصيغة الأكثر انتشاراً للمعتقد اليهودي والتي تكاد تستبدل جميع الإيمان بالغيبيات والأنبياء والشرائع واليوم الآخر بالتأييد التام لإسرائيل، فإسرائيل إذن هي جوهر الإيمان والدين والمعتقد في الإيمان المسيحي البروتستانتي على وجه الخصوص.

وخطورة هذه الفقرة في هذا البيان تكمن في أنها ترسّخ الترادف بين اليهودية كديانة، والصهيونية كحركة قومية سياسية؛ لأنها تنتزع تفسير الصهيونية من إطارها القومي أو السياسي لتجعلها في صميم الإيمان الديني.

يقول بول مركلي: «ما هو شديد الأهمية فيما يخص موضوعنا أن الأمر جعلهم يماهون أقدارهم الخاصة بمصائر اليهود التي تصوروا أنها منقوشة حرفياً في الكتب المقدسة التي كانت شرعة حياتهم الخاصة... كان من شأن الحماسة الأمريكية لإعادة اليهود إلى إسرائيل... الإيمان بأن أمريكا نفسها صُبَّت في ذلك القالب منذ بداياتها الأولى وأن مصير إسرائيل يعانق مصيرها»[1].

ويقول: «ولكن ما هو أقوى تعبيراً من سائر الأشياء الأخرى: هو التلميح إلى «حفيف الأجنحة» في إشارة بالغة الوضوح إلى «النسر» الذي هو الشعار القومي للولايات المتحدة المنقوش على جميع شاراتها المميزة، والذي يُذَكِّر:

(١) الصهيونية المسيحية (٨٢).

«وهذه ليست مصادفة» بدور «قُورش» ملك فارس الذي يقول عنه أشعيا نفسه: «أنا الرب من المشرق أدعو الطير الكاسر، ومن البعيد من يحقق مقاصدي»[١]، ما لبث أن ظهر حقاً وقام حقيقة بإعادة اليهود إلى القدس المرة الأولى»[٢].

● **الفقرة الرابعة والأخيرة:** «على اليهود والمسيحيين أن يعملوا معاً في سبيل السلام والعدالة، وعلى الرغم أن العدالة والسلام في النهاية من الرب؛ فإن جهودنا المشتركة مع المؤمنين من سائر الديانات سوف تساهم في تحقيق ملكوت الله الذي نسعى إليه، وتقودنا في جهودنا هذه الرؤيا التي التزمها أنبياء إسرائيل».

هذه دعوة إلى العمل الإنساني الشامل وعبر المنظمات الدولية، لكنها تعيد تأطيرها في قالب توراتي إسرائيلي مستوحى من الكتاب المقدس لإقامة مملكة إسرائيل.

وتعميقاً لهذا التأطير التوراتي يُختم البيان بنقل هذا النص من الكتاب المقدس:

«ويحدث في آخر الأيام أن جبل هيكل الرّب يصبح أسمى من كل الجبال، ويعلو فوق كل التلال، فتتوافد إليه جميع الأمم، وتقبل شعوب كثيرة وتقول: تعالوا لنذهب إلى جبل الرّب إلى بيت إلـٰه يعقوب فيعلمنا طرقه ونسلك سبيله؛ لأن من صهيون تخرج الشريعة، ومن أورشليم تعلن كلمة الرّب، فيقضي بين الأمم، ويحكم بين الشعوب فيطبعون سيوفهم محاريث، ورماحهم مناجل، فلا ترفع أمة على أمة سيفاً»[٣].

يضع هذا النص: الوعد بأن يحل الهيكل محل المسجد الأقصى في موضع مركزي في التاريخ.

تُرى هل من قبيل المصادفة أن العبارة الأخيرة في النص: «فيطبعون

---

(١) الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر أشعيا، الإصحاح: ٤٦ (١٠ ـ ١١) كذا نقلها الكاتب ونصها: (أدعو من المشرق كاسراً، ومن الأرض البعيدة رجل تدبيري... وسأجعل في صهيون الخلاص، ولإسرائيل يكون فخري).

(٢) الصهيونية المسيحية (٨٤).

(٣) الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر أشعيا، الإصحاح: ٢ (٢ ـ ٤).

سيوفهم محاريث ورماحهم مناجل، فلا ترفع أمة على أمة سيفاً»، مكتوبة على لوحة وموضوعة في مقر هيئة الأمم المتحدة بنيويورك؟!!

ونتيجة لهذه الجهود قامت منظمات أمريكية عدة متحمسة لتحقيق هذه الأهداف، من أشهرها:

• التحالف الوطني المتحد لإسرائيل «NUCI» وهو يضم تحت لوائه أكثر من (٢٠٠) منظمة تمثل أكثر من (٤٠) مليون أمريكي.

• منظمة أصدقاء إسرائيل ويرأسها «إيلوودماك كايد» وتدور أهدافها حول تدمير المسجد الأقصى ليعيدوا مكانه بناء الهيكل اليهودي المزعوم.

• المخلصون لأرض إسرائيل وجبل الهيكل. وهي منظمة ضخمة ونشطة يرأسها: «غريشام سولومون». وأما أهدافها فقد وضحها «سولومون» نفسه في خطابه الذي ألقاه بتاريخ ٦/ ٩/ ٢٠٠٢م، في مركز المجتمع اليهودي في هيوستن قائلاً: «أستطيع أن أقول لكم: إننا نقترب من الأيام الأخيرة... هناك يقظة مذهلة في صفوف المسيحيين، ليس هناك يهود صهاينة؛ بل هناك مسيحيون صهاينة أيضاً، صوتي هو صوت الله، إن العيون والقلوب ترنو إلى القدس، إن دولة وشعب إسرائيل يقومان بواجبهما الإلـهي وهو إعادة بناء الهيكل الذي بدوره إعادة بناء لمستقبل جديد ليس فقط لإسرائيل، وإنما للإنسانية جمعاء. هذا الجبل في القدس هو المكان الأهم في الأيام الأخيرة لأن الله يقيم على ذلك الجبل... سوف يأتي المسيح المخلص سوف يأتي إلى القدس، إلى بيت الرب الجديد الذي أعيد بناؤه لأجله... فهو سيعود ليكون رباً إسرائيلياً، وسيتكلم العبرية فقط، وعندما يجيء سيسمي المسيحيين الصهاينة بأبناء يعقوب أو مواطني مملكة إسرائيل القديمة»[١].

• أما موقف مارتن لوثر من الإسلام والقرآن والمسلمين فهو المساهمة بقوة في صناعة «الفوبيا» الخوف من المسلمين، مهاجمة الإسلام، مهاجمة القرآن العظيم، خاتمة كتب الله المباركة وبكل طيش وضراوة وتصويره على أنه مصدر الشر في العالم.

---

(١) انظر: كتاب: إمبراطورية الشر الجديدة (٣٨٩، ٣٩٠).

أ ـ عمل لوثر بحماس شديد لإصدار أول طبعة لترجمة القرآن التي قام بها: «بطرس المبجّل» و«روبرت الكيتوني» وصدرت في (١١) كانون الثاني عام (١٥٤٣م) بإشراف مباشر من لوثر.

كتب لوثر بازدهاء بعد صدور هذه الطبعة: «لأن المرء لا يستطيع أن يُلحق بمحمد أو بالأتراك شيئاً أكثر إثارة للغيظ، ولا أن ينالهم بضرر ـ وإيذاء ـ هما أشد من كل ما عداهما من الأسلحة ـ كالذي يلحق بهم حين يكشف عن قرآنهم لدى المسيحيين لكي يروا كم هو كتاب ملعون، شائن إلى أقصى الدرجات، وكم هو حافل بالأكاذيب والخرافات وكل الفظائع»[1].

ب ـ وَظّف لوثر كل هذا سياسياً في حشد موقف مسيحي أوروبي صليبي ضد المسلمين العثمانيين الذين كانوا إذ ذاك يسجلون انتصارات باهرة. من سقوط بلغراد في أيديهم عام (١٥٢١م) إلى ضم كامل المجر عام (١٥٤١م) ثم قبرص التي تعد آخر قاعدة بحرية مسيحية في الشرق.

يقول لودفيغ هاغِمن: «يجب النظر إلى موقف مارتن لوثر من الإسلام على أساس الخلفية لهذا الموقف السياسي العسكري؛ لأن «الأتراك يقتربون منا...» هكذا سوَّغ رسالته: «عن الحرب ضد الأتراك» «Vom Kriege Widder die Turken» العائدة لعام (١٥٢٩م) في تقديمها إلى الأمير «فيليب فون هيسن»، وعبّر فيها في الوقت ذاته عن ذلك الخوف الذي استحوذ على أوروبة في كل مكان مما سمي: خطر الأتراك»[2].

جـ ـ لقد شنّ لوثر هجوماً كبيراً على الإسلام والقرآن والنبي ﷺ، وقد كان يدير جداله للإسلام على محورين أساسيين ظاهرين في كتاباته:

المحور الأول: أن الشيطان هو الذي حرّض محمداً ﷺ، وأن القرآن من وضع وتأليف الشيطان.

يقول لوثر: «ولما كان روح الكذب قد استحوذ على محمد، وكان الشيطان قتل الأرواح بقرآنه وأفسد عقيدة المسيحيين؛ فإنه لم يكن له بد أن يخرج ويمتشق سيفه، ويهاجم الأجساد ليقتلها، وعلى هذا فلا سبيل إلى العقيدة التركية

(١) نقلاً من: مسيحية ضد الإسلام (٦٩).

(٢) المصدر السابق (١٢٩).

بالمواعظ والأعمال العجائبية بل وصل الأمر إلى القتل بالسيف»[١].

المحور الثاني: أن الإسلام إنما انتشر نتيجة للأعمال العسكرية. وقد ظل أهل الجدل المذهبي المسيحيون المعادون للإسلام يمثلون هذه الأطروحة أيضاً المرة بعد المرة، ومارتن لوثر لا يشكل هنا استثناءً، كما يقول لودفيغ هاغِمن[٢].

٥ ـ بابا الفاتيكان: «يوحنا بولس الثاني»:

منذ انعقاد المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢ ـ ١٩٦٥م) أصبح الفاتيكان يلعب دوراً خطيراً في تحريك الأحداث السياسية وتوجيهها.

يعبر «يوحنا بولس الثاني» بابا الفاتيكان السابق عن هذا بقوله: «إن الكرسي الرسولي يسعى للتدخل لدى حكام الشعوب والمسؤولين عن مختلف المحافل الدولية أو الانضمام إليهم بمحاورتهم، أو إخضاعهم على الحوار لمصلحة المصالحة وسط صراعات عديدة»[٣].

في هذا المجتمع تم تقرير أمرين انبنى عليهما توجه وأعمال الفاتيكان. بعد ذلك:

الأمر الأول: تبرئة اليهود من دم المسيح:

ظل النصارى على مختلف طوائفهم يرددون في كل قداس ولمدة ألفي عام، التباكي على دم المسيح المصلوب لخلاص البشرية.

ثم يأتي الفاتيكان ليلغي ذلك بإعلان تبرئة اليهود من دم المسيح!!!

في إلغاء لجوهر الاعتقاد المسيحي. ويصمت نصارى العالم على ذلك!!!

أم هي مصالحة سياسية لتوحيد صفوف المسيحيين مع اليهود في مواجهة الإسلام؟!!.

في الوقت الذي لم يغير يهودي واحد موقفه من المسيح وأمه والمسيحية وأناجيلها.

في إنجيل يوحنا: قال المسيح لليهود: «قد عرفت أنكم تطلبون قتلي، إن

---

(١) نقلاً عن: مسيحية ضد الإسلام (١٣٥).

(٢) المصدر السابق.

(٣) الجغرافيا السياسية للفاتيكان (٢٧٠).

كلامي لا محل له فيكم»[١].

قال له اليهود: «الآن عرفنا أن بك مسّاً من الشيطان»[٢].

«فأخذوا حجارة ليرموه بها، فتوارى يسوع وخرج من الهيكل»[٣].

الأمر الثاني: الدعوة التي أعلنها البابا «يوحنا بولس الثاني» لإعادة تنصير العالم «La Re Vangelisation du Monde»:

وأعلن ذلك في «كمبوستيل» بشمال غرب أسبانيا سنة (١٩٨٢م).

«يمثل هذا الإعلان ومطالبة البابا بتنصير العالم، نقطة تحول جذرية، تعد بمثابة إعلان حرب صليبية جديدة، تماثل تلك التي أعلنها البابا «أدريان الثاني» عام (١٠٩٥م) فمما له مغزاه أن هذه المدينة: «كمبوستيل شانت يقب» هي آخر ما امتد إليه الفتح الإسلامي، وقد ازدادت أهميتها بعد القرن الحادي عشر، ومعركة الاسترداد لتصبح مزاراً يحج إليه مسيحيو الغرب»[٤].

تأججت نار العداوة للإسلام في ذلك المجمع الفاتيكاني ورموزه، وأصبحت تطلق بعد ذلك الدعوات لصناعة «الفوبيا» من الإسلام، وحشد المسيحيين واليهود وأصحاب الديانات الأخرى لحربه وإيقافه.

ويمثل الفاتيكان و«يوحنا بولس الثاني» وخليفته من بعده «بيندكت» السادس عشر، الرأس في ذلك.

يقول «موريس بوكاي»: «إن المسيحية لا تأخذ في الاعتبار أية ديانة بعد المسيح ورسله وبذلك فهي تستبعد القرآن»[٥].

ويقول «الأب كاسبار»: «إن هناك من بين رجال الدين الحاضرين من يعتبرون أن الإسلام خطأ مطلق لا بد من رفضه؛ لأنه يمثل خطراً بالنسبة للكنيسة ولا بد من محاربته»[٦].

---

(١) الكتاب المقدس، العهد الجديد، إنجيل يوحنا، الإصحاح: ٨ (٣٧).

(٢) المصدر السابق، الإصحاح: ٨ (٥٢).

(٣) المصدر السابق، الإصحاح: ٨ (٥٩).

(٤) الفاتيكان والإسلام، للدكتوره زينب عبد العزيز (١٩).

(٥) نقلاً عن: المصدر السابق (٢٠).

(٦) نقلاً عن: المصدر السابق (٢٠).

ولذلك يعتبر «لودفيغ هاغِمن» أن مسيحيي العصر الحاضر والفاتيكان قد فوتوا فرصة ذهبية لفهم الإسلام والتعايش مع المسلمين إذ سلكوا مسلك القدماء في صناعة الفوبيا وإرادة تنصير المسلمين.

يقول: «لم يتحقق مطلب الكنائس المسيحية في العصر الحديث التغلب على الإسلام عن طريق التبشير؛ بل على النقيض: إذ أجج في سياق الاستعمار نار مزايا جديدة عند المسلمين، وفي هذا الوقت فوت المسيحيون فرصة مناقشة الإسلام بحكم كونه ديانة عالمية، بأسلوب موضوعي وبنّاء، من دون نوايا تتصل بالجدل المذهبي، والدفاع عن العقيدة مع التحرر من ادعاءات الحق المذهبية وألوان القسر العقدية»[١].

أطلق المجمع الفاتيكاني (١٩٦٢ ـ ١٩٦٥م) دعوة لاحترام المسلمين، واستبشر بها خيراً في أنها تفتح لتوجه جديد في التعامل مع الإسلام، رغم أن المسلمين يعيشون المرارة مما أحدثته الحروب الصليبية والاستعمار، وطرد المسلمين من شرق أوروبا ومساهمة المسيحية باحتلال فلسطين ومنحها لليهود.

نجد ضمن قرارات هذا المجمع التصريح في العلاقة بين الكنيسة والديانات غير المسيحية: «تنظر الكنيسة باحترام كبير أيضاً للمسلمين، الذين يعبدون الله الواحد الأحد الحي، والكائن بذاته والرحيم والقادر على كل شيء، وخالق السماء والأرض، الذي تحدث إلى البشر، وهم يجتهدون في الامتثال لتوجيهاته الخفية أيضاً، بكل قلوبهم، مثلما امتثل إبراهيم لأمر الله، وهو الذي يسر العقيدة الإسلامية أن تستند إليه، أما يسوع الذي لا يعترفون به إلـٰهاً فيمجدونه مع ذلك رسولاً. . . ولما كانت الأمور انتهت مع ذلك على مر القرون إلى بعض الخصومات، وأنماط العداوة بين المسيحيين والمسلمين؛ فإن مؤتمر الكنائس المقدس يذكّر الجميع بوجوب طرح الماضي جانباً، والسعي المخلص إلى التفاهم المتبادل، والوقوف معاً من أجل صيانة العدالة الاجتماعية والقيم الأخلاقية، وأخيراً وليس آخراً من أجل صيانة السلام والحرية للبشر»[٢].

---

(١) مسيحية ضد الإسلام (١٥٩).

(٢) المصدر السابق (١٦٥، ١٦٦).

هذا الكلام وهذه الدعوة للحوار مع المسلمين لا تغني عن حقائق مهمة، بل هي كشفت عن وجهين للفاتيكان:

وجه يظهر التسامح ويدعو للحوار.

ووجه حقيقي يعمل بجد لتنصير العالم وتحييد الإسلام، وشرعنة حروب الإبادة للمسلمين.

إن الكنيسة الغربية لا تعترف بالإسلام كدين سماوي ولا بمحمد كنبي ولا بالقرآن ككتاب مقدس.

يذكر «الأب ميشيل لولنج» هذه الحقيقة فيقول: «إن الكنيسة تعتبر المسيح خاتم الرسالة، لذلك فهي لا تعترف بنبي الإسلام الذي أدانه المسيحيون بصورة سلبية تهجمية عدوانية، والمؤلفات العديدة بكل أسف تشهد على ذلك».

كتب لولنج هذا سنة (١٩٨٢م) بعد زيارته للبنان وهو عضو بارز في جمعية الحوار الإسلامي المسيحي.

«لم يعد مفهوم الحوار مثلما جرى العرف على أن يتبادل طرفان المناقشة الموضوعية والتي تحسم لصالح الأرجح منطقياً، وإنما أصبح الحوار؛ يعني في نظر الكرسي الرسولي: فرض الارتداد والإجبار على الدخول في سر المسيح، مع مراعاة الاحترام، والود ومظاهر التقدير وعدم الدخول في مناقشات عقائدية يصعب على المبشرين الإفلات منها أو التغلب عليها، لذلك يوصي المخططون بالبحث عن نقاط مشتركة سواء في العبادات أو في المظاهر اليومية واستغلالها كمنافذ للتسلل من خلالها للنيل من الإسلام»[١].

يسعى الفاتيكان و«يوحنا بولس الثاني» خصوصاً على العمل الدؤوب على نشر رسالة الإنجيل في العالم كله، والمسلمين على وجه الخصوص ومن خلال ما يلي:

أ ـ عقد المؤتمرات التنصيرية باستمرار للعمل على إحداث اختراق ذي قيمة للعالم الإسلامي والمسلمين.

- مؤتمر «لوزان» (١٩٧٤م).

---

(١) الفاتيكان والإسلام، د. زينب عبد العزيز (٩، ١٠).

• مؤتمر «كولو رادو» الشهير (١٩٨٧م) والذي حضره أكثر من (١٥٠) عالماً مسيحياً متخصصاً في شؤون التنصير. وتمت فيه دراسة أربعين بحثاً تناول كل بحث منها منفذاً ومدخلاً للعمل لتنصير المسلمين في العالم الإسلامي كله[1].

• مؤتمر مسيحيّي الشرق المنعقد في باريس عام (١٩٨٥م).

• وآخر ذلك المؤتمر المسيحي الكبير المنعقد بالفاتيكان في خريف عام (٢٠١١م). وحضره ممثلون من جميع نصارى وكنائس العالم خصوصاً المشرقية منها من مصر والشام والعراق وغيرها. ولا تزال قراراته طي الكتمان.

ب ـ إنشاء عدد كبير من المنظمات والمؤسسات التي تعمل للتنصير وبثها وزرعها في مختلف بلدان العالم، والعالم الإسلامي على وجه الخصوص، منها على سبيل المثال:

- منظمة إيمانويل.
- منظمة أسد يهوذا.
- الصحوة الكاريزماتية الكاثوليكية.
- القربان والتحرر.
- البؤر الصغيرة.
- عمل الرب... وغيرها.

جـ ـ أطلق الفاتيكان قمراً صناعياً خاصاً به وهو مشروع «لومن ٢٠٠٠» الذي يمطر العالم كله برسالة الإنجيل.

د ـ العمل الفاتيكاني برعاية «يوحنا بولس الثاني» على تكوين الكنيسة العالمية الواحدة لتوحيد العقيدة المسيحية تحت لواء الكاثوليكية وفرضها على الصعيد العالمي.

هـ ـ في ما يتعلق بفرض التنصير على العالم الإسلامي فقد أصدر الفاتيكان

---

(١) انظر: هذه البحوث والأعمال والتوصيات لمؤتمر كولورادو في كتاب: التنصير، خطة لغزو العالم الإسلامي، وهو ترجمة لما نشرته دار (MARC) بعنوان: «The Gospel and Islan»، ونشر سنة (١٩٧٨م).

برعاية «يوحنا بولس الثاني» كتاب «التفسير الديني الجديد للكنيسة الكاثوليكية العالمية» وقد صدر في نوفمبر من عام (١٩٩٢م) وقد صدر بمناسبة الاحتفال بمرور ثلاثين عاماً على ذكرى المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني.

ففي البند التاسع من فصل: «عقيدة الإيمان بالكنيسة الكاثوليكية المقدسة» نجد النص: «أما فيما يتعلق بالذين لم يقبلوا الإنجيل بعد، بأشكال مختلفة فهم أيضاً مأمورون بأن يصبحوا شعب الله»[١].

ثم في نص آخر يقول الكتاب: «إن هدف الخلاص يتضمن أيضاً من يعترفون بالخالق:

أولاً: المسلمون الذين يؤمنون بإبراهيم، ويعبدون معنا الله الواحد، الرحيم حاكم الناس في اليوم الآخر»[٢].

يعلق الأب «كاسبار» فيقول: «لقد أعيدت صياغة النص، حتى لا يتخذ تمهيداً لحل المسائل الصعبة، التي ظل النقاش حولها أمثال: النسب التاريخي للعرب ابتداء من إسماعيل، وخاصة صلة الإسلام بالرسالة الإنجيلية، حتى لا يفهم منها أن الله تحدث إلى محمد، فالنص النهائي لا يكشف عن أن إبراهيم جد نَسبي للعرب المسلمين ولكن كنمط للإيمان الإسلامي بخضوعه لإرادة الله؛ لأن ذلك يفصل جذرياً ما بين العقائد التوحيدية الناجمة عن المجهود البشري، سواء أكانت عقلانية أم لا، وبين الديانات التي هي ثمرة كلمة الله شخصياً، كتنزيل بحت».

ثم يقرر الكتاب: «أن من واجب الكنيسة المقدس تبشير كل الذين ما زالوا يجهلون الإنجيل»[٣].

و ـ أصدر البابا «يوحنا بولس الثاني» كتاباً في شهر أكتوبر سنة (١٩٩٤م) بعنوان «ادخلوا في الرجاء»، وهو عبارة عن أجوبة لأسئلة طرحها عليه الصحفي الإيطالي «فيتور يوميسوري» ومن ضمنها سؤال خاص بالإسلام والمسلمين هذا نصه:

---

(١) Cate Chismede I, Eglise Catholique Ma ma Polon, Paris, 1992.(94).

(٢) المصدر السابق (١٨٥).

(٣) المصدر السابق (١٨٦ ـ ١٨٧).

ما الفرق بين الله عند المسلمين وإلـه المسيحيين؟

أجاب يوحنا بولس بجواب طويل نلخصه فيما يلي:

● يقول البابا: «نعم بالطبع فالأمر مختلف كلية فيما يتعلق بهذه الديانات التوحيدية الكبرى بدءاً بالإسلام».

● ثم استشهد البابا بفقرة من بيان المجمع الفاتيكاني الثاني السابق ذكره «المتعلق باحترام المسلمين الذين يعبدون الله الواحد الحي الدائم القدير».

● يقول البابا: «إن أي شخص يقرأ القرآن وهو على دراية مسبقة بالعهد القديم والجديد سيلحظ بوضوح، سياق الاختزال الذي تعرض له التنزيل الإلـهي المسيحي، ومن المحال ألا يصدم المرء من عدم الفهم الذي يظهر في القرآن بوضوح، لما قاله الله عن نفسه، أولاً: عن طريق الأنبياء في العهد القديم.

ثم لما قاله بصورة نهائية في العهد الجديد عن طريق ابنه.

وبالفعل إن كل هذا الثراء الخاص بكشف الله عن ذاته والذي يمثل تراث العهد القديم والجديد قد تُرك جانباً في الإسلام».

● يقول البابا: «إن الله القرآني تطلق عليه أجمل الأسماء المعروفة في اللغة الإنسانية، لكنه في نهاية المطاف مجرد إلـه يظل غريباً عن العالم: إنه عبارة عن إلـه جلالة فحسب وليس أبداً «عما نويل» أي: «الله معنا»، إن الإسلام ليس دين فداء وهو لا يعطي أية مساحة للصليب ولا للبعث، ولقد ورد ذكر يسوع، وإنما تم ذكره كنبي فقط، عليه أن يمهد الطريق لمجيء «ما أومية»[(١)] آخر كل الأنبياء، ومريم أيضاً الأم العذراء قد ورد ذكرها، إلا أن مأساة العذراء غائبة كلية، لذلك فإن علم اللاهوت؛ بل وكذلك علم الإناسة في الإسلام شديد البعد عنها في المسيحية»[(٢)].

واضح الاجتزاء في قراءة القرآن والاختزال الشديد والمصادرة الكبيرة لمواضيع عظيمة حررها القرآن الكريم. والدفاع العظيم عن المسيح ﷺ وأمه الصديقة، ضد اتهامات يهود، والدعوة الصريحة من القرآن: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ

---

(١) يعني: محمداً ﷺ.

(٢) المصدر: كتاب: الفاتيكان والإسلام (٤٠ ـ ٤٢).

أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ [البقرة: ١٣٦].

ز ـ في شهر نوفمبر سنة (١٩٩٤م) أعلن «يوحنا بولس الثاني» خطاباً مطولاً بمناسبة اقتراب الألفية الثالثة. وكان الموضوع الرئيس هو: «يسوع المسيح، محور العالم وسيد تاريخه».

يحدد «جوزيف فاندريس» مراسل صحيفة «لوفيجارد»[١] في الفاتيكان الهدف بوضوح فيقول: «إن عام (٢٠٠٠م) سيصبح إذن عام الخلاص، عام استقبال الإنجيل الذي عرضه يسوع في المعبد اليهودي بمدينة الناصرة، كرسالة تحرير لكافة شعوب العالم».

يعلق «هنري تانك» على هذا الخطاب البابوي ليوحنا بولس الثاني في صحيفة «لوموند»[٢] الفرنسية فيقول: «إن إعدادات البابا لا تفتقر إلى الجرأة أو إلى التنسيق، إذ يبدأ خطابه بتأمل طويل حول مغزى قيمة الزمان ليؤكد على سيادة المسيحية على كافة الديانات ثم يتناول سر التجسد وهو السر الذي يمثل مولد المسيح بالنسبة للمسيحيين... ويقرأ المرء بحرج شديد أحياناً تلك الصفحات التي يقول فيها البابا: إن دخول الله في التاريخ البشري بمثابة تطلع نجده في كل الديانات إذ إن يسوع بالنسبة للمسيحيين هو الله وهو إنسان في آن واحد... وأن المسيح هو تحقيق تطلع كافة ديانات العالم، ومن هنا فهو نهاية مطافها الوحيد والنهائي».

تلخص الباحثة الدكتورة زينب عبد العزيز أهداف هذا الخطاب البابوي في:

١ ـ غاية الاحتفال: تمجيد الثالوث المسيحي (الكاثوليكي) وفرضه على العالم.

٢ ـ الدعوة إلى إسقاط ديون العالم الثالث كثمن لقبوله رسالة الإنجيل.

٣ ـ المواجهة مع العلمانية. تحييدها لمصلحة رسالة الإنجيل.

---

(١) في العدد الصادر في (١١/١١/١٩٩٤م)، المصدر: كتاب: الفاتيكان والإسلام.

(٢) في عددها بتاريخ (١٥/١١/١٩٩٤م).

٤ ـ الحوار مع الديانات الأخرى وخاصة الإسلام. بهدف وجود منافذ لنقل رسالة الإنجيل إلى العالم الإسلامي[١].

يقول لودفيغ هاغِمن: «إن جولة في تاريخ المسيحية الغربية حَرِيَّة بأن تظهر أبعاد نظرة استبعادية متعصبة، سواءً بالحوار والجدل أم بالتبشير أم بالحرب، وكان يجب فرض الحقيقة التي يدعيها كل طرف، واحتكار السلطة بكل الوسائل، ولم يكن هناك بد من فرض احتكار الحقيقة والسلطة بكل الوسائل»[٢].

ويقول: «لا يزال يلاحظ هناك سعار معين ضد القرآن، تعبير الأب «قنواتي الدُمِنيكاني» وهو رائد لا يعتريه الكلل من رواد المصالحة المسيحية الإسلامية صاغ هذا التعبير في عام (١٩٨٦م) في المؤتمر الخامس للدراسات الدينية اللاهوتية في «سان غابرييل» في مود لينغ، في ضواحي فيينا، ويأتي فوق ذلك «الخوف السياسي من الإسلام الذي عاد إلى النمو خلال العقود الماضية في أوروبا»[٣].

ويقول: «المسيحية في مواجهة الإسلام، هذا التاريخ لعلاقات بين المسيحيين والمسلمين انتهت إلى الإحباط، وباتت تنتمي إلى الماضي، وهذا الماضي يجب ألا يتكرر، ولكن يجب عدم نسيانه أيضاً؛ بل يجب إصلاحه وتجديده.

وتهدف هذه الدراسة إلى أن تكون إسهاماً في ذلك، فهي بحكم البدهية دراسة تذكيرية ودراسة تأبينية رثائية في الوقت ذاته، فبالتذكير بالعبء التاريخي الذي يجثم غلى الديانتين المسيحية والإسلام يختلط الحزن الذي لا عزاء له، والذي تبعثه المأساة التي سلخت من التاريخ مئات السنين، كما تبدو على غير توقع في تاريخ العلاقات الخائبة بين المسيحيين والمسلمين، وما عاد توجيه الاتهامات المتبادلة يجدي فتيلاً إزاء الماضي المثقل بالازدراء على أن وجهة النظر القائلة: «كلهم كانوا مخطئين» (رومية: ٢٣:٣) هي وحدها التي توجد نقطة تحول جذري في العلاقات بين المسيحيين والمسلمين، على أن ما تلقاه

---

(١) الفاتيكان والإسلام (٩٧).
(٢) مسيحية ضد الإسلام (٢٣).
(٣) المصدر السابق (٢٤).

المبادرات الكثيرة التي أدت منذ منتصف الستينات من قرننا الماضي من الجانب المسيحي إلى توجه جديد من آذان صاغية من العالم الإسلامي، وما تجده العلامات الدالة على النية الحسنة هناك من صدى صريح، إنما يمثل الأمل الوحيد للمستقبل لكي يستطيع أولئك وهؤلاء أن يتعايشوا في هذا العالم، ويحافظوا على بقائهم في احترام متبادل.

وفقط حين يوفقون إلى ذلك، سوف يثبت خطأ نظرية عالم السياسة الأمريكي «صموئيل هنتنغتن» «Samuel Huntington»، التي يتعذر دحضها لأنها مبدئية، والتي كثر النقاش فيها؛ أي: نظرية تمايز الحضارات واصطدامها الوشيك، من حيث كونها أنموذجاً في تفسير الوضع العالمي الراهن»[1].

(١) المصدر السابق (٢٤ ـ ٢٥).

المرحلة الأولى
مذابح الأرمن إلى الحروب الصليبية في القرون الوسطى

أولاً: مذابح الأرمن سنة (٣٥١هـ ـ ٩٥١م) وما بعدها:

يقول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ مصوراً المجازر الهائلة التي ارتكبها الأرمن بقيادة ملكهم «الدمستق»[(١)]: «ثم دَخَلَتْ سَنَةُ إِحْدَى وَخَمْسِينَ وثلثمائة وفيها كان دخول الروم إلى حلب صحبة الدمستق ملك الروم فِي مِائَتَيْ أَلْفِ مُقَاتِلٍ،... فغلبت الرُّومُ عَلَى السُّورِ فَعَلَوْهُ وَدَخَلُوا الْبَلَدَ يَقْتُلُونَ مَنْ لَقُوهُ، فَقَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَلْقاً كَثِيراً وانتهبوا الأموال وأخذوا الأولاد وَالنِّسَاءَ،... وَأَسَرُوا نَحواً مِنْ بِضْعَةَ عَشَرَ أَلْفاً مَا بَيْنَ صَبِيٍّ وَصَبِيَّةٍ، وَمِنَ النِّسَاءِ شَيْئاً كَثِيراً،... وَخَرَّبُوا الْمَسَاجِدَ وَأَحْرَقُوهَا، وَصَبُّوا فِي جِبَابِ الزَّيْتِ الْمَاءَ حَتَّى فَاضَ الزَّيْتُ عَلَى وَجْهِ الأرض، وأهلكوا كل شيء قدروا عليه، وكل شيء لَا يَقْدِرُونَ عَلَى حَمْلِهِ أَحْرَقُوهُ، وَأَقَامُوا فِي البلد تسعة أيام يفعلون فيها الأفاعيل الفاسدة العظيمة»[(٢)].

---

(١) هو الذي عناه المتنبي بقوله في قصيدته الشهيرة التي يمدح بها سيف الدولة ابن حمدان:

لذلك سمَّى ابن الدمستق يومه ... مماتاً وسمَّاه الدمستقُ مولداً
فولى وأعطاك ابنه وجنودَه ... جميعاً ولم يعط الجميع ليحمدا

والدمستق لقبه واسمع نقفور.

(٢) البداية والنهاية (١١/٢٣٩، ٢٤٠) باختصار.

وقال الحافظ ابن كثير أيضاً: «وكان هَذَا الْمَلْعُونُ ـ الدمستق ـ مِنْ أَغْلَظِ الْمُلُوكِ قَلْباً، وَأَشَدِّهِمْ كُفراً، . . . وأكثرهم قتلاً وقتالاً لِلْمُسْلِمِينَ. . . وَذَلِكَ لِتَقْصِيرِ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَظُهُورِ الْبِدَعِ الشَّنِيعَةِ فيهم وكثرة العصيان من الخاص والعام منهم، وفشو البدع فيهم، وكثرة الرفض والتشيع منهم، وقهر أهل السُّنَّة بينهم، فلهذا أديل عليهم أعداء الإسلام، . . . كَانَ لعنه الله لا يدخل في بلد إِلَّا قَتَلَ الْمُقَاتِلَةَ وَبَقِيَّةَ الرِّجَالِ، وَسَبَى النِّسَاءَ وَالأَطْفَالَ، وَجَعَلَ جَامِعَهَا إِصْطَبْلاً لِخُيُولِهِ، وَكَسَرَ مِنْبَرَهَا، واستنكث مئذنتها بخيله ورجله وطبوله»[1].

وكان هذا الدمستق قد أرسل قصيدة إلى الخليفة العباسي «المطيع لله» نظمها له بعض كتَّابه. . . وفيها من الغل على الإسلام والحقد على المسلمين والرغبة في إبادتهم وقتلهم في جميع أقطارهم ورغبة أن يرى الأرض وقد خلت من كل مسلم ـ خاب وخسر ـ. وسأذكر منها نماذج منها لطولها:

مِنَ الْمَلِكِ الطُّهْرِ الْمَسِيحِيِّ مَالِكِ ... إِلَى خَلَفِ الأَمْلَاكِ مِنْ آلِ هَاشِمِ
أما سمعت أذناك ما أنا صانع ... ولكن دهاك الْوَهْنُ عَنْ فِعْلِ حَازِمِ
فَإِنْ تَكُ عَمَّا قَدْ تَقَلَّدْتَ نَائِماً ... فَإِنِّيَ عَمَّا هَمَّنِي غَيْرُ نَائِمِ
ثُغُورُكُمُ لَمْ يَبْقَ فِيهَا لِوَهْنِكُمْ ... وَضَعْفِكُمُ إِلَّا رُسُومُ الْمَعَالِمِ
وَكَمْ قَدْ ذَلَلْنَا مِنْ أَعِزَّةِ أَهْلِهَا ... فَصَارُوا لَنَا مِنْ بَيْنِ عَبْدٍ وَخَادِمِ
فَحُزْتُهُمُ أَسْرَى وَسِيقَتْ نِسَاؤُهُمْ ... ذَوَاتُ الشُّعُورِ الْمُسْبِلَاتِ النواعم
إِلَى حَلَبٍ حَتَّى اسْتَبَحْنَا حَرِيمَهَا ... وَهَدَّمَ مِنْهَا سُورَهَا كُلُّ هَادِمِ
أَخَذْنَا النِّسَا ثُمَّ الْبَنَاتِ نَسُوقُهُمْ ... وَصِبْيَانُهُمْ مِثْلَ الْمَمَالِيكِ خَادِمِ
وَكَمْ مِنْ قَتِيلٍ قَدْ تركنا مجندلاً ... يصب دماً بين اللها واللهازم
وَمَسْكَنُ آبَائِي دِمَشْقُ فَإِنَّنِي ... سَأُرْجِعُ فِيهَا مُلْكَنَا تَحْتَ خَاتَمِي
وَمِصْرُ سَأَفْتَحُهَا بسيفي عنوة ... وآخذ أموالاً بها وبهائمي
سأفتح سامرا وكوثا وَعُكْبَرَا ... وَتَكْرِيتَهَا مَعْ مَارِدِينَ الْعَوَاصِمِ
وَأَقْتُلُ أَهْلِيهَا الرجال بأسرها ... وأغنم أموالاً بها وحرائم
أَلَا شَمِّرُوا يَا أَهْلَ بَغْدَادَ وَيْلَكُمْ ... فَكُلُّكُمُ مستضعف غير رائم

---

(١) المصدر السابق (١١/٢٤٣، ٢٤٤) باختصار.

رضيتم بحكم الديلمي ورفضه فَصِرْتُمْ عَبِيداً لِلْعَبِيدِ الدَّيَالِمِ[١]
سألقي جيوشاً نَحْوَ بَغْدَادَ سَائِراً إِلَى بَابِ طَاقٍ حَيْثُ دَارُ الْقَمَاقِمِ
وَأَحْرِقُ أَعْلَاهَا وَأَهْدِمُ سُورَهَا وَأَسْبِي ذراريها عَلَى رَغْمِ رَاغِمِ
وَأُحْرِزُ أَمْوَالاً بِهَا وَأَسِرَّةً وَأَقْتُلُ مَنْ فِيهَا بِسَيْفِ النَّقَائِمِ
أَسِيرُ بِجُنْدِي نَحْوَ بَصْرَتِهَا الَّتِي لَهَا بَحرُ عُجاج رَائِعٍ مُتَلَازِمِ
إِلَى وَاسِطٍ وَسْطَ الْعِرَاقِ وَكُوفَةٍ كما كان يوماً جندنا ذو العزائم
وأخرج منها نحو مكة مسرعاً أَجُرُّ جُيُوشاً كَاللَّيَالِي السَّوَاجِمِ
وأغزو يماناً كلها وزبيدها وصنعاءها مع صعدة والتهائم
فأتركها أيضاً خراباً بلاقعاً خلاء من الأهلين أهل النَعَائِمِ
أَعُودُ إِلَى الْقُدْسِ الَّتِي شرفت بنا بِعِزٍّ مَكِينٍ ثَابِتِ الْأَصْلِ قَائِمِ
هنالك تخلو الْأَرْضُ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ لِكُلِّ نَقِيِّ الدِّينِ أغلف زاعم[٢]
نصرنا عليكم حين جارت ولاتكم وأعلنتمو بِالْمُنْكَرَاتِ الْعَظَائِمِ
قُضَاتُكُمُ بَاعُوا الْقَضَاءَ بِدِينِهِمْ كَبَيْعِ ابْنِ يَعْقُوبَ بِبَخْسِ الدَّرَاهِمِ
سَأَفْتَحُ أَرْضَ اللَّهِ شرقاً ومغرباً وأنشر ديناً للصليب بصارمي[٣]

وقد انتخب للرد على هذه القصيدة الأرمينية الصليبية الإمام أبو محمد ابن حزم الأندلسي رَحِمَهُ اللَّهُ فأجاد وأفاد، وهذه بعض مقاطع هذه القصيدة الإسلامية في الرد على تلك القصيدة الصليبية:

مِنَ الْمُحْتَمِي بِاللَّهِ رَبِّ الْعَوَالِمِ وَدِينِ رَسُولِ اللَّهِ مِنْ آلِ هَاشِمِ
مُحَمَّدٍ الْهَادِي إِلَى اللَّهِ بِالتُّقَى وَبِالرُّشْدِ وَالْإِسْلَامِ أَفْضَلِ قَائِمِ
عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ السَّلَامُ مُرَدَّداً إِلَى أَنْ يُوَافِي الحشر كُلُّ الْعَوَالِمِ
إِلَى قَائِلٍ بِالْإِفْكِ جَهْلاً وَضِلَّةً عَنِ النَّقْفُورِ الْمُفْتَرِي فِي الْأَعَاجِمِ
دَعَوْتَ إِمَاماً ليس من أمرائه بكفيه إلا كالرسوم الطواسم
وَلَوْ أَنَّهُ فِي حَالِ مَاضِي جُدُودِهِ لَجُرِّعْتُمُ مِنْهُ سُمُومَ الْأَرَاقِمِ

---

(١) عرف هذا الصليبي الحاقد أن ظهور الرفض وتمكن الرافضة من العراق، وبلدان المسلمين هو سبب الهزائم والمذابح التي تقع على المسلمين. وهو الذي يفتح الطريق لهؤلاء النصارى لغزو بلدان المسلمين وقتلهم.

(٢) هذه هي أمنية كل صليبي حاقد أن يرى الأرض خالية من كل مسلم.

(٣) انظر القصيدة بطولها في: البداية والنهاية، لابن كثير (١١/ ٢٤٤ ـ ٢٤٧).

وَلَـمَّا تَنَـازَعْنَا الأُمُـورَ تَخَـاذلاً ... ودانت لأهل الجهل دولة ظالم

وقد شعلت فينا الخلائف فتنة ... لعبدانهم مع تُرْكهم والدلائم

بِكُفْرِ أَيَادِيهِمْ وَجَحْدِ حُقُوقِهِمْ ... بِمَنْ رَفَعُوهُ مِنْ حَضِيضِ الْبَهَائِمِ

وَثَبْتُمْ عَلَى أَطْرَافِنَا عِنْدَ ذَاكُمُ ... وثوب لصوص عند غفلة نائم

بأبناء حَمْدَانٍ وَكَافُورَ صُلْتُمُ ... أَرَاذِلَ أَنْجَاسٍ قِصَارِ الْمَعَاصِمِ

دَعِيٌّ وَحَجَّامٌ سَطَوْتُمْ عَلَيْهِمَا ... وَمَا قَدْرُ مَصَّاصٍ دِمَاءَ الْمَحَاجِمِ

تريدون بغداد سوقاً جديدة ... مَسِيرَةَ شَهْرٍ لِلْفَنِيقِ الْقَوَاصِمِ

مَحَلَّةُ أَهْلِ الزُّهْدِ والعلم والتقى ... ومنزلة يختارها كُلُّ عَالِمِ

دَعُوا الرَّمْلَةَ الصَّهْبَاءَ عَنْكُمْ فَدُونَهَا ... من المسلمين الغر كُلُّ مُقَاوِمِ

وَدُونَ دِمَشْقٍ جَمْعُ جَيْشٍ كَأَنَّهُ ... سحائب طير ينتحي بِالْقَوَادِمِ

وَضَرْبٌ يُلَقِّي الْكُفْرَ كُلَّ مَذَلَّةٍ ... كَمَا ضَرَبَ السَّكِّيُّ بِيضَ الدَّرَاهِمِ

وَمِنْ دُونِ أَكْنَافِ الحجاز جحافل ... كقطر الغيوم الهائلات السواحم

بِهَا مِنْ بَنِي عَدْنَانَ كُلُّ سَمَيْدَعٍ ... وَمِنْ حي قحطان كرام العمائم

إذا أصبحوكم ذكروكم بما خلا ... لهم معكم من صادق مُتَلَاحِمِ

زَمَانَ يَقُودُونَ الصَّوَافِنَ نَحْوَكُمْ ... فَجِئْتُمْ ضَمَاناً أنكم في الغنائم

سَيَأْتِيكُمُ مِنْهُمْ قَرِيباً عَصَائِبٌ ... تُنَسِّيكُمُ تَذْكَارَ أَخْذِ العواصم

وَمِنْ دُونِ بَيْتِ اللَّهِ فِي مَكَّةَ التي ... حباها بمجد للبرايا مراحم

مَحَلُّ جَمِيعِ الأَرْضِ مِنْهَا تَيَقُّناً ... مَحَلَّةُ سُفْلِ الْخُفِّ مِنْ فَصِّ خَاتَمِ

دِفَاعٌ مِنَ الرَّحْمَنِ عنها بحقها ... فما هو عنها رد طرف برائم

بها وقع الأحبوش هلكى وفيلهم ... بحصباء طير في ذرى الجو حائم

وجمع كجمع البحر ماض عرمرم ... حمى بنيه الْبَطْحَاءِ ذَاتِ الْمَحَارِمِ

وَمِنْ دُونِ قَبْرِ الْمُصْطَفَى وَسْطَ طِيبَةٍ ... جُمُوعٌ كَمُسْوَدٍّ مِنَ اللَّيْلِ فَاحِمِ

يقودهم جيش الملائكة العلى ... دفاعاً وَدَفْعاً عَنْ مُصَلٍّ وَصَائِمِ

فَلَوْ قَدْ لَقِينَاكُمْ لعدتم رمائماً ... كما فرق الإعصار عظم البهائم

وَبِالْيَمَنِ الْمَمْنُوعِ فِتْيَانُ غَارَةٍ ... إِذَا مَا لَقُوكُمْ كنتم كالمطاعم

فَأَهْلاً وَسَهْلاً ثُمَّ نُعْمَى وَمَرْحَباً ... بِهِمْ مِنْ خِيَارٍ سَالِفِينَ أَقَادِمِ

هُمُ نَصَرُوا الإِسْلَامَ نَصْراً مُؤَزَّراً ... وَهُمْ فَتَحُوا الْبُلْدَانَ فَتْحَ الْمُرَاغِمِ

رُوَيْداً فَوَعْدُ اللَّهِ بِالصِّدْقِ وَارِدٌ ... بِتَجْرِيعِ أهل الكفر طعم العلاقم

سنفتح قسطنطينية وذواتها ... ونجعلكم فوق النسور القعاشم

ونفتح أرض الصين والهند عنوة ... بجيش الأرض التُّرْكِ وَالْخَزْرِ حَاطِمِ

مواعيد للرحمٰن فينا صحيحة ... وليست كآمال العقول السواقم

أتقرن يا مخذول ديناً مثلثاً ... بَعِيداً عَنِ الْمَعْقُولِ بَادِي الْمَآثِمِ

تَدِينُ لِمَخْلُوقٍ يدين لغيره ... فيا لك سحقاً ليس يخفى لعالم

أناجيلكم مصنوعة قد تشابهت ... كلام الأولى فِيهَا أَتَوْا بِالْعَظَائِمِ

وَعُودُ صَلِيبٍ مَا تَزَالُونَ سُجَّداً ... لَهُ يَا عُقُولَ الْهَامِلَاتِ السَّوَائِمِ

تَدِينُونَ تضلالاً بصلب إلٰهكم ... بأيدي يهودٍ أذلين لائم

إِلَى مِلَّةِ الْإِسْلَامِ تَوْحِيدِ رَبِّنَا ... فَمَا دِينُ ذي دين لها بِمُقَاوِمِ

وَصِدْقِ رِسَالَاتِ الَّذِي جَاءَ بِالْهُدَى ... مُحَمَّدٍ الآتي برفع الْمَظَالِمِ

وَأَذْعَنَتِ الْأَمْلَاكُ طَوْعاً لِدِينِهِ ... بِبُرْهَانِ صِدْقٍ طاهر فِي الْمَوَاسِمِ

وَحَابَاهُ بِالنَّصْرِ الْمَكِينِ إِلَهُهُ ... وَصَيَّرَ مَنْ عَادَاهُ تَحْتَ الْمَنَاسِمِ

فَقِيرٌ وَحِيدٌ لَمْ تُعِنْهُ عَشِيرَةٌ ... وَلَا دَفَعُوا عَنْهُ شَتِيمَةَ شَاتِمِ

وَلَا عِنْدَهُ مَالٌ عَتِيدٌ لِنَاصِرٍ ... وَلَا دَفْعِ مَرْهُوبٍ وَلَا لِمُسَالِمِ

وَلَا وَعَدَ الْأَنْصَارَ مَالاً يَخُصُّهُمْ ... بَلَى كَانَ معصوماً لأقدر عاصم

ولم تنهنهه قَطُّ قُوَّةُ آسِرٍ ... وَلَا مُكِّنَتْ مِنْ جِسْمِهِ يد ظالم

كَمَا يَفْتَرِي إِفْكاً وَزُوراً وَضِلَّةً ... عَلَى وَجْهِ عيسى منكم كل لاطم

على أنكم قد قلتمو هو ربكم ... فيا لضلال في القيامة عائم

أبى للّٰه أَنْ يُدْعَى لَهُ ابْنٌ وَصَاحِبٌ ... سَتَلْقَى دُعَاةُ الكفر حالة نادم

ولكنه عبد اللّٰهِ نبي رسول مُكَرَّمٌ ... مِنَ النَّاسِ مَخْلُوقٌ وَلَا قَوْلَ زَاعِمِ

أيلطم وجه الرب؟ تباً لدينكم ... لقد فقتم في قولكم كُلَّ ظَالِمِ

وَكَمْ آيَةٍ أَبْدَى النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ... وَكَمْ عِلْمٍ أَبْدَاهُ لِلشِّرْكِ حَاطِمِ

تَسَاوَى جَمِيعُ الناس في نصر حقه ... بل لكل في إعطائه حال خادم

فعرب وَأُحْبُوشٌ وَفُرْسٌ وَبَرْبَرٌ ... وَكُرْدِيُّهُمْ قَدْ فَازَ قِدْحُ الْمَرَاجِمِ

وَقِبْطٌ وَأَنْبَاطٌ وَخَزْرٌ وَدَيْلَمٌ ... وَرُومٌ رَمَوْكُمْ دونه بالقواصم

أبو كفر أسلاف لهم فتمنعوا ... فآبوا بحظ في السعادة لازم

بِهِ دَخَلُوا فِي مِلَّةِ الْحَقِّ كُلُّهُمْ ... وَدَانُوا لِأَحْكَامِ الْإِلَهِ اللَّوَازِمِ

بِهِ صَحَّ تَفْسِيرُ الْمَنَامِ الذي أتى ... به دانيال قبله حتم حاتم

وهند وسند أسلموا وتدينوا بدين الهدى رفض لدين الأعاجم
وشق له بَدْرَ السَّمَوَاتِ آيَةً وَأَشْبَعَ مِنْ صَاعٍ لَهُ كُلَّ طَاعِمِ
وَسَالَتْ عُيُونُ الْمَاءِ فِي وَسْطِ كفه فأروى به جيشاً كثيراً هماهم
وجاء بما تقضي العقول بصدقه ولا كدعاء غَيْرِ ذَاتِ قَوَائِمِ
عَلَيْهِ سَلَامُ اللَّهِ مَا ذر شارق تعقبه ظَلْمَاءُ أَسْحَمَ قَاتِمِ
بَرَاهِينُهُ كَالشَّمْسِ لَا مِثْلُ قَوْلِكُمْ وَتَخْلِيطِكُمْ فِي جَوْهَرٍ وَأَقَانِمِ
لَنَا كُلُّ عِلْمٍ مِنْ قَدِيمٍ وَمُحْدَثٍ وَأَنْتُمْ حَمِيرٌ دَامِيَاتُ الْمَحَازِمِ
أَتَيْتُمْ بِشِعْرٍ بَارِدٍ مُتَخَاذِلٍ ضَعِيفِ مَعَانِي النظم جم البلاعم
فَدُونَكَهَا كَالْعِقْدِ فِيهِ زُمُرُّدٌ وَدُرٌّ وَيَاقُوتٌ بِإِحْكَامِ حاكم[1]

ثانياً: الحملات الصليبية لنشر المسيحية وإبادة الأمة الإسلامية في التاريخ الوسيط (القرون الوسطى):

بعد دخول القدس تحت حكم المسلمين السلاجقة السُّنَّة في القرن الثاني عشر الميلادي. أطلق الإمبراطور «ألكسيوس الأول كُمنتُس» «Alexia's I komnenos» نداء استغاثة إلى البابا «أوربان الثاني» وعلى إثره انعقد المجمع الكنسي في «كلر مونت» «CLer mont» في (٢٧/١١/١٠٥٩م). وكان هدف انعقاد هذا المجمع: تحرير القدس من أيدي الكفار (أي: المسلمين).

يقول ديتر تسمرلنغ: «دعا «أوربان الثاني» إلى عقد مجمع لرؤساء الكنائس في كليرمون... كما أبدى رغبته في التحدث علناً إلى الشعب، الذي يعرف لغته؛ لأنه من أصل فرنسي نبيل، فجمع الناس يوم ٢٧ تشرين الثاني عام (١٠٩٥م) في ساحة كبيرة وشارك في الحشد عدد ضخم من رجال الدين بينهم رهبان، وحضر الفرسان وصغار النبلاء (التجار والحرفيون) إلى جانب المتسولين، انتظر هؤلاء البابا بتلهف وتوتر، ظهر «أوربان الثاني» في أردية احتفالية بابويه، يرافقه أساقفة في ملابسهم الكهنوتية حين تقدم البابا إلى الأمام، وصمت الحشد فقال: «يا شعب الفرنجة، يا شعب شمال الألب، أنتم بدلالة أعمالكم الكثيرة شعب الرب المحبوب والمختار... إن شعب إمبراطورية فارس

(١) انظر القصيدة بتمامها في: البداية والنهاية، لابن كثير (١١/٢٤٧ ـ ٢٥٢).

الغريب والكافر، مهزوز الطباع... احتل أراضي المسيحيين وأفرغها من أهلها بالموت، والنهب والحرق، وساق قسماً من الأسرى إلى بلاده، وقتل القسم الآخر أشنع قتلة، ودمر كنائس الرب تدميراً منظماً... إنهم يدنسون الهياكل بفظاعاتهم ويهدمونها هؤلاء ويختنون المسيحيين ويسكبون دم الختان على المذابح أو في أجران العماد... لمن غيركم نترك الثأر لهذا الهوان، ولمن غيركم نكل تحرير هذه الديار، لقد منحكم الرب سمعة قتالية ممتازة وأعطاكم الشجاعة والقوة التي تحنون بها هامات أعدائكم، لا بد أن تضعوا حداً للكراهية فيما بينكم... انطلقوا إلى القبر المقدس وانتزعوا تلك الأراضي من الشعب الكافر وأخضعوه. يقول الإنجيل: إن العسل واللبن يسيلان هناك، إن القدس مركز الأرض كأنها فردوس ثاني، باركها المخلص بقدرته، وزينها بتبدلات حياته، وقدسها بآلامه، وخلصها بموته، وميزها بقبره... سيروا إذاً تكفيراً عن خطاياكم، لتنالوا مجداً لا يزول في الملكوت السماوي»[1].

يعلق ديتر تسمرلنغ: «ربط البابا أوربان الثاني بطريقة لا تجارى روح العصر بالمشاعر اللحظية، فهيَّج الشعب في ساحة «كلير مونت» وحمله على جناح الكلمات إلى محط جميع الأشواق إلى بلاد الأحلام، والفردوس إلى مركز الكون، عندما تقدم الأسقف «أديمارفون بوي» نحو البابا وأعلن بصوت جهوري رغبته في أن يكون أول محارب ضد الوثنيين، بدا وكأن في الأمر لعبة متفقاً عليها. الحقيقة أن «أوربان الثاني» كان قد عينه خلال محادثات تمهيدية قاصداً رسولياً ومرافقاً دينياً لرحلة الحج المقررة، غير أن الجمهور كان يجهل هذا بطبيعة الحال.

حذا آخرون حذو الأسقف... لا يكون الذاهب إلى الحج في «سنتياغو» مسلحاً؛ لأن فرسان الأخوية يحمونه، أما من يذهب إلى الحج في الديار المقدسة، فيجب أن يحمل هو نفسه السلاح... لاقت الكنيسة مصاعب في تبرير استخدامها السلاح رغم أن «أغسطين» كان قد وضعه في يدها من خلال مذهبه حول «الحرب العادلة» تكون الحرب مبررة ويسمح بخوضها إن كانت للدفاع عن

(١) النهايات، الهوس القيامي الألفي (١٢٦ ـ ١٢٨)، وانظر: كتاب: الخلفية الأيدلوجية للحروب الصليبية: د: قاسم عبده قاسم (١١٥ ـ ١٢٦).

أمر استرداد ممتلكات منهوبة أو شنت ضد هراطقة ومرتدين، ثم من جانبه وسّع البابا «غريغروس الكبير» دائرة الحرب العادلة» لتشمل إخضاع الوثنيين واعتبرها حرباً مقدسة، فحدد البابا «أوربان الثاني» شهر آب من عام (١٠٩٥م) موعداً لانطلاقها»[١].

- أعلن البابا «أوربان الثاني» عن بدء الحملة الصليبية الأولى.

ودعا الجنود المسلحين بالصليب إلى أن يخوضوا الحرب من أجل المسيح، وضمن لهم الصفح والغفران عن كل خطاياهم.

وتشكلت المؤسسات التي تحمل الطابع الديني والعسكري ومن أشهرها:

- رهبان الحرب «Cister Ciars».
- فرسان الهيكل «Templars».
- الأخويّات «Orders».
- ميلشيا القديس بطرس «militia Sancti Peters».

وقد وضع لهم القدّيس «برنار كلرفو» تشريعاً خاصاً يقضي بأن: القتل من أجل المسيح هو القضاء على الظلم، فقتل وثني[٢]؛ يعني: حقاً أن تكسب المجد؛ لأن ذلك مجد المسيح.

ويُعطى الفرسان وجبتين يتم تناولهما بصمت مع قراءة مؤثرة من الكتاب المقدس مع تركيز خاص على سفري «يشوع» و«المُكابيين»، ليجد الجميع الإلهام في مآثر «يهوذا المُكَابي» من أجل استعادة الأرض المقدسة من أيدي الكفار المتوحشين.

ويخطب البابا «أوربان الثاني» في الحشود المحاربة التي حملت الصليب القماشي الضخم وهم يصرخون: «هذه إرادة الرب/ Deus Lo Vult»، ويقول: إن تحرير «أورشليم» من «الأجناس النجسة»[٣] التي دنّسَت الأماكن المقدسة وعاملتها بطريقة غير محترمة تسوّغ عدوان المسلحين بالعهدين القديم والجديد، وقد حملوهما في يدٍ، والسيف في اليد الأخرى، والصليب على جباههم وعلى

---

(١) المصدر السابق (١٢٩، ١٣٠).

(٢) أي: مسلم.

(٣) كانت القدس في ذلك الوقت تحت حكم المسلمين السلاجقة.

صدورهم استجابة لما يحض عليه الإنجيل «ومن لا يحمل صليبه، ويلحق بي فهو غير جدير بي»[١].

• تخرج الحملة الصليبية الأولى في سنة (١٠٩٧م) إلى القسطنطينية، وفي سنة (١٠٩٨م) يتم الاستيلاء على أنطاكية، وفي شهر تموز عام (١٠٩٩م) يتم غزو القدس. وتقام المجازر.

ويعترف أستاذ اللاهوت الألماني «لوفيغ هاغِمن» فيقول: «إن حمام الدم الذي أقامه الصليبيون هناك يدع كل الدوافع الدينية المسيحية تتحول إلى كلام فارغ، وجرى تحقيق الهدف العسكري لهذه الحملة: وهو توطيد السيادة المسيحية في الشرق الأدنى، ونشأت أربع دول صليبية «مملكة القدس» و«إمارة أنطاكية» و«دوقيتا أنطاكية وطرابلس» ومن أجل الدفاع عن المناطق المغزوة تأسست نظم رهبنة تجمع بين نظام الأديرة والنظام العسكري معاً، ومن أهمها: فرسان القديس يوحنا وفرسان المعبد ونظام الرهبنة الألماني»[٢].

يقول الأستاذ «ديتر تسمرلنغ»: «اقتحم حملة الصليب القدس عام (١٠٩٩م) وأعلنوها في العام التالي عاصمة مملكة جديدة. ثم تبعت حملة الصليب الأولى حملات أخرى قصدت الديار المقدسة وبلداناً أخرى؛ لكن المسيحيين خسروا فلسطين في النهاية»[٣].

يقول «ولتر نيغ» «Walter Nigg»: «سيبقى من الصعب دوماً أن نبرر من منظور الأناجيل، قيام هؤلاء الناس بالقضاء على كل شيء أثناء اقتحامهم القدس باسم يسوع المسيح، لقد خاضوا في دماء بلغت ركبهم، وقدموا والدموع تنهمر من مآقيهم شكرهم للمخلّص على الانتصار الذي حققوه؛ المخلّص نفسه الذي كان قد طَوّب الودعاء وأمرهم برد السيف إلى غمده»[٤].

ويبتهج الجميع وهم يرددون نشيد المديح للسيد المخلص:

---

(١) إنجيل متى (١٠/٣٨)، وانظر لما تقدم كتاب: مسيحية ضد الإسلام، تأليف: لودفيغ هاغمن (٥٣، ٥٤)، وكتاب: الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، للأب مايكل برير (٥٧، ٥٨).

(٢) كتاب: مسيحية ضد الإسلام (٥٤).

(٣) كتاب: النهايات (ص١٣٠).

(٤) Das Cwiqer Cich (159).

«تسيل أنهار كثيرة من الدم، الذي سفحناه بسعادة، من شعب الخطيئة.
فابتهجي يا قدس.
تغطت أحجار بلاط الهيكل بسيقان الموتى جميعاً.
فابتهجي يا قدس.
ألقوا بهم إلى النار وتهللوا فرحاً، أيها الطيبّون، فالأشرار ينزفون.
وابتهجي يا قدس».

يعلق ديتر تسمرلنغ: «إنه ببساطة غناء رؤيوي وقيامي تبرز لحظة نهاية الزمن في حملات الصليب لدى من يسمون الفقراء أكثر مما تبرز لدى جيوش الفرسان لما تردد نداء «أوروبا الثاني» في فرنسا وعبر حدود البلدان المجاورة لها، سمعه أناس لم يكن البابا يفكر فيهم أول الأمر... فجاء الفقراء والمحرومون والمظلومون وعديمو المِلْكية يطالبون بحصتهم في المشروع الكبير...»[١].

• وفي عامي (١١٤٧ ـ ١١٤٩م) يعلن «البابا أوجين الثالث» الحملة الصليبية الثانية.

وحوصرت دمشق وانتهت هذه الحملة بالإخفاق.

• وكان استعادة «صلاح الدين الأيوبي» رحمه الله للقدس من أيدي الصليبيين سنة (١١٨٧م) السبب في قيام الحملة الصليبية الثالثة بين عامي (١١٨٩ ـ ١١٩٢م) وأخفقت وبقيت القدس في أيدي المسلمين.

• وبين عامي (١٢٠٢ ـ ١٢٠٤م) قامت الحملة الصليبية الرابعة والتي دعا لها «البابا إنوسنت الثالث» ومنيت بالإخفاق.

يقول أستاذ اللاهوت الألماني «لودفيغ هاغمن»: «ومن الفصول بالغة المأساوية في تاريخ الحروب الصليبية حملة الأطفال الصليبية في عام (١٢١٢م) إذ انتهت في «مرسيليا»، ومن ثم في «برند يزي» حيث مات قسم كبير من الأطفال أو بيعوا أرقاء»[٢].

ويقول «ديتر تسمرلنغ»: «شهدت نهاية عصر الحملات الصليبية أمراً أصاب

---

(١) كتاب: النهايات (١٣١) باختصار.
(٢) المصدر السابق (٥٦).

الناس في أوروبا بالدهشة، فقد تجمعت في شهري آذار وأيار من عام (١٢١٢م) عُصب كبيرة من الأطفال ونصف اليافعين، وأعلنت رغبتها في الحج إلى الديار المقدسة... كان هؤلاء إذا ما سألهم أحد عن وجهتهم: قالوا: ادع إلى الرب، وأنهم يريدون تحقيق ما عجز عنه آباؤهم: أعني استرداد قبر المسيح، بدؤوا مسيرتهم فقصدوا الراين الأعلى ثم جبال الألب حتى وصلوا إلى «جَنَوا» وعددهم سبعة آلاف كما يقال... اختفت آثار الأطفال... شُحِنوا على ظهر سبعة سفن غرقت اثنتان قرب «سردينيا»، ووصلت الأخرى إلى مرافئ في الجزائر، ومصر، حيث أسروا وبيعوا كعبيد»[1].

يعلق ديتر تسمرلنغ فيقول: «لماذا تُرك صبية صغار ببطون خاوية، وأرجل حافية، وأجسام عارية يذهبون إلى هلاكهم، ويتم تشجيعهم على تحقيق مشروعهم... على المرء أن يضع عواطفه جانباً إذا أراد فهم ظاهرة: «الأطفال في حملة الصليب»[2].

• وفي أواسط القرن الثالث عشر الميلادي وعند قيام الحملة الصليبية الخامسة سنة (١٢٢١م) وكانت هذه الحملة تحاصر مدينة «دمياط المصرية» عند مصب الذراع الأيمن لنهر النيل، حدث لهذه الحملة عاملان خطيران وحدثان مهمان:

الأول: أنها الحملة الصليبية التي شاركت فيها البابوية الكنسية بفعالية ومشاركة مباشرة.

يقول «ريتشارد سوذرن»: «قد كانت الحملة الوحيدة التي شاركت فيها البابوية مشاركة فعالة؛ بل إنها هي التي قادتها من خلال وكيل بابوي وجهها بتصميم وبدون رحمة إلى نهايتها المحتومة. وقد كادت تشكل نقطة تحول في التاريخ الأوروبي ثم تحولت فجأة إلى هزيمة كبرى، قليلاً ما عرفت لها أوروبا مثيلاً»[3].

والثاني: يقول الأستاذ «رضوان السيد»: «وفي لحظة تاريخية حاسمة نحو

---

(١) كتاب: النهايات (١٣٥) باختصار.
(٢) المصدر السابق (١٣٦، ١٣٧) باختصار.
(٣) كتاب: صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى (٨٨).

أواسط القرن الثالث عشر الميلادي، انقض حَدَثٌ هائل غيَّر مجاري الاهتمام أو أنه حولها لعقود قادمة، كان فرسان الحملة الصليبية الخامسة يحاصرون دمياط، ويرجون أن تسقط مصر كلياً في قبضتهم عندما نُمِيَ إليهم أن ملكاً مسيحياً مشرقياً يقود جحافل ضخمة انطلاقاً من جورجيا، وقد اجتاح بلاد فارس، وهو يتقدم لاجتياح بغداد وإنهاء الإسلام فيما وراء الفرات. وإذا تحقق الأمل خلال شهور فإن معنى ذلك أن يلتقي المنتصرون في مصر والشام من المسيحيين الغربيين بأولئك المسيحيين المشرقيين، فيزول الإسلام من الأرض»[١].

لقد نمت عند الصليبيين إبان الحملة الصليبية الخامسة أسطورة: أن ملكاً مسيحياً مشرقياً قادم بقوة هائلة لاجتياح العالم الإسلامي من جهة الشرق اسمه: «الأب يوحنا» أو «الملك داود».

ولم يكن في الحقيقة هذا الأب يوحنا سوى «جنكيز خان» المغولي قائد التتر المغول الذي اجتاح المشرق الإسلامي كله ثم خلفه حفيده «هولاكو» الذي وصل واجتاح بغداد بعد ذلك سنة (٦٥٦هـ) (١٢٥٦م).

وتقدم الكتابات المسيحية المختلفة ثلاث روايات عن «جنكيز خان» أو «الأب يوحنا» أو «الملك داود».

الرواية الأولى:

أنه الملك داود الابن الأصغر للملك إسرائيل بن الملك سيرجيوس بن الأب يوحنا، بن الملك بولغا بوغا المسيحي[٢].

والرواية الثانية:

قدمها الرحالة الشهير «ماركو بولو» «Marco polo»، في كتابه الشهير «وصف العالم»، أن جنكيز خان تزوج ابنة الأب يوحنا وأخذ مكانه[٣].

والرواية الثالثة:

قدمها المؤرخ الجورجي «بروسِت» «Broscet»، وهي أن الأمير المغولي «جنكيز خان» تسلق جبلاً عالياً وشهد تجلي سيد العالم يسوع المسيح الذي علمه

---

(١) مقدمة كتاب: مسيحية ضد الإسلام (١٦).

(٢) كتاب: الأب يوحنا والمغول، تأليف: ديفيد مورغان (ص٢١٣).

(٣) كتاب: ماركو بولو هل وصل إلى الصين، تأليف: فرنسس وود (ص١٥).

العدل والدين القويم، والطهارة والأمانة ورهبة الكذب، والسرقة وسائر الرذائل، وقال له: إذا اتبعت هذه المبادئ فسأعطيك وقومك الأرض كلها، اذهب لإخضاع كل ما تستطيعه من البلاد، وبعد أن فتح جنكيز خان «قاين» ذهب إلى «خاتاي» شمال الصين، حيث أراد أن يرى داخل إحدى الكنائس، وما إن رأى صورة مخلصنا يسوع المسيح حتى خر ساجداً على الفور وهو يصلي قائلاً: «هذا هو الإنسان الذي رأيته على جبل «التشين» وهذه كانت ملامحه، وهو نفسه الذي علمني كل ما هو صحيح فعله»[١].

هذا وقد أشار «شيخ الإسلام ابن تيمية» إلى نوع من التشابه بين اعتقاد المغول في «جنكيز خان» واعتقاد النصارى في «المسيح».

فقال رَحِمَهُ اللهُ: «وذلك أن اعتقاد هؤلاء التتر كان في جنكسخان عظيماً؛ فإنهم يعتقدون أنه ابن الله من جنس ما يعتقده النصارى في المسيح ويقولون: إن الشمس حَبَّلَت أمه، وأنها كانت في خيمة فنزلت الشمس من كوة الخيمة فدخلت فيها حتى حبلت، ومعلوم عند كل ذي دين أن هذا كذب وهذا دليل على أنه ولد زنا، وأن أمه زنت فكتمت زناها. وادعت هذا حتى تدفع عنها معرة الزنا، وهم مع هذا يجعلونه أعظم رسول عند الله في تعظيم ما سنَّه لهم وشرعه بظنه وهواه حتى يقولوا لما عندهم من المال: هذا رزق جنكسخان ويشكرونه على أكلهم وشربهم، وهم يستحلون قتل من عادى ما سنَّه لهم هذا الكافر الملعون المعادي لله ولأنبيائه ورسوله وعباده المؤمنين»[٢].

وأياً كان فقد شاعت هذه الأسطورة عند النصارى في أوروبا، وكانت هي سبب بعثة المبشرين إلى وسط آسيا لاستحثاث نصرة هذا الملك المسيحي لهم في حربهم للمسلمين إبان الحملات الصليبية المتكررة، ومن أشهر هؤلاء المبشرين «ماركو بولّو» ووالده «مافيو بولّو» وعمه «نيكولا بولّو».

تقول الدكتورة فرنسس وود «FRANCES»: «ومثيل تلك الأهداف كان لها أهمية كبيرة في نظر حكام أوروبا المسيحيين حتى بدا وكأن الرحالة التبشيريين في العصر الوسيط كانوا فعلاً منتشرين في سائر أرجاء آسيا الوسطى من أدناها إلى

---

(١) Histoire de la Georgie (490)، وقارن مع البداية والنهاية، لابن كثير (١٣/ ١١٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٥٢١، ٥٢٢).

أقصاها، وعلى الرغم من أن «وصف العالم» لماركو بولو هو الوصف القروسطي[(١)] الأكثر شهرة لمنغوليا والصين؛ فإن عدد الوثائق التبشيرية الباقية يبعث على الدهشة حقاً، فهناك رسائل بالفارسية والمنغولية من خانات المغول محفوظة في الفاتيكان، ومركز الوثائق الوطني الفرنسي...

وكانت الأسباب الأشد إلحاحاً التي دفعت حكام أوروبا المسيحيين إلى الاتصال بالمغول في الطرف الآخر من العالم متناقضة، فالحملات الصليبية المختلفة التي جُردت بين عامي (١٠٩٦ ـ ١٢٠٧م) بدأت بمبادرات عسكرية لحماية طرق الحجاج إلى مدينة القدس، ثم ما لبثت أن تحولت إلى عمليات عسكرية مباشرة أكثر صراحة، هادفة إلى استعادة أجزاء من الأراضي المقدسة، التي كان حكام مسلمون مختلفون قد وطدوا احتلالهم إياها، وفي مواجهة قوة السيطرة الإسلامية، فكر القادة المسيحيون بتحالفات ممكنة مع الحكام المغول الذين كان موطنهم يقع خلف المواقع الإسلامية الحصينة... وفي عملية إرسال المبشرين إلى المغول، كان الباباوات مثلهم مثل الحكام المسيحيين واقعين تحت تأثير الإشاعات الدائرة حول وجود حاكم «مسيحي» في الطرف الآخر من العالم، يدعى «الأب يوحنا» وقد ساد شعور بأن هذا الحاكم المسيحي ربما كان مستعداً لمد يد العون لأولئك الذين يدافعون عن المسيحية في مواجهة الإسلام»[(٢)].

ويقول الأستاذ ريتشارد سوذرن: «فالمغول الذين ظهروا على المسرح التاريخي رغم نزعتهم التخريبية المدمرة لم يكونوا من المسلمين. فإنهم لم يكونوا يشكلون خطراً على المسيحية الأوروبية من الناحيتين: الفكرية والعسكرية، ثم نشأ موقف معقد نوعاً ما، فالمغول القساة كانوا بحكم الضرورات الجغرافية أعداء للإسلام وليس للمسيحية الأوروبية، وقد أمل لاهوتيون كثيرون إمكان استخدام المغول أداة لضرب الإسلام عن طريق اتباع سياسة ذكية في التعامل معهم وفهم أهدافهم القريبة»[(٣)].

وكان الوكيل البابوي المصاحب للحملة الصليبية الخامسة المحاصرة

---

(١) أي: القرون الوسطى.

(٢) كتاب: ماركو بولو، هل وصل إلى الصين (٣٥، ٣٦) باختصار يسير.

(٣) صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى (٨٦).

لدمياط بمصر قد كتب إلى البابا «غريغوريوس التاسع» عن الآمال الضخمة بالانتصار القريب بمساعدة «الملك داود» القادم من الشرق، وهذا نص الرسالة:

«إن العليّ الأعلى يقف إلى جانبنا، ويريد أن ينصر دينه، فقد عانى شعبه الكثير ولا يزال يعاني، وقد سمع سبحانه دعاء الضعفاء واستغاثاتهم، فكما أخبرنا أخونا المحترم «بلاغيوس» «Palagius» أسقف «ألبانو» «ALbano» ووكيل الكرسي الرسولي، فقد أسرع «الملك داود» المعروف «بالكاهن يوحنا» وهو ـ كاثوليكي يخشى الله ـ على رأس جيش ضخم إلى بلاد فارس، فهزم سلطانها في معركة حامية، ثم استمر في زحفه بقلب البلاد عشرين يوماً فاستولى عليها كلها، وقد سقطت في قبضته مدن كثيرة وقلاع، وهو الآن على مبعدة عشرة أيام من بغداد مدينة السلام، ودار الخليفة الذي يعتبره «السرازانيون»[١] أسقفهم الأعلى. هذا كله أثار فزع سلطان حلب شقيق سلطاني دمشق والقاهرة، الذي كان يخطط لمساعدة أعداء المسيحية الذين يقفون في مواجهة جيوشنا عند دمياط، فوجّه أسلحته ضد «الملك داود» عندها كتب وكيلنا إلى الجيورجيين ـ وهم كاثوليك شجعان شاكو السلاح ـ مستغيثاً بهم ضد السرازانيين، لذا نأمل أن تتمكن جيوشنا عند دمياط عندما تتلقى المساعدة المنتظرة من احتلال أرض مصر كلها في فصل الصيف، إذ في هذا الوقت ستكون جحافل الأمراء السرازانيين التي اجتمعت من كل أفق لردّ الهجمة على مصر مضطرة للتفرق والعودة إلى بلادها للدفاع عن حدودها»[٢].

يعلق الأستاذ «ريتشارد سوذرن» على هذه الرسالة فيقول: «يُظهر هذا النص بوضوح الآثار الأولى التي تركتها هجمات المغول على النفسية الأوروبية، فقد أيقظ الاعتقاد بوجود جيوش مسيحية كاثوليكية خارج العالم الإغريقي الروماني، آمالاً ضخمة في أعماق اللاهوتيين ورجال السياسة... وبكلمة واحدة كان الغرب يقف للمرة الأولى على عتبة إنهاء المسألة الإسلامية بواسطة جحافل مسيحية ضخمة زاحفة من الشرق الأقصى، لقد حلّ الوقت الذي ستتمكن فيه

(١) يعنون بهذا المصطلح: «المسلمين».

(٢) المصدر: كتاب: صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى، تأليف: ريتشارد سوذرن (٨٨، ٨٩).

المسيحيتان الشرقية والغربية من الالتقاء لحصار عدوهما المشترك وسحقه... ولكنها فشلت»[١].

كان لهذا التزامن بين الهجمات المغولية الشرسة على المسلمين من الشرق والحملات الصليبية الحاقدة على المسلمين من أوروبا المسيحية، ولهذا الاعتقاد بوجود جيوش مسيحية قادمة من الشرق نتائج مهمة على النصارى في صراعهم وحربهم على الإسلام والمسلمين. وأهم هذه النتائج:

١ ـ استمر بابوات أوروبا ببعث المبشرين إلى الشرق لبعث التقارير عن المغول وأحوالهم والوجود المسيحي ونحو ذلك، وكلهم كانوا يبعثون بوجود الأمل بالجحافل المسيحية القادمة من الشرق.

فمن «باكون» الإنجليزي إلى «فلهلم روبرك» الفلمنكي، إلى «وليم الطرابلسي» الفرنسي، إلى «يوركا ردوس دي مونت» الصهيوني الألماني[٢] وغيرهم.

تقول الدكتورة فرنسس وود: «وصل إلى «قره قُرُم» أوائل المبشرين المسيحيين المسلحين بالرسائل البابوية والمكلفين العثور على أناس تحولوا إلى المسيحية، وعلى حلفاء محتملين بين صفوف المغول قبل قيام الأخوين بولو برحلتهم الأولى إلى الشرق»[٣].

٢ ـ قامت علاقات وزيارات بين المغول وأوروبا المسيحية توجت بقيام بعثة مغولية بزيارة لأوروبا عام (١٢٨٥م) يرافقها مسيحيون من الطائفة النسطورية أرسلهم «طغرل بك» أو «طووريل خان» ملك القيراتيين ـ وهم شعب منغولي وطنه في منغوليا الوسطى وهم كانوا نصارى نسطوريين يعود تاريخ اعتناقهم للمسيحية إلى القرن الحادي عشر.

وجرى تحالف بين «طغرل بك» ملك القيراتيين والزعيم المغولي «يسوغي».

ويذكر التاريخ السري للمغول أنه بعد وفاة الزعيم المغولي «يسوغي» ظهر

---

(١) المصدر السابق (٩٠).

(٢) انظر: كتاب: صورة الإسلام في القرون الوسطى، لريتشارد سوذرن (ص١٠٨)، وفصل: المبشرون في كل مكان من كتاب: ماركو بولو هل وصل إلى الصين (ص٣٥ ـ ٤١).

(٣) ماركو بولو هل وصل إلى الصين (ص٣٦، ٣٧).

رجل اسمه «تيموشين» أو «تمرجين»[١] ادعى أنه ابن الملك «يسوغي» وتسمى باسم «جنكيز خان» ونشأ تحالف جديد بين القيراتيين والمغول أدى إلى صعود جنكيز خان إلى موقع السلطة والنفوذ في منغوليا»[٢].

هذا وقد حضرت هذه البعثة المغولية عام (١٢٨٧م) قُدّاساً برئاسة البابا في كنيسة القديس بطرس بروما[٣].

يعلق الأستاذ ريتشارد سوذرن فيقول: «يا لهذه الأعوام الرائعة، فالإمبراطورية المغولية الممتدة حتى الصين تتحول قريباً إلى المسيحية، ولم يبق للإسلام إلا أن ينسحق أو يهتدي أتباعه للمسيحية عن طريق الفلسفة التي ملكتها المسيحية عن الإغريق من خلال المفكرين المسلمين. . . هذا كله كان حلماً عظيماً رائعاً»[٤].

٣ ـ وكان من أهم نتائج هذه الدعايات بوجود «الأب يوحنا» في شرق العالم: أن قامت الحملة الصليبية الخامسة برفض عرض السلام الذي تقدم به إليهم الملك الأيوبي، الملك الكامل «محمد بن عبد الملك العادل أيوب».

قال الحافظ الذهبي: «وَبَذَلَ لَهُم الكَامِل قَبْل مجِيْء النّجدَة القدس وطبرية وعسقلان وجبلة واللاذقية وأشياء على أن يَردّوا لَهُ دِمْيَاط فَأَبَوا، وَطَلَبُوا مَعَ ذَلِكَ ثَلَاث مائَة أَلْف دِيْنَار ليعمرُوا بِهَا أسوَار القُدْس، وَطَلَبُوا الكَرَك، فَاتّفقَ أن جَمَاعَة مِنَ المسلمين، فجروا من النيل ثلمة على نزلة العَدُوّ، فَأَحَاط بِهِم النّيل فِي هيجَانه، وَلَا خِبرَة لَهُم بِالنّيل، فَحَال بَيْنهُم وَبَيْنَ دِمْيَاط، وَانقطعت المِيْرَة عَنْهُم، وَجَاعُوا وَذلوا، فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِ الأَمَان عَلَى تَسْلِيم دِمْيَاط، وَعَقدَ هدنَة، فَأُجيبُوا، فَسلمُوا دِمْيَاط بَعْد اسْتِقرَارهم بِهَا ثَلَاث سِنِيْنَ، فَللّه الْحَمد»[٥].

وفي ذلك يقول الشاعر البهاء زهير:

وأقسم إن ذاقت بنو الأصفر الكرى   لما حلمت إلا بأعلامك الصفر

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي (٢٢/ ٢٤٣).
(٢) انظر: الأب يوحنا والمغول، ديفيد مورغان (ص٢١٨، ٢١٩).
(٣) صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى (١٠٨، ١٠٩).
(٤) المصدر السابق (١٠٩).
(٥) سير أعلام النبلاء (٢٢/١٢٩، ١٣٠).

ثـلاثـة أعـوام أقـمـت وأشـهـرا تـجـاهـد فـيـه لا يـزيـد ولا عـمـرو

يقول ديفيد مورغان: «إذا كانت الأنباء الدائرة حول تقدم «جنكيز خان» أو «الملك داود» ساعدت على جعل الصليبيين في دمياط يتخذون قراراً يقضي برفض عرض السلام السخي الذي جاءهم من السلطان الأيوبي الكامل؛ فإن الملك داود أثبت أنه عديم الجدوى، مثله مثل سلفه المفترض «الأب يوحنا»، ومهما يكن فإن جنكيز خان انسحب في عام (١٢٢٣م) من الشرق الأوسط ليعود إلى منغوليا، وتوفي هناك في عام (١٢٢٧م)، وبعد ذلك لم يعاود المغول المساس بالوعي الغربي بقوة حتى بدأت أخبار غزو «باتو» لروسيا وأوروبا الشرقية في أعوام (١٢٣٧ ـ ١٢٤١م) تتوارد، وقد مضى بعض الوقت حتى تمكن العالم المسيحي الغربي من فهم الهجوم الكبير. . . إن فكرة «الأب يوحنا» كانت قد باتت راسخة حتى أصبحت غير قابلة للدحض بوصفها وهماً مضللاً ببساطة وتعين على الناس أن يبحثوا عن العاهل اللغز في مكان آخر غير شخصية جنكيز خان وأسرته المباشرة، ولكن المغول كانوا قد أصبحوا قوة مهيمنة في آسيا بما يحتم ظهورهم في ثنايا القصة هنا أو هناك»[1].

(١) الأب يوحنا والمغول (ص٢١٧).

المرحلة الثانية
من سقوط غرناطة الإسلامية
إلى قيام الولايات المتحدة الأمريكية

أولاً: في ٢ يناير سنة (١٤٩٢م):

تم تسليم مدينة غرناطة الإسلامية للأسبان، بعد صور مروعة من صور الجهاد قام بها المسلمون في غرناطة في مقاومة السقوط، والوقوف أمام القوى العاتية من النصارى الأسبان القشتاليين وفرسان الصليب الذين تجمعوا من كل أنحاء أسبانيا مدعومين بفرق مقاتلة من كل بلدان أوروبا الصليبية للإصرار على إبادة المسلمين وإنهاء الوجود الإسلامي في أوروبا حسب وصايا البابا وتعاليمه.

لقد ارْتُكِبَت أكبر حادثة إبادة لم يسبق لها مثيل.

إذ تم إبادة وطرد شعب كامل يفوق عددهم الثلاثة ملايين مسلم حسب بعض التقديرات، وبعد سقوط غرناطة ارتكبت أبشع المجازر وأفظع صور الإبادة الجماعية للمسلمين الذين عمروا أرض الأندلس لمئات السنين وصار المسلمون على حالات ثلاث:

الحالة الأولى: القتل الذي طال عبر مراكز التفتيش الشهيرة الآلاف بل مئات الآلاف من المسلمين.

الحالة الثانية: الهروب والفرار إلى بلاد المغرب مع هول الطريق وسقوط أعداد هائلة غرقى في البحر.

الحالة الثالثة: تغيير الدين بالقوة وترك الإسلام واتباع النصرانية.

وقد كان للحملات الصليبية على المشرق الإسلامي انعكاسها الخطير على حروب المسيحيين ضد المسلمين لاستعادة أسبانيا وإخلاء أوروبا من الوجود الإسلامي.

فمنذ أن وضع «شارل مارتل» الفرنسي «karl Martell» نهاية للتقدم الإسلامي بالانتصار الذي أحرزه في معركة «بواتييه» في إقليم تور «TORS» وبواتييه «POITIES» سنة (٧٣٢م) وهي المعركة التي يسميها المسلمون «بلاط الشهداء» لكثرة من قتل فيها من المسلمين وعلى رأسهم قائدهم عبد الرحمٰن الغافقي، وكانت في ٢١ من شهر أكتوبر سنة (٧٣٢م) الموافق شهر رمضان سنة (١١٤هـ). فمنذ هذه المعركة وحروب الاستعادة من قبل الأوروبيين لا تزال مستمرة.

يقول الأستاذ لودفيغ هاغِمن: «ولكن الوضع تغير فقد أخرج النورمانديون المسلمين من فرنسا وإيطاليا وصقلية. أما في أسبانيا فقد كانت للمسلمين قدم بلغ من رسوخها أن استعادة إسبانيا بالغزو أو ما سمي الاستعادة «Reconquisto» استغرق حتى نهاية القرون الوسطى»[١].

ويقول أيضاً: «كانت فكرة الحرب الصليبية قد اشتعلت في أوروبة إلى درجة بلغ معها أنه سرعان ما أعلن عن حملات أخرى على أنها حروب صليبية. وقد جرى إدراك حرب الاستعادة من أيام البابا «أوربان الثاني»، وهي استعادة الأقاليم التي حكمها المسلمون من إسبانيا بالغزو على أنها حرب صليبية. وأضفى على ألوان القتال ألوان الغفران والامتيازات ذاتها كما فعل تجاه الصليبيين في الشرق»[٢].

ورغم أن المسيحيين الأسبان وكذلك اليهود عاشوا حياة هادئة وادعة تحت حكم المسلمين في الأندلس. ولم يبادوا أو يرغموا على اعتناق الإسلام. إلا أن الحقد الصليبي والكره المسيحي لكل ما هو مسلم ظل مسيطراً على الأسبان لا تزيده الأيام إلا سُعاراً شديداً.

يقول ريتشارد سوذرن: «تقضي تعاليم القرآن بحماية المسيحيين «أهل

---

(١) كتاب: مسيحية ضد الإسلام (٤٥).

(٢) المصدر السابق (٥٧، ٥٨).

الكتاب الذميين» وعدم التعرض لعقائدهم أو لحياتهم على أن يؤدوا الجزية للمسلمين، وبمقتضى ذلك احتفظوا بمطارنتهم وكهنتهم ورهبانهم ودياراتهم. ثم إن فئة منهم تولّت مناصب معتبرة في ديوان صاحب قرطبة. ويبدو هذا كله أمراً طيباً . . .

في هذه الحقبة من الزمان كانت الحضارة الإسلامية ذات اللسان العربي تنمو وتزدهر وتحقق إنجازات عبقرية في الأندلس في المجالات كلها، وكانت كثرة الإسبان المسيحيين تشارك في الاستمتاع بميزات هذه الحضارة ومنجزاتها. ولم يكن منتظراً والحالة هذه أن تنشأ موجات من عدم الرضا بين الإسبان بمواجهة العرب المسلمين، ولم ينفرد المسيحيون الإسبان بموقف التسليم والمشاركة هذا، بل انتشر هذا الإحساس بين المجموعات غير المسلمة في كل الأقطار التي ضرب فيها الإسلام بجذوره»[١].

وبعد تسجيل «ريتشارد سوذرن» هذا الاعتراف بتسامح المسلمين وحمايتهم للمسيحيين وكذا اليهود في الأندلس يسجل ما يلي: «وقد رأى اللاهوتيون الغربيون فيما بعد أن حماية المسيحية من الإسلام لا تكون إلا بضربه عسكرياً والاستيلاء على أرضه أو إقناع معتنقيه باتخاذ المسيحية ديناً»[٢].

ويقول البروفيسور «نيلز لمكة»: «من الخطأ إذاً القول: إن العرب الذين فتحوا فلسطين قللوا من الوجود اليهودي في البلاد، كما أنهم لم يطلبوا من السكان السابقين الدخول في الإسلام، لقد كان يجري التسامح مع اليهود والمسيحيين لكونهم أهل الكتاب»[٣].

ويسجل «لودفيغ هاغمن» هذه الشهادة أيضاً: «حين وضع شارل مارتل في عام (٧٣٢م) نهاية للمسيرة المظفرة للقوات الإسلامية. كان مقدراً لهذا أن يكون إيذاناً بحدوث انعطاف في الأبعاد التاريخية، إذ بات الإسلام منذ الآن مضطراً

---

(١) صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى (٥٦ ـ ٥٨) باختصار.
(٢) المصدر السابق (٥٩).
(٣) كتاب: استخدام التاريخ ذريعة للاستيلاء على الأرض، مطبوع ضمن كتاب: الجديد في تاريخ فلسطين القديمة (ص١٢٧).

إلى التقهقر شيئاً فشيئاً عن أوروبا الغربية، إلى أن توارى في النهاية عام (١٤٩٢م) ولكن هناك بين هذين التاريخين قروناً من الزمان[١]، فكيف أمكن أن تنتهي الأمور إلى هذا التطور، أوَلم يكن اليهود والنصارى والمسلمون خلال عصر الحكام الأمويين بين عامي (٧٥٦م و١٠٣١م) يعيشون معاً على الإجمال حياة وادعة على شبه جزيرة «إيبريا» التي دخلت بأكملها تحت السيادة الإسلامية خلال القرون الوسطى؟

لا ريب في ذلك... تشكلت منذ القرن العاشر جبهة هجومية بطيئة لكنها صلبة من الملوك النصارى على الحدود كانت تصب في خانة حركة الاستعادة، بدأت بسقوط طليطلة عام (١٠٨٥م) وانتهت بسقوط غرناطة عام (١٤٩٢م) الذي نجمت عنه معاناة لا مثيل لها وقمع وطرد للسكان من اليهود والمسلمين»[٢].

يقول الأستاذ أحمد رائف: «لم يكن ينتظر المسلمين بعد السقوط غير الإبادة طعنة غادرة بليل، أو تحريق بالنيران في ميدان عام، بعد المرور على ديوان التحقيق إلى محكمة شحنت بالأحبار والرهبان، أو التنصير، التنصير الحقيقي...

وكان موكب «الأوتودافي» «Auto-da-Fe» يمر بشوارع المدينة.. فهو موكب الإحراق فهم يقودون المحكوم عليهم بالموت حرقاً عبر الطرقات حتى الساحة... ثم يتم حرقهم وسط ضجة المتفرجين وهياجهم... وكانوا يأتون بأهل المحكوم عليهم ليشاهدوا ما يحدث... ولا يمكنهم أن يمتنعوا ويعلو صراخ البنين والبنات والزوجات والأمهات... هكذا كانوا يفعلون بالمسلمين»[٣].

---

(١) دخل الإسلام أوروبا على يد القائد المسلم طارق بن زياد في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، ونزل جيش طارق في الجبل الذي يحمل اسمه إلى اليوم (يوم ٥ رجب سنة ٩٢هـ، الموافق ٢٧ إبريل سنة ٧١١م)، وانهزم القوط بقيادة رودريك في معركة وادي «لكه» في (رمضان سنة ٩٢هـ ـ يوليو سنة ٧١١م) فيكون بين دخول الإسلام أوروبا سنة (٧١١م) وغروبه بسقوط غرناطة سنة (١٤٩٢م): (٧٨١) سنة.

(٢) مسيحية ضد الإسلام (ص٥٨).

(٣) كتاب: وتذكروا من الأندلس الإبادة (ص٢٥١، ٢٥٢) باختصار، وانظر: بقية الكتاب فإنه مهم.

ويسجل المؤرخ والمفكر الأمريكي الشهير «نعوم تشومسكي» «Noam Chomsky» شهادته فيقول تحت عنوان: «جور الأوروبيين الوحشي»: «كان للفتوحات الإسبانية البرتغالية نظير محلي، ففي عام (١٤٩٢م)[1] تم تهجير اليهود الإسبان، أو إرغامهم على التحول للمسيحية. وعانى ملايين المور[2] من المصير ذاته. لقد سمح سقوط غرناطة في عام (١٤٩٢م) والذي ختم ثمانية قرون من سيادة المور، لمحاكم التفتيش الإسبانية بتوسيع سيطرتها البربرية، وأتلف الغزاة كتباً ومخطوطات لا تقدر بثمن بما حملته من سجل غني للتعاليم الكلاسيكية، ودمّروا الحضارة التي ازدهرت في ظل حكم المور المتسامح المثقف، وهكذا أعدت إسبانيا المسرح لانحدارها، وكذلك الوحشية وعنصرية غزو العالم إنها «لعنة كولومبوس» حسب كلمات المؤرخ الإفريقي بازيل دافيد سون»[3].

ثانياً: الغزو الأسباني لأمريكا اللاتينية، وقيام الولايات المتحدة الأمريكية:

١ ـ الغزو الإسباني لأمريكا اللاتينية:

في نفس العام (١٤٩٢م) الموافق (٨٩٢هـ) الذي سقطت فيه «غرناطة» آخر الإمارات الإسلامية بالأندلس. وانتهى الوجود الإسلامي بالأندلس بعد أن عمرها أكثر من (٧٨٠) سنة.

انطلق «كِرِسْتُفَر كُلُمْبس» ومعه تسعون بحاراً على ثلاث سفن لاكتشاف العالم الجديد.

كان «كلمبس» مسلحاً بهدف صليبي واضح يتمثل في عنصرين:

- **العنصر الأول:**

السبق إلى اكتشاف العالم الجديد غرب أوروبا قبل أن يسبقهم إليه المسلمون؛ فإن إنهاء الوجود الإسلامي في أوروبا بإخراج المسلمين من الأندلس

(١) هي السنة التي سقطت فيها غرناطة الإسلامية.
(٢) المور «Moors» هي التسمية التي أطلقها الإسبان على المسلمين والعرب في الأندلس. انظر: مقدمة الدكتور حسين مؤنس لكتاب: أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر، لأحمد بن يحيى الونشريسي (ص١٣ ـ ١٧).
(٣) كتاب: سنة (٥٠١م)، الغزو مستمر (ص١٣ ـ ١٤).

أو قتلهم، لا يتم إلا بسبقهم إلى العالم الجديد. لقطع الطريق على وصول الإسلام والمسلمين إلى تلك الأقطار.

• **العنصر الثاني:**

نشر العقيدة المسيحية بالقوة بين الشعوب الأصلية بأمريكا اللاتينية، ظهر هذا واضحاً فيما كتبه كلمبس عن رحلته الأولى والتي كانت بتاريخ (٣ آب ١٤٩٢م) استهل كلمبس مفكرته بهذه العبارة: «باسم إلهنا يسوع المسيح». ثم قال: «إن سموكم كاثولكيين ومسيحيين وأمراء أحبوا العقيدة المسيحية ويتوقون لرؤيتها تتوسع، وكأعداء لملّة محمد «Mahomet» وكل الوثنيين والهراطقة، والذين ارتأوا أن من المناسب أن يرسلوني أنا «كرستفر كلمبس» إلى الأجزاء المسماة «بالأنديز» للنظر في الطريقة الممكنة لتحويلهم إلى عقيدتنا المقدسة»[(١)].

فمهمة «كلمبس» تبدو حقاً مكملة لرحلة «ماركو بولو» لمنغوليا والصين وشرق الأرض، لإيصال رسالة الإنجيل وكسب أنصار جدد للحملات الصليبية التي كانت تحارب المسلمين. وتحاول أن تنهي المسألة الإسلامية[(٢)].

تقول «فرَنْسِس وُود» «Frances Wood»: «مع أن «وصف العالم» يبين أن الأخوين «بولو» جاءا إلى «قره قُرُم» تاجرين، فإنهما لم يغادراها إلا سفيرين مسيحيين حاملين رسالة موجهة إلى البابا، وواعدين بالعودة مصطحبين رموزاً دينية مختلفة، إن عملية انقلابهما الظاهري من تاجرين إلى رسولين تبشيريين، تشي بأهمية الاتصال الديني بين الشرق والغرب وبالرغبة السائدة في معرفة المزيد عن الأوضاع الروحية فيما وراء أوروبا العصر الوسيط.

ومثل تلك الأهداف كان لها أهمية كبيرة في نظر حكام أوروبا المسيحيين حتى بدا وكأن الرّحالة التبشيريين في العصر الوسيط كانوا فعلاً منتشرين في سائر أرجاء آسيا الوسطى من أدناها إلى أقصاها، وإن عدد الوثائق التبشيرية الباقية يبعث على الدهشة حقاً، فهناك رسائل بالفارسية والمغولية من خانات المغول محفوظة في الفاتيكان، ومراكز الوثائق الوطني الفرنسي[(٣)].

---

(١) المصدر: كتاب: الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، للأب مايكل برَيَر (٨١).

(٢) سبق الحديث عن هذا فيما مضى.

(٣) كتاب: ماركو بولو وصل إلى الصين، فصل: المبشرون في كل مكان (٣٥).

كان «كلمبس» على علم برحلة «ماركو بولو» ومتبعاً لخطاه كذلك.

تقول «فرنسس وود»: «قد صدر كتاب ماركو بولو «وصف العالم» في وقت كان فيه الرحالة الأوروبيون قد بدؤوا يصلون إلى زوايا العالم البعيدة، «فكريستوفر كولمبس» ومعه نسخة من كتاب ماركو بولو إضافة إلى كتب رحلات أخرى، كان وصل إلى أمريكا عام (١٤٩٢م)»[١].

تضيف وود: «فكريستوفر كولمبس» اصطحب نسخة من كتاب «ماركو بولو» «وصف العالم» في رحلته البحرية الملحمية، مع أن حقيقة انتهاء رحلته عند الطرف الآخر من العالم لم تكن ناجمة عن صعوبة اتباع خطوات «ماركو بولو» فيزيائياً «مادياً» فقط ففي غفلة من وجود كتلة القارة الأمريكية على الطريق... ونسخة «كريستوفر كولمبس» لكتاب «ماركو بولو»، وعليها ملاحظات هامشية ما زالت محفوظة في مكتبة «كابيتيولار كُولمبس» بمدينة إشبيلية»[٢].

وباكتشاف القارتين الأمريكيتين تبدأ حقبة جديدة ارتكبت فيها أبشع المجازر لدرجة الإبادة الكاملة للشعوب الأصلية ومن بقي حمل حملاً على المسيحية. حقبة سماها بعضهم: (رايخ الـ ٥٠٠ عام)[٣].

يكتب «آدم سميث»[٤] «Adam smith»: «إن اكتشاف أمريكا، واكتشاف طريق الهند الشرقية عبر رأس الرجاء الصالح هما أعظم وأهم حدثين في تاريخ البشرية... إن اكتشاف أمريكا قدم مساعدة جوهرية لوضع أوروبا... فاتحاً سوقاً جديدة لا تستنفد... لقد حوّل جور الأوروبيين الوحشي ذلك الحدث الذي كان يجب أن يفيد الجميع إلى حدث مدمر وهدام لكثير من تلك القارات المنكودة الحظ... بالنسبة للسكان الأصليين غرقت كل المنافع التي كان ممكناً جنيها، وضاعت في المصائب التي خلقتها بفضل أفضلية القوة التي حازها الأوروبيون. كان بمقدورهم ارتكاب كل أنواع المظالم في تلك البلاد النائية

---

(١) المصدر السابق (٦٩ ـ ٧٠).

(٢) المصدر السابق (١٩٣ ـ ١٩٤).

(٣) الهولوكوست الأميريكي، لستانادر (٢١).

(٤) الاقتصادي الاسكتلندي الشهير، صاحب كتاب: بحث في طبيعة وأسباب ثروة الأمم، ويعتبر كاهن الرأسمالية الأكبر، توفي سنة (١٧٩٠م).

دونما خوف من عقاب»[١].

يعلق «نعوم تشومسكي» فيقول: «أطلق غزو العالم الجديد اثنتين من الكوارث السكانية التي لا مثيل لها في التاريخ:

١ ـ إهلاك السكان الأصليين في نصف الكرة الغربي.

٢ ـ وخراب أفريقيا حيث توسعت تجارة الرقيق سريعاً لخدمة حاجات الغزو وأخضعت القارة كلها.

عانى معظم آسيا أيضاً من المحنة الرهيبة، ومع تغير الأشكال، تحافظ الموضوعات الأساسية للغزو على حيويتها ومرونتها، وستظل كذلك إلى أن يتم تناول حقيقة وأسباب الجور الوحشي بأمانة»[٢].

يضيف تشومسكي: «كان الأوروبيون يحاربون بهدف القتل، وكان لديهم من الوسائل ما مكنهم من إرضاء شهوة الدم عندهم، فقد دهش السكان الأصليون في المستعمرات الأمريكية من وحشية الأسبان والبريطانيين، وبالمثل أرعب غضب آلة الحرب الأوروبية المدمر شعوب أندونيسيا في الطرف الآخر من العالم، كما يضيف باركر»[٣].

كتب المؤرخ والقس الإسباني «لاس كاساس»[٤] «Las Csas» في وصيته: «أظن أن الله سيصب غضبه ومقته على أسبانيا بسبب هذه الأعمال الشائنة، الإجرامية غير الورعة التي ارتكبت بظلم وبربرية وطغيان؛ لأن معظم الأسبان اشتركوا في الثروة المغموسة بالدم والتي اغتصبناها على تلك السواحل وسط المذابح والخراب»[٥].

والأخطر من ذلك أن تلك الأعمال الوحشية الرهيبة يفعلها أولئك المسيحيون مزودين بدعم عقائدي يقنعهم بأنهم ينفذون أمر السماء وإرادة الرب وتوجيه الكتاب المقدس.

---

(١) نقلاً عن كتاب: سنة (٥٠١م)، الغزو مستمر، لنعوم تشومسكي (١١).

(٢) المصدر السابق (١٣).

(٣) المصدر السابق (١٨).

(٤) المصدر السابق.

(٥) قس ومؤرخ أسباني من أشهر أعماله: العلاقة الخفية في خراب الهند الغربية، توفي سنة (١٥٦٦م).

يعلّق تشومسكي: «والأهم من ذلك أن الغزاة أرادوا الخير مقتنعين بإخلاص أنهم كانوا يقدمون لضحاياهم نظاماً تقره السماء بينما كانوا يعذبونهم ويستعبدونهم»[١].

لقد أبيدت بكل وحشية شعوب كاملة هم سكان البلاد الأصليون في الأمريكتين بسبب الغزو الإسباني والبريطاني والأوروبي، ومن بقي حُمل بالقوة على اعتناق المسيحية.

يكتب المؤرخ «كارل هاينز دِشنر»[٢] «Karl Heinz Deschner» في كتابه الشهير: المولوخ[٣]: إلـه الشر، تاريخ الولايات المتحدة: (هل كان نابليون الذي قال في عام (١٨١٣م) متبجحاً: «إن إنساناً مثلي لا يحفل بحياة مليون إنسان»، أقل استحقاقاً للازدراء ممن ينادي بعد (١٥٠) سنة بأن على الإنسانية أن تضع للحرب نهاية، أو تضع الحرب للإنسانية نهاية، وكان في تلك الأيام يتحفز لضربة نووية؟

إن لدينا سياسة من دون أخلاق، والسياسة من دون أخلاق سياسة إجرامية إنها سياسة العنف، وممارسة العنف، وثمة أناس يخوضون الحرب من أجل الحرب، يخوضون مائة حرب صغيرة وكبيرة، في قرن من الزمان وبذلك يسخرون من كرامة الإنسان بأفواههم، وثمة أناس تعاونوا على اغتصاب البلاد التي ينتمون إليها كلها بالخداع وبجرائم العنف وبعمل شائن فظيع ضد الآخر، وقاموا بما هو في حكم التطهير من السكان الأصليين بقتل الشعوب والإبادة الجماعية، ونقلوا إلى المالكين الشرعيين الأوبئة واستأصلوهم، وأدنى تقدير لهم سبعة ملايين، وأعلى تقدير لهم ثلاثون مليوناً من الضحايا»[٤].

---

(١) سنة (٥٠١م)، الغزو مستمر (٥٨).

(٢) مؤرخ ودارس للفلسفة اللاهوتية، ولد سنة (١٩٢٤م)، وأشهر أعماله تاريخه الضخم: «التاريخ الإجرامي للمسيحيين»، نشر منه ثمانية مجلدات.

(٣) المولوخ كما عرفه المؤلف: «المولوخ، كما تفيد التوراة، إلـه الأشرار أو الخبثاء، إلـه الكنعانيين والعمونيين، والوثن الذي يُذبح على مذبحه الشر، والمولوخ كما تعرفه قواميسنا هو: القوة التي تطلب القرابين في نهم لا يرتوي، قرابين جداً دائماً والتي تعمل على التهام كل شيء» (٣٣)، وهو يعني بالتحديد: الولايات المتحدة الأمريكية.

(٤) المولوخ: إلـه الشر، تاريخ الولايات المتحدة (١٧).

كان الغزاة الأوروبيون للقارتين الأمريكيتين مدفوعين باعتقاد مسيحي يتبلور في أمرين:

الأول: أن يسوع المسيح بعثهم لتطهير هذه الأرض وإقامة مستعمرات مسيحية مكانها.

الثاني: أن السكان الأصليين من الهنود الحمر وغيرهم. مخلوقات متوحشة تسكن فيهم أرواح شريرة شيطانية. وهم عبدة للشيطان يستحقون الموت والإبادة.

يقول كارل هاينتزدشنر: «كان اليسوعيون سرعان ما لاحظوا أوجه الشبه بين الروح الأكبر أو المانيتو عند الهنادرة والشيطان، بحيث بات القوم يتهمون السكان الأصليين بعبادة الشيطان، الأمر الذي لم يكن من الممكن إلا أن يزيد في إضفاء الطابع الشيطاني الخاص عليهم.... وأن يكافح بالطبع على أنه شيطان، وأن يباد قدر الإمكان»[1].

ثم تتم عملية النهب وتأسيس ما يسمى العالم الجديد. وتباد شعوب بأكملها.

في عام (١٤٩٢م) ينزل «كرستفر كلمبس» على جزيرة من مجموعة جزر الباهاما إلى الجنوب الشرقي من فَلَرِدا، وفي مطلع القرن السادس عشر يستقر الأسبان المدفوعون بالرغبة في الذهب، والرغبة في تبشير «المتوحشين» في الجنوب الغربي، وفي عام (١٤٩٧م) يبلغ «جون كبوت» جيوفاني كبوتو «Giovani Caboto» وهو جَنَوي في خدمة الإنجليز، ساحل «نيوفاوند لاند» «Newfoundland». وفي عام (١٤٩٨م) يشق طريقه في رحلة ثانية حتى كرولينا الجنوبية الحالية. ومنذ ذلك الوقت تَدَّعي إنجلترا لنفسها الحق في أمريكا الشمالية.

وبتكليف من ملك فرنسا «فرانسوا الأول» يأتي في عام (١٥٢٤م) الفلورنسي «جيوفاني دي فيرّازانو Giovanni de Verra ZZano»، ويتجول أمام شاطئ كرولينا الشمالية إلى أن يصعد نحو «نيوفاوند لاند». ومنذ ذلك الحين تَدَّعي فرنسا لنفسها الحق في أمريكا الشمالية، ويستوطن الفرنسيون في كندا كما

---

(١) المصدر السابق (٥٥).

يستوطنون منطقة دخول المسيسبي من البحيرات الكبرى حتى المصب، وكانوا فرنسيين كاثوليك.

وفي أوائل القرن السابع عشر يؤسس الهولنديون على مصب نهر الهدسن، «نيو أمستردام» التي تغدو بعد أربعين عاماً؛ أي: في عام (١٦٤٦م) بريطانية وتنتقل إلى ملكية «دوق بورك» ثم يصبح اسمها «نيويورك»، ويستقر بعض الهولنديين في «منهاتن» وهو اسم يرجع إلى بضع مئات من الهنادرة... وأقر البابا «ألكسندر السادس» للأسبان والبرتغاليين بتاريخ (٢٤ مايو عام ١٤٩٤م) بملكية العالم الجديد الذي لم يكن يعود إليه إلا بمقدار ما يعود إليه القمر»[١].

يضيف «دِشنر» موضحاً العمق الديني المسيحي المبرر للنهب والقتل: «لقد كان اللصوص يتصرفون كأن الرب أعطاهم أرض الآباء ملكاً شرعياً، أجل لقد كان يبدو أنهم يعتقدون ذلك، شعب الرب، هذا ما كانوا يوحون به مع صاحب المقام العالي «جون وايت John White»، الذي كان في الوطن الأم الإنجليزي يدعو إلى استعمار المسيحيين للعالم الجديد، وكان يقول: «إن شعب الرب يتمتع من الحقوق بمثل ما كان يتمتع به إبراهيم الذي أسكن قومه بين ظهراني السدوميين، كما كانت العناية الإلـٰهية الطيبة نفسها قد أبادت «المتوحشين» بطاعون فعل الأعاجيب، وبهذه الطريقة مهدت الطريق لأصحاب العقيدة الصحيحة»[٢].

«بإيجاز كان هذا كتابة للتاريخ بأسلوب هوليوود الرخيص المبتذل أو كتابته بأسلوب ذلك المسيحي من مستشستن، الذي اعترف بعد ذبح (٥٠٠) من الهنادرة قائلاً: «لقد حظينا من أجل ما فعلنا بالتنوير الصادر عن كلمة الرب الحية»[٣].

«وكان من الواضح أن الرب باركهم، وأصبحت الولايات المتحدة أرض «الأحرار المتساوين» بينما كان السكان الأصليون، والمالكون الشرعيون الذين كان الدخلاء يسمونهم «أجانب» في نهاية القرن الثامن عشر، يتعرضون للقمع الوحشي الدموي والطرد والقتل، على حين كان السود الذين كان يطلق عليهم

(١) المولوخ: إلـٰه الشر (٥٨ ـ ٥٩).
(٢) المصدر السابق (٧٧).
(٣) المصدر السابق (٧٨).

اسم «الأشخاص الآخرون» كما كان يقال في تلك الأيام، يُضرب عليهم الرق.

تم استيراد أوائل الزنوج منذ عام (١٦١٩م)، أما بؤس النقل في هذه الرحلة البحرية المسيحية فلا يمكن للمرء أن يتصوره مجرد تصور. . . وفي أواخر القرن الثامن عشر كان هناك ما لا يقل عن ثلاثة ملايين من البيض في الولايات المتحدة، وسبعمائة ألف من السود، إضافة إلى ملايين الهنادرة المذبوحين. بعد ذلك من خمسين إلى ستين مليوناً من السود على نطاق أمريكا وقعوا فريسة لتجارة الرقيق»[١].

يعلق «دشنر» فيقول: على هاتين الفعلتين المجيدتين، كلتيهما؛ أي: على الإبادة الكاملة للهنادرة وعلى استغلال السود الذي جرى من فوق جثث ملايين من السود تقوم هذه الدولة المزهوة بنفسها على حملة نهب قائمة على جرائم القتل ودم وجثث وملك أجنبي فقط»[٢].

يعقد «دِشنر» بوضوح مقارنة بين قيام الولايات المتحدة المفعمة بالعمق المسيحي المستند إلى الكتاب المقدس، المبيح للقتل والنهب، وبين قيام إسرائيل المماثل على أرض فلسطين وما صحبه من قتل وتهجير للسكان الأصليين، فلا عجب إذن أن تكون الولايات المتحدة أعظم حاضن وداعم لإسرائيل: ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۘ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨].

يقول دِشنر: «وكان هذا الاستيلاء على الأرض مثل الاستيلاء الإسرائيلي الوارد في الكتاب المقدس، والوارد في القرن العشرين الذي يسانده القوم لأجل هذا فقط بقدر كبير من التعاطف والتفهم، إلا أن ذلك الاستيلاء[٣] كان هائلاً بدرجة أكبر إلى حد لا يقبل المقارنة، على أنه مماثل لهذا في حسنه بالضبط ومماثل له في كونه موافقاً لمشيئة الرب، وكان كما يقول مؤرخ الولايات المتحدة «دفيد برين دفيس «David Brian Davis»، اغتصاباً وحيداً على مبدأ «كل شيء مباح» وكان فيما يقول مؤرخ الولايات المتحدة: دونالد ورستر «Donald Worster»: كارثة ذات حجم عالمي»[٤].

---

(١) المصدر السابق (٧٨).
(٢) المصدر السابق (٧٩).
(٣) أي: الأوروبي لأمريكا.
(٤) المصدر السابق (٧٩).

وكانت الحصيلة: كان عدد الهنود الحمر السكان الأصليون عند بداية عملية الغزو الأوروبي لأمريكا نحو ثمانية ملايين من البشر (٨٠٠٠,٠٠٠) وبعد انتهاء عملية الاستيلاء على الأرض من قبل هؤلاء المسيحيين في حدود عام (١٩٠٠م) لم يكن قد بقي منهم سوى (٢٧٠,٠٠٠) فقط.

يصرح الرئيس الثاني للولايات المتحدة «جون آدمز» عام (١٨١٢م) فيقول: «نكاد لا نرى بعد هندرياً واحداً في العام، وما هو إلا انتصار آخر وسوف نسكت صوتهم إلى الأبد».

ويصرح الرئيس الثالث للولايات المتحدة «توماس جفرسن»: «سوف نكون مضطرين إلى أن نخرجهم كالحيوانات المتوحشة من الغابات إلى الجبال الصخرية وما من شيء سوف يمزق هؤلاء التعساء كالحرب التي تُنقل إلى بلادهم».

وفي عام (١٨٢٥م) يصرح وزير الخارجية الأمريكي كله «Clay»: «إن محوهم من الوجود أمر لا مندوحة عنه وليس بالخسارة الكبيرة».

يعلق «كارل دِشنر» ساخراً: «هذه البلاد تريد أن تأتي العالم بالحرية والديمقراطية! تريد أن تعلمه الأخلاق والحق! وتريد «أن تحطم الأغلال» وأن تجعل العالم أكثر سعادة!! وأن تنقذه!! إلى أن يكون البشر جميعاً قد تحرروا من الجوع، وتمت حمايتهم من المرض، أجل وأي شيء لم يلفّقه رؤساؤها علينا، وكان تاريخها الطويل منذ البداية حتى اليوم لا يدع مجالاً لأدنى شك في أنها سوف تبيد كل شعب يقف في طريقها وقفة جدية»[1].

وتنتهي آخر الحروب ضد الهنادرة وشعب «السيوكس» «Sioux» وغيرهم من السكان الأصليين. بأسر رئيس الأباتشي «جرنيمو» في أيلول سبتمبر عام (١٨٨٦م) وفي الشهر التالي يدشّن رئيس الولايات المتحدة «كليفلاند» «Cleveland» في الخليج الأعلى إلى الجنوب الغربي أمام قمة «منهاتن»، تمثال الحرية.

يعلق الكاتب الساخر «جورج برنارد شو» متهكماً: «إنني معروف بسخريتي، ولكنه ما كنت لأقع على فكرة إقامة تمثال للحرية في ميناء نيويورك»[2].

---

(١) المصدر السابق (٨١).

(٢) المصدر السابق (١١٦).

يعلق الكاتب النفسي الشهير «سيجموند فرويد»: «أمريكا مخلوق شائه، وأنا لا أكرهها وإنما آسف لأن كلمبس اكتشفها».

يعلق وزير خارجية فرنسا الشهير «جورج كليمنصو»: «أمريكا؟ هي التطور من البربرية إلى الانحلال من دون ملامسة الحضارة».

يكتب الكاتب الشهير «جورج سانتيانا»: «مع أن أمريكا كانت دوماً على يقين من أنها بلد الحرية بامتياز فالناس ينطوون على كراهية قاتلة للبشر الذين لا يكبح جماحهم، وللنفوس النقية الطاهرة»[١].

• تحت عنوان: «النوع المهم من الحرية»:

يكتب «نعوم تشومسكي» فيقول: «من بين المخططين العالميين، قلة هم الذين التقطوا جوهر السياسة بوضوح فاق وضوح «جورج كينان» «Gorge Kennan»، عندما أشار عام (١٩٤٨م): بأننا إن أردنا الحفاظ على التفاوت بين تراثنا وفقر الآخرين، فعلينا أن نضع «الشعارات المثالية» جانباً، وأن نلتزم مفاهيم القوة المباشرة».

نادراً ما يحدث انحراف عن هذا الخط الرئيس، إن مُثُلاً من قبيل الديمقراطية، والسوق، مُثُل جيدة طالما أن ميل الملعب يضمن فوز الناس الذين يجب أن يفوزوا، أما إن حاولت جموع الرعاع رفع رؤوسها، فيجب أن يضربوا إلى أن يخضعوا بشكل أو بآخر، وفي العالم الثالث غالباً ما يفي العنف المباشر بالغرض، أما إذا أثرت قوى السوق على امتيازاتنا المحلية فسرعان ما نقذف بالتجارة الحرة في النار»[٢].

هكذا تأسس الولايات المتحدة الأمريكية. وهذا هو النوع من الحرية الذي تدعيه وتقوم عليه.

---

(١) انظر: المصدر السابق (١٥).

(٢) سنة (٥٠١م)، الغزو مستمر (١٧١).

المرحلة الثالثة
سقوط الدولة العثمانية (المسألة الشرقية)

يكتب القسيس «استيفان نيل» «Stephen Neill» في كتابه: (تاريخ الإرساليات المسيحية): «والأتراك بدلاً من أن يصبحوا حلفاء الغرب المسيحي أصبحوا رأس الرمح للمد الإسلامي الجديد والأشد تهديداً».

ويقول: «إن الحرب العالمية الأولى وهزيمة تركيا قد حددت نهاية الحلم الإسلامي بالسيادة على العالم، ولم يسقط عالم الإسلام إلى مثل هذه المنزلة الوضيعة من قبل»(١).

لقد كان حرب الأتراك العثمانيين وإخراجهم من أوروبا وإسقاط الخلافة الإسلامية، وتمزيق أوصالها، هدفاً أوروبياً صليبياً بامتياز.

ففي الوقت الذي أنهى الأسبان النصارى الوجود الإسلامي في الأندلس. وإبادة المسلمين في عملية إبادة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً، اكتشف «كرستوفر كلمبس» القارة الأمريكية ليفتح الباب للغزو الأوروبي لها وتباد أيضاً الشعوب الأصلية لتلك البلاد.

كان الأتراك العثمانيون يسيطرون على شرق أوروبا فالتفت الغرب المسيحي لذلك بما عُرف «بالمسألة الشرقية» لتصفية الوجود الإسلامي من كامل أوروبا. ثم إسقاط الخلافة الإسلامية العثمانية، رغم التسامح الكبير الذي أبداه الأتراك العثمانيون للشعوب المسيحية في البلدان التي فتحوها.

---

(١) نقلاً عن كتاب: دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية (١٢٩٩ ـ ١٩٢٣م) (٦٩).

نسجل هذه الاعترافات:

يقول «مورو بيرجر» أحد رواد الجامعة الأمريكية ببيروت: «وقد اتخذ حكم الأقليات الدينية تحت سلطان الإمبراطورية العثمانية شكل الملل تختص كل منها بشؤونها الاجتماعية، وتنظم الأوضاع الفردية لكل أعضائها... وكم كان شعور المسلمين بالتساهل شاملاً إلى درجة أن العثمانيين منحوا حتى الأوروبيين الحقوق الشخصية والتجارية والدينية وقدراً من الحكم الذاتي على الأرض العثمانية»[1].

ويقول الزعيم الهندي الشهير: «جواهر لال نهرو»: «ومهما يكن من أمر فالواقع أن سلاطين الأتراك العثمانيين كانوا متسامحين جداً مع الكنيسة الإغريقية الأرثوذكسية حتى إن السلطان «محمد الثاني» نصب نفسه بعد سقوط القسطنطينية راعياً للكنيسة الإغريقية»[2].

ويقول «المؤرخ فازلييف»: «لا زال الناس يرددون تلك المقولة المأثورة التي صدرت عن رئيس ديني بيزنطي يدعى «لوكاس فاتوراس» في ذلك الحين وهي: «إنه لخير لنا أن نرى العمامة التركية في مدينتنا من أن نرى تاج البابوية»[3].

وذلك في تفضيل واضح من الأوروبيين الشرقيين الأرثوذكس لحكم الأتراك المسلمين نظراً لما وجدوه من تسامح على حكم إخوانهم من المسيحيين الكاثوليك الغربيين.

ونختم هذه الشهادات عن السماحة التي أبداها العثمانيون الأتراك تجاه المسيحيين في أوروبا الشرقية. بما كتبه الأستاذ الكبير «عبد الرحمٰن عزام» رحمه الله ـ أول أمين عام للجامعة العربية ـ في كتابه «الرسالة الخالدة» فيقول: «فازت جيوش الهمج من الأوروبيين على العرب في القرن الثامن فأخرت الحضارة، وفاز الغلاة المتعصبون من الفرنج مرة أخرى فوزاً ساحقاً في القرن الخامس عشر فقضوا على العرفان والحضارة، وفي الوقت الذي كانت محاكم التفتيش، وسيوف الدولة تسوق إلى المذبحة أو إلى البحر رسل الحضارة في

---

(١) كتاب: العالم العربي اليوم (٢٢٣).
(٢) كتاب: لمحات من تاريخ العالم، الطبعة العربية (٦٠).
(٣) كتاب: بيزنطة الإسلام، الطبعة العربية (٣٩٢).

الغرب، وتخلي أوطاناً بأكملها من أهلها، وفي الوقت الذي تسقط فيه «غرناطة» ويمحى أثر مائتي ألف مسلم بها، وجلهم من أهل أسبانيا نفسها ومن عنصرها الأصلي ذبحاً وطرداً وتشريداً، كانت جيوش الإسلام الظافرة تحت راية أخرى تفتح الممالك الأوروبية الشرقية، فيستظل المسيحيون بظل العدالة الجديدة، وينعم الناس بحرية الضمير، وحرمة الأديان.

سقطت بيزنطة مركز العداوة للمسلمين، ومبعث العواصف على الأوطان الإسلامية مدة ثمان قرون فما استبيحت الحرمات الدينية، ولا تسلط الفاتحون على العقائد والأديان، ولا طرد الناس من أوطانهم، وحوسبوا على نياتهم وضمائرهم..».

يتابع عزام: «ولندع الكلام للمؤرخين المسيحيين «فرنتز» و«فنلي» و«بتزيبوس» و«دهسون» كما لخصه «أرنولد»: «وكانت أولى الخطوات التي اتخذها «محمد الثاني» بعد الاستيلاء على القسطنطينية أن طمأن المسيحيين بالتعهد بحماية الكنيسة الأرثوذكسية، ومنع منعاً باتاً اضطهاد النصارى، وصدرت الإرادة السَّنية بأن للبطريرق والأساقفة في النظام الجديد جميع الحقوق والامتيازات التي كانت لهم في النظام السابق للفتح، واستلم البطريق «جناديوس» من يد السلطان الأداة التي كانت شارة ولايته، ومعها ألف قطعة ذهب وحصان مطهَّم بعدة فاخرة ليركبه في موكبه إلى المدينة، ولم يهب السلطان لرأس الكنيسة المسيحية الامتيازات التي كانت له في عهد الإمبراطور المسيحي فحسب؛ بل مكنه من سلطة مدنية واسعة على الرعايا المسيحيين، فكان مجلس قضاء البطريرقية هو الذي يفصل في منازعات المسيحيين، وكانت حكومة السلطات تنفذ ما يقضي به مجلس البطريرقية، فكان للبطريرق السلطة المطلقة في الشؤون الروحية، ولم تتدخل قط في هذه الشؤون السلطات المدنية الإسلامية، ولما كان البطريرق معتبراً من كبار رجال الدولة في نظر السلطان ومعترفاً به، فقد كان له أن يتدخل لرفع الظلم الذي يقع من بعض الولاة على النصارى باتصاله مباشرة بالسلطات، وكان للأساقفة في الولايات من الحرمة والسلطة مثل ما للبطريرق في العاصمة، حتى انتهى الأمر إلى أن صاروا في مناطق سلطانهم الديني كأنهم مأمورو الدولة وولاتها، فحلوا محل الأرستقراطية البيزنطية التي انقرضت بسقوط دولتها».

ذلك ما فعل المسلمون في المشرق، وقد سقطت غرناطة للأسبان بعد سقوط القسطنطينية للترك بأربعين سنة، فهل كان للفرنجة فيما فعل المسلمون أسوة؟!!»[١].

ولكن كان إنهاء «المسألة الشرقية» هدفاً كبيراً للأوروبيين المسيحيين وتقاطع معهم في هذا الهدف اليهود؛ لأن إسقاط الخلافة العثمانية وإنهاء المسألة الشرقية هو طريقهم لاحتلال فلسطين وإقامة دولتهم فيها.

وعاد الأمل قوياً لدى حركة التبشير «التنصير» بالمسيحية وراح المبشرون يعملون بقوة داخل العالم الإسلامي، بل والعربي. مستغلين ضعف وسقوط الدولة العثمانية وتمزق أوصالها.

ولا أدل على هذا من انعقاد «المؤتمر التبشيري الدولي» في شهر يونيو سنة (١٩١٠م) بالقاهرة وقدمت فيه خططاً خطيرة مدروسة لإحياء عملية التنصير.

وكان شعار «الحرية» مدخلاً كبيراً لهم، وذلك استغلالاً للحرية الفكرية، ودعوى التسامح الديني مدخلاً لنشر رسالة الإنجيل بين أبناء المسلمين.

ومن إحدى أوراق العمل التي قدمت في ذلك المؤتمر تظهر هذه المعالم واضحة وهي ورقة قدمها المبشر «و.هـ. ت جايردنر «W.H.T.Gairdner». وعنوانها: «تغيرات في المسألة التبشيرية في الأراضي المحمدية».

يقول فيها: «لو بدأنا بالإمبراطورية العثمانية، نجد حركة يمكن وصفها بأنها تهدف إلى تحقيق الحرية السياسية أولاً ثم الفكرية، وبالنتيجة فإن حركة مزدوجة كهذه لا بد أن تؤثر على الدين ببطء، ولكن بتأثير أكيد، إن الموقف الخفي للشباب التركي أنفسهم من مسألة التسامح الديني هو في الغالب موقف متقدم جداً، والحقيقة أن النصرانية والنصارى هم في أعماق حركتهم إلى حد كبير... ينبغي أن يثمر ذلك نتائجَ هامة وبعيدة المدى الآن في أجزاء كثيرة من الإمبراطورية التركية خصوصاً في سوريا تحرز حرية النشر تقدماً هائلاً؛ بل إن بعض قادة الفكر الإسلامي أصبحوا يميلون إلى مراجعة كيان الفكر الإسلامي من أساسه، ومراجعة الصورة المعهودة عن هذا الدين بحقائقها وتفصيلاتها

(١) الرسالة الخالدة (٢٢٥ ـ ٢٢٧).

التاريخية، أوليست هذه الحقائق حافزاً للجمعيات العاملة في الإمبراطورية العثمانية، لتتأهب وتدعم نشاطها حتى تستفيد من الفرصة التي تتيحها هذه التطورات المتعاظمة؛ ألم يحن اليوم الذي نحصد فيه ثمرة المعاناة الرائعة للشهداء الأرمن؟ يجب أن يأتي اليوم على وجه اليقين، وبنفس اليقين أن هناك إلٰهاً عادلاً في السماء»[١].

فالحرية والتسامح هي الشعارات المرفوعة، والتنصير والاحتلال هي الأهداف الموضوعة. والتي يراد تحقيقها.

يقول الجنرال التركي «جواد رفعت أتلخان»: «منذ سبعين سنة، والكوارث تتوالى على بلادنا لإزالة الخلافة العثمانية، واحتلال فلسطين، وإقامة دولة يهودية مركزها القدس، وقد دبرت الأيدي الخبيثة تقديم «خمسة ملايين من الجنيهات الذهبية» إلى السلطان عبد الحميد الثاني مقابل سماحه لاستيطان اليهود في فلسطين، إلا أن السلطان عبد الحميد رفض ذلك بشدة، وأدى هذا الرفض إلى إثارة دعاية يهودية عالمية ضد الطبقة الحاكمة في الدولة العثمانية، متخذة من الأكاذيب والافتراءات سلاحاً لها، وكانت هذه الأكاذيب والافتراءات من القوة بحيث لا يمكن للإنسان أن يقف أمام تيارها الجارف.. وكانت تتضمن أمثال هذه الكلمات: «لا حرية في الدولة العثمانية»، «الاستبداد يخيم عليها»، «السلطان يفتك بالعناصر المثقفة ويرميهم في البحر»، إن أوروبا قد تآمرت فيما بينها لتقسيم الدولة العثمانية»[٢].

بدأت أوصال الدولة العثمانية تتمزق وأجزاؤها تنهار، والوجود الإسلامي في شرق أوروبا ينحسر، وانقض الغرب المسيحي بحملة إبادة لا نظير لها في التاريخ لمسلمي شرق أوروبا والقِرْم والقوقاز وشمال أفريقيا وغيرها.

يسجل آخر سلاطين آل عثمان؛ بل آخر خليفة إسلامي «السلطان عبد الحميد الثاني» في مذكراته بتاريخ (٨) نيسان سنة (١٩١٧م) هذه الحسرات على الانهيار: «الجبهات تنهار، وبدأت الأخبار السيئة ترد، زالت الأسر القديمة

---

(١) مؤتمر التبشير الدولي: الإرساليات والحكومات (١٠/ ٢٥٤، ٢٥٥)، نقلاً عن كتاب: دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية (١٢٩٩ ـ ١٩٢٣م) (١٧٧ ـ ١٧٩).

(٢) كتاب: أسرار الماسونية (١٧٩).

والأصلية الموجودة في إستانبول، وظهر أغنياء الحرب بسطوتهم، المرافقون لي يحملون لي في كل يوم من تلك الأيام إما خبر هزيمة جديدة، أو خبر فضيحة جديدة، خررت ساجداً للرحمٰن وهو الشيء الوحيد الذي أستطيع عمله في هذا اليأس، الذي نتج عن شعوري بأن الدولة التي أقامها أجدادي تعيش حتى اليوم ـ مثلي تماماً ـ أيامها الأخيرة... كانت جنودنا على كل الحدود ممزقة مبعثرة بين انسحاب وهزيمة لا يستطيع خلاصنا إلا الله... وإذا لم ننقذ فلا ترِيني اللَّهُمَّ أياماً أسوأ من هذا الموت... هذا آخر توسلاتي»[١].

في توثيق نادر ونفيس لحجم الكارثة والإبادة التي أصابت المسلمين في أوروبا الشرقية والقوقاز والقرم والبلقان وشرقي الأناضول وغيرها خلال (١٠٠) سنة من عام (١٨٢١م ـ ١٩٢٢م)، يقدم المؤرخ الشهير «جِسْتن مكارثي» «Justin McCarthy»، كتابه الفريد الموثق: «موتٌ ونفي، مصير المسلمين العثمانيين»[٢].

(DEATH AND EXILE)
The Ethnic Cleansing
Of Ottoman Muslims
1821 - 1922

في مقدمة كتابه يقول «جستن مكارثي»: «توصلت إلى هذه الدراسة لوفيات وهجرة المسلمين من البحث في عدد سكان الإمبراطورية العثمانية إبّان الحرب العالمية الأولى، كان اهتمامي آنذاك يكمن في التحقق من عدد المسلمين الذين عاشوا في الأناضول، وكيف تغير عددهم في القرنين التاسع عشر والعشرين، أدهشتني نتائج الدراسة، إذ لم يكن في قراءاتي السابقة عن التاريخ العثماني ما يهيئني لتلك الوفيات الكبيرة في تلك الفترة، ذكرت الإحصائيات أن ربع السكان المسلمين فقدوا، لم أستطع أن أصدق أن فقداناً كهذا جرى تمويهه في التاريخ،

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد (١٢٩، ١٣٠).

(٢) صدرت الطبعة الأولى باللغة الإنجليزية عام (١٩٩٦م)، وصدرت الطبعة العربية الأولى عام (٢٠٠٥م)، عن دار قدمس للنشر والتوزيع بدمشق ترجمة: فريد الغزي، وذكر المؤلف مكارثي أنه أعد الكتاب بدعم وتمويل من: وقف الولايات المتحدة القومي للدراسات الثقافية، للبحث في الحرب العالمية الأولى وآثارها، ومن مؤسسة الدراسات التركية للبحث في وفيات وهجرات الأتراك.

إلا أن مراجعة البيانات مرة تلو الأخرى خلّفت الاستنتاج نفسه، ليس خلال الحرب العالمية الأولى فحسب؛ بل طوال القرن التاسع عشر أيضاً، تجشمت الشعوب المسلمة في الأناضول، والقرم، والبلقان، والقفقاس، خسائر هائلة في الأرواح، كانت خسائر جديرة ببحث إضافي»[١].

- **تحت عنوان: «الأرض المقبلة على الضياع»:**

يسجل مكارثي هذه الفاجعة: «في عام (١٨٠٠م) كانت هناك أرض إسلامية فسيحة في الأناضول، والبلقان، وجنوبي روسيا. أرض شكل المسلمون فيها الغالبية، شملت هذه الأرض القرم ومناطقها النائية، وأكثر منطقة القفقاس، وشرقيّ الأناضول وغربيّها، وجنوبي شرقي أوروبا من ألبانيا والبوسنة حتى البحر الأسود، وارتبطت بها جغرافياً مناطق في رومانيا، وجنوبي روسيا حيث كان المسلمون أكثرية ضمن الشعوب المختلفة، بحلول عام (١٩٢٣م) لم يتبق من الأرض الإسلامية إلا الأناضول وشرقي ثراقيا «Thrace» وقسم من جنوب شرق القفقاس، اختفى مسلمو البلقان على نطاق واسع موتى أو مجبرين على النزوح... قهر المصير ذاته مسلمي القرم وشمالي القفقاس وأرمينية الروسية بسهولة، اختفى هؤلاء، مات ملايين المسلمين، أكثرهم من الأتراك، وفرّت ملايين أخرى إلى ما يعرف اليوم بتركيا. بين عامي (١٨٢١م) و(١٩٢٢م) أُجبر أكثر من خمسة ملايين مسلم على مغادرة أراضيهم، مات خمسة ملايين ونصف المليون مسلم، قتل بعضهم في الحرب، وهلك بعضهم الآخر لاجئين من المجاعة والمرض»[٢].

يضيف مكارثي: «وعلى نحوٍ مشابه جلب الاستعمار الروسي، الذي لا يزال كثيراً ما يصوَّر على أنه مسيرة تمدُّن للثقافة الأوروبية معه مقتل ملايين الجركس، والأبخاز، واللّاز «Laz»، والأتراك، تبدو القومية والاستعمار في مظهر أسوأ كثيراً حين تظهر ضحاياهما على المسرح»[٣].

ثم يذكر مكارثي الازدواجية الفكرية والتاريخية الأوروبية عندما تذكر أوروبا

---

(١) الطرد والإبادة مصير المسلمين العثمانيين (١٩).

(٢) المصدر السابق (٢١، ٢٢).

(٣) المصدر السابق (٢٢).

وبشكل مستمر ما حصل للمسيحيين الأرمن والبلغار واليونان أثناء الحروب مع العثمانيين. ولكنها تطوي في تآمر فكري وتاريخي ذكر هذه المأساة الضخمة لما حصل للمسلمين من الإبادة والتطهير العرقي والتهجير.

يقول مكارثي: «مع الأهمية التاريخية لخسائر المسلمين؛ فإنها غير موجودة في الكتب المدرسية، إن الكتب المدرسية، والتاريخية التي وصفت مذابح البلغار والأرمن واليونانيين لم تذكر المذابح المماثلة للأتراك، إن عدد القتلى والمنفيين من المسلمين غير معروف، وهذا يخالف الممارسة الحديثة في مجالات أخرى من التاريخ، لقد أصبح بحق غير وارد اليوم الكتابة عن التوسع الأمريكي من دون مراعاة الوحشية التي مورست على السكان الأمريكيين الأصليين، إن حرب الثلاثين عاماً يجب أن تكون جزءاً من أي تاريخ للتغير الديني في أوروبا، لا يستطيع المؤرخون أن يكتبوا عن الاستعمار من دون ذكر قتل الأفريقيين في الكنغو أو الصينيين في حروب الأفيون، ومع ذلك لم تجرِ في الغرب كتابة أو فهم تاريخ معاناة مسلمي البلقان، أو القفقاس، أو الأناضول قط. جرت كتابة تاريخ البلقان، والقفقاس، والأناضول من دون ذكر أبطاله ـ ضحاياه ـ الرئيسيين «السكان المسلمين»[1].

- **تحت عنوان: «حرب الاستقلال اليونانية»:**

يكتب مكارثي: «بدأت التوراة اليونانية ضد الإمبراطورية العثمانية في آذار عام (١٨٢١م)... قتل القرويون ورجال العصابات اليونانيون ببساطة كل تركي عثروا عليه.... في غضون ذلك هاجم السكان المسيحيون، وقتلوا السكان المسلمين في كل بقعة من شبه الجزيرة... منذ يوم (٢٦) آذار وحتى يوم أحد عيد الفصح الذي صادف حلوله في عام (١٨٢١م) يوم (٢٢) نيسان، يفترض هلاك (١٥٠٠٠) نفس مسلمة، وتدمير قرابة (٣٠٠٠) بيت ومنزل تركي. كانت الصيحة الوطنية للثورة التي أعلنها كبير الأساقفة اليوناني «جيرمانوس» «Germanes» هي: «السلام للمسيحيين، الاحترام للقناصل، الموت للأتراك»[2].

يضيف مكارثي: «جرى قتل كل المسلمين الأتراك الذين أسرتهم العصابات

---

(١) المصدر السابق (٢٣).

(٢) المصدر السابق (٣٣).

اليونانية بما في ذلك النساء والأطفال، باستثناء عدد صغير من النساء والأطفال الذين جرى أسرهم للاستعباد... كان القتل كثيراً ما كان محسوباً وبدم بارد... في «تريبولتزا «Trpolitza» على سبيل المثال:

مدة ثلاثة أيام خضع السكان المسلمون الأتراك البؤساء لشبق عصابة من الهمجيين ووحشيتهم، لم يستثن الجنس ولا السن، جرى تعذيب النساء والأطفال قبل قتلهم، كانت المذبحة ضخمة إلى درجة أن قائد العصابة: «كولوكوترونس» «Kolokotrones» نفسه قال: «إنه عندما دخل القرية عبر بوابة الحصن، لم تطأ حوافر حصانه الأرض قط، كان درب انتصاره مفروشاً بالجثث»، بعد انقضاء يومين جرى جمع البقية البائسة من المسلمين على نحو متعمد إلى عدد يقارب الألفي نفس من كل سن وجنس، إنما في المقام الأول نساء وأطفال، واقتيدوا إلى الجبال المجاورة حيث جرى ذبحهم كالماشية»[١].

يسجل «مكارثي» هذا الاعتراف في دهشة واستغراب كيف فُعل هذا الهول الفاجع بالمسلمين الأتراك مع أنهم كانوا متسامحين مع المسيحيين طوال فترة حكم الإمبراطورية العثمانية:

«كانت معاناة تلك المجتمعات من سخرية القدر[٢]... إذ لو كان الأتراك في أيام قوتهم قوميين من النوع اليوناني لكان المسيحيون هم الذين طردوا تاركين وراءهم أراضي كانت تركية مسلمة بكل معنى الكلمة بدلاً من ذلك، عانى العثمانيون، وبقي المسيحيون، كثيراً ما كانوا يعاملون المسيحيين معاملة حسنة... لكنهم سمحوا لهم بأن يستمروا بالبقاء، وأن يحافظوا على لغاتهم وتقاليدهم ودياناتهم كانوا على حق حين فعلوا ذلك، لكن لو أن أتراك القرن الخامس عشر لم يكونوا متسامحين، لبقي أتراك القرن التاسع عشر على قيد الحياة في بيوتهم»[٣].

ثم جاء دور الروس الأرثوذكس.

---

(١) المصدر السابق (٣٥).

(٢) هذا تعبير المؤلف نسجله كما قاله مع اعتراضنا عليه.

(٣) المصدر السابق (٣٧ ـ ٣٩).

• فتحت عنوان: «التوسع الروسي»:

يسجل «جستن مكارثي» هذه المآسي التي حلت بالمسلمين من قبل الروس: «شرع القياصرة ـ الروس ـ بإخضاع مماثل لشعوب أجنبية. . . كانت الطريقة التي تبنّاها الروس. . . . فعّالة ولو أنها قاسية: جردوا المناطق التي أخضعوها من المسلمين، واستبدلوا المسيحيين بهم، لم تكن تلك السياسة استثنائية للروس، ففي الوقت الذي كان الروس يقومون فيه بأفعالهم ضد المسلمين على سبيل المثال، كان المستوطنون الأوروبيون في أمريكا الشمالية يفرضون سياسة مشابهة على الأميريكيين الأصليين.

كان إخضاع الروس للمسلمين سياسة جرى تطبيقها على نحو ثابت وفعّال مدة (١٥٠) عاماً»[١].

يضيف: «إضافة إلى طرد المسلمين بسبب الحروب، حارب الروس المسلمين القفقاس وطردوهم من ديارهم في ستينيات القرن التاسع عشر. . . في كل الحروب من حروب القرنين التاسع عشر والعشرين قُتل مسلمون، وطرد مسلمون، مات ملايين المسلمين، وأُبعد ملايين آخرين، كانت كل حرب مختلفة، لكن تأثير الحروب في المسلمين كان متساوياً، قتلوا أو طردوا من ديارهم بأعداد كبيرة»[٢].

هذه روسيا تقلد أوروبا في الوحشية والقسوة ضد المسلمين، بمخالب دب مفترس وأخلاق قرد قذر، وصدق فيهم وصف الفيلسوف والمؤرخ الشهير: «إيفان نمو لوفِن» «Ivan Golovin»: «إن روسيا نصف قرد ونصف دبّ، إنها تقلد أوروبة في الممالك الأجنبية، ولكن في الوطن يُشعر بكف الدبّ في كل مكان»[٣].

وأخيراً يسجل المحقق البريطاني «كَلِن» «Cullen» في مؤتمر برلين هذه النتيجة: «لا أستطيع أن أصل إلى أي استنتاج آخر إلا أن الروس ينفِّذون سياسة ثابتة لإبادة العنصر المسلم»[٤].

---

(١) المصدر السابق (٣٨).

(٢) المصدر السابق (٤٣، ٤٤).

(٣) نقلاً عن: المصدر السابق (٤٥).

(٤) المصدر السابق (٧٩).

● في بلغاريا المأساة كبيرة يقول عنها مكارثي: «حين جرى حساب أولئك المسلمين الذين بقوا في بلغاريا وأولئك اللاجئين الذين نجوا كانت البقية هم الذين لقوا حتفهم... ولكن رقم المفقودين كبير إلى درجة أن أي حسابات لأعداد أقل لن تؤثر كثيراً في الاستنتاج المستخلص هنا، نحو (٢٦٠,٠٠٠) مسلماً بلغارياً قتلوا أو ماتوا بسبب المرض أو الجوع أو البرد»[١].

يسجل القنصل البريطاني في بلغاريا: «إدمُند كلفرت»[٢] حجم المأساة للمسلمين في بلغاريا، كما يسجل كشاهد عيان الفارق الكبير بين تسامح المسلمين الأتراك مع مسيحيي تلك الديار وكرم ضيافتهم وحسن تعاملهم. وكيف قابل الروس والبلغار المسيحيون ذلك كله بغدر ووحشية وقذارة لا نظير لها.

يقول «كلفرت» في خطابه الذي كتبه للسيد «هنري ليرد، جي، سي، بي» بتاريخ (١٦) أيلول عام (١٨٧٨م): «تسمح الحكومة الروسية للمسيحيين بأن يأخذوا حقهم بالقوة، وأن يزوروا الأحياء التركية حالياً كيفما اتفق مع إراقة دماء وسلب ونهب من دون تمييز، إن النتيجة هي أمام العالم الآن[٣]...

إن الأعمال الوحشية التي مورست على المقيمين المسلمين في منطقة «قزنلق» نفسها ليس لأنهم لم يقوموا بأي استفزاز فحسب؛ بل وقفوا إلى جانب البلغار، وحموهم من التحرش خلال المشكلات الأولى...

إن التجاوزات التي ارتكبها المسلمون في مناطق البلقان بحسب علمي...اقتصرت على مضايقة القرى المسيحية، أما المسيحيون في ظل الحكم

---

(١) المصدر السابق (١٢٢).

(٢) يعتبره جستن مكارثي شاهد عيان وكاتب تقارير دقيقاً ومترفعاً في اهتمامه بالمأساة البشرية عن التحيز الديني والعرقي لذا فإن شهادته تعتبر بحق اتهاماً محكماً لمضطهدي المسلمين في بلغاريا: الطرد والإبادة (١٢٢).

(٣) تماماً كما أن المجازر الرهيبة التي ارتكبها المسيحيون الصرب والكروات ضد مسلمي البوسنة والهرسك عام (١٩٩٤م) وما بعده هي أمام العالم الآن، والمجازر التي ارتكبها الصرب ضد مسلمي كوسوفا كذلك، والمجازر التي ارتكبها المسيحيون في أندونيسيا ضد المسلمين في جزر أمبون وجزر الملوك هي كذلك أمام العالم الآن. وما ارتكبته أمريكا في العراق، وإسرائيل في لبنان كذلك. في الوقت الذي ترفع فيه شعارات الحرية وحقوق الإنسان، إننا أمام وهم كبير.

الروسي البلغاري من ناحية أخرى فقد صبوا جام غضبهم من دون تمييز على كل السكان المسلمين، وبهدف معلن هو طردهم من البلاد.

أستطيع أن أقول: إنه في حين حدثت حالات سرقة واغتيال المسيحيين على نحو إفرادي في ظل الحكم التركي؛ فإن قرى مسلمة كاملة هي الآن عرضة لتلك المعاملة، وفي حين كانت للسلطات التركية على الأقل فضيلة التصريح بالرغبة في تقديم تعويض؛ فإن الحكم الروسي في تركيا لا يقدم حتى هذا التنازل للرأي العام. . .

إن حالات اعتداءات الأتراك على الإناث المسيحيات في الأوقات العادية، أقل حدوثاً بكثير مما يُظن عموماً في الوطن، أما منذ الاحتلال الروسي، ليس من المبالغة القول: إن البلغار في المناطق الريفية يعتدون ساعة يشاؤون على النساء والفتيات التركيات جملة. . .

أصبح رفاه الفلاحين البلغار المادي في ظل الحكم التركي حقيقة مسلماً بها، وروح حسن الضيافة لدى التركي على نطاق شعبي أو فردي يضرب بها المثل. أما الآن وبعد أن هيمن البلغار فإن هدفهم، ويشاركهم بأسف قسم ليس بصغير من اليونانيين هو تدمير التركي المسلم بكل ما في الكلمة من معنى، وإخراجه من وطنه في أوروبة. . .

أما فيما يتعلق بأمور ذات صلة بالدين، فأستطيع أن أجزم بخبرة سنوات عديدة: أن حالات من هذا النوع كانت نادرة الحدوث في ظل النظام التركي المسلم، عُومل كَهَنة الدين المسيحي باحترام دائم، حتى إشارة ازدراء تافهة كإطلاق كلمة على الكنيسة فارغة تشعل جمهور الإقليم بكامله، وتصبح شأناً رسمياً، أما في ظل الحكم المسيحي الحالي، فلم يفلت مسجد واحد من التدمير.

فيما يتعلق بالدوائر الحكومية بإجماع دولي فإن الفساد والارتشاء التركيين في أسوأ حالاتهما هو النقاء بعينه مقارنة بنظيرهما الروسيين المحليين. . .»[1].

● قام المسيحيون الأرمن بثورة ضد الوجود المسلم استمرت من عام (١٨٧٨م ـ ١٩١٤م) محاكين تماماً ما صنعه البلغار من مجازر وتطهير عرقي ضد المسلمين وبمساعدة الروس.

---

(١) نقلاً عن: المصدر السابق (١٢٣ ـ ١٢٥).

يلخص «مكارثي» الكارثة فيقول: «بحلول عام (١٨٧٩م) من الواضح أن المشاعر القومية الأرمنية بدأت تتنامى. . . . أيد بطريرك القسطنطينية الأرمني «نارسس» «Nurses»، نفسه علناً انفصال «أرمينية» عن الإمبراطورية العثمانية، وجّه رسالة بذلك إلى الزعيم الأرمني «بسمارك»[1] وأخبر السفير البريطاني «لِيَرد» بمخططه فلما أخبره السفير بأن في أرمينية أكثرية سكانية ساحقة من المسلمين» ردّ عليه البطريرك بسخرية: «إن المسلمين سيكونون سعداء إذا حكمهم الأرمن.». . .

كان المخطط العام لخطّتهم هو محاكاة الانتفاضة البلغارية الناجحة، تحريض أرمن محليين على مهاجمة مسلمين، محرضين بذلك على قتل أرمن، ما سيؤدي إلى تدخل أوروبي لمصلحة قيام دولة أرمينية.

أخبر أحد الثوريين الأرمن الدكتور «هاملن» «Hamlin» وهو مؤسس الجامعة الأمريكية في تركيا بأن عصابات الأرمن سوف تنتظر الفرصة لقتل الأتراك والأكراد، وتشعل النار في قراهم، سوف يثور المسلمون الغاضبون بعدها، ويهاجمون الأرمن العزل إلى درجة أن روسيا سوف تتدخل باسم «الإنسانية والحضارة المسيحية»، حيث شجب المبشّر المذعور المخطط لأنه شنيع وشيطاني أكثر من أي شيء عرفه.

تلقى هذا الرد: «هكذا يبدو الأمر لك من غير ريب، لكننا قرّرنا نحن الأرمن أن نصبح أحراراً أصغت أوروبا إلى ما ارتكبه البلغار من أهوال، وجعلت البلغار أحراراً، وسوف تصغي أوروبا أيضاً إلى صيحتنا حين تدخل في صيحات ودماء ملايين النساء والأطفال. . . سوف نفعلها»[2].

وفعلوها، وارتكبت المجازر الرهيبة ضد المسلمين بما في ذلك النساء والأطفال وبمساعدة روسيا ومباركة البطريركية الأرمينية المسيحية الأرثوذكسية، وتحت سمع ونظر أوروبا والهدف «الحرية» على أشلاء ملايين البشر. هكذا الحرية في العقلية المسيحية الأوروبية.

وعلى نمط ما قام به المسيحيون الأسبان بتنصير من بقي من المسلمين بالأندلس بالقوة والإكراه، قام المسيحيون الأرثوذكس في بلغاريا وعموم البلقان بذلك بشكل أشد قسوة وإكراهاً.

---

(١) زعيم ثوري أرمني عُرف بارتكاب المجازر الشنيعة وجرائم الحرب.

(٢) المصدر السابق (١٣٨، ١٣٩).

• **تحت عنوان: «الردة القسرية إلى المسيحية»:**

يقول «مكارثي»: «نفّذ البلغار وغيرهم في أثناء حروب البلقان سياسة انتقائية بتحويل أولئك الذين قهروهم إلى الكنيسة الأرثوذكسية قهراً... كانت عملية الردة القسرية عند المسلمين أكثر صعوبة بكثير، تبرأ المسلم المرتد قسراً من أسلافه، ومن عاداته، ومن هويته العرقية، ومن أسرته، ومن دينه أيضاً، كان القبول بالمعمودية بالنسبة إلى المسلم المؤمن يعني القبول باللعنة الأبدية، لذلك كانت مسألة ردة المسلمين مسألة إكراه، كما فعل المسلمون في أسبانيا في القرن الخامس عشر، ذهب مسلمو البلقان إلى أبعد الحدود لتجنب إمكانية الردة القسرية، كان رد فعلهم الأوّلي هو الهروب، لكن المسلمين الذين علقوا خلف الخطوط البلغارية قد يجبرون على أن يختاروا الردة أو الموت»[1].

ويقدم لنا «مكارثي» مشهداً رهيباً: كيف تتم عملية التنصير للمسلمين قسراً، وتحويلهم إلى المسيحية:

يقول «مكارثي»: «فيما يلي مثال عن أساليب التحويل:

شُكلت لجنة خاصة في «برة شوة» و«ملاطية» برئاسة الحاكم البلغاري المساعد «تشاتوييف» وعضوية «جون إنغيليسوف» مدير المدارس البلغارية، والقسّ «تشاتوييف» شقيق الحاكم المساعد، ضمن أعضاء آخرين، جرى تأسيس هذه اللجنة لتحويل جميع أتراك ملاطية إلى المسيحية، وبأوامر من اللجنة جرى تسليح (٤٠٠) قروي من المنطقة بالبنادق والعصي: هاجم هؤلاء مسلمي القرى المجاورة، وقادوهم عنوة إلى الكنيسة في «وَرْوَة» حيث جرى تعميدهم جميعاً.

مثال آخر:

جرى صف المسلمين في مجموعات، أطلق على كل مجموعة اسم معمودي، ينتقل بعد ذلك قسّيس من مجموعة إلى أخرى فبينما كان ينثر الماء المقدس على جبهته بيد، كان يجبره بالثانية على أن يقضم نقانق من لحم الخنزير، كان الماء المقدس بمنزلة التعميد والنقانق بمنزلة التخلي عن العقيدة الإسلامية؛ لأن القرآن يحرم لحم الخنزير، كان يتم التحويل بإصدار شهادة مزخرفة بصورة تعميد المسيح... على المتنصرين أن يتخلوا عن طرابيشهم،

---

(١) المصدر السابق (١٧٣، ١٧٤).

وعلى المتنصرات أن يمشين في الشوارع من دون غطاء وجه»[١].

هكذا قامت أوروبا الحديثة. قتل وإبادة وتطهير عرقي ووحشية وإكراه على التحول إلى المسيحية، ثم يقولون: إنهم دعاة الحرية، وحقوق الإنسان، ويتهم أزلامهم وأبواقهم من المستغربين الإسلام العظيم، بأنه انتشر بالسيف وأكره الناس على اعتناقه بالقوة.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

ولأنها مسيحية زائفة ودين باطل. يعترف «مكارثي» بأنه: «لم يكن نجاح هذه التنصيرات القسرية على المدى الطويل كبيراً، لا تزال ذرية المسلمين الذين نجوا من أهوال عامي (١٩١٢ ـ ١٩١٣م) تشكل أقلية مسلمة في وطنها حتى اليوم»[٢].

يقول «مكارثي»: «إن الأدلة على التنصير القسري للمسلمين الذي مارسته أوروبا الحديثة موثّقة جداً ثم يحيل إلى مواضعها في الإرشيف البريطاني:

F.O 242 and F.O 424-113-5970
F.O 424-248-7327 F.O 424-6405-2508
[٣]F.O 421-351-8124 F.O 424-248-7327

وفي الأرشيف الأمريكي:

U.S. 867.001490, Rockill to secretaryof
State, Constan tinople 21 Februroary 1913.

- **تحت عنوان: «نهاية أرض المسلمين»:**

يقول «مكارثي»: «بعد أن وضعت الحروب أوزارها، كانت مجتمعات مسلمة في منطقة بحجم أوروبا الغربية كاملة قد قُلِّصت وأُبيدت، تقلصت مجتمعات البلقان التركية العظيمة إلى جزء من أعدادها السابقة، في القفقاس طُرد الجركس واللّاز والأبخاز والأتراك وآخرون من جماعات مسلمة صغيرة. تغيرت الأناضول، والمنطقة الوحيدة التي انتصر فيها الأتراك تغيراً كلياً، فغربي

(١) المصدر السابق (١٧٤، ١٧٥).
(٢) المصدر السابق (١٧٥).
(٣) المصدر السابق (٣٨٦).

الأناضول وشرقيها أقرب إلى الخراب، أُنجزت إحدى أكبر مآسي التاريخ»[١].

يضيف: «كانت مسألة الشرق جزءاً من التاريخ الدبلوماسي الأوروبي أجيالاً، فَصَّلت مجلدات عديدة بطريقة رزينة وواقعية علمياً: الحروب والمكائد الدبلوماسية التي أدت إلى تدمير الإمبراطورية العثمانية، مرفقة بمصورات تظهر الفقدان المتدرج للأراضي العثمانية، لم تذكر الخسائر في الأرواح التي صاحبت حل مسألة الشرق... ولكن بشأن الأتراك والمسلمين كانت تمثل خسارة فادحة في الأرواح البشرية نظراً إلى عدد الوفيات واللاجئين مقارنة بإجمالي عدد السكان»[٢].

وهذه هي أرقام الإبادة البشرية لملايين المسلمين.

يقول «مكارثي» في ألم بسبب هول الفاجعة: «ليست الإحصاءات مؤشرات على الخسارة المروّعة لكنها تستطيع أن ترسم فداحة المعاناة البشرية، تخدِّر أعداد القتلى المسرودة بالملايين مشاعر المرء. من الغريب أن التفكير في تفاصيل موت شخص واحد يؤثِّر فينا عاطفياً أكثر من معرفة أن ملايين لقوا حتفهم، لا بد من الاطلاع على الإحصائيات لتقدير مدى خسائر المسلمين.

إن الأعداد في الجدول (٣٠) هي تقديرات دنيا لوفيات المسلمين، لم يجر تسجيل أو حتى تقدير كثيرين من القتلى المسلمين. كان الاختيار دوماً على الأرقام الدنيا، ولو وقع الاختيار على التقديرات العليا لارتفعت الأرقام النهائية للوفيات إلى ملايين كثيرة. على سبيل المثال: كانت الخسائر في السكان المسلمين في الأناضول بين عامي (١٩١٤ ـ ١٩٢٢م) نحو ثلاثة ملايين في الحقيقة، ذكر منهم في الجدول (٢,٤) مليون فقط، وإذا ما أُدخلت التقديرات عن المجهولين في الحسابات لكانت النتيجة (٥,٥) مليون قتيل مسلم تقريباً، وطرد أكثر من خمسة ملايين لاجئ من بيوتهم، وكثير من هؤلاء أدرج بعد في عداد الأموات في النهاية»[٣].

(١) المصدر السابق (٣٢٧).
(٢) المصدر السابق (٣٢٨).
(٣) المصدر السابق (٣٣٣، ٣٣٤).

الجدول (٣٠)
وفيات وهجرة المسلمين

	الوفيات	اللاجئون
الثورة اليونانية	(٢٥,٠٠٠)	(١٠,٠٠٠) عدد الذين بدؤوا الرحلة
حروب القفقاس (١٨٢٧ ـ ١٨٢٩م)	غير معروفة	(٢٦,٠٠٠)
الترحيل القرمي	(٧٥,٠٠٠)	(٣٠٠,٠٠٠) عدد الذين بدؤوا الرحلة
الترحيل القفقاسي	(٤٠٠,٠٠٠)	(١,٢٠٠,٠٠٠) عدد الذين بدؤوا الرحلة
بلغاريا (١٨٧٧ ـ ١٨٧٨م)	(٢٦٠,٠٠٠)	(٥١٥,٠٠٠) عدد الذين بدؤوا الرحلة
الحروب الشرقية (١٨٧٧ ـ ١٨٧٨م)	غير معروفة	(٧٠,٠٠٠)
حروب البلقان	(١,٤٥٠,٠٠٠)	(٤١٠,٠٠٠) عدد الذين بدؤوا الرحلة
شرقي الأناضول (١٩١٤ ـ ١٩٢١م)	(١,١٩٠,٠٠٠)	(٩٠٠,٠٠٠) لاجئوا الداخل
القفقاس (١٩١٤ ـ ١٩٢١م)	(٤١٠,٠٠٠)	(٢٧٠,٠٠٠) عدد الذين بدؤوا الرحلة
غربي الأناضول (١٩١٤ ـ ١٩٢٣م)	(١,٢٥٠,٠٠٠) (١,٢٠٠,٠٠٠)	(٤٨٠,٠٠٠) عدد الذين بدؤوا الرحلة
المجموع	(٥,٠٦٠,٠٠٠)	(٥,٣٨١,٠٠٠)

ملاحظة: لم يدرج في هذا الجدول وفيّات العسكريين وبعض المدنيين[١].

(١) المصدر السابق (٣٣٤، ٣٣٥).

يسجل «مكارثي»: «حين تنجز التحليلات، وتدون أعداد القتلى واللاجئين، وتوزع الملامة لا يبقى إلا الأسى على جميع أولئك الذين ماتوا، ممثّلين مكرهين في مسرحية مأساوية، يجب على المرء أن يحاول أن يفهم موت أكثر من خمسة ملايين كائن بشري، وتدمير الحياة العادية لملايين الأفراد الآخرين، ملايين الروايات عن أهوال فردية. المهمة مستحيلة... لم يفهم المصير الحقيقي لهؤلاء المسلمين إلا أولئك المعاصرون الذين شاهدوا الميت، والذي يموت؛ كموظفي السكة الحديدية في بلغاريا العثمانية عام (١٨٧٨م) الذين عثروا على طفلة تركية حيَّة وسط الأجساد المجمّدة لأربعمائة لاجئ، لا بد أن بعضها كان لأسرتها، كان مصير هؤلاء المسلمين مصير أسرة الطفلة، طردوا من ديارهم ليموتوا، كان أيضاً مصير الطفلة الصغيرة التي أنقذها غرباء، تشكل ذرية هذه الطفلة، وذريات جميع الآخرين الذين نجوا أكثر مواطني الجمهورية التركية الحديثة»[١].

يسجل المبشر بالنصرانية القسيس «استيفان نيل» «Stephen Neill» في كتابه الذي أصدره عام (١٩٧١م) بلندن هذه الشهادة على الأخلاقية المسيحية. لكل ما حدث وما ربما سيحدث.

يقول: «حيث إنه قد قدرت الجحيم بخصوص هؤلاء «الكفار»[٢] فإن الصليبيين يعتقدون أن سحقهم أمر ضروري وخلقي أيضاً، وأما من يُسمح له بالحياة منهم، فإلى عبودية دائمة، بمعنى ما يقومون به من خدمات للمؤمنين[٣]، وحيث إن المسلمين ببساطة كفار، فليس لهم الحق في الوجود، فلا عهد معهم، وينبغي أن يذبحوا بلا رحمة أو شفقة تمجيداً لإله المسيحية»[٤].

والغزو لا يزال مستمراً بنفس أهدافه وطرائقه ووحشيته.

إن النظام العالمي الجديد رفعت فيه شعارات فقط «للحرية» وحقوق الإنسان بينما بقيت السمات الرئيسة للنظام العالمي الاستعماري القديم هي هي حتى الآن.

---

(١) المصدر السابق (٣٣٥، ٣٣٦).
(٢) يقصد المسلمين.
(٣) يعني: المسيحيين.
(٤) كتاب: تاريخ الإرساليات المسيحية (١١٣).

يقرر «نعوم تشومسكي» ذلك فيقول: «يطرح عام (١٩٩٢م) تحدياً أخلاقياً وثقافياً خطيراً على القطاعات صاحبة الامتياز في المجتمعات المسيطرة على العالم... بحلول الحادي عشر من تشرين الأول عام (١٩٩٢م) ينتهي العام (٥٠٠) من عمر النظام العالمي القديم، والذي يدعى أحياناً «الحقبة الكولومبية»[1] من تاريخ العالم أو حقبة «فاسكو دي غاما» تبعاً لأي من المغامرين النهابين الذين بدؤوها، أو «رايخ الـ ٥٠٠ عام» إذا ما أردنا استعارة عنوان الكتاب التذكاري الذي قارن طرائق النازية وأيديولوجيتها بمثيلاتها عند الغزاة الأوروبيين الذين أخضعوا أكثر العالم»[2].

---

(١) نسبة إلى كرستوفر كولمبس.

(٢) كتاب: سنة (٥٠١م)، الغزو مستمر (٩، ١٠).

الفصل الرابع

الحرية والمال بين الشرع الإلهي والتشريع البشري

كيف أنشأ الإسلام الأخلاق؟

يعاني العالم المعاصر بما فيهم العالم الإسلامي من أزمة حقيقية في القيم والأخلاق، ليست المشكلة في حقيقتها اقتصادية تدعو بعضهم إلى العدوان على بعض ومصادرة حريته ونهب أرضه وماله وإفقاده فرصة الحياة الكريمة.

وليست المشكلة بكثرة ما أنتجته البشرية من أسلحة الخراب والدمار الشامل، إن البشرية تقف اليوم على حافة خطر عظيم لا بسبب التهديد بالفناء المعلق على رأسها بما أنتجته من أسلحة دمار وفتك شاملة؛ فذلك عرض للمرض وليس هو المرض.

إن الكارثة الحقيقية هي في ذات الإنسان، في ذات البشرية، هي الإفلاس الكبير في القيم والأخلاق، في انعدام معنى الحياة سوى تحقيق الشهوة ودوافع النزوة التي تجعل الإنسان يتحول إلى كائن مفسد بكل معاني الإفساد.

الإنسان مخلوق غريب وعجيب ومجهول في نفس الوقت، في النفس الإنسانية التواءات وقبائح لو تركت دون علاج لحولت الإنسان إلى أشد الكائنات في الأرض فساداً وشراً.

● وهنا نقرر حقيقة عظيمة ومهمة كشف فيها القرآن العظيم أغوار النفس البشرية وأخلاقها الحقيقية، ليقدم لها العلاج النافع والدواء الناجع.

الإنسان من حيث هو إنسان؛ أي: بالنظر إلى جبلته البشرية المحضة هو إنسان هلوع جزوع منوع قطوع كنود مغرور ظلوم جهول نسي عجول، هو إنسان أناني فردي لا يحب إلا نفسه، ولا يرى إلا ذاته، ولا يسعى إلا لأغراضه وأهوائه. ليس لأطماعه حدود يقف عندها ويقنع بها.

فمخلوق بهذه الصفات القبيحة وبهذه النفسية العدوانية الأنانية؛ أي خير ينتظر منه؟!! وأي أنواع من الشرور والعدوان ستصدر عنه؟!

واسمع إلى كشف القرآن الكريم لحقيقة الإنسان. الذي هو بحكم خالقه وربه أحط أنواع الحيوان عندما يفقد منهج الإيمان ويتجرد من قيم الإسلام:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٢].

فوصفه خالقه في هذه الآيات الكريمات بثلاثة أوصاف قبيحة تدل على مدى أنانيته وفرديته وانعدام الخير منه: الهلع، والجزع، والمنع.

وقال تعالى في آية الأمانة: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فوصفه ربه تعالى بكثرة الظلم مجموعاً إلى كثرة الجهل.

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١].

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾ [العاديات: ٦].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الإسراء: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ﴾ [المؤمنون: ٧١].

يقول الراغب الأصبهاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «فقد كاد قولنا: «الإنسان» يصير لفظاً مطلقاً[1] على معنى غير موجود، واسماً لحيوان غير معهود؛ كعنقاء مغرب وغير ذلك من الأسماء التي لا معنى لها... ولم أعن بالإنسان كل حيوان منتصب القامة، عريض الظفر أملس البشرة ضاحك الوجه، ممن ينطقون لكن عن الهوى، ويتعلمون لكن ما يضرهم ولا ينفعهم، ويعلمون ولكن ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون»[2].

---

(١) يقصد الراغب: المطلق بشرط الإطلاق وهو وجوده في الأذهان لا في الأعيان.

(٢) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين (٥٠، ٥١).

وقد عبر الشاعر «البحتري» عن هذا بقوله:

لم يبق من جل هذا الناس باقية ينالها الفهم إلا هذه الصور[١]

والمتنبي يقول:

أَذُمُّ إلى هذا الزمان أُهَيْلَه فأعلمُهم فَدْمٌ وأحزمُهم وَغْدُ
وأكرمُهم كلبٌ وأبصرُهم عمٍ وأسْهَدُهم فَهْدٌ وَأشجعهم قردُ[٢]

فكيف سينجو الإنسان من هذه الأوضار وهذه القبائح؟

كيف سيخرج من قبضة هذه الجبلات الخطيرة في أصل تكوينه والتي ستجعل منه كائناً مفسداً لكل شيء؟

قديماً وحديثاً حاول المفكرون والفلاسفة والمصلحون الاجتماعيون، وخبراء الجريمة، حاولوا وضع دراسات وفلسفات ونظريات لدراسة هذه الكوامن في الإنسان وسبيل علاجها.

• ونظرياتهم تتراوح بين نظريات موغلة في التصورات الخيالية البعيدة تماماً عن الواقع البشري، وهذه النظريات ما هي إلا هروب عن واقع الإنسان وواقع الشر الذي أحدثه الإنسان في الأرض، وهي تمثل بشكل صريح اعترافاً من أصحاب هذه النظريات بالعجز التام عن إدراك عمق هذه المشكلة. والعجز التام بالتالي عن أي شيء لعلاجها.

ويمثل هذا الاتجاه نظريات الفيلسوف الإغريقي الشهير «أفلاطون» من خلال نظرياته الخيالية بتصور مجتمع مدني خالٍ من الشر تماماً في «آراء أهل المدينة الفاضلة».

• ومنهم من ظنوا أن الناس كلهم يُخلقون أخياراً بالطبع ثم بعد ذلك يصيرون أشراراً بالميل إلى الشهوات الرديئة، ويمثل هذا الاتجاه الرواقيون أتباع الفيلسوف اليوناني «زينون».

• وأما «جالينوس» فيرى أن من الناس من هو خيّر بالطبع وهم قليلون،

---

(١) ديوان البحتري (٢/ ١١٧).

(٢) ديوان المتنبي بشرح العكبري المسمى بالتبيان في شرح الديوان (٢/ ٣٧٤) من قصيدته التي أولها:

أقلُّ فعالي بَلْهَ أكثرهُ مجد وذا الجد فيه نلتُ أم لم أنل جَدُّ

وليس ينتقل إلى الشر، ومنهم من هو شرير بالطبع وهم كثيرون، وليس ينتقل هؤلاء إلى الخير، ومنهم من هو متوسط بين هذين الطرفين وهؤلاء يمكن أن ينتقلوا بالتأديب ومصاحبة الأخيار، وقد ينتقلون إلى الشر بمقاربة أهل الشر وإغوائهم.

- أما «أرسطو طاليس» الفيلسوف اليوناني الشهير فقد وافق على وجود طباع الشر في التكوين البشري.

وبين في «كتاب الأخلاق» أنه يمكن نقل الإنسان من جانب الشر إلى الخير بالتأديب، وأخذ الناس بالسياسات الجيدة الفاضلة.

ولكن ليس ذلك على الإطلاق، فمنهم من يقبل التأديب ويتحرك إلى الفضيلة بسرعة، ومنهم من يقبله ويتحرك إلى الفضيلة بإبطاء، ومنهم من لا يقبل ذلك أصلاً»[١].

- واتجهت دراسات أخرى قديمة وحديثة إلى محاولة معالجة السوء الذي في الإنسان بما هو أسوأ، من فتح المزيد من الحرية للإنسان لعله يقنع ويشبع بما هو متاح له فيمتنع من العدوان ويعالج الطمع. وهذا الذي تنادي به المناهج العلمانية والليبرالية على مختلف توجهاتها في كل العالم.

يقول فيلسوف الأخلاق الشهير أحمد بن محمد بن مسكويه: «وقد ظن قوم أن كمال الإنسان وغايته: هما في اللذات الحسية وأنها هي الخير المطلوب والسعادة القصوى، وظنوا أن جميع قواه إنما ركبت فيه من أجل هذه اللذات والتوصل إليها وأن النفس الشريفة التي سميناها «ناطقة» إنما وهبت له ليرتب بها الأفعال ويميزها ثم يوجهها نحو هذه اللذات لتكون الغاية الأخيرة هي حصولها على النهاية والغاية الجسمانية، وظنوا أيضاً أن قوى النفس الناطقة كالذكر والحفظ والروية كلها تراد لتلك الغاية، قالوا: وذلك أن الإنسان إذا تذكر اللذات التي كانت حصلت له بالمطاعم والمشارب والمناكح: اشتاق إليها وأحب معاودتها فقد صارت منفعة الذكر والحفظ: إنما هي اللذات وتحصيلها، ولأجل هذه الظنون التي وقعت لهم: جعلوا النفس المميزة الشريفة كالعبد المهين وكالأجير المستعمل في خدمة النفس الشهوانية لتخدمها في المآكل والمشارب

---

(١) انظر: كتاب: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، لأحمد بن محمد بن مسكويه (ص٤٢، ٤٣).

والمناكح وترتبها لها وتعدلها إعداداً كاملاً موافقاً، وهذا رأي جمهور العامة والرعاع وجهال الناس والسقاط»[١].

وأنت إذا نظرت إلى العالم اليوم تجد أن أكثر السياسات والنظريات توجه إلى هذا وتقود قوداً إليه.

قال «ابن مسكويه» راداً على هذا المسلك مبيناً خلَله وفساده: «إن الناس إذا فعلوا ذلك فإنهم يشاركون في هذه اللذات: الخنافس والديدان، وصغار الحشرات والهمج من الحيوان... وسيظهر عند ذلك أن من رضي لنفسه بتحصيل اللذات البدنية وجعلها غايته وأقصى سعادته: فقد رضي بأخس العبودية لأخس الموالي. لأنه يُصيّر نفسه الكريمة التي يناسب بها الملائكة: عبداً للنفس الدنيئة: التي يناسب بها الخنازير[٢]، والخنافس، والديدان، وخسائس الحيوانات: التي تشاركه في هذا الحال.... وهؤلاء هم الذين يفسدون الأحداث بإيهامهم أن الفضيلة: هي ما تدعوهم إليه طبيعة البدن من الملاذ، وأن تلك الفضائل الملكية: إما أن تكون باطلة ليست بشيء البتة وإما أن تكون غير ممكنة لأحد من الناس»[٣].

يعقد الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله مقارنة بين منهج القرآن في تأسيس الأخلاق ومنهج الفلسفة فيقول: «إن الفلسفة بالمعنى المألوف للكلمة هي عمل فكر منطقي، معتمد على مجرد ومضات الذهن الطبيعي، ينتقل فيه المفكر من حكم إلى آخر، بمنهج معين للتوصل إلى قرار نظام معين، قادر على تفسير الأشياء في عمومها، أو تفسير وضع معين لأحد هذه الأشياء، وبدهي أن هذا الجهد العقلي، وهذه الخطوة التدريجية لا يتناسبان مع ضوء وحي، يغمر النفس

---

(١) المصدر السابق (٥٢، ٥٣).

(٢) من كمال وجمال التشريع الإسلامي أن الله تعالى حرم أكل لحم الخنزير وسماه رجساً وحقّره. وكذلك نبيه محمد ﷺ حرّم شرب الخمر أشد التحريم وسماها: أم الخبائث والعجب أن العالم اليوم خصوصاً المسيحي الغربي طعامهم المفضل لحم الخنزير وشرابهم المفضل الخمر. فصار هناك تناسب بين نفوسهم الشهوانية البهيمية، وهذه المستقذرات الدنيئة. والحمد لله القائل: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾، والقائل في وصف النبي محمد ﷺ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾.

(٣) تهذيب الأخلاق، لابن مسكويه (٥٣، ٥٤).

دون بحث أو توقع، ويقدم لها على حين فجأة جملة من المعرفة، لا تسبق فيها المقدمات نتيجتها، ولا المقدم تاليه. فليس القرآن إذن عملاً فلسفياً، بمعنى أنه ليس ثمرة فلسفة، وهو لا يستخدم طرق الاكتساب الفلسفي، بالإضافة إلى أنه لا يتبع كذلك طرق التعليم التي يتبعها الفلاسفة، وهي طرائق المنهج العقلي، التي تقوم على: «التعريف، والتقسيم، والبرهنة، والاعتراضات، والإجابات»، وهي كلها أمور متلاحمة دون جدال، ولكنها لا تؤثر إلا على جانب واحد من النفس، وهو الجانب العقلي، على حين إن للقرآن منهجه الذي يتوجه إلى النفس بأكملها، فهو يقدم إليها غذاءً كاملاً، يستمد منه العقل والقلب كلاهما نصيباً متساوياً، وهكذا يفارق التعليم القرآني التعليم الفلسفي، سواء في المصادر أو في المناهج»[1].

إن العلاج لاستخراج واجتثاث هذه القبائح من النفس الإنسانية والطوية البشرية، وإحلال معاني أخلاقية كريمة محلها في التشريع الإسلامي يقوم على المحاور الآتية:

١ ـ إن خالق الإنسان ومبدعه جل وعلا هو الأعلم بأمراضه وخفايا نفسه الأمارة بالسوء والتواءات طبعه وقبح جبلته الطينية الهابطة.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمٰن: ١ ـ ٤]، وبناءً عليه فإن الرحمٰن خالق الإنسان هو وحده الأعلم بما يُصلح فساد هذا الإنسان وبما يقوم اعوجاجه وبما يعالج أمراضه ويستخرج ويستفرغ منه تلك الأدواء المهلكة المردية.

وقد منح جل وعلا العلاج وأنزل الدواء. فبعث الرسل مبشرين ومنذرين وأنزل الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾ [الأنبياء: ١٠].

قال الإمام سفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نزل القرآن بمكارم الأخلاق ألم تسمعه يقول: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾»[2].

---

(١) دستور الأخلاق في القرآن (١٤).

(٢) تفسير الطبري (٩/٨).

وقال بعضهم في تفسير قوله: ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾؛ أي: فيه شرفكم، وهو تفسير صحيح، فبمكارم الأخلاق يسمو الإنسان ويشرف ويكرم، والقرآن هو مصدرها وهو مؤسسها.

قال الإمام الطبري كَلَلهُ: «وقال آخرون: عنى بالذكر في هذا الموضع: الشرف...

وهذا القول الثاني أشبه بمعنى الكلمة وهو نحو مما قال سفيان الذي حكيناه عنه، وذلك أنه شرف لمن اتبعه وعمل بما فيه»[1].

وقال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون: ٧١].

قال الإمام الطبري كَلَلهُ: «ولو عمل الرب تعالى ذكره بما يهوى هؤلاء المشركون وأجرى التدبير على مشيئتهم وإرادتهم وترك الحق الذي هم له كارهون لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، وذلك أنهم لا يعرفون عواقب الأمور والصحيح من التدبير والفاسد، فلو كانت الأمور جارية على مشيئتهم وأهوائهم مع إيثار أكثرهم الباطل على الحق، لم تقر السموات والأرض ومن فيهن من خلق الله؛ لأن ذلك قام بالحق»[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية كَلَلهُ: «فالله تعالى أمرَ العبادَ بما ينفعُهم ونهاهم عما يَضرُّهم، كما قال قتادةُ: إن الله لم يأمر العبادَ بما أمرَهم به حاجة إليه، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بُخْلا به، ولكن أمرهم بما فيه صلاحُهم، ونهاهم عما فيه فسادُهم، ولهذا جاء القرآن بالأمر بالصلاح والنهي عن الفساد في غيرِ موضع. والصلاح كلُّه في طاعة الله، والفسادُ كلُّه في معصيةِ الله، فالصلاحُ والطاعة متلازمان، والمعصية والفساد متلازمان؛ كتلازُم الطيب والحِلّ، وكلُّ طيب حلال وكل حلالٍ طيّبٌ، وكل خبيثٍ حرام وكل حرام خبيثٌ. والمعروفُ ملازمٌ مع الطاعةِ والصلاحِ، والمنكرُ ملازم مع المعصية والفساد، ولكن بعض الناس قد تبيَّنَ له اتصافُ الفعلِ ببعض من الصفات قبلَ بعض، كما يَعلم كثيراً

(١) تفسير الطبري (٩/٨).

(٢) تفسير الطبري (٩/٢٣٣).

من العبادات ولا يعلم ما فيها من الصلاح، وكثيراً من المحرَمات ولا يعلم ما فيها من الفساد، وكذلك قد يَرى مصالحَ كثيرةً ولا يعلم أمرَ الشارع بها. والمؤمنُ يعلم أن الله يأمر بكل مصلحةٍ ويَنهى عن كل مفسدة، فإذا كان رأى في بعض الأفعال أنه مصلحة ولم يأمر الله به كان مخطئاً من أحد الوجهين: إما أن يكون في نفس الأمر مصلحة لما ترجح فيه من مفسدة لا يعلمها هو[١]؛ وإما أن يكون داخلاً فيما أمر الله به ولم يعلم. ولهذا تنازعَ العلماء في المصالح المرسلة التي لم يُعلَم أن الشارع اعتبرها ولا أهدرها[٢].

وهنا يظهر بجلاء التأصيل العظيم في إدخال النبي ﷺ الأخلاق، وإصلاح النفوس في جذر بعثته وهدف رسالته. وأصل نبوته، فقال عليه الصلاة والسلام: «**إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق**»[٣].

ولكن علاج النفس البشرية من أدوائها واستخراج القبائح منها، وإحلال السموّ والرحمة والعفة وصالح الأخلاق محلها، يتطلب عناصر ثلاثة:

أ ـ يتطلب الطبيب المعالج العالم العارف بالداء وخطره، والعالم العارف بالدواء الناجع وفضله. وكفى بالله العظيم العليم الحكيم طبيباً عالماً شافياً معافياً.

والطّب في لغة العرب بفتح الطاء وكسرها، هو الرفع والإزالة. فهو رفع ودفع للداء والمرض ليحل محله الشفاء والسلامة والعافية.

في سنن أبي داود: عَنْ أَبِي رِمْثَةَ السُّلَمِيِّ، قَالَ: دَخَلْتُ مَعَ أَبِي عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَرَأَى أَبِي الَّذِي بِظَهْرِهِ، فَقَالَ: دَعْنِي أُعَالِجُ الَّذِي بِظَهْرِكَ، فَإِنِّي طَبِيبٌ، فَقَالَ: «**إِنَّكَ رَفِيقٌ، وَاللهُ الطَّبِيبُ**»، قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، لِأَبِي: «**مَنْ ذَا مَعَكَ؟**»، فَقَالَ: ابْنِي أَشْهَدُ لَكَ بِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَمَا إِنَّكَ لَا تَجْنِي**

---

(١) كذا في المطبوع والعبارة فيها قلق وعدم وضوح، وأظن الصواب: إما أن يكون في نفس الأمر مفسدة ترجح على ما فيه من مصلحة لا يعلمها هو، والله أعلم.

(٢) شرح حديث أبي بكر (٥٩ ـ ٦١)، وجامع المسائل، لابن تيمية (٤/٤٥).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢/ ٣٨١)، والبخاري في الأدب المفرد ح(٢٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عَلَيْهِ، وَلَا يَجْنِي عَلَيْكَ»[١].

وقيل لأبي بكر الصديق ﷺ لما مرض: أندعو لك الطبيب؟ فقال: قد رآني الطبيب.

ب ـ ويتطلب العلاج النافع الناجع وهو متمثل في الوحي الكريم والتشريع الحنيف، الهدي المستقيم، ولذلك سماه الله روحاً لأن به حياة القلوب وصلاح النفوس.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٢ ـ ٥٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [النمل: ٧٦ ـ ٧٩].

جـ ـ ويتطلب كذلك الاستعداد النفسي من العباد لقبول العلاج والاستفادة منه والقبول له، وذلك من جهة التسليم الكامل له، والاستسلام التام لتشريعاته وأحكامه على حد قول الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

٢ ـ وهناك جانب آخر عظيم يتميز به التشريع الإسلامي الكريم. وهو توسيع مفهوم العبودية والعبادة لتشمل أنواع النشاط البشري كلها، وتكون الأخلاق الكريمة والخلق الحسن أحد أعظم معاني العبادة، فيبلغ العبد المسلم بحسن خلقه وأمانته وعفته درجة الصائم القائم؛ بل أعظم أجراً وأكرم منزلة.

ومنذ الأيام الأولى لبعثة رسول الله ﷺ. والأخلاق الكريمة والصفات

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤٢٠٧)، والحميدي في مسنده (٨٩٠) واللفظ له، وأحمد في مسنده (١٧٤٩٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٥٣٧).

النبيلة من الصّلة والعفة والأمانة والرحمة والإحسان إلى الخلق داخلة في أصل دعوته المباركة، بارزة في حقيقة رسالته الكريمة، لينتشل بها أهل الجاهلية من رديء الأقوال وسيّئ الأعمال، إلى سمو عالٍ من الأخلاق الكريمة.

ولا أدل على ذلك من شهادة أبي سفيان بن حرب وكان إذ ذاك من أشد خصوم النبي ﷺ.

وشهادته هذه أدلى بها بين يدي هرقل عظيم الروم.

فأخرج البخاري في الصحيح من حديث ابن عباس عن أبي سفيان ـ الطويل ـ في كتاب النبي ﷺ الذي كتب إلى هرقل يدعوه فيه إلى الإسلام. فجمع هرقل من كان بالشام من العرب من قريش وكان فيهم أبو سفيان وسأله عدة أسئلة. ومنها: قال هرقل لأبي سفيان: إلى ما يدعوكم هذا النبي؟ ﷺ، فكان جواب أبي سفيان يقول: اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق، والصّلة والعفاف والصدقة، وأداء الأمانة والوفاء بالعهد»[1].

وفي حديث أبي ذر الغفاري لما بلغه مبعث النبي ﷺ قال لأخيه: «**اركب إلى هذا الوادي فاسمع من قوله، فرجع فقال: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق**»[2].

فأصّل النبي ﷺ في دعوته قواعد العدل والإحسان والرحمة والمساواة وكل ما من شأنه نفع الخلق وإيصال الخير للغير ولو حتى للبهائم. حتى قال له قائل: وإن لنا في البهائم أجراً؟!! فقال عليه الصلاة والسلام: «**في كل كبد رطبة أجر**»[3].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل: ٩٠ ـ ٩١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ

---

(١) صحيح البخاري (٧، ٢٦٨١).

(٢) صحيح البخاري (٣٨٦١).

(٣) أخرجه البخاري (٢٣٦٣)، ومسلم (١٥٣).

أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: ٥٨].

قال الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود عن آية النحل السابقة: ما في القرآن آية أجمع لحلال وحرام وأمر ونهي وأمر بخير ونهي عن شر من هذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾[1].

ففي المنهج الإسلامي الكريم سعة عظيمة للرحمة وتأسيس كريم للعمل الكريم ودفع متواصل للإحسان إلى الخلق، وجعل ذلك كله مولد عظيم للحسنات، ومكفر كبير للسيئات، لتدخل الأخلاق والأعمال كلها في الجذر التعبدي في حسّ وتصور وسلوك المسلم، ويظهر ذلك بجلاء في هذين المعينين الكريمين.

المعين الأول:

أن العمل الشريف لكسب لقمة العيش الكريمة، لكف النفس وصون العيال، من أعظم أعمال البر في الإسلام. ومما يجني العبد المسلم به عفو الله وثوابه الجزيل.

والمعين الثاني:

أن الإحسان إلى الخلق حتى البهائم، بدافع الرحمة لها من أعظم منزلات رحمة الله على العبد الكريم الرحيم المحسن.

فمن المعين الأول: نجد أن النبي ﷺ يبين أن الرجل العامل الكادح العفيف الذي يعمل ليعف نفسه ويكف أهل بيته المؤنة: من أهل الجنة.

فعَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ»[2].

ومن أبواب الإمام البخاري في الصحيح: باب كسب الرجل وعمله بيده، وأخرج فيه حديث المِقْدَام بن معدي كرب رضي الله عنه، **عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَاماً قَطُّ خَيْراً مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ عليه السلام كَانَ**

---

(١) أخرجه عنه البخاري في الأدب المفرد ح(٤٨٩).

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح (٢٨٦٥)، وأحمد (٤/ ١٦٢)، وابن حبان بلفظ: «وَرَجُلٌ فَقِيرٌ عَفِيفٌ مُتَصَدِّقٌ» (٧٤٥٣).

يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»[١].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «وفي فوائد هشام بن عمار عن بقية: حدثني عمر بن سعد عن خالد بن معدان عن المقدام: «ما كسب الرجل أطيب من عمل يده، ومن بات كالّاً من عمله بات مغفوراً له»[٢].

وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ**[٣]**، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ»**[٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «ومن أحب أن يلحق بدرجة الأبرار، ويتشبَّه بالأخيار فلينو في كل يوم تطلع شمسه نفع الخلق، فيما يسره الله من مصالحهم على يديه، وليطع الله في أخذ ما حل، وترك ما حرم، وليتورع عن الشبهات ما استطاع؛ فإن طلب الحلال والنفقة على العيال باب عظيم لا يعدله شيء من أعمال البر. وقد روينا عن الصديقة عائشة رضي الله عنها مرفوعاً إلى النبي ﷺ: **«أحل ما أكل العبد من كسب يده، وإن ولده من كسبه»**.

وللبخاري: **«خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ عليه السلام القُرْآنُ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَوَابِّهِ فَتُسْرَجُ، فَيَقْرَأُ القُرْآنَ قَبْلَ أَنْ تُسْرَجَ دَوَابُّهُ، وَلَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»**[٥].

وقال ابن المبارك لأصحابه وهم في الغزو: «هل تعلمون عملاً أفضل من هذا؟ قالوا: لا نعلمه، قال: أنا أعلمه، رجل متعفف محترف أبو عيال، قام من الليل، فوجد صبيانه مكشوفين فغطاهم، وثار إلى صلاته»[٦].

ومن اجتنب البيوع الفاسدة، ونزه لسانه عن الحلف في البيع، ومن حفظ معاملته عن المخادعة في البيع وخلف الوعد فقد وفق لأمر عظيم، وأفضل ما يستعين به من له عناية بدينه: القناعة، وحسن الظن بالله، والثقة بما ضمن من

---

(١) صحيح البخاري (٢٠٧٢).

(٢) فتح الباري (٩/١٥٣، ١٥٤).

(٣) هي النخلة الصغيرة.

(٤) أخرجه أحمد في المسند (١٢٩٨١)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٩)، والضياء في المختارة وصححه (٢٧١٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩).

(٥) صحيح البخاري (٣٤١٧).

(٦) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٢/ ٣٢).

الرزق، وخوف الحساب، ومراقبة الجليل؛ فإنه قال وقوله الحق: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾[1].

ومن المعين الثاني نجد خيراً كثيراً، وباباً واسعاً من المعروف والرحمة والإحسان. فإلى شيء من هذا الرصيد النبوي الكريم:

• عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَرْبَعُونَ خَصْلَةً أَعْلَاهُنَّ مَنِيحَةُ العَنْزِ، مَا مِنْ عَامِلٍ يَعْمَلُ بِخَصْلَةٍ مِنْهَا رَجَاءَ ثَوَابِهَا، وَتَصْدِيقَ مَوْعُودِهَا، إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ بِهَا الجَنَّةَ**»[2].

قَالَ حَسَّانُ بن عطيةَ (راوي الحديث): فَعَدَدْنَا مَا دُونَ مَنِيحَةِ العَنْزِ، مِنْ رَدِّ السَّلَامِ، وَتَشْمِيتِ العَاطِسِ، وَإِمَاطَةِ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَنَحْوِهِ فَمَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نَبْلُغَ خَمْسَ عَشْرَةَ خَصْلَةً.

هذا حديث عظيم القدر، جليل المحل، فاضل الخير، يؤسس للمعروف والإحسان قواعده ويفتح أبوابه.

فهذه الخصال الأربعون: أعلاها من جهة البذل والعطاء منيحة العنز، والمراد الحلبة الواحدة للماعز تمنح لمن يحتاجها، فما بالك بأدناها؟

فهي إذن خصال يسيرة، سهلة البذل، ولكن يجمعها قاسم مشترك واحد: هو أنها جميعها للنفع المتعدي للغير. كالأمثلة التي ذكرها حسان بن عطية راوي الحديث: فكلها خير يبذل، ومعروف يصنع. كل واحدة منها كفيلة أن تكون سبباً عظيماً لدخول الجنة، والفوز برضوان الرحمٰن تعالى.

• عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ العَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْراً، فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي، فَمَلَأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، ثُمَّ رَقِيَ، فَسَقَى الكَلْبَ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي البَهَائِمِ أَجْراً؟ قَالَ: «**فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ**»[3].

---

(١) شرح حديث جبريل (٦٠٩، ٦١٠).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٣١).

(٣) أخرجه البخاري (٢٣٦٣).

وقد بوّب الإمام البخاري على هذا الحديث: باب رحمة الناس والبهائم.

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «أي: صدور الرحمة من الشخص لغيره، وكأنه أشار إلى حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «**لن تؤمنوا حتى تَرْحَموا**»، قالوا: كلنا رحيم يا رسول الله، قال: «**إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه ولكنها رحمة للناس، رحمة للعامة**»[1].

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله أيضاً: «وفي الحديث الحث على الإحسان إلى الناس؛ لأنه إذا حصلت المغفرة بسبب سقي الكلب، فسقي الآدمي أعظم أجراً»[2].

فهذا الإنسان لمّا دخل قلبه رحمة لهذه البهيمة ولو كانت غير محترمة؛ بل ربما مستقذرة عند أكثر الناس. فسقى هذا الكلب وأحسن إليه. بذلك عامله الله تعالى بجزاء من جنس عمله فشكر له فعله. وشملته مغفرته وغطته رحمته تعالى.

وحتى تبقى الصورة مستقرة والرحمة والإحسان إلى الخلق هو الذي يجب أن يكون. فعكس ذلك من القسوة وعدم الإحسان، تسبب غضب الله ومقته وعذابه.

فمن جميل ترتيب الإمام البخاري رحمه الله. أخرج الحديث السابق. في فضل رحمة الخلق والإحسان إليهم حتى ولو كان كلباً، ثم أخرج بعده مباشرة حديثاً آخر في أن امرأة غضب الله عليها، ودخلت النار لأنها قست على هرّة. فحبستها لا أطعمتها ولا سقتها حتى ماتت.

وهو حديث أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنهما قالت: صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ صَلَاةَ الكُسُوفِ، فقال: «**دَنَتْ مِنِّي النَّارُ حَتَّى قُلْتُ: أَيْ رَبِّ، وَأَنَا مَعَهُمْ؟ فَإِذَا امْرَأَةٌ ـ حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ ـ تَخْدِشُهَا هِرَّةٌ، قُلْتُ: مَا شَأْنُ هَذِهِ؟ قَالُوا: حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعاً**»[3].

وحديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي**

---

(١) فتح الباري (٢٢/٢١).
(٢) فتح الباري (١٠/١١٣).
(٣) البخاري (٢٣٦٤).

هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعاً، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ» قَالَ: فَقَالَ: وَاللهُ أَعْلَمُ: «لَا أَنْتِ أَطْعَمْتِيهَا وَلَا سَقَيْتِهَا حِينَ حَبَسْتِيهَا، وَلَا أَنْتِ أَرْسَلْتِهَا، فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ»(١).

• بوّب الإمام البخاري فقال: باب الساعي على الأرملة والساعي على المسكين، ثم أخرج حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالمِسْكِينِ؛ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ» وَأَحْسِبُهُ قَالَ: «كَالقَائِمِ لَا يَفْتُرُ، وَكَالصَّائِمِ لَا يُفْطِرُ»(٢).

فانظر إلى هذا الحديث ما أجله، وأعظم وقعه. وكيف يؤسس للعدل الاجتماعي والتكافل والرحمة للخلق، والقيام بشؤون الضعفاء. فيرفعها ليجعلها في مقام أجل وأعظم العبادات وأشقها.

والأحاديث النبوية والتوجيهات الكريمة من رسول الله ﷺ في هذا الباب كثيرة وعظيمة، وإنما أردنا ذكر نماذج منها تنبيهاً إلى أن هذا الجانب العظيم قد أخذ حقه وقدره اللائق به في التشريع الإسلامي الكريم.

٣ ـ وهنا نقف أمام هذه الحقيقة التاريخية والواقعية والعظيمة، تحدث لأول مرة في التاريخ البشري.

حوّل الرسول الأعظم الأكرم محمد ﷺ بمنهج القرآن وتشريع رب العالمين المجتمع العربي في ذاك الوقت وهو مجتمع جاهلي بائس مرتكس إلى ذلك الأفق السامق من التلاحم والتراحم والإيثار وجميل الأخلاق وبديع الصفات.

كان العرب قبل بعثة النبي ﷺ من أكثر شعوب الأرض جهلاً وتخلفاً وقسوة وبؤساً، يعبدون الأصنام ويئدون البنات ويأكلون الميتة ويتدابرون ويتقاتلون على الشاة والبعير. والفتيل والقطمير. تسيطر على عقولهم الخرافات وتسيرهم الثارات والنعرات.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ: «باب جهل العرب، ثم أخرج حديث ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ، قَالَ: «إِذَا سَرَّكَ أَنْ تَعْلَمَ جَهْلَ العَرَبِ، فَاقْرَأْ مَا فَوْقَ الثَّلَاثِينَ وَمِائَةٍ

---

(١) البخاري (٢٣٦٥).
(٢) البخاري (٦٠٠٧).

فِي سُورَةِ الأَنْعَامِ، ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠]»[1].

لقد حول النبي ﷺ هؤلاء إلى أعظم مجتمع في تاريخ البشرية كله رحمة وعلماً وعفواً وبراً وإيثاراً وحلماً وخيراً.

هذا المجتمع الذي وصفه الله تعالى وصفاً جميلاً يدل على مدى الأخلاقيات الكريمة والنبل العظيم الذي وصل إليه. فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩].

هذا هو المجتمع الإسلامي الفريد، ضرب في أرض الواقع أروع الأمثال. في عمل الخير والإيثار وصناعة المعروف، بلا تكلف، ولا تحرج؛ بل بكل سخاوة نفس وطيب خاطر. انتظاراً لفضل الله وثوابه، وأجره ورحمته، وإليك بعض الأمثلة من واقعهم الجميل الذي لم تعرف الدنيا له مثيلاً.

وصدقت فيهم شهادة الله تعالى لهم بذكرهم بتلك الخصائص والصفات في الكتب الأولى قبل وجودهم.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ۝٢٩﴾ [الفتح: ٢٩].

• عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ الْمُهَاجِرُونَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قَوْمٍ قَدِمْنَا عَلَيْهِمْ أَحْسَنَ مُوَاسَاةً فِي قَلِيلٍ، وَلَا أَحْسَنَ بَذْلاً فِي كَثِيرٍ، لَقَدْ كَفَوْنَا الْمَئُونَةَ، وَأَشْرَكُونَا فِي الْمَهْنَإِ، حَتَّى لَقَدْ حَسِبْنَا أَنْ يَذْهَبُوا بِالأَجْرِ كُلِّهِ قَالَ: «**لَا، مَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ، وَدَعَوْتُمُ اللهَ لَهُمْ**»[2].

---

(١) صحيح البخاري (٣٥٢٤).

(٢) مسند الإمام أحمد (٢٠/ ١٣٠٧٥)، والترمذي في السنن (٢٤٨٧)، وقال: حسن صحيح غريب.

وقد ضرب الأنصار في ذلك نموذجاً رائعاً وذلك في غزوة بني النضير عندما قالوا لرسول الله ﷺ في أموال بني النضير: اقْسِمْ هَذِهِ فِيهِمْ وَاقْسِمْ لَهُمْ مِنْ أَمْوَالِنَا مَا شِئْتَ فَنَزَلَتْ ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصديق ﷺ: جَزَاكُمُ اللهُ يَا مَعْشَرَ الأنصار خيراً، فو الله مَا مِثْلُنَا وَمِثْلُكُمْ إلا كَمَا قَالَ الْغَنَوِيُّ:

جَزَى اللَّهُ عَنَّا جَعْفَراً حِينَ أُزْلِقَتْ ... بِنَا نَعْلُنَا فِي الْوَطْأَتَيْنِ فَزَلَّتْ
أَبَوْا أَنْ يَمَلُّونَا وَلَوْ أَنَّ أُمَّنَا ... تُلاقِي الَّذِي يَلْقَوْنَ مِنَّا لَمَلَّتْ[1]

• عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَصَابَنِي الجَهْدُ، فَأَرْسَلَ إِلَى نِسَائِهِ فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُنَّ شَيْئاً، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَا رَجُلٌ يُضَيِّفُهُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، يَرْحَمُهُ اللهُ؟» فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: ضَيْفُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَا تَدَّخِرِيهِ شَيْئاً، قَالَتْ: وَاللهِ مَا عِنْدِي إِلَّا قُوتُ الصِّبْيَةِ، قَالَ: فَإِذَا أَرَادَ الصِّبْيَةُ العَشَاءَ فَنَوِّمِيهِمْ، وَتَعَالَيْ فَأَطْفِئِي السِّرَاجَ وَنَطْوِي بُطُونَنَا اللَّيْلَةَ، فَفَعَلَتْ، ثُمَّ غَدَا الرَّجُلُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «لَقَدْ عَجِبَ اللهُ ﷻ ـ أَوْ ضَحِكَ ـ مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانَةَ» فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩][2].

هذه لوحة مضيئة على مرّ السنين. تضيء في مثل هذا العالم المادي الذي غابت فيه كثير من هذه المعاني السامية العالية حتى بين المسلمين.

---

(١) أخرجه البلاذري في فتوح البلدان (١/ ٣٠)، وانظر أيضاً: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (٤/ ٣٢٥).

(٢) رواه البخاري (٣٧٩٧).

الأمل المحمود والأمل المذموم

١ ـ لقد اهتم المنهج الإسلامي العظيم باستصلاح نفوس البشر وتهذيبها الذي هو المقدمة الطبيعية لاستصلاح أعمالهم وأخلاقهم وتقويمها الذي ينتج عنه حسن عمارتهم للحياة.

قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٥ ـ ٥٦].

في هذه الآية الكريمة المزاوجة البديعة بين حسن العبادة والدعاء، وعدم الإفساد في الأرض.

ولأهل التفسير في معنى قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾ اتجاهات:

الأول: أن الله أصلح الأرض؛ أي: أهل الأرض ببعثة الأنبياء والمرسلين وشرع الشرائع المحكمة وأنزل الكتب. فنهى الله بعد ذلك عن الإفساد في الأرض بهجر شرائع المرسلين ﷺ، والإعراض عن سنن النبيين ﷺ.

قال الإمام التابعي أبو صالح وهو ذكوان السمان: «بعدما أصلحها الأنبياء وأصحابهم»[1].

وقال الإمام أبو بكر بن عياش: «أصلحهم الله بمحمد ﷺ، فمن دعا إلى

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨٦٠٠)، وانظر: الدر المنثور للسيوطي (٣/ ٤٧٦، ٤٧٧).

خلاف ما جاء به محمد ﷺ فهو من المفسدين في الأرض»[١].

والاتجاه الثاني: أن الآية نهي عن عموم الفساد والإفساد في الأرض أياً كان. سواء أكان إفساداً للدين أو للأخلاق أو للنبات أو للمياه أو لأي شيء ينتج منه ضرر وفساد على الناس.

وهذا معنى صحيح. فقد هيأ الله تعالى الأرض بما فيها صالحة لمعاش العباد وخيرهم وأرزاقهم، ولأنه تعالى يعلم أن إفساد ذلك كله لا يكون إلا بفعل من الإنسان نفسه عندما تفسد أخلاقه وأعماله، بعث الأنبياء والرسل وأنزل الكتب وشرع الشرائع لتخرج الإنسان الصالح في نفسه المصلح لكل فساد.

وهذا يسوق إلى مسألة الحفاظ على المال العام والممتلكات العامة من العبث والاختلاس والسرقة والإفساد.

قال الإمام القرطبي ﷺ: «إِنَّهُ سُبْحَانَهُ نَهَى عَنْ كُلِّ فَسَادٍ قَلَّ أَوْ كَثُرَ بَعْدَ صَلَاحٍ قَلَّ أَوْ كَثُرَ. فَهُوَ عَلَى الْعُمُومِ عَلَى الصَّحِيحِ من الأقوال. وقال الضحاك: معناه لا تغوروا الْمَاءَ الْمَعِينَ، وَلَا تَقْطَعُوا الشَّجَرَ الْمُثْمِرَ ضِرَاراً. وَقَدْ وَرَدَ: قَطْعُ الدَّنَانِيرِ مِنَ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ. وَقَدْ قِيلَ: تِجَارَةُ الْحُكَّامِ مِنَ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ. وَقَالَ الْقُشَيْرِيُّ: الْمُرَادُ وَلَا تُشْرِكُوا، فَهُوَ نَهْيٌ عَنِ الشِّرْكِ وَسَفْكِ الدِّمَاءِ وَالْهَرْجِ فِي الْأَرْضِ، وَأَمْرٌ بِلُزُومِ الشَّرَائِعِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا، بَعْدَ أَنْ أَصْلَحَهَا اللهُ بِبَعْثِهِ الرُّسُلَ، وَتَقْرِيرِ الشَّرَائِعِ وَوُضُوحِ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ. قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَقَائِلُ هَذِهِ الْمَقَالَةِ قَصَدَ إِلَى أَكْبَرِ فَسَادٍ بَعْدَ أَعْظَمِ صَلَاحٍ فَخَصَّهُ بِالذِّكْرِ»[٢].

وقال الحافظ ابن كثير ﷺ: «يَنْهَى تَعَالَى عَنِ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَمَا أَضَرَّهُ بَعْدَ الْإِصْلَاحِ! فَإِنَّهُ إِذَا كَانَتِ الْأُمُورُ مَاشِيَةً عَلَى السَّدَادِ، ثُمَّ وَقَعَ الْإِفْسَادُ بَعْدَ ذَلِكَ، كَانَ أَضَرَّ مَا يَكُونُ عَلَى الْعِبَادِ. فَنَهَى اللهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ»[٣].

٢ ـ الإنسان كائن متحرك بالإرادة فلا بد له من إرادات واهتمامات ورغبات تتعلق بها نفسه، وتطمح إلى نيلها والظفر بها.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨٦٠١)، وانظر: الدر المنثور للسيوطي (٣/ ٤٧٦، ٤٧٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٤٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٦).

ثم لا بد له من كدّ وحرث وعمل ليحقق رغبته وليصل إلى ما يتمناه. وأجمل وصف للإنسان في هذا الجانب هو وصف خالقه العظيم جل وعلا.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ [البلد: ٤].

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا أعلم أحداً من خلق الله يكابد من الأمر مَا يكابده هذا الْإِنْسَان»[١].

وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللهِ عَبْدُ اللهِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ، وَهَمَّامٌ**»[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَإِنَّ الْإِنْسَانَ حَيٌّ حَسَّاسٌ مُتَحَرِّكٌ بِالْإِرَادَةِ. وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَصْدَقُ الْأَسْمَاءِ الْحَارِثُ وَهَمَّامٌ**» فَالْحَارِثُ الْكَاسِبُ الْعَامِلُ، وَالْهَمَّامُ الْكَثِيرُ الْهَمِّ، وَالْهَمُّ مَبْدَأُ الْإِرَادَةِ وَالْقَصْدِ، فَكُلُّ إِنْسَانٍ حَارِثٌ هَمَّامٌ، وَهُوَ الْمُتَحَرِّكُ بِالْإِرَادَةِ وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ الْحِسِّ وَالشُّعُورِ، فَإِنَّ الْإِرَادَةَ مَسْبُوقَةٌ بِالشُّعُورِ بِالْمُرَادِ، فَلَا يُتَصَوَّرُ إِرَادَةٌ وَلَا حُبٌّ وَلَا شَوْقٌ وَلَا اخْتِيَارٌ وَلَا طَلَبٌ إِلَّا بَعْدَ الشُّعُورِ، وَمَا هُوَ مِنْ جِنْسِهِ؛ كَالْحِسِّ وَالْعِلْمِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالشَّمِّ وَالذَّوْقِ وَاللَّمْسِ وَنَحْوِ هَذِهِ الْأُمُورِ. فَهَذَا الْإِدْرَاكُ وَالشُّعُورُ هُوَ مُقَدِّمَةُ الْإِرَادَةِ وَالْحُبِّ وَالطَّلَبِ»[٣].

٣ ـ وإن أعظم ما يدمر الإنسان ويحوله إلى معطّل بطال، أو شرير عدواني أو منحرف شاذ: هو الإحباط واليأس والقنوط.

فهذا هو الداء العضال الذي يدمر الحياة ويجعل الضياء ظلاماً، والخير شراً، وهو الذي يخرج أفواجاً من العاطلين اليائسين الذين يتحولون إلى مجرمين محترفين أو مرضى نفسانيين.

لذلك كان زرع الأمل والطموح والنظر المستمر إلى الأمام، وعدم الاستسلام للحوادث هو أحد سمات المنهج الإسلامي العظيم.

---

(١) تفسير السمعاني (٦/ ٢٢٦)، وانظر: الدر المنثور (٨/ ٥٢٠).

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤/ ٣٩٤)، وأحمد في المسند (٤/ ٣٤٥) من حديث أبي وهب الجشمي رضي الله عنه.

(٣) منهاج السنة (٣/ ٦٣، ٦٤).

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

ثم قال بعد أن فتح باب الأمل والرجاء على مصراعيه: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزمر: ٥٤ ـ ٥٥].

فانظر كيف فتح باب الرجاء والأمل كله. ثم طالبهم بعد بالعمل والإنابة والإسلام والاتباع. لعلمه تعالى بما يبعثه الأمل والرجاء من نشاط في النفس البشرية. وطموح ورغبة أكيدة في العمل والتوبة والإنابة وتصحيح ما فات مهما كان.

قال الإمام ابن جرير الطبري كَثَلَلهُ: «اختلف أهل التأويل في الذين عُنُوا بهذه الآية، فقال بعضهم: عني بها قوم من أهل الشرك، قالوا لما دعوا إلى الإيمان بالله: كيف نؤمن وقد أشركنا وزنينا، وقتلنا النفس التي حرّم الله، والله يعد فاعل ذلك النار، فما ينفعنا مع ما قد سلف منا الإيمان، فنزلت هذه الآية»[1].

ثم روى ذلك مسنداً عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وروى عن قتادة قال: «ذكر لنا أن أناساً أصابوا ذنوباً عظاماً في الجاهلية، فلما جاء الإسلام أشفقوا أن لا يتاب عليهم، فدعاهم الله بهذه الآية»[2].

وروى البخاري بسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَنَّ نَاساً، مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ كَانُوا قَدْ قَتَلُوا وَأَكْثَرُوا، وَزَنَوْا وَأَكْثَرُوا، فَأَتَوْا مُحَمَّداً ﷺ فَقَالُوا: إِنَّ الَّذِي تَقُولُ وَتَدْعُو إِلَيْهِ لَحَسَنٌ، لَوْ تُخْبِرُنَا أَنَّ لِمَا عَمِلْنَا كَفَّارَةً فَنَزَلَت هذه الآية»[3].

ولكن ها هنا مفترق طريق. لأن الأمل يتفرع إلى نوعين اثنين:

الأمل المحمود، والأمل المذموم.

- أما المحمود: فهو الذي يفتح للإنسان باب الرجاء والخير. ويقنعه بأنه

(١) تفسير الطبري (١١/ ١٤).
(٢) المصدر السابق (١١/ ١٥).
(٣) حديث رقم (٤٨١٠).

بإمكانه استدراك ما فات مهما كان، وتصحيح ما حصل من خلل مهما عظم.

هذا الأمل هو الحياة. وهو الذي يفجر مكامن الخير، وفعل الإحسان، والإنتاج الصالح النافع في الإنسان، ولو لم يبق من حياته إلا نزر قليل فإنه يستطيع أن يصحح فيه ما سلف في العمر الطويل.

أعَلِّلُ النفسَ بالآمال أرقبها ... مَا أضيَقَ العَيْشَ لوْلا فُسْحَةُ الأمل(١)

إنه لا أنفع للنفس الإنسانية لانتشالها من أوحال الجريمة، وظلمات الشر المتراكمة، إلا فتح باب الأمل والرجاء والخير لها، ولو بقي من حياتها لحظة. وهذا ما تميز به المنهج الإسلامي العظيم.

وما أجمل ما قاله الحبر ابن عباس ﷺ: قد دَعَا الله إلَى مغفرته من زعم أن الْمَسِيح هُوَ الله، وَمن زعم أن الْمَسِيح ابْن الله، وَمن زعم أن عُزَيْراً ابْن الله، وَمن زعم أن الله فَقير، وَمن زعم أن يَد الله مغلولة، وَمن زعم أن الله ثَالِث ثَلَاثَة، يَقُول الله تَعَالَى لهَؤُلَاء: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الْمَائِدَة ٧٤] ثمَّ دَعَا إِلَى تَوْبَته من هُوَ أعظم قولاً وأشد كفراً من هَؤُلَاءِ من قَالَ: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] وَقَالَ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [الْقَصَص: ٣٨] قَالَ ابْن عَبَّاس ﷺ: من آيس الْعباد من التَّوْبَة بعد هَذَا فقد جحد كتاب الله وَلَكِن لَا يقدر العَبْد أن يَتُوب حَتَّى يَتُوب الله عَلَيْهِ»(٢).

واسمع إلى هذه القصة المعبرة. والموعظة المؤثرة:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْساً، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَم أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْساً، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ، فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَم أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟**

---

(١) البيت لمؤيد الدين الطغرائي، وهو من البحر البسيط. انظر: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص (٢/ ١٤٢)، وجواهر الأدب (٢/ ٤٤١)، وهو من اللّامية المشهورة بلامية العجم وأولها:

أصالة الرأي صانتني عن الخطلِ ... وحلية الفضل زانتني لدى العطلِ

(٢) أخرجه الطبري في التفسير (٢١/ ٣٠٦)، وانظر: الدر المنثور للسيوطي (٧/ ٢٣٨).

انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بِهَا أُنَاساً يَعْبُدُونَ اللهَ فَاعْبُدِ اللهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ، فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِباً مُقْبِلاً بِقَلْبِهِ إِلَى اللهِ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْراً قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ، فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ»، وفي رواية: «فَغُفِرَ لَهُ»[(١)].

هذا حديث عجيب، ولا يوجد في فتح باب الأمل والرجاء والخير مثله ولو في آخر لحظة، ثم إن النبي ﷺ لم يذكر لنا هذا الخبر عما كان قبلنا لنجعله سمراً، ولا لنتخذ آيات الله وعِبَره وسعة رحمته هزواً.

فمن ثَمَّ نأخذ من هذا الحديث هذه الفوائد الثمينة:

أن نوازع الخير تبقى أصولها في النفس البشرية تنبض بشيء من الحياة، مهما ران عليها من ظلمات الجريمة، وأوضار الآثام فانظر إلى هذا الرجل الذي:

أ ـ ارتكب هذه الجرائم العظيمة كلها، فقتل تسعاً وتسعين نفساً عدواناً وظلماً، ومع ذلك بقيت أصول الندم والرغبة في التصحيح والاستدراك تنازعه، وتحركه، فصار يسأل عمن يفتح له باب الأمل لعله يحيى من جديد.

ب ـ انظر كيف أن قتل بارقة الأمل والرجاء في النفس الإنسانية يحول الإنسان إلى مجرم محترف، فلما سأل الراهب الأول فأفتاه بأن لا توبة له أغلق في وجهه باب المراجعة والتصحيح وأراد أن يطفئ بفتواه الخاطئة بارقة الأمل، فنتج من ذلك أن قتله هو الآخر وأكمل به سجل جرائمه العظيمة، وإنه وإن كان قتل تسعاً وتسعين نفساً قُبل بدافع من الجريمة والعدوان ونحوها فإنه قتل هذا بدافع الحقد والكراهية والضغينة.

قال الحافظ ابن حجر: «وإنه إنما قتله بناء على العمل بفتواه؛ لأن ذلك اقتضى عنده أن لا نجاة له فيئس من الرحمة فقتله»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦).

(٢) فتح الباري (١٣/ ٢٨٠).

جـ ـ قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وفيه فضل العالم على العابد لأن الذي أفتاه أولاً بأن لا توبة له غلبت عليه العبادة فاستعظم وقوع ما وقع من ذلك القاتل من اجترائه على قتل هذا العدد الكثير، وأما الثاني فغلب عليه العلم فأفتاه بالصواب ودله على طريق النجاة، قال عياض: وفيه أن التوبة تنفع من القتل كما تنفع من سائر الذنوب»(١).

• أما الأمل المذموم: فهو نوع من الأماني الفارغة والرغبات الجانحة والخيالات غير الواقعة، وتمني ما لا يكون، وانتظار ما لا يحصل، فإن هذا يحول الإنسان إلى أناني فردي خيالي.

ولهذا ذم القرآن الكريم هذا النوع من الأمل وسماه غروراً.

قال الله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [الحجر: ٢، ٣].

افتتح الله تعالى سورة الحجر بهذا الخطاب بعد مطلع السورة: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١﴾ [الحجر: ١].

فأخبر تعالى أن الأمل المذموم الذي هو سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، فسوف يعلمون حين يرون العذاب يوم القيامة أنهم كانوا في غرور وخداع لأنفسهم، فيتمنون لو أنهم كانوا في الدنيا مسلمين مؤمنين لا لاهين مغرورين. لينجوا من عذاب الله الأليم. ولات حين مناص ولا ندم.

ولعظيم أهمية التنبيه إلى عدم الانخداع بالأمل المذموم الذي هو أماني لا طائل منها. ولا محصل لها. نبه عليه النبي ﷺ بالرسم التوضيحي ليكرس التنبيه في نفوس المتلقين لخطابه المبارك مستثيراً كل أجهزة الاستقبال والفهم لديهم من أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم لعلهم يتنبهون ويتذكرون.

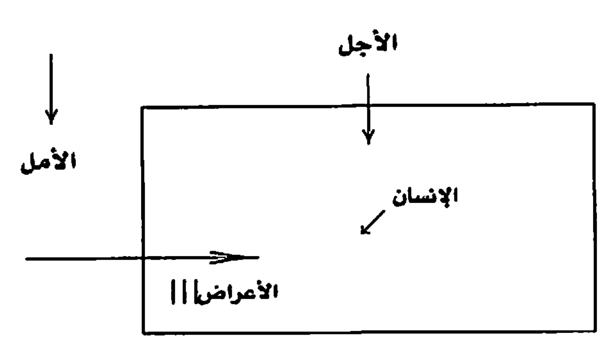
قال الإمام البخاري رحمه الله: باب في الأمل وطوله.

وأخرج حديث ابن مسعود رضي الله عنه قَالَ: خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خَطّاً مُرَبَّعاً، وَخَطَّ خَطّاً فِي الوَسَطِ خَارِجاً مِنْهُ، وَخَطَّ خُطَطاً صِغَاراً إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الوَسَطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الوَسَطِ، وَقَالَ: «**هَذَا الإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ ـ أَوْ: قَدْ**

(١) فتح الباري (١٣/ ٢٨٠).

أَحَاطَ بِهِ ـ وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ، وَهَذِهِ الخُطَطُ الصِّغَارُ الأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا»[١].

ما رسمه النبي ﷺ هكذا



فالإنسان نقطة ضئيلة يحيط به أقدار الله تعالى من كل ناحية، وأجله المحتوم ونهايته المؤكدة تنتظره عند نقطة معينة حددها خالقه تعالى. لا يزاد فيها ولا ينقص منها، ولكن آماله الواسعة وأمانيه الفارغة تجاوزت كل هذه الحدود. فانقلبت إلى نوع من الأماني الخيالية التي يلطمها ويصدمها واقع حقيقي وقضاء تقديري من رب العالمين.

يقول النبي ﷺ: «لَا يَزَالُ قَلْبُ الكَبِيرِ شَاباً فِي اثْنَتَيْنِ: فِي حُبِّ الدُّنْيَا وَطُولِ الأَمَلِ»[٢].

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ: «هذا الحديث فيه من المطابقة وبديع الكلام الغاية وذلك أن الشيخ من شأنه أن تكون آماله وحرصه على الدنيا قد بليت على بلاء جسمه إذا انقضى عمره ولم يبق له إلا انتظار الموت فلما كان الأمر بضده ذم»[٣].

وهذا هو حال أكثر الناس في هذا العالم تشبثهم بالحياة كبير وآمالهم بعيدة وغير واقعية وقد ضرب لنا القرآن العظيم نماذج من هؤلاء.

النموذج الأول «اليهود:

هم أكثر الخلق تشبثاً بالحياة وانقطاعاً لها ورضاً بها وحرصاً عليها، على أي

---

(١) حديث رقم (٦٤١٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٢٠).

(٣) انظر: فتح الباري (١٧/٢٤).

وضع كانت وعلى أي حال حصلت، فانقلبت حياة اليهود إلى حياة مادية مقيتة، وحوّل النفسية اليهودية إلى نفسية شرهة للمال هلوعة جزوعة منوعة عدوانية أنانية شريرة خبيثة، لا هم لها إلا تحقيق مراداتها ورغباتها ولو على حساب الآخرين.

يقول الله تعالى عنهم: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة: ٩٦].

فكشف الله تعالى في هذه الآية حقيقة النفسية اليهودية المادية التي وقعت في الأمل المذموم الذي تجاوز كل حدود المعقول والممكن بحكم الناموس الكوني للحياة الذي قدره خالق العالم جل وعلا.

فأخبر الله تعالى بقوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾ بصيغة الخبر المؤكد بكل أدوات التوكيد من واو القسم، واللام، ونون التوكيد الثقيلة بصيغة الاستقبال، ليبين أن هذا هو وصف اليهود في الماضي والحاضر، وسيبقى كذلك في المستقبل فلا تجد يهودياً إلا وهو على هذه الصفة ﴿أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾.

وهذه الآية جاءت بعد تلك الآية التي تحدى الله فيها اليهود أن يتمنوا الموت، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [البقرة: ٩٤].

فاليهود طول تاريخهم يزعمون أنهم شعب الله المختار، وأن الإلـه «يَهْوَه» أحبهم واصطفاهم، وأنهم أبناء الله وأحباؤه. فالله يقول لهم في هذه الآية: إن كان ذلك كذلك وأنتم صادقون في هذا الزعم فلماذا لا تتمنون الموت لتصيروا إلى ربكم الذي اختاركم على العالمين، وإلـهكم الذي أحبكم دون الناس؟

ثم أخبر بالنتيجة سلفاً، ليبقى ذلك كشفاً مستمراً لهذه النفسية اليهودية المادية، لا يستطيعون أن يخالفوها ولو مرة واحدة، فقال تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [البقرة: ٩٥].

ثم تأمل كلمة ﴿حَيَوٰةٍ﴾ فهي نكرة، والنكرة تفيد العموم. فهم حريصون على حياة أياً كان نوع هذه الحياة ولو كانت منحطة وقذرة وشريرة فهم عليها حريصون وبها راغبون وبها يتشبثون.

وهذا الحرص الشديد على حياة وهذا الأمل الذي بلغ بهم أن يود أحدهم

لو قد عاش في الدنيا ألف سنة من الزمان على معرفة كل عاقل أن هذا لا يكون أبداً.

النموذج الثاني: المنافق.

لما كان المنافق صاحب شخصية مزدوجة، يتناقض ظاهره مع باطنه استطاع لشدة تمرسه على النفاق أن يعيش بشخصيتين متناقضتين، وصارت أدواته التي يمنهج بها حياته وتصرفاته هي الكذب، والخداع، والالتواء، والمكر، والمراوغة. لأن هذا في تصوره ربما حقق له مكاسب، وأوصله إلى مآرب، فيقع في الأمل الكاذب.

وقد كشف الله تعالى علّام الأسرار، هذه النفسية الالتوائية، والشخصية المزدوجة في حق هؤلاء المنافقين.

فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ [النساء: ١٤٢ ـ ١٤٣].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لِجَهْلِهِمْ وَقِلَّةِ عِلْمِهِمْ وَعَقْلِهِمْ، يَعْتَقِدُونَ أَنَّ أَمْرَهُمْ كَمَا رَاجَ عِنْدَ النَّاسِ وجَرَت عَلَيْهِمْ أحكامُ الشَّرِيعَةِ ظَاهِراً، فَكَذَلِكَ يَكُونُ حُكْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللهِ، وَأَنَّ أَمْرَهُمْ يَرُوجُ عِنْدَهُ، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ تَعَالَى... ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾؛ أَيْ: هُوَ الَّذِي يَسْتَدْرِجُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ وَضَلَالِهِمْ، وَيَخْذُلُهُمْ عَنِ الْحَقِّ وَالْوُصُولِ إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[١].

وقوله تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾، تدل على مدى القلق والاضطراب في نفسية وشخصية المنافقين، لذلك كانت أدواته الكذب المستمر والخداع المتناهي.

قال ﷺ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقاً خَالِصاً، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»[٢].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٤٢).

ولذلك تنصهر هذه الأخلاق القبيحة فتحول النفس التي انصبغت بها إلى نفس مظلمة وملتوية لا يصدر عنها إلا الأذى والشر.

ولذلك كشف هذه النتيجة الحتمية لهذه النفسية الالتوائية: رسول الله ﷺ إذ قال: «تَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذَا الوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ، وَيَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ»(١).

فتتمحص فيه النفعية الذاتية وتستولي عليه الأنانية ويرجع إلى أصل جبلّته البشرية. فهو كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ [ن: ١٠ ـ ١٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ذَكَرَ أَرْبَعَ آيَاتٍ، كُلُّ آيَتَيْنِ جَمَعَتْ نَوْعاً مِنَ الْأَخْلَاقِ الْفَاسِدَةِ الْمَذْمُومَةِ وَجَمَعَ فِي كُلِّ آيَةٍ بَيْنَ النَّوْعِ الْمُتَشَابِهِ خَبَراً وَطَلَباً فَالْحَلَّافُ مَقْرُونٌ بِالْمَهِينِ؛ لِأَنَّ الْحَلَّافَ هُوَ كَثِيرُ الْحَلِفِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ عَلَى الْخَبَرِ أَوْ الطَّلَبِ، فَهُوَ إِمَّا تَصْدِيقٌ أَوْ تَكْذِيبٌ أَوْ حَضٌّ أَوْ مَنْعٌ؛... وَمَنْ كَانَ كَثِيرَ الْحَلِفِ كَانَ كَثِيرَ الْكَذِبِ فِي الْعَهْدِ مُحْتَاجاً إِلَى النَّاسِ، فَهُوَ مِنْ أَذَلِّ النَّاسِ ﴿حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ حَلَّافٌ فِي أَقْوَالِهِ، مَهِينٌ فِي أَفْعَالِهِ. وَأَمَّا الْهَمَّازُ الْمَشَّاءُ بِنَمِيمٍ: فَالْهَمْزُ أَقْوَى مِنْ اللَّمْزِ وَأَشَدُّ... وَالْفَعَّالُ: مُبَالَغَةٌ فِي الْفَاعِلِ. فَالْهَمَّازُ الْمُبَالِغُ فِي الْعَيْبِ نَوْعاً وَقَدْراً... وَالْمَشَّاءُ بِنَمِيمٍ هُوَ مِنْ الْعَيْبِ؛ وَلَكِنَّهُ عَيْبٌ فِي الْقَفَا، فَهُوَ عَيْبُ الضَّعِيفِ الْعَاجِزِ... وَأَمَّا ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾ فَإِنَّ الظُّلْمَ نَوْعَانِ: تَرْكُ الْوَاجِبِ وَهُوَ مَنْعُ الْخَيْرِ، وَتَعَدٍّ عَلَى الْغَيْرِ وَهُوَ الْمُعْتَدِي... وَأَمَّا الْعُتُلُّ الزَّنِيمُ: فَهُوَ الْجَبَّارُ الْفَظُّ الْغَلِيظُ الَّذِي قَدْ صَارَ مِنْ شِدَّةِ تَجَبُّرِهِ وَغِلَظِهِ مَعْرُوفاً بِالشَّرِّ، مَشْهُوراً بِهِ... وَيُشْبِهُ ـ وَاللهُ أَعْلَمُ ـ أَنْ يَكُونَ الْحَلَّافُ الْمَهِينُ الْهَمَّازُ الْمَشَّاءُ بِنَمِيمٍ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ فِي الْأَقْوَالِ، وَمَا يَتْبَعُهَا مِنَ الْأَفْعَالِ. وَالْمَنَّاعُ الْمُعْتَدِي الْأَثِيمُ الْعُتُلُّ الزَّنِيمُ مِنْ جِنْسٍ واحد وَهُوَ فِي الْأَفْعَالِ وَمَا يَتْبَعُهَا مِنْ

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٤).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٠٥٨).

الْأَقْوَالِ. فَالْأَوَّلُ الْغَالِبُ عَلَى جَانِبِ الْأَعْرَاضِ وَالثَّانِي الْغَالِبُ عَلَى جَانِبِ الْحُقُوقِ فِي الْأَحْوَالِ وَالْمَنَافِعِ وَنَحْوِ ذَلِكَ... وَقَوْلُهُ: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ فِيهِ إِطْلَاقٌ يَتَضَمَّنُ الْوَسْمَ فِي الْآخِرَةِ وَفِي الدُّنْيَا أَيْضاً. فَإِنَّ اللهَ جَعَلَ لِلصَّالِحِينَ سِيما، وَجَعَلَ لِلْفَاجِرِينَ سِيما... فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَسِمَ صَاحِبَ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ الْخَبِيثَةِ عَلَى خُرْطُومِهِ وَهُوَ أَنْفُهُ الَّذِي هُوَ عُضْوُهُ الْبَارِزُ، الَّذِي يَسْبِقُ الْبَصَرُ إِلَيْهِ عِنْدَ مُشَاهَدَتِهِ؛ لِتَكُونَ السِّيمَا ظَاهِرَةً، مِنْ أَوَّلِ مَا يَرَى، وَهَذَا ظَاهِرٌ فِي الْفَجَرَةِ الظَّلَمَةِ الَّذِينَ وَدَعَهُمُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِمْ وَفُحْشِهِمْ؛ فَإِنَّ لَهُمْ سِيمَا مِنْ شَرٍّ يُعْرَفُونَ بِهَا. وَكَذَلِكَ الْفَسَقَةُ وَأَهْلُ الرِّيَبِ»[١].

وهذه الأخلاقيات النفعية تقود المنافق إلى الوقوع في خداع نفسه بنفسه، فيمني نفسه ما لا يكون، ويستصحب هذه الالتوائية والحلف والكذب حتى يبعث بها يوم القيامة. ورغم معاينته الأهوال العظيمة. والفزع الأكبر إلا أنه يظل متعلّقاً بما لا يكون أنه سيروج أمره ومكره وكذبه على الله رب العالمين، مستخدماً مع ربه تعالى علام الغيوب نفس تلك الأدوات التي اصطبغ بها في الدنيا: حلّاف مهين. كذاب. مخادع.

وقد كشف لنا ربنا تعالى هذا الأمر بجلاء فقال تعالى عنهم:

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة: ١٨، ١٩].

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس العجب من حلفهم لكم، فإنكم بشر تخفى عليكم السرائر، وأن لهم نفعاً في ذلك دفعاً عن أرواحهم واستجرار فوائد دنيوية، وأنهم يفعلونه في دار لا يضطرون فيها إلى علم ما يوعدون، ولكن العجب من حلفهم لله عالم الغيب والشهادة مع عدم النفع والاضطرار إلى علم ما أنذرتهم الرسل، والمراد: وصفهم بالتوغل في نفاقهم ومرونهم عليه، وأن ذلك بعد موتهم وبعثهم باق فيهم لا يضمحل»[٢].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/٦٦ ـ ٦٩) باختصار.

(٢) الكشاف (٤/٧٨).

المال في الشرع الإلـــهي

المال هو وسيلة الحياة، والقرآن الكريم يقرر شدة تعلق الإنسان بالمال. لشعوره المستمر بحاجته الدائمة إليه، فبه تقوم حياته، وتصان كرامته، وتتعلق رغباته.

قال الرازي: «المال شيء ينتفع به نوع الإنسان ويحتاج إليه»[1].

قال تعالى في بيان شدّة تعلق النوع الإنساني بالمال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ⑧﴾ [العاديات: ٨].

فسّر العلماء الخير هنا بالمال والدنيا.

وقال الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الإنسان لحب المال لشديد»[2].

قال القرطبي: «ومنه قوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾؛ أي: مالاً، قال عديّ:

ماذا تُرجِّي النفوسُ من طلب الخير　　وحـــبُّ الـحـيــاة كــاربـهــا»[3]

وقال تعالى أيضاً في كشف النفسية البشرية المتعلقة هلعاً وجزعاً بالمال: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ⑲ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ⑳﴾ [الفجر: ١٩ ـ ٢٠].

قال مجاهد: «أكلاً لمّا: اللّمّ، السفّ يلفّ كل شيء»[4].

وقال ابن زيد: «الأكل اللم، الذي يأكل كل شيء يجده لا يسأل، فيأكل

---

(١) التفسير الكبير (٩/ ١٩٠).

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ٦٧٣).

(٣) تفسير القرطبي (٢٠/ ١١٠).

(٤) الطبري (١٢/ ٥٧٤).

الذي له والذي لصاحبه، وكانوا لا يورّثون النساء والصغار. . . يأكل ميراثه وكل شيء لا يسأل عنه ولا يدري أحلال هو أم حرام»[١].

وقال الإمام الطبري: «وتحبون جمع المال أيها الناس، واقتناءه حباً كثيراً شديداً»[٢].

هذا هو الإنسان في حقيقته. لذا فإن المال والربح، والعوامل الاقتصادية ونهب ثروات الشعوب الطبيعية هي مثار الحروب والغارات والإحن والعداوات على طول تاريخ البشرية اللاحب الطويل.

من أول يوم دبّت فيه حياة البشر على هذه الأرض، ارتكبت أول جريمة قتل في تاريخ البشر، وسببها نشوء الحقد والحسد بسبب المال، فنشأت العداوة وحصل القتل بين ابني آدم الأوّلين.

ولم تكن الأرض كلها على رحابتها تسع غيرهما، فضاقت بأحدهما الأرض بما رحبت، بسبب ضيق نفسه وسماحِهِ لعوامل الغيرة والحقد والحسد أن تدب في نفسه وتُعمل عملها في قلبه، فثارات كوامن في أعماق النفس البشرية فاسدة وانقدح شرار الشر والحقد الأعمى، نتج عنه أنه استسهل قتل أخيه وشقيقه فقتله.

وهو بذلك يفتح الباب على مصراعيه. للعداوات والإِحَن، ويَدلّ البشر على تعلم صناعة العداوة والقتل إذ كان هو معلمها الأول.

قال الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ

---

(١) الطبري (١٢/ ٥٧٥).

(٢) الطبري (١٢/ ٥٧٥).

أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة: ٢٧ ـ ٣٢].

وثبت في الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تُقْتَلُ ظُلْماً، إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْهَا؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ القَتْلَ أَوَّلاً**»[١].

يقوم التقرير الإسلامي للمال ووظيفته في الحياة ومدى علاقة الإنسان به على عدة محاور:

الأول: يقرر القرآن الكريم أن الأرض والسموات العلى وما عليهما وما فيهما وما بينهما، والإنسان وما يملك وما بيده. كله ملكٌ لله الخالق العظيم، وأن الله استودع الإنسان في هذه الأرض واستخلفه على منافعها، وسخر له ما فيها وما عليها. وأشبع فطرة التملك، والانتفاع لدى الإنسان، وحثه على السعي في مناكب الأرض والتماس الرزق.

قال تعالى في سورة «فصلت»: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت: ١٠].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى أخبر أنه قدّر في الأرض أقوات أهلها، وذلك ما يقوتهم من الغذاء، ويصلحهم من المعاش... ومما يقوت أهلها ما لا يصلحهم غيره من الغذاء، وذلك لا يكون إلا بالمطر والتصرّف في البلاد لما خصّ به بعضاً دون بعض، ومما أخرج من الجبال من الجواهر، ومن البحر من المآكل والحليّ، ولا قول في ذلك أصح مما قال جلّ ثناؤه: قدّر في الأرض أقوات أهلها، لما وصفنا من العلة»[٢].

وقوله تعالى: ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾؛ أي: جعل المنافع التي في الأرض مباحة ومتاحة للطالبين لها، الباحثين عنها، الساعين لها.

قال الطبري رحمه الله: «وذلك أن معنى الكلام: وقدّر فيها أقواتها سواءً

---

(١) أخرجه البخاري، حديث رقم (٣٣٣٥).

(٢) تفسير الطبري (١١/ ٩٠).

لسائليها على ما بهم إليه الحاجة وعلى ما يصلحهم»(١).

ونقل هذا المعنى عن ابن زيد من أئمة التفسير.

وتتمة هذا المعنى في قوله تعالى في سورة الملك: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥].

ذلولاً: أي سهلة مذلّلة ممهدة، ومناكبها: أطرافها ونواحيها وفجاجها وسبلها.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «ثُمَّ ذَكَرَ نِعْمَتَهُ عَلَى خَلْقِهِ فِي تَسْخِيرِهِ لَهُمُ الْأَرْضَ وَتَذْلِيلِهِ إِيَّاهَا لَهُمْ، بِأَنْ جَعَلَهَا قَارَّةً سَاكِنَةً لَا تَمِيدُ وَلَا تَضْطَرِبُ بِمَا جَعَلَ فِيهَا مِنَ الْجِبَالِ، وَأَنْبَعَ فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ، وَسَلَكَ فِيهَا مِنَ السُّبُلِ، وَهَيَّأَهَا فِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ وَمَوَاضِعِ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ، فَقَالَ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ أَيْ: فَسَافِرُوا حَيْثُ شِئْتُمْ مِنْ أَقْطَارِهَا، وَتَرَدَّدُوا فِي أَقَالِيمِهَا وَأَرْجَائِهَا فِي أَنْوَاعِ الْمَكَاسِبِ وَالتِّجَارَاتِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ سَعْيَكُمْ لَا يُجْدِي عَلَيْكُمْ شَيْئاً، إِلَّا أَنْ يُيَسِّرَهُ اللهُ لَكُمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ تعالى: ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ فَالسَّعْيُ فِي السَّبَبِ لَا يُنَافِي التَّوَكُّلَ»(٢).

وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢٩].

هذا من القرآن المدني؛ لأن البقرة مدنية باتفاق.

وهذا المعنى جاء أيضاً قبل في القرآن المكي، فقال تعالى في الجاثية وهي مكية باتفاق: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية: ١٢ ـ ١٣].

بين الآيتين اتفاق وافتراق:

• فآية البقرة خص الحديث فيها عن منافع الأرض خاصة، بينما في آية الجاثية تعميم ذلك على منافع ما في السموات والأرض جميعاً.

---

(١) تفسير الطبري (١١/ ٩١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٣٣).

• واتفقت الآيتان الكريمتان على كلمة: «جميعاً» وزادت آية الجاثية كلمة: «منه»، ولذلك سر؛ وهو أن آية البقرة ذكر الله فيها أنه خلق ما في الأرض جميعاً، فلا داعي لكلمة منه؛ لأنه لا خالق غيره، وأما آية الجاثية فذكر تعالى فيها: أنه سخر؛ أي: أخرج منافع ما في السموات والأرض لمصالح العباد شيئاً فشيئاً، وجيلاً بعد جيل، فناسب أن يأتي بكلمة «منه»، لتأكيد أن النعمة منحة منه تعالى وتذكير العباد بآلائه، ليحمدوه عليها ويعبدوه بها.

وقد يقال: إن قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾، فيه دليل صحيح لأصحاب المذاهب الإباحية قديماً وللشيوعيين وأصحاب المذاهب الاشتراكية حديثاً.

ووجه الدليل لهم من ذلك: أنه تعالى خلق الكلّ للكلّ، فلا يكون لأحد اختصاص بشيء أصلاً؛ لأنه قابل الكل بالكل وذلك يقضي على الملكية الخاصة، ومقابلة الفرد بالفرد.

وهذا بعيد، ولا متمسك لهم في هذا المعنى من قريب ولا بعيد. وذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن ﴿لَكُم﴾ في آية البقرة اتصلت بقوله: ﴿خَلَقَ﴾ وذلك قبل وجود البشر وإنما وجودهم في علمه تعالى قبل كونهم فخلق لهم المنافع والأرزاق وأودعها الأرض قبل كونهم، ولذلك جعل ذلك قبل تكوين السماوات فقال: ثم ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾، وكما فصّل ذلك في سورة فصلت كما في الآيات السابقة.

أما قوله تعالى: ﴿لَكُم﴾: في آية الجاثية فاتصلت بقوله: ﴿سَخَّرَ﴾ وذلك بعد وجود البشر، فيكون المعنى أن الله يخرج للعباد من الأرض وينزل لهم من السماء الرزق بقدر حاجتهم جيلاً بعد جيل، ورعيلاً بعد رعيل.

ومن جميل المناسبات القرآنية أنه في جميع القرآن الكريم يخبر تعالى أنه أنزل من السماء ماءً لإحياء الأرض بعد موتها، وسقيا العباد والبهائم. إلا في سورة الجاثية التي فيها الآية السابقة فإنه أخبر أنه أنزل من السماء «رزقاً»، فقال تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الجاثية: ٥].

الوجه الثاني: أن اللام في قوله ﴿لَكُم﴾ يحتمل أن تكون:

• للسبب؛ أي: لأجلكم ولمنافعكم: وهذا قول الطبري كَلَّلَهُ، قال: «فأخبرهم تعالى أنه خلق لهم ما في الأرض جميعاً؛ لأن الأرض وجميع ما فيها لبني آدم منافع، أما في الدين فدليل على وحدانية ربهم، وما في الدنيا فمعاش وبلاغ لهم إلى طاعته وأداء فرائضه»(١).

ونقل السيوطي في الدر المنثور هذا المعنى عن قتادة، قال: «سخر لكم ما في الأرض جميعاً كرامة من الله ونعمة لابن آدم متاعاً وبلغة ومنفعة إلى أجل»(٢).

• ويحتمل أن تكون اللام في قوله: ﴿لَكُم﴾ للاعتبار وأخذ العِظة.

قال ابن عطية الأندلسي: «لكم معناه الاعتبار، ويدل على ذلك ما قبله وما بعده من نصب العبر: الإحياء والإماتة والخلق والاستواء إلى السماء وتسويتها»(٣).

وهذا اختيار القرطبي كَلَّلَهُ قال: «الثَّالِثَةُ ـ الصَّحِيحُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ الِاعْتِبَارُ، يَدُلُّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ مِنْ نَصْبِ الْعِبَرِ: الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ وَالْخَلْقِ وَالِاسْتِوَاءِ إِلَى السَّمَاءِ وَتَسْوِيَتِهَا؛ أَيِ: الَّذِي قَدَرَ عَلَى إِحْيَائِكُمْ وَخَلْقِكُمْ وخلق السموات وَالْأَرْضِ، لَا تَبْعُدُ مِنْهُ الْقُدْرَةُ عَلَى الْإِعَادَةِ»(٤).

• ويحتمل أن تكون اللام للاختصاص.

قال أبو حيان في البحر المحيط: «ولكم: متعلق بخلق، وَاللَّامُ فِيهِ، قِيلَ: لِلسَّبَبِ؛ أَيْ: لِأَجْلِكُمْ وَلِانْتِفَاعِكُمْ، وَقَدَّرَ بَعْضُهُمْ لِاعْتِبَارِكُمْ. وَقِيلَ: لِلتَّمْلِيكِ وَالْإِبَاحَةِ، فَيَكُونُ التَّمْلِيكُ خَاصاً، وَهُوَ تَمْلِيكُ مَا يَنْتَفِعُ الْخَلْقُ بِهِ وَتَدْعُو الضَّرُورَةُ

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٢٧).

(٢) الدر المنثور (١/ ١٠٦) وعزاه لعبد بن حميد والطبري، وهو في الطبري (١/ ٢٢٧) مختصراً.

(٣) المحرر الوجيز (١/ ١٥٩).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢٥٢).

إِلَيْهِ. وَقِيلَ: لِلاخْتِصَاصِ، وَهُوَ أَعَمُّ مِنَ التَّمْلِيكِ، وَالْأَحْسَنُ حَمْلُهَا عَلَى السَّبَبِ فَيَكُونُ مَفْعُولاً مِنْ أَجْلِهِ لِأَنَّهُ بِمَا فِي الْأَرْضِ يَحْصُلُ الانْتِفَاعُ الدِّينِيُّ وَالدُّنْيَوِيُّ»[1].

ويظهر من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية أنها للاختصاص، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَاعْلَمْ أَنَّ الْأَصْلَ فِي جَمِيعِ الْأَعْيَانِ الْمَوْجُودَةِ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا، وَتَبَايُنِ أَوْصَافِهَا أَنْ تَكُونَ حَلَالاً مُطْلَقاً لِلْآدَمِيِّينَ، وَأَنْ تَكُونَ طَاهِرَةً لَا يَحْرُمُ عَلَيْهِمْ مُلَابَسَتُهَا وَمُبَاشَرَتُهَا وَمُمَاسَّتُهَا وَهَذِهِ كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ وَمَقَالَةٌ عَامَّةٌ، وَقَضِيَّةٌ فَاضِلَةٌ عَظِيمَةُ الْمَنْفَعَةِ، وَاسِعَةُ الْبَرَكَةِ يَفْزَعُ إِلَيْهَا حَمَلَةُ الشَّرِيعَةِ فِيمَا لَا يُحْصَى مِنَ الْأَعْمَالِ، وَحَوَادِثِ النَّاسِ، وَقَدْ دَلَّ عَلَيْهَا أَدِلَّةٌ عَشَرَةٌ - مِمَّا حَضَرَنِي ذِكْرُهُ مِنَ الشَّرِيعَةِ - وَهِيَ: كِتَابُ اللهِ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ، وَاتِّبَاعُ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ. . . ثُمَّ مَسَالِكُ الْقِيَاسِ وَالِاعْتِبَارِ وَمَنَاهِجُ الرَّأْيِ وَالِاسْتِبْصَارِ. الصِّنْفُ الْأَوَّلُ: الْكِتَابُ، وَهُوَ عِدَّةُ آيَاتٍ. الْآيَةُ الْأُولَى قَوْلُه تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ وَالْخِطَابُ لِجَمِيعِ النَّاسِ لِافْتِتَاحِ الْكَلَامِ بِقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ خَلَقَ جَمِيعَ مَا فِي الْأَرْضِ لِلنَّاسِ مُضَافاً إِلَيْهِمْ بِاللَّامِ وَاللَّامُ حَرْفُ إِضَافَةٍ، وَهِيَ تُوجِبُ اخْتِصَاصَ الْمُضَافِ بِالْمُضَافِ إِلَيْهِ، وَاسْتِحْقَاقَهُ إِيَّاهُ مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي يَصْلُحُ لَهُ، وَهَذَا الْمَعْنَى يَعُمُّ مَوَارِدَ اسْتِعْمَالِهَا. كَقَوْلِهِمْ: الْمَالُ لِزَيْدٍ، وَالسَّرْجُ لِلدَّابَّةِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَيَجِبُ إِذاً أَنْ يَكُونَ النَّاسُ مُمَلَّكِينَ مُمَكَّنِينَ لِجَمِيعِ مَا فِي الْأَرْضِ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً، وَخُصَّ مِنْ ذَلِكَ بَعْضُ الْأَشْيَاءِ وَهِيَ الْخَبَائِثُ؛ لِمَا فِيهَا مِنَ الْإِفْسَادِ لَهُمْ فِي مَعَاشِهِمْ أَوْ مَعَادِهِمْ فَيَبْقَى الْبَاقِي مُبَاحاً بِمُوجِبِ الْآيَةِ»[2].

وواضح من كلام شيخ الإسلام هنا أنه يتجه بالآية إلى مسألة الإباحة والحظر قبل ورود الشرع، وأن الأصل في الأعيان الموجودة على اختلاف أصنافها الإباحة، وأنه لا يحظر على الإنسان منها إلا ما حظره الشرع فقط.

---

(١) البحر المحيط (١/١٣٢، ١٣٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٢١/٥٣٥، ٥٣٦)، وانظر بقية كلامه على مسألة: أن الأصل في الأشياء الحل قبل ورود الشرع (٢١/٥٣٨ ـ ٥٣٩ ـ ٥٤٠).

وذهب الطاهر بن عاشور إلى أن اللام في قوله تعالى: ﴿لَكُم﴾ إنما هي للتعليل، وقلّل من الاعتماد على هذه الآية في مسألة أن الأصل في الأشياء الإباحة قبل ورود الشرع أو الحظر.

قال رَحَمَهُ ٱللَّهُ: «وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْكَلَامِ فِيمَا أَرَاهُ مُوَافِقاً لِلْبَلَاغَةِ التَّذْكِيرُ بِأَنَّ اللهَ هُوَ خَالِقُ الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهَا وَمَا فِي دَاخِلِهَا، وَأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ خَلَقَهُ بِقَدْرِ انْتِفَاعِنَا بِهَا وَبِمَا فِيهَا فِي مُخْتَلَفِ الْأَزْمَانِ وَالْأَحْوَالِ فَأَوْجَزَ الْكَلَامَ إِيجَازاً بَدِيعاً بِإِقْحَامِ قَوْلِهِ: ﴿لَكُم﴾ فَأَغْنَى عَنْ جُمْلَةٍ كَثِيرَةٍ، فَالْكَلَامُ مَسُوقٌ مَسَاقَ إِظْهَارِ عَظِيمِ الْقُدْرَةِ وَإِظْهَارِ عَظِيمِ الْمِنَّةِ عَلَى الْبَشَرِ، وَإِظْهَارِ عَظِيمِ مَنْزِلَةِ الْإِنْسَانِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى، وَكُلُّ أُولَئِكَ يَقْتَضِي اقْتِلَاعَ الْكُفْرِ مِنْ نُفُوسِهِمْ»[1].

ثم قال: «وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ فَائِدَتَانِ:

الْأُولَى: أَنَّ لَامَ التَّعْلِيلِ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ خَلْقَ مَا فِي الْأَرْضِ كَانَ لِأَجْلِ النَّاسِ وَفِي هَذَا تَعْلِيلٌ لِلْخَلْقِ، وَبَيَانٌ لِثَمَرَتِهِ وَفَائِدَتِهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَخَذُوا مِنْ هذه الآية أَنَّ أَصْلَ اسْتِعْمَالِ الْأَشْيَاءِ فِيمَا يُرَادُ لَهُ مِنْ أَنْوَاعِ الِاسْتِعْمَالِ هُوَ الْإِبَاحَةُ حَتَّى يَدُلَّ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِهَا...

وَالْحَقُّ أَنَّ الْآيَةَ مُجْمَلَةٌ قُصِدَ مِنْهَا التَّنْبِيهُ عَلَى قُدْرَةِ الْخَالِقِ بِخَلْقِ مَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّهُ خُلِقَ لِأَجْلِنَا، إِلَّا أَنَّ خَلْقَهُ لِأَجْلِنَا لَا يَسْتَلْزِمُ إِبَاحَةَ اسْتِعْمَالِهِ فِي كُلِّ مَا يُقْصَدُ مِنْهُ؛ بَلْ خُلِقَ لَنَا فِي الْجُمْلَةِ، عَلَى أَنَّ الِامْتِنَانَ يَصْدُقُ إِذَا كَانَ لِكُلٍّ مِنَ النَّاسِ بَعْضٌ مِمَّا فِي الْعَالَمِ بِمَعْنَى أَنَّ الْآيَةَ ذَكَرَتْ أَنَّ الْمَجْمُوعَ لِلْمَجْمُوعِ لَا كُلُّ أحدٍ لِكُلِّ أحدٍ... لَا سِيمَا وَقَدْ خَاطَبَ اللهُ بِهَا قَوْماً كَافِرِينَ مُنْكِراً عَلَيْهِمْ كُفْرَهُمْ، فَكَيْفَ يَعْلَمُونَ إِبَاحَةً أَوْ مَنْعاً؟ وَإِنَّمَا مَحَلُّ الْمَوْعِظَةِ هُوَ مَا خَلَقَهُ اللهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَمْ يَزَلِ النَّاسُ يَنْتَفِعُونَ بِهَا مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ»[2].

المحور الثاني:

أن نسبة ملك الإنسان للمال إنما هي على سبيل الاستخلاف له على المال

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٧٩).

(٢) المصدر السابق (١/ ٣٨٠، ٣٨١).

من الله المالك الحق، ومنحه الله حق تصريف المال في المنافع المخولة له في خاصته وفيمن يعولهم مباشرة وأيضاً في عمارة الأرض وبناء المجتمع.

وردت كلمة «مال» في النصوص الشرعية مرات كثيرة جداً، وفيها تضاف الأموال إلى أهلها أفراداً أو جماعات إضافة لفظية ومعنوية.

فبعد أن قرر القرآن الكريم أن المال مال الله تعالى، قال الله تعالى:

﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

وقال النَّبِيِّ ﷺ: «**إِنَّ رِجَالاً يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[(١)].

قرر الله تعالى استخلاف البشر على هذا المال الذي هو ملك حقيقي له تعالى، فقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

يقرر الإمام القرطبي المعنى فيقول: «قوله: ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَصْلَ الْمُلْكِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، وَأَنَّ الْعَبْدَ لَيْسَ لَهُ فِيهِ إِلَّا التَّصَرُّفُ الَّذِي يُرْضِي اللهَ فَيُثِيبُهُ عَلَى ذَلِكَ بِالْجَنَّةِ. فَمَنْ أَنْفَقَ مِنْهَا فِي حُقُوقِ اللهِ وَهَانَ عَلَيْهِ الْإِنْفَاقُ مِنْهَا، كَمَا يهون عل الرَّجُلِ، النَّفَقَةَ مِنْ مَالِ غَيْرِهِ إِذَا أَذِنَ لَهُ فِيهِ، كَانَ لَهُ الثَّوَابُ الْجَزِيلُ، وَالْأَجْرُ الْعَظِيمُ. وَقَالَ الْحَسَنُ: ﴿مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ بِوِرَاثَتِكُمْ إِيَّاهُ عَمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ بِأَمْوَالِكُمْ فِي الْحَقِيقَةِ، وَمَا أَنْتُمْ فِيهَا إِلَّا بِمَنْزِلَةِ النُّوَّابِ وَالْوُكَلَاءِ، فَاغْتَنِمُوا الْفُرْصَةَ فِيهَا بِإِقَامَةِ الْحَقِّ قَبْلَ أَنْ تُزَالَ عَنْكُمْ إِلَى مَنْ بَعْدَكُمْ»[(٢)].

وجه الله تعالى إلى أن نستفيد من أموالنا في منافعنا وحاجاتنا. وما أباحه الله لنا من طعام وشراب ولباس وعموم المنافع.

قال الله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون: ٥١].

---

(١) رواه البخاري، حديث رقم (٣١١٨)، وأحمد (٦/ ٣٦٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ١٥٥).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة: ١٧٢].

وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾، وَقَالَ للمؤمنين: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾**»[١].

وقال رسول الله ﷺ: «**كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالبَسُوا وَتَصَدَّقُوا، فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَخِيلَةٍ**»[٢].

وأمر بالتجمل في اللباس والنعال وكثرة الطيب.

قال له رجل: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَناً وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ**»[٣].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً، إِلَّا وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَهَا عَلَيْهِ**»[٤].

وأمر الله ورسوله بالنفقة على الأهل والعيال، وادخار الرجل ما يقوته وعياله من مال ومتاع ونحو ذلك.

بَوّب البخاري رحمه الله في أول كتاب النفقات فقال: باب وجوب النفقة على الأهل والعيال[٥].

وأخرج حديث أبي هريرة مرفوعاً: «**ابدأ بمن تعول**»[٦].

وأخرج مسلم حديث ثوبان مرفوعاً: «**أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ، دِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِهِ**»[٧].

---

(١) أخرجه مسلم، حديث رقم (١٠١٥).
(٢) رواه أحمد (٦٦٩٥)، ورواه النسائي في الصغرى (٢٥٥٩)، وابن ماجه (٣٦٠٥)، وعلقه البخاري في الصحيح (٧/ ١٤٠) مجزوماً به.
(٣) رواه مسلم (٩١).
(٤) رواه أحمد، حديث رقم (٩٢٣٤).
(٥) فتح الباري (٢٠/ ١٨٧).
(٦) حديث رقم (٥٣٥٥).
(٧) أخرجه مسلم، حديث رقم (٩٩٤).

قَالَ أَبُو قِلَابَةَ عبد الله بن زيد الجرمي التابعي راوي هذا الحديث: «بَدَأَ بِالْعِيَالِ، وَأَيُّ رَجُلٍ أَعْظَمُ أَجراً، مِنْ رَجُلٍ يُنْفِقُ عَلَى عِيَالٍ صِغَارٍ، يُعِفُّهُمْ أَوْ يَنْفَعُهُمُ اللهُ بِهِ، وَيُغْنِيهِمْ»(١).

وبوّب البخاري رَحِمَهُ اللهُ أيضاً فقال: باب حبس الرجل قوت سنةٍ على أهله، وكيف نفقات العيال(٢).

وأخرج حديث مَعْمَرٌ، هو ابن راشد، قَالَ: قَالَ لِي الثَّوْرِيُّ: هَلْ سَمِعْتَ فِي الرَّجُلِ يَجْمَعُ لِأَهْلِهِ قُوتَ سَنَتِهِمْ أَوْ بَعْضِ السَّنَةِ؟ قَالَ مَعْمَرٌ: فَلَمْ يَحْضُرْنِي، ثُمَّ ذَكَرْتُ حَدِيثاً حَدَّثَنَاهُ ابْنُ شِهَابٍ الزُّهْرِيُّ، عَنْ مَالِكِ بْنِ أَوْسٍ، عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَبِيعُ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ، وَيَحْبِسُ لِأَهْلِهِ قُوتَ سَنَتِهِمْ»(٣).

وبوّب البخاري أيضاً في كتاب الأطعمة من الجامع الصحيح فقال: باب ما كان السلف يدّخرون في بيوتهم وأسفارهم من الطعام واللحم وغيره.

وقالت عائشة وأسماء: «صنعنا للنبي ﷺ سفرة»(٤).

وأمر الله تعالى ورسوله بعمارة الأرض، من خلال العمل لكسب الرزق واستصلاح الأرض، والاستثمار التنموي النفعي، الذي يتم به ضخ الأغنياء رؤوس أموالهم في مشاريع تنموية نفعية تصب في عمارة الأرض واستصلاح الحياة، ويتم من خلال ذلك تشغيل أعداد من الأفراد العاطلين، ليتم من خلال ذلك كسبهم لعيشهم من خلال عمل مباح نظيف.

قال الله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، قال أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «قال ابن عباس: أعاشكم فيها. وقال زيد بن أسلم: أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه فيها من بناء ومساكن، وغرس أشجار. وقيل: المعنى: ألهمكم عمارتها من الحرث والغرس وحفر الأنهار وغيرها»(٥).

وصرح بعض العلماء: أن الاستعمار هو طلب العمارة، والطلب من الله

---

(١) مسلم (٢/٦٩١).
(٢) فتح الباري (٢٠/١٨٩).
(٣) البخاري، حديث رقم (٥٣٥٧).
(٤) فتح الباري (٢٠/٢٥١).
(٥) الجامع لأحكام القرآن (٩/٣٨).

على الوجوب[١].

وهذا صحيح، وقد اعترض على هذا القاضي أبو بكر ابن العربي وقال: «لا يصح أن يقال: إنه طلب من الله لعمارتها؛ فإن هذا اللفظ لا يجوز في حقه. ولكنه صحح أن يقال: إنه استدعى عمارتها؛ فإنه جاء بلفظ استفعل وهو استدعاء الفعل بالقول ممن هو دونه إذا كان أمر، أو طلب الفعل إذا كان من الأدنى إلى الأعلى رغبة»[٢].

قال الإمام التابعي الكبير سعيد بن المسيب رَحِمَهُ اللَّهُ محدداً في نص رائع وظائف المال في هذه الحياة للمسلم، راداً على الذين يمنعون من كسب المال. وعمارة الحياة بدعوى الزهد والورع وهجر الحياة الدنيا.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا خير فيمن لا يحب المال: يعبد به ربه، ويؤدي به أمانته، ويصون به نفسه، ويستغني به عن الخلق»[٣].

وكلام الإمام سعيد مأخوذ من كلام رسول الله ﷺ: **«نعم المال الصالح للرجل الصالح»**.

فعن عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، يَقُولُ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«يَا عَمْرُو اشْدُدْ عَلَيْكَ سِلَاحَكَ، وَثِيَابَكَ، وَأْتِنِي»** فَفَعَلْتُ فَجِئْتُهُ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ، فَصَعَّدَ فِيَّ الْبَصَرَ وَصَوَّبَهُ، وَقَالَ: **«يَا عَمْرُو، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَكَ وَجْهاً، فَيُسَلِّمَكَ اللهُ وَيُغْنِمَكَ، وَأَزْعَبُ لَكَ مِنَ الْمَالِ زَعْبَةً صَالِحَةً»**، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي لَمْ أُسْلِمْ رَغْبَةً فِي الْمَالِ، إِنَّمَا أَسْلَمْتُ رَغْبَةً فِي الْجِهَادِ، وَالْكَيْنُونَةِ مَعَكَ، قَالَ: **«يَا عَمْرُو، نَعِمَّا بِالْمَالِ الصَّالِحِ، لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ»**[٤].

وقوله فيه: أَزْعَب لك زَعْبَة من المال. قال الأصمعي رَحِمَهُ اللَّهُ: أي: أعطيك دفعة من المال، والزعب: الدفع[٥].

وقوله نِعِمّا: بتشديد الميم، وقوله: بالمال، الباء زائدة، قاله ابن جني وغيره.

---

(١) أحكام القرآن، لابن العربي (٣/١٠٥٩).

(٢) المصدر السابق.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١١٩٤)، وابن أبي الدنيا في إصلاح المال (١٠٤).

(٤) أخرجه أحمد في المسند بسند صحيح (٤/١٩٧، ٢٠٢).

(٥) انظر: شرح السنة، للبغوي (١٠/٩١).

فالمال الصالح المستفاد من أوجه الكسب الحلال، ممدوح مرغوب فيه مطلوب كسبه والحصول عليه، للرجل المسلم العاقل الصالح الذي يعبد ربه بهذا المال ويستعين به على مطالب الحياة، ويعف نفسه عن الآخرين، ويسخره في أوجه الخير والإنفاق واستصلاح الحياة وعمارة الأرض بالخير والنماء، وإنما يدخل البلاء على الإنسان وعلى المجتمع المسلم من ناحية المكاسب المحرمة والتطلع بالبغي والكذب والخداع إلى أموال الناس فتضيق موارد الخير في النفس وتتوسع مدارك الأشر والبطر والشره والهلع والجزع والطمع.

وقد قال الله تعالى في غير ما آية من كتابه العزيز محذراً من ذلك: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وقال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨].

قال أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي رحمه الله: «وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ هَذَا مِنْ بَابِ الْمُبَالَغَةِ جُعِلَ الشُّحُّ كَأَنَّهُ شَيْءٌ مُعَدٌّ فِي مَكَانٍ، وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ وَسِيقَتْ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِ، وَأُحْضِرَ الشُّحُّ الْأَنْفُسَ فَيَكُونُ مَسُوقاً إِلَى الْأَنْفُسِ، بَلِ الْأَنْفُسُ سِيقَتْ إِلَيْهِ لِكَوْنِ الشُّحِّ مَجْبُولاً عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ، وَمَرْكُوزاً فِي طَبِيعَتِهِ»[1].

وقال الزمخشري: «ومعنى إحضار الأنفس الشح: أن الشح جعل حاجزاً لها لا يغيب عنها أبداً ولا تنفك عنه»[2].

وهذا الشح هو الذي يفرز النفوس المريضة، المنافقة، الباغية، العدوانية، الظالمة، الأنانية، التي تسيطر عليها الفردية المقيتة فلا ترى إلا نفسها ولا تعمل إلا لمصلحتها الخاصة فقط.

قال تعالى في كشف هذه الالتوائية المقيتة، في النفوس الشحيحة: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الأحزاب: ١٩].

فبدأ الآية بقوله: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾، وختمها بقوله: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾.

(١) البحر المحيط (٤/ ٨٧).
(٢) الكشاف (١/ ٥٧١).

فهذه جريمة مزدوجة، وانعكاسية نفسية على الأفعال والنتائج. فقوله: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ وصف لهم بشدة الحرص على المال، والتعلق التام به، والرغبة في الحصول عليه بأي طريق. فههنا مرض نفسي.

وقوله: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ هو انعكاس لذلك الشح النفسي على أفعالهم وتصرفاتهم فلا يصدر منهم خير، ولا يعملون معروفاً، ولا ينفقون نفقة لا صغيرة ولا كبيرة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾؛ أيْ: بُخَلَاءُ بِالْمَوَدَّةِ، وَالشَّفَقَةِ عَلَيْكُمْ... وَقَالَ قَتَادَةُ: أَمَّا عِنْدَ الْغَنِيمَةِ فَأَشَحُّ قَوْمٍ، وَأَسْوَؤُهُ مُقَاسَمَةً: أَعْطُونَا، أَعْطُونَا، قَدْ شَهِدْنَا مَعَكُمْ. وَأَمَّا عِنْدَ الْبَأْسِ فَأَجْبَنُ قَوْمٍ، وَأَخْذَلُهُ لِلْحَقِّ.

وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ أَشِحَّةٌ عَلَى الْخَيْرِ؛ أَيْ: لَيْسَ فِيهِمْ خَيْرٌ، قَدْ جَمَعُوا الْجُبْنَ وَالْكَذِبَ وَقِلَّةَ الْخَيْرِ، فَهُمْ كَمَا قَالَ فِي أَمْثَالِهِمُ الشَّاعِرُ:

أَفِي السِّلْمِ أَعْيَاراً جَفَاءً وغلظَةً   وَفِي الحَرْبِ أَمْثَالَ النِّسَاء العَوَارِكِ

أَيْ: فِي حَالِ الْمُسَالَمَةِ كَأَنَّهُمُ الْحَمِيرُ. وَالْأَعْيَارُ: جَمْعُ عَيرٍ، وَهُوَ الْحِمَارُ، وَفِي الْحَرْبِ كَأَنَّهُمُ النِّسَاءُ الْحُيَّضِ»[(١)].

علّق شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ على كلام سعيد بن المسيب السابق فقال: «فَأَخْبَرَ أَنَّ هَذِهِ الْوَاجِبَاتِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ وَقَضَاءِ الدُّيُونِ؛ وَصِيَانَةِ النَّفْسِ وَالِاسْتِغْنَاءِ عَنْ النَّاسِ. لَا تُتَمَّمُ إلَّا بِالْمَالِ. وَمَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ. وَمَنْ لَا يُحِبُّ أَدَاءَ مِثْلِ هَذَا الْوَاجِبِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا يَقُومُ الدِّينُ إلَّا بِهِ فَلَا خَيْرَ فِيهِ. فَهَذِهِ جملة وَلَهَا تَفَاصِيلُ كَثِيرَةٌ»[(٢)].

وبوّب الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب البيوع من الجامع الصحيح فقال: «كسب الرجل وعمله بيده».

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد اختلف العلماء في أفضل المكاسب، قال الماوردي: أصول المكاسب: الزراعة والتجارة والصناعة. والأشبه بمذهب

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٦٩).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٩/ ٢٨٠).

الشافعي أن أطيبها التجارة، قال: والأرجح عندي أن أطيبها الزراعة؛ لأنها أقرب إلى التوكل. وتعقبه النووي... وأن الصواب أن أطيب الكسب ما كان بعمل اليد، قال: فإن كان زراعاً فهو أطيب المكاسب لما يشتمل عليه من كونه عمل اليد ولما فيه من التوكل ولما فيه من النفع العام للآدمي وللدواب؛ ولأنه لا بد فيه في العادة أن يؤكل منه بغير عوض...

قلت[1]: وهو مبني على ما بحث فيه من النفع المتعدي ولم ينحصر النفع المتعدي في الزراعة؛ بل كل ما يعمل باليد فنفعه متعد لما فيه من تهيئة أسباب ما يحتاج الناس إليه، والحق أن ذلك مختلف المراتب وقد يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص... ومن فضل العمل باليد الشغل بالأمر المباح عن البطالة واللهو وكسر النفس بذلك والتعفف عن ذلة السؤال والحاجة إلى الغير»[2].

الأصل الثالث: الإنفاق في وجوه الخير المتنوعة:

وردت كلمة الإنفاق ومرادفاتها كالإيتاء في القرآن في مواضع كثيرة جداً. ليكون الإنفاق من المال في وجوه الخير المتنوعة الواجبة والمستحبة جزءاً أصيلاً في التركيب النفسي للإنسان المسلم ذكراً كان أو أنثى.

وكذلك ليكون الإنفاق جزءاً أصيلاً في النظام الاقتصادي الإسلامي. القائم على التراحم والتكافل الاجتماعي. المضاد للنظام الرأسمالي الربحي النفعي المقيت.

فأولاً: ما جاء بصيغة الإيتاء وهو إيصال الخير والمعروف لأهله ومستحقيه، قال تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

المراد بمن يؤتون من المال هم الناشدون للتحرر من ربقة الرّق. والانطلاق في عالم الحرية. فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣]. فأمر بمساعدتهم وإعانتهم ليصلوا إلى تحرير رقابهم من ربقة الرق والعبودية، ليكونوا أحراراً أسوياء، يساهمون بفعالية في استصلاح الحياة وعمارة الأرض، وبناء المجتمع، وهذا هو تحديداً معنى قوله تعالى هنا في الشرط الذي شرطه لمكاتبتهم وهو قوله: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾.

---

(١) القائل ابن حجر.

(٢) فتح الباري (٩/ ١٥٠، ١٥١).

فُسِّرت بالقدرة على العمل والكسب الحلال. وفسّرت بالصدق والأمانة[(١)]. وهذه تحديداً عناصر الإنسان السوي، فالصدق والأمانة في أخلاقه وأقواله وأعماله، والإنتاج والعمل والكسب مضموماً إليها.

أخرج أبو داود في المراسيل من مرسل يحيى بن أبي كثير مرفوعاً: «**إن علمتم فيهم حِرفةً ولا ترسلوهم كَلاً على الناس**»[(٢)].

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإسراء: ٢٦].

وقد استدل بهذه الآيات العلماء على أن في المال حقاً؛ بل حقوقاً سوى الزكاة المفروضة كقرى الضيف وصلة الأقارب، وعارية الذلول، وطروق الفحل، وبذل الحِلاب. والحمل على النجيبة، وبذل الماء في الطريق، ونحو ذلك.

ولعظيم أهمية مثل هذه الحقوق في غرس السماحة في النفوس، واجتثاث عروق البخل والشح من القلوب، وتحول المجتمع المسلم إلى مجتمع نفّاع، تسوده السماحة عمّق النبي ﷺ مثل هذه الأمور في التشريع رغم ضآلة بعضها فجعلها من أعظم الأمور الموصلة إلى رضوان الله تعالى والفوز بجنته.

عن عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو رضي الله عنهما، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَرْبَعُونَ خَصْلَةً أَعْلَاهُنَّ مَنِيحَةُ العَنْزِ، مَا مِنْ عَامِلٍ يَعْمَلُ بِخَصْلَةٍ مِنْهَا رَجَاءَ ثَوَابِهَا، وَتَصْدِيقَ مَوْعُودِهَا، إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ بِهَا الجَنَّةَ**»، قَالَ حَسَّانُ بن عطية ـ راوي الحديث ـ: «فَعَدَدْنَا مَا دُونَ مَنِيحَةِ العَنْزِ، مِنْ رَدِّ السَّلَامِ، وَتَشْمِيتِ العَاطِسِ، وَإِمَاطَةِ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَنَحْوِهِ فَمَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نَبْلُغَ خَمْسَ عَشْرَةَ خَصْلَةً»[(٣)].

وهذه الخصال والأعمال الزهيدة اليسيرة التي ربما يحتقرها الإنسان ليسرها وسهولتها، من منيحة العنز فما دون من جنس رد السلام وإعطاء شسع النعل

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/٥٣٦).
(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: المراسيل (١٦٩/أثر رقم ١٨٥).
(٣) أخرجه البخاري في الصحيح، حديث رقم (٢٦٣١).

والتفسح في المجالس والكلمة الطيبة، والتبسم في وجه المسلم، وعيادة المريض، وإدخال السرور على المسلم، والمصافحة، والإعانة في الحمل على الدابة، وإرشاد الضال، وما يجري هذا المجرى، ولكنها توصل برحمة الله إلى الجنة.

والقاسم المشترك الذي ينتظمها جميعاً، وهو السر فيها: أنها جميعاً للنفع المتعدي للغير. فحيثما وجدت العمل يتعدَّى نفعه للغير فدونك إياه؛ فإنه طريق الجنة ولو كان عملاً يسيراً أو زهيداً جداً.

ثانياً: ما جاء بصيغة الإنفاق في جميع أوجه الخير:

يقول الراغب الأصبهاني في المفردات: «نَفَقَ الشَّيْءُ: مَضَى ونَفِدَ، يَنْفُقُ، إمَّا بالبيع نحو: نَفَقَ البَيْعُ نَفَاقاً، ... ونَفَقَ القَوْمُ: إذا نَفَقَ سُوقُهُمْ، وإمّا بالمَوْتِ نحو: نَفَقَتِ الدَّابَّةُ نُفُوقاً، وإمّا بالفَنَاءِ نحو: نَفِقَتِ الدَّرَاهِمُ تُنْفَقُ وأَنْفَقْتُهَا. والإِنْفَاقُ قد يكون في المَالِ، وفي غَيْرِهِ، وقد يكون واجباً وتطوُّعاً، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقال: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ [البقرة: ٢٥٤] وقال: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ [آل عمران: ٩٢]»[1].

ثم ساق عدداً من الآيات في ذلك.

يقول القاضي أبو بكر ابن العربي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [البقرة: ٣]: «إِذَا تَأَمَّلَ اللَّبِيبُ الْمُنْصِفُ هَذِهِ التَّوْجِيهَاتِ تَحَقَّقَ أَنَّ الصَّحِيحَ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]: كُلُّ غَيْبٍ أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ أَنَّهُ كَائِنٌ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٣]: عَامٌّ فِي كُلِّ صَلَاةٍ فَرْضاً كَانَتْ أَوْ نَفْلاً.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣] عَامٌّ فِي كُلِّ نَفَقَةٍ، وَلَيْسَ فِي قُوَّةِ هَذَا الْكَلَامِ الْقَضَاءُ بِفَرْضِيَّةِ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَإِنَّمَا عَلِمْنَا الْفَرْضِيَّةَ فِي الْإِيمَانِ وَالصَّلَاةِ وَالنَّفَقَةِ مِنْ دَلِيلٍ آخَرَ، وَهَذَا الْقَوْلُ بِمُطْلَقِهِ يَقْتَضِي مَدْحَ ذَلِكَ كُلِّهِ خَاصَّةً

---

(١) المفردات في غريب القرآن (٧٦٥).

كَيْفَمَا كَانَتْ صِفَتُهُ»[١].

وقوله: إن هذا لا يقتضي فرضية ذلك في هذه الآية، يمكن أن يجاب عنه بأنه تعالى وصف هؤلاء المتقين الذين هذه صفتهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: ٥]، وماذا بعد الهدى والفلاح إلا الضلال والخسارة، أما تفاصيل ما يدخل في حد الفرض والنفل من الصلاة والنفقة فنعم يحتاج إلى أدلة أخرى.

وقال محمد بن عمر الرازي رحمه الله: «أَصْلُ الْإِنْفَاقِ إِخْرَاجُ الْمَالِ مِنَ الْيَدِ، وَمِنْهُ نَفَقَ الْمَبِيعُ نَفَاقاً إِذَا كَثُرَ الْمُشْتَرُونَ لَهُ... وفِي قَوْلِهِ: وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ فَوَائِدُ: إحداهَا: أَدْخَلَ مِنَ التَّبْعِيضِيَّةَ صيانة لهم، وكفّاً عَنِ الْإِسْرَافِ وَالتَّبْذِيرِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ. وَثَانِيهَا: قَدَّمَ مَفْعُولَ الْفِعْلِ دَلَالَةً عَلَى كَوْنِهِ أَهَمَّ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: وَيَخُصُّونَ بَعْضَ الْمَالِ بِالتَّصَدُّقِ بِهِ. وَثَالِثُهَا: يَدْخُلُ فِي الْإِنْفَاقِ الْمَذْكُورِ فِي الْآيَةِ، الْإِنْفَاقُ الْوَاجِبُ، وَالْإِنْفَاقُ الْمَنْدُوبُ»[٢].

وقال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله: «وَالْإِنْفَاقُ إِعْطَاءُ الرِّزْقِ فِيمَا يَعُودُ بِالْمَنْفَعَةِ عَلَى النَّفْسِ وَالْأَهْلِ وَالْعِيَالِ، وَمَنْ يُرْغَبُ فِي صِلَتِهِ أَوِ التَّقَرُّبِ لِلَّهِ بِالنَّفْعِ لَهُ مِنْ طَعَامٍ أَوْ لِبَاسٍ. وَأُرِيدَ بِهِ هُنَا بَثُّهُ فِي نَفْعِ الْفُقَرَاءِ وَأَهْلِ الْحَاجَةِ وَتَسْدِيدِ نَوَائِبِ الْمُسْلِمِينَ بِقَرِينَةِ الْمَدْحِ وَاقْتِرَانِهِ بِالْإِيمَانِ، وَالصَّلَاةِ، فَلَا شَكَّ أَنَّهُ هُنَا خَصْلَةٌ مِنْ خِصَالِ الْإِيمَانِ الْكَامِلِ، وَمَا هِيَ إِلَّا الْإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ وَالْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ، إِذْ لَا يُمْدَحُ أَحَدٌ بِإِنْفَاقِهِ عَلَى نَفْسِهِ وَعِيَالِهِ إِذْ ذَلِكَ مِمَّا تَدْعُو إِلَيْهِ الْجِبِلَّةُ فَلَا يَعْتَنِي الدِّينُ بِالتَّحْرِيضِ عَلَيْهِ[٣]. فَمِنَ الْإِنْفَاقِ مَا هُوَ وَاجِبٌ وَهُوَ

---

(١) أحكام القرآن (١/١٩).

(٢) التفسير الكبير (٢/٣٤).

(٣) لي تحفظ على هذا الكلام، بل أمر الإسلام وحض على الإنفاق على الأهل والعيال، وفضّل الإنفاق عليهم على غيره من وجوه البر والمعروف؛ لأن كثيراً من الجبلّات فسدت وبلغ الشح بكثير من النفوس إلى البخل على عيالهم وأهليهم؛ لدرجة أنهم كانوا في الجاهلية يقتلون أولادهم من إملاق، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ﴾ [الأنعام: ١٥١]، بل وكانوا يقتلون ما رزقهم الله من الأولاد خشية توقع حصول الفقر والإملاق، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ۝٣١﴾ [الإسراء: ٣١].

حَقٌّ عَلَى صَاحِبِ الرِّزْقِ، لِلْقَرَابَةِ وَلِلْمَحَاوِيجِ مِنَ الْأُمَّةِ، وَنَوَائِبِ الْأُمَّةِ كَتَجْهِيزِ الْجُيُوشِ وَالزَّكَاةِ، وَبَعْضُهُ مُحَدَّدٌ، وَبَعْضُهُ تَفْرِضُهُ الْمَصْلَحَةُ الشَّرْعِيَّةُ الضرورية أو الحاجية»[1].

الأصل الرابع: وضع الحدود المانعة من الكسب المحرم والإضرار بالناس:

إن ملكية الإنسان للمال وحريته في العمل والكسب، لا تعني الطمع فيما في أيدي الناس والتطلع إلى استخراج أموالهم بالكذب والغش والمكر والخداع. ولا تعني أكل أموال الناس بالباطل، فضربت الشريعة الغراء بسياج وثيق وحدود متينة، لردع المعتدين على أموال الناس، وكسر سورة طمعهم وجشعهم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١٨٨﴾ [البقرة: ١٨٨].

قال أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْخِطَابُ بِهَذِهِ الْآيَةِ يَتَضَمَّنُ جَمِيعَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَالْمَعْنَى: لَا يَأْكُلُ بَعْضُكُمْ مَالَ بَعْضٍ بِغَيْرِ حَقٍّ. فَيَدْخُلُ فِي هَذَا: الْقِمَارُ وَالْخِدَاعُ وَالْغُصُوبُ وَجَحْدُ الْحُقُوقِ، وَمَا لَا تَطِيبُ بِهِ نَفْسُ مَالِكِهِ، أَوْ حَرَّمَتْهُ الشَّرِيعَةُ، وَإِنْ طَابَتْ به نفس مالكه؛ كمهر الْبَغِيِّ وَحُلْوَانِ الْكَاهِنِ وَأَثْمَانِ الْخُمُورِ وَالْخَنَازِيرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ»[2].

وقال عبد الكريم الشهرستاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «لما بيّن الرب تعالى حدوده وأحكامه في حركات المكلفين وقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧]، عقّب ذلك بالنهي عن أكل أموال الناس بالباطل والتأويل، والإدلاء بقول الحكام؛ فإن ذلك من جملة حدود الله التي حدها ومنعها، وما سبق من الحدود فهي متعلقة بحقوق الله تعالى، وألحق بها ما يتعلق بحقوق الناس، ليعلم أن المحظورات على وتيرة واحدة. . .

قال: المؤمن حرام دمه وماله وعرضه، والمؤمن أخو المؤمن، لا يحل أكل ماله بتأويل، ومن استحل مال الغير فقد حكم بالإباحة ورفع الحرج وإحباط

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٣٥).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٢٢٥).

التكليف، وتعدى حدود الله وظلم نفسه، والإدلاء إلى الحكام يكون على وجهين: أحدهما إدلاء بحجّة باطلة كيمين كاذبة أو شهادة زور ويكون الحاكم فيها معذوراً، وإنما الإثم على المدلي، ويكون ما يقطعه له قطعة من النار، فإن قضاء القاضي لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً فلا ينفذ ظاهراً وباطناً.

والوجه الثاني: إدلاء بمال ورشوة: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]، وهم يعلمون أنه حرام أخذه، وباطل حكمه، وسحت أكله، وقد ابتلينا بزمان فيه حكّام تصرخ منهم الدماء، وتبكي منهم المواريث»[١].

ولذلك وضع الله تعالى الحدود والموانع العظيمة من الكسب المحرم.

فحرم تعالى الربا أعظم التحريم وزجر عنه أبلغ الزجر، وتوعد عليه من الحرب والنكال أعظم التوعد، حتى قال الإمام مالك بن أنس رحمه الله: «إني تصفحت كتاب الله وسُنَّة نبيه فلم أر شيئاً أشرّ من الربا؛ لأن الله أذن فيه بالحرب»[٢].

وذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة: ٢٧٨ ـ ٢٧٩].

وحرم رسول الله ﷺ أنواعاً من البيوع لأنها تفضي إلى الغرر وأكل أموال الناس بالباطل. كالمنابذة والملامسة وحبل الحبلة. والنجش والغرر وبيع حاضر لباد وعن تلقي الركبان والمزابنة وحلوان الكاهن ومهر البغي وثمن الكلب وغير ذلك مما هو مفصل في محله من كتب الفقه الإسلامي.

وهي كلها تدور على منع الغرر والخداع والغش مما يفضي إلى أكل قسط من أموال الناس بالباطل، مما يثير الشحناء والبغضاء وفساد ذات البين بين الناس وربما أدى إلى ما هو أعظم من ذلك من الغبن الشديد والقتل وغير ذلك من المفاسد العظيمة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وَالْأَصْلُ فِي ذَلِكَ: أَنَّ اللهَ حَرَّمَ فِي

---

(١) تفسير الشهرستاني المسمى: مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار (٢/ ٧٧٤، ٧٧٥).

(٢) نقله القرطبي في تفسيره (٣/ ٣٦٤).

كِتَابِهِ أَكْلَ أَمْوَالِنَا بَيْنَنَا بِالْبَاطِلِ. وَذَمَّ الْأَحْبَارَ وَالرُّهْبَانَ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَذَمَّ الْيَهُودَ عَلَى أَخْذِهِمْ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ، وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ. وَهَذَا يَعُمُّ كُلَّ مَا يُؤْكَلُ بِالْبَاطِلِ فِي الْمُعَاوَضَاتِ وَالتَّبَرُّعَاتِ، وَمَا يُؤْخَذُ بِغَيْرِ رِضَا الْمُسْتَحِقِّ وَالِاسْتِحْقَاقِ. وَأَكْلُ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ فِي الْمُعَاوَضَةِ نَوْعَانِ، ذَكَرَهُمَا اللهُ فِي كِتَابِهِ هُمَا: الرِّبَا وَالْمَيْسِرُ. فَذَكَرَ تَحْرِيمَ الرِّبَا الَّذِي هُوَ ضِدُّ الصَّدَقَةِ فِي آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَسُورَةِ آلِ عِمْرَانَ وَالرُّومِ وَالْمُدَّثِّرِ[1] وَذَمَّ الْيَهُودَ عَلَيْهِ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ وَذَكَرَ تَحْرِيمَ الْمَيْسِرِ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ. ثُمَّ إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَصَّلَ مَا جَمَعَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ. فَنَهَى ﷺ عَنْ بَيْعِ الْغَرَرِ. كَمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه. وَالْغَرَرُ: هُوَ الْمَجْهُولُ الْعَاقِبَةِ. فَإِنَّ بَيْعَهُ مِنْ الْمَيْسِرِ الَّذِي هُوَ الْقِمَارُ. . . فَيُفْضِي إلَى مَفْسَدَةِ الْمَيْسِرِ: الَّتِي هِيَ إيقَاعُ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ مَعَ مَا فِيهِ مِنْ أَكْلِ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ الَّذِي هُوَ نَوْعٌ مِنْ الظُّلْمِ. فَفِي بَيْعِ الْغَرَرِ ظُلْمٌ وَعَدَاوَةٌ وَبَغْضَاءُ. وَمِنْ نَوْعِ الْغَرَرِ مَا نَهَى عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ بَيْعِ حَبَلِ الْحَبَلَةِ والملاقيح وَالْمَضَامِينِ وَمِنْ بَيْعِ السِّنِينَ وَبَيْعِ الثَّمَرِ قَبْلَ بُدُوِّ صَلَاحِهِ وَبَيْعِ الْمُلَامَسَةِ وَالْمُنَابَذَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ: كُلُّهُ مِنْ نَوْعِ الْغَرَرِ»[2].

وحرم الله تعالى ورسوله ﷺ الحِيَل المفضية إلى أكل الربا أو إنفاق السلع بالكذب والبهتان.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وَجِمَاعُ الْحِيَلِ نَوْعَانِ: إمَّا أَنْ يَضُمُّوا إلَى أَحَدِ الْعِوَضَيْنِ مَا لَيْسَ بِمَقْصُودِ، أَوْ يَضُمُّوا إلَى الْعَقْدِ عَقْداً لَيْسَ بِمَقْصُودِ. . . وَدَلَائِلُ تَحْرِيمِ الْحِيَلِ مِنْ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ وَالِاعْتِبَارِ كَثِيرَةٌ»[3].

---

(١) المراد بورود تحريم الربا في سورة المدثر: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ [المدثر: ٦] فقد فسروها: لا تعط شيئاً لتأخذ أكثر منه وهو مروي عن ابن عباس وعكرمة وإبراهيم والضحاك وقتادة ومجاهد. انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٣٠١، ٣٠٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٩/ ٢٢، ٢٣).

(٣) المصدر السابق (٢٩/ ٢٧ ـ ٢٩)، ولشيخ الإسلام تفصيل واسع في منع الحيل وبيان أدلة ذلك في كتابه: «إقامة الدليل على بطلان التحليل»، فلينظر.

الأصل الخامس: محاسبة العمال والولاة والتجار ومراقبتهم من قبل ولي الأمر القائم على الناس.

صح عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ قال: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»[١].

فلا بد من ولي أمر قائم على مصالح الناس عامل بشريعة الله محاسب للولاة والأمراء والتجار، لردع المجرمين، ومحاسبة الفاسدين، وإيقاف المتغولين في أموال الناس بالإثم والباطل.

بوّب الإمام البخاري في كتاب الأحكام من الجامع الصحيح، فقال: باب: «محاسبة الإمام عمّاله»[٢].

وأخرج حديثاً عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَعْمَلَ ابْنَ اللتبِيَّةِ عَلَى صَدَقَاتِ بَنِي سُلَيْمٍ، فَلَمَّا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَحَاسَبَهُ قَالَ: هَذَا الَّذِي لَكُمْ، وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«فَهَلَّا جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ، وَبَيْتِ أُمِّكَ حَتَّى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقاً»**، ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَخَطَبَ النَّاسَ وَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: **«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ رِجَالاً مِنْكُمْ عَلَى أُمُورٍ مِمَّا وَلَّانِي اللهُ فَيَأْتِي أَحَدُكُمْ فَيَقُولُ: هَذَا لَكُمْ، وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي، فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ، وَبَيْتِ أُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ إِنْ كَانَ صَادِقاً...»**[٣]. الحديث.

وبوّب البخاري على هذا الحديث أيضاً فقال: باب هدايا العمال[٤].

وبوّب في موضع ثالث فقال: باب احتيال العامل ليهدى له[٥].

قال الحافظ ابن حجر: «وفي الحديث مشروعية محاسبة المؤتمن... ومنع العمال من قبول الهدية ممن له عليه حكم... وفيه إبطال كل طريق يتوصل بها

---

(١) هكذا عزاه القلعي الشافعي في تهذيب الرياسة وترتيب السياسة (١/ ٩٥) لعثمان بن عفان، ورواه الخطيب مسنداً عن عمر بن الخطاب في تاريخ بغداد (٥/ ١٧٢)، وهكذا هو عند ابن طباطبا في الفخري في الآداب السلطانية (١/ ٦١).

(٢) فتح الباري (٢٧/ ٢١٩).

(٣) حديث رقم (٧١٩٧).

(٤) فتح الباري (٢٧/ ١٩٠).

(٥) فتح الباري (٢٦/ ١٩٢).

من يأخذ المال إلى محاباة المأخوذ منه والانفراد بالمأخوذ»[١].

واشتهر عن الخلفاء الراشدين ﷺ خصوصاً أمير المؤمنين عمر محاسبة العمال والولاة، والتحقيق معهم ومعاقبتهم. إذا أثروا بسبب مناصبهم. ونحو ذلك[٢].

ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام شريف جامع في هذا الأصل أنقله بطوله مع بعض الاختصار لأهميته:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بَذْلُ الْمَنَافِعِ وَالْأَمْوَالِ سَوَاءٌ كَانَ بِطَرِيقِ التَّعَوُّضِ أَوْ بِطَرِيقِ التَّبَرُّعِ يَنْقَسِمُ إِلَى وَاجِبٍ وَمُسْتَحَبٍّ: وَوَاجِبُهَا يَنْقَسِمُ إِلَى فَرْضٍ عَلَى الْعَيْنِ وَفَرْضٍ عَلَى الْكِفَايَةِ... وَجِمَاعُ الْوَاجِبَاتِ الْمَالِيَّةِ بِلَا عِوَضٍ أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ، مَذْكُورَةٌ فِي الْحَدِيثِ الْمَأْثُورِ: «**أَرْبَعٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ بَرِئَ مِنَ الْبُخْلِ: مَنْ آتَى الزَّكَاةَ، وَقَرَى الضَّيْفَ، وَوَصَلَ الرَّحِمَ، وَأَعْطَى فِي النَّائِبَةِ**»...

وَأَمَّا الْوَاجِبَاتُ الْمَنْفَعِيَّةُ بِلَا عِوَضٍ: فَمِثْلُ تَعْلِيمِ الْعِلْمِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ، وَنَصْرِ الْمَظْلُومِ وَهِيَ كَثِيرَةٌ جِدّاً...

وَأَمَّا الْمَنَافِعُ الْمَالِيَّةُ... كَحَبْلٍ وَدَلْوٍ يَسْتَقِي بِهِ مَاءً يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَثَوْبٍ يَسْتَدْفِئُ بِهِ مِنْ الْبَرْدِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَيَجِبُ بَذْلُهُ؛ لَكِنْ هَلْ يَجِبُ بَذْلُهُ مَجَّاناً أَوْ بِطَرِيقِ التَّعَوُّضِ كَالْأَعْيَانِ؟ فِيهِ وَجْهَانِ. وَحُجَّةُ التَّبَرُّعِ مُتَعَدِّدَةٌ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون: ٧] وفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُد عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: كُنَّا نَعُدُّهُ عَارِيَةَ الْقِدْرِ وَالدَّلْوِ وَالْفَأْسِ. وَكَذَلِكَ إيجَابُ بَذْلِ مَنْفَعَةِ الْحَائِطِ لِلْجَارِ إذَا احْتَاجَ إلَيْهِ...

فَفِي الْجُمْلَةِ مَا يَجِبُ إيتَاؤُهُ مِنْ الْمَالِ أَوْ مَنْفَعَتُهُ أَوْ مَنْفَعَةُ الْبَدَنِ بِلَا عِوَضٍ لَهُ تَفْصِيلٌ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ. وَلَوْ كَانَ كَثِيرٌ مِنْ الْمُتَفَقِّهَةِ مُقَصِّرِينَ فِي عِلْمِهِ... وَيَعْتَقِدُ الغالط مِنْهُمْ «أَنْ لَا حَقَّ فِي الْمَالِ سِوَى الزَّكَاةِ»... وَإِلَّا فَنَحْنُ نَعْلَمُ

---

(١) فتح الباري (٢٧/ ١٩٤).

(٢) انظر نماذج لذلك: كتاب: الأموال، لابن زنجويه (١/ ٤٩٩ ـ ٥١٢)، وكتاب: الأموال لأحمد بن نصر الداوودي (٨٤ ـ ٩٤).

بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الإِسْلَامِ أَنَّ اللهَ قَدْ أَوْجَبَ إِيتَاءَ الْمَالِ فِي غَيْرِ الزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ فِي مَوَاضِعَ: مِثْلَ الْجِهَادِ بِالْمَالِ عِنْدَ الْحَاجَةِ وَالْحَجِّ بِالْمَالِ، وَنَفَقَةِ الزَّوْجَةِ وَالأَقَارِبِ وَالْمَمَالِيكِ مِنْ الآدَمِيِّينَ، وَالْبَهَائِمِ. وَمِثْلَ مَا يَجِبُ مِنْ الْكَفَّارَاتِ مِنْ عِتْقٍ وَصَدَقَةٍ وَهَدْيٍ كَفَّارَاتِ الْحَجِّ وَكَفَّارَاتِ الأَيْمَانِ وَالْقَتْلِ الخطأ وَغَيْرِهَا...

بَلْ الْمَالُ مُسْتَوْعَبٌ بِالْحُقُوقِ الشَّرْعِيَّةِ الرَّاتِبَةِ أَوْ الْعَارِضَةِ بِسَبَبٍ مِنْ الْعَبْدِ أَوْ بِغَيْرِ سَبَبٍ مِنْهُ...

وَجِمَاعُ الْمُعَاوَضَاتِ أَرْبَعَةُ أَنْوَاعٍ: مُعَاوَضَةُ مَالٍ بِمَالٍ: كَالْبَيْعِ. وَبَذْلُ مَالٍ بِنَفْعٍ كَالْجَعَالَةِ. وَبَذْلُ مَنْفَعَةٍ بِمَالٍ كَالإِجَارَةِ، وَبَذْلُ نَفْعٍ بِنَفْعٍ كَالْمُشَارَكَاتِ مِنْ الْمُضَارَبَةِ وَنَحْوِهَا...

وَبِالْجُمْلَةِ فَوُجُوبُ الْمُعَاوَضَاتِ مِنْ ضَرُورَةِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ؛ إذْ الإِنْسَانُ لَا يَنْفَرِدُ بِمَصْلَحَةِ نَفْسِهِ؛ بَلْ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ الِاسْتِعَانَةِ بِبَنِي جِنْسِهِ فَلَوْ لَمْ يَجِبْ عَلَى بَنِي آدَمَ أَنْ يَبْذُلَ هَذَا لِهَذَا مَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ وَهَذَا لِهَذَا مَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ لَفَسَدَ النَّاسُ وَفَسَدَ أَمْرُ دُنْيَاهُمْ وَدِينِهِمْ فَلَا تَتِمُّ مَصَالِحُهُمْ إلَّا بِالْمُعَاوَضَةِ، وَصَلَاحُهَا بِالْعَدْلِ الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ لَهُ الْكُتُبَ وَبَعَثَ بِهِ الرُّسُلَ. فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]...

وَهَكَذَا إذَا اضْطُرَّ النَّاسُ ضَرُورَةً عَامَّةً، وَعِنْدَ أَقْوَامٍ فُضُولُ أَطْعِمَةٍ مَخْزُونَةٍ فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِمْ بَيْعُهَا، وَعَلَى السُّلْطَانِ أَنْ يُجْبِرَهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَوْ يَبِيعَهَا عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُ فِعْلٌ وَاجِبٌ عَلَيْهِمْ يَقْبَلُ النِّيَابَةَ فَيَجِبُ إلْزَامُهُمْ بِمَا وَجَبَ عَلَيْهِمْ شَرْعاً وَهُوَ حَقٌّ لِلْمُسْلِمِينَ عِنْدَهُمْ فَيَجِبُ اسْتِنْقَاذُهُ مِنْهُمْ...

وَعَلَى هَذَا فَإِذَا احْتَاجَ الْمُسْلِمُونَ إلَى الصِّنَاعَاتِ: كَالْفِلَاحَةِ وَالنِّسَاجَةِ وَالْبِنَايَةِ: فَعَلَى أَهْلِهَا بَذْلُهَا لَهُمْ بِقِيمَتِهَا...

وَالأَصْلُ أَنَّ إعَانَةَ النَّاسِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ عَلَى الطَّعَامِ وَاللِّبَاسِ وَالسُّكْنَى أَمْرٌ وَاجِبٌ. وَلِلإِمَامِ أَنْ يُلْزِمَ بِذَلِكَ وَيُجْبِرَ عَلَيْهِ؛ وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ ظُلْماً...

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ يَفْعَلُونَ هَذَا بِحُكْمِ الْعَادَاتِ وَالطِّبَاعِ، وَطَاعَةِ السُّلْطَانِ غَيْرَ

مُسْتَشْعِرِينَ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ طَاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَطَاعَةِ أُولِي الْأَمْرِ فِيمَا أَمَرَ اللهُ بِطَاعَتِهِمْ فِيهِ. . .

وَكَمَا لِلْإِمَامِ أَنْ يُوجِبَ الْجِهَادَ عَلَى طَائِفَةٍ وَيَأْمُرَهُمْ بِالسَّفَرِ إِلَى مَكَانٍ لِأَجْلِهِ، فَلَهُ أَنْ يَأْمُرَ بِمَا يُعِينُ عَلَى ذَلِكَ، وَيَأْمُرَ قَوْماً بِتَعَلُّمِ الْعِلْمِ وَيَأْمُرَ قَوْماً بِالْوِلَايَاتِ. وَالْإِمَامُ الْعَدْلُ تَجِبُ طَاعَتُهُ فِيمَا لَمْ يُعْلَمْ أَنَّهُ مَعْصِيَةٌ، وَغَيْرُ الْعَدْلِ تَجِبُ طَاعَتُهُ فِيمَا عُلِمَ أَنَّهُ طَاعَةٌ كَالْجِهَادِ»[1].

(١) مجموع الفتاوى (٢٩/ ١٨٥ ـ ١٩٦) باختصار.

المال في النظام الرأسمالي

المال في التقرير الوضعي مختلف تماماً عنه في التقرير الشرعي، تقوم مصادمة واضحة بين التشريع الإلـٰهي للمال كسباً وإنفاقاً ووظيفة وبين التقرير الوضعي الرأسمالي الحر عندما يضع الناس لهم تشريعات من دون الله رب العالمين.

في التقرير الوضعي تعود النفوس البشرية إلى هلعها وجزعها وظلمها ومنعها وتكالبها.

في التقرير الوضعي يقوم الاستغلال، والنهب، والغش، والخداع، والإنفاق بلا رشد ولا غاية إلا النزوة والشهوة.

يظهر ذلك جلياً في الجاهليات القديمة، كما يظهر جلياً في عالم اليوم القائم على النظام الرأسمالي الاستغلالي ومبادئ التجارة الحرة، وأنماط العولمة.

لما دعا نبي الله شعيب عليه الصلاة والسلام إلى عبادة الله الواحد الأحد وإلى الإصلاح الاقتصادي، والحد من حرية الكسب والشره والطمع، كما قال تعالى عنه: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ [هود: ٨٥، ٨٦].

هذه دعوة نبوية كريمة لكبح جماح النفوس الشحيحة المتكالبة على جمع المال بالغش والكذب والخداع، وإطلاق جزع وهلع النفس من كل عقال، وميزان.

ولكنها جوبهت برد شنيع واستهزاء وعصيان وإصرار مظلم من قبلهم، رافضين هذا الإصلاح الاقتصادي الرشيد، داعين للاستمرار في ذلك الارتكاس المشين.

قال تعالى في جوابهم لنبيهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: ٨٧].

فهم ردوا عليه ذلك التشريع الذي يحد من هلعهم وتغولهم في أموال الناس بغير حق: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾، ردُّوه بأن لهم مطلق الحرية في التصرف في أموالهم وكسبها والوصول إلى الربح بأي طريق وبأي وسيلة، مهما كانت غير أخلاقية ولا شرعية.

قال ابن زيد: «إنما هي أموالنا نفعل فيها ما نشاء إن شئنا قطعناها، وإن شئنا حرقناها وإن شئنا طرحناها»[١].

وما النظام الرأسمالي الحديث الذي تقوم عليه اقتصاديات دول العالم اليوم إلا هذا بعينه، إطلاق العنان للنفس البشرية للكسب والربح بأي طريقة وتحت أي مبرر ولو كان الخداع والكذب والغش والتزوير ونهب الثروات والاتجار بالبشر والمخدرات والسلاح وغير ذلك، فالمال هو الغاية، والغاية تبرر الوسيلة.

فمنذ أن قرر «آدم سميث (١٧٩٠)» في كتابه «ثروة الأمم» مبادئ الرأسمالية. وتبعه «مالتس (١٨٣٤)» ثم «دافيد ريكا» اتجه الاقتصاد العالمي إلى اللاأخلاقية المتطرفة للربح والكسب وسحق الآخرين واستغلالهم، ولو بالحرب والقتال والاحتلال.

يقول «روبرت داونز» عن كتاب ثروة الأمم لآدم سميث: «النظرية الأساسية في كتاب: «ثروة الأمم» نظرية ذات نزعة ميكافيلية، وهي أن العامل الأول في نشاط الإنسان هو المصلحة الشخصية، وأن العمل على جمع الثروة ما هو إلا مظهر من مظاهرها. بذلك قرر أن الأنانية والمصلحة الشخصية تكمن وراء كل نشاط للجنس البشري»[٢].

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ١٠٠).

(٢) كتب غيرت وجه العالم (ص٧٣).

ولذلك فإن الاقتصاد الرأسمالي الحديث الذي يسيطر على عالم اليوم يقوم على عدة معالم:

- فهو نظام رأسمالي فردي أناني استغلالي، يكرس الثروات الهائلة في أيدي أفراد وشركات وبارونات الربا. على حساب الجموع من ملايين البشر المسحوقة.
- هو نظام طفيلي يتسلط على أموال الناس بشتى الحيل ويأخذها بدون مقابل ويستخدمها ويعمل بها لصالحه.
- وهو نظام معلوماتي يعتمد الدعاية الباهرة والإعلام المضلل.
- ثم هو نظام مضارب ربوي قبيح.

يعبر عن هذه المعالم أحد كبار بارونات الربا في العالم حيث يقول الاقتصادي البريطاني الشهير «جون مينارد مينز» «Jobn. Meynes» في كتابه الشهير «النظرية العامة للتوظيف والمصلحة والمال»: «لا بد لنا أن نتخذ الجشع وكنز المال والربا والاحتراس أرباباً لنا... فهم فقط دون سواهم الذين سيقودوننا إلى النور»[1].

لقد ساد العالم هذا النوع من الكسب وهذا النظام المجرد من الأخلاق والقيم للاقتصاد والمال مما ينذر بعواقب وخيمة وفساد عريض، ودمار شامل.

يقول الاقتصادي الألماني «هانزكنغ» تحت عنوان: نجاح اقتصاد السوق العالمي أم إخفاقه؟ لقد فرض اقتصاد السوق؛ أي: الرأسمالية، نفسه على أنه نمط اقتصادي عالمي بعد انهيار الإمبراطورية السوفيتية، ولكن ما زال الناس في القارة الأوروبية متفقين على أن السوق الحر لا بد أن يكون اجتماعياً واقتصادياً في الوقت ذاته، إذا كان يُراد له الصمود...

أما صمود نظام اقتصاد السوق لم يكن مضموناً مسبقاً فذلك ما أثبتته تجارب العقد الأخير، لقد كشفت الأزمات المالية الأسيوية في التسعينات عن أن اقتصاد السوق الحر يمكن أن ينتهي هو أيضاً إلى الإخفاق... أجل إن المرء لا يستطيع أن يتجاهل أن اقتصاداً عالمياً من اقتصاديات السوق الحر يتعرض

---

(١) نقلاً عن كتاب: إمبراطورية الشر الجديدة، للدكتور عبد الحي زلوم (ص١٥).

لمخاطر عالمية جديدة كل الجدّة، نحن نلاحظ في كثير من الأحيان أنه في مثل هذا الوضع تجري تحويلات ذنوب متبادلة، على نحو لا يخلو من سبب، فالاقتصاد يردّ الذنب إلى السياسة، والسياسة ترده إلى الاقتصاد، والمواطن المتوسط يحاول في كثير من الأحيان أن يرد الذنب إلى نقائص أخلاقية في كليهما»[١].

ويقدّم عالم الاقتصاد البريطاني الشهير «جون. هـ. دَيننغ»[٢] «John h. Dunning» ثلاثة معالم بارزة لهذا الاقتصاد الرأسمالي الفاسد المدمر للحياة.

المعلم الأول: عجز الأسواق ذاتها. المتمثل في:

- سياسة الاقتصاد الكلي المفرطة في المضاربة والمجازفة، «سوق العقارات، وسوق الأسهم نموذجاً».
- العملة المقدرة بقيمة زائدة.
- العقود الخاصة بسعر الصرف من طرف واحد.
- التوقيت السيئ للديون قصيرة الأجل.
- وجود سوق سوداء قوية في كل شيء.

المعلم الثاني: عجز المؤسسات المتمثل في:

- عدم الكفاية في أداء نظام الضبط ونظام المراقبة.
- النقص في حماية حقوق الملكية.
- النقص في الشفافيّة.
- مستويات التوازن المتسمة بعدم الكفاية.

المعلم الثالث: عجز الأخلاق والذي يكمن كعامل أساسي في عجز الأسواق وعجز المؤسسات والمتمثل في:

- رأسمالية الكازينوهات.
- المافيا.

---

(١) كتاب: مكافحة الفساد تقتضي نظاماً من الأُطر الأخلاقية (٢٧٠).

(٢) أستاذ الاقتصاد والتجارة الدولية بجامعة «Reading» ببريطانيا، وجامعة «Rugers» بالولايات المتحدة.

• رأسمالية الرشوة والفساد.

• النقص في الثقة.

• غياب المسؤولية الاجتماعية.

• الجشع المفرط لدى المستثمرين والشركات والتجار والمؤسسات»[١].

يضيف «دننغ» أنماطاً وصوراً خطيرة لإفرازات ومخرجات الرأسمالية العالمية، يقول: «

• في كثير من الأحيان ترتبط البنية التحتية التجارية غير الكافية بالرشوة والفساد كما ترتبط بالمصلحة الخاصة والجشع المفرطين.

• الأداء غير الملائم للوظائف على صعيد منظمات الاقتصاد العالمي الكلي يرتبط بعدم الاستقامة والخداع والنقص في الثقة، والاستعداد للحلول الوسط والتعاون والولاء للفئات والجماعات.

• أشكال عدم الجدوى في النظام القضائي، بما يحقق منع الجريمة المرتبطة برأسمالية المافيا والكازينوهات.

• النظام المصرفي غير الملائم، ونظام التمويل والمحاسبة غير الملائمين كل ذلك له علاقة بالانتهازية، وتبديد الأموال، وعدم الانضباط.

• ارتباط الهندسة الخاصة ببناء المجتمع بعدم المبالاة بحاجات الآخرين، وبنقص الشعور الشخصي بالواجب، والمسؤولية الاجتماعية.

• أشكال انعدام الجدوى فيما يتعلق بحماية حقوق الملكية إنما هي نتيجة لموقف يتسم بعدم المبالاة وانعدام الشعور بالمسؤولية»[٢].

ويقدم لنا «هانزكنغ» صورة للنتيجة التي وصل لها العالم اليوم في ظل الرأسمالية والعولمة مما يستدعي تداعياً عالمياً لبناء نظام «أخلاقي» لترميم ما يمكن ترميمه، «إن الناس يشكون اليوم عموماً من فراغ يتصل بالتوجه والاستهداء ومن أننا نعيش في ظل العولمة في حقبة ممزّقة تمزيقاً سياسياً ودينياً، حافلاً بالصراعات والحروب، وفي الوقت ذاته فقيراً بإمكانات الاستهداء والتوجه، لقد

---

(١) كتاب: إلى أين تتجه الرأسمالية العالمية؟ (١١، ١٢).

(٢) المصدر السابق (١٩، ٢٠).

فقدت سلطات معنوية كثيرة مصداقيتها؛ بل في عصر جُرَّ فيه كثير من المؤسسات إلى دوّامة من أزمات الهوية لها آثار عميقة في عصر انزلقت فيه مقاييس ومعايير كثيرة، حيث ما زال كثير من الناس وفيهم الشباب خاصة، لا يكادون يعرفون ما هو صالح، وما هو فاسد في مجالات الحياة المختلفة»[١].

إذن الفساد وانعدام الأخلاق هي سمة النظام الرأسمالي العالمي.

ولكن كيف يكون الحال، عندما يتطرق هذا الفساد إلى الحكومات والمنظمات الدولية التي كان إنشاؤها، لدعم الدول الفقيرة وبناء مشاريع تنموية لشعوب العالم الثالث؟!

نأخذ مثالاً لذلك شهادة رئيس المصرف الدولي عام (١٩٩٥م) وهو «جيمس دڤُلفنزُن» يقول: «كان هناك كثيرون ممن يعانون من الفساد، كان يتابهم الفزع حين كانوا يضطرون إلى أن يروا كيف كانت الموارد القيّمة التي كانت مرصودة للعمل التنموي تتبدّد؟ أو كيف كان موظفو الدولة من ذوي الدخل المتدني يتقلبون في أحضان الغنى فجأة؟ وكيف كان رجال الأعمال يحصلون على التكليفات بطريقة يتعذر تفسيرها؟ أو قبل كل الأشياء كيف يضطر الفقراء إلى دفع الرشوة في كل يوم، حتى عندما تتعلق المسألة بالمعالجة الطبية لطفل مريض»[٢].

ويكتب الدكتور «سيرجي غلازييف»[٣] في كتابه «الإبادة الجماعية لروسيا والنظام العالمي الجديد».

فيقول: «عُرِّفت الإبادة الجماعية على أنها جريمة ترتكب بنية التدمير الكلي أو الجزئي لجماعة قومية عرقية عنصرية أو دينية وما إلى ذلك، وهذا لا يلتزم بالضرورة استخدام العنف الجسدي؛ بل كل الأدوات التي من شأنها أن تفرض عن عمد على تلك الجماعة ظروف حياة ومعيشة تعود عليها بالتدمير الفعلي المادي كلياً أو جزئياً، لقد ارتكبت الرأسمالية أبشع جرائم الإبادة الجماعية

---

(١) مكافحة الفساد تقتضي نظاماً أخلاقياً (٢٧٧).

(٢) بحث بعنوان: جدول أعمال التطوير وتحدي الفساد، ضمن ملف شبكات الفساد العالمية (٢٨٦).

(٣) وزير العلاقات الاقتصادية الخارجية الأسبق في روسيا.

الوحشية في تاريخ العالم والبشرية ولكن باسم أنبل المثل والأهداف السامية في المجتمع، كما ارتكبت جرائم الإبادة في الثورة الفرنسية والحروب النابوليونية باسم الحرية وقيمها، ومورست أيضاً الإبادة الجماعية بحق السكان الأصليين لأميركا الشمالية باسم التقدم، وكذلك الأمر في روسيا حيث ارتكبت جرائم الإبادة الجماعية ضد رجال الدين والكنيسة والتجار والفلاحين في الفترة ما بين عامي (١٩١٧ ـ ١٩٣٧م)، وذلك باسم العدالة العالمية الشاملة والسعادة...

ثم يخلص غلازييف إلى هذه النتيجة: «إن محتوى هذه الأفكار قد يتغير ويختلف، ولكن سمتها العامة هي التي تقسم الناس إلى فئتين، عباد الله المختارين، وما سواهم، بحيث تخضع الفئة الأخيرة وهي فئة الجماهير الجاهلة إلى إعادة التعليم والمحق والعبودية»[١].

وآخر إفرازات الرأسمالية هذه والذي يمثل هدفاً يُراد تحقيقه هو: «العولمة».

«العولمة» هي الترجمة العربية المباشرة للكلمة الإنجليزية «Globalisetion»، وهي ما يعني: جعل العالم واحداً، موجهاً توجيهاً واحداً ولذلك يسميها البعض: بالكونية، أو الكوكبة[٢].

والعولمة الاقتصادية تبشر بها المؤسسات الاقتصادية الدولية.

فيقدمها صندوق النقد الدولي على أنها: «نمو الروابط الاقتصادية بين مختلف دول العالم على إثر نمو حجم التبادل عبر الحدود للبضائع والخدمات والانتشار السريع والعام للتكنولوجيا»[٣].

بينما هي في حقيقتها وغاياتها غير ذلك، إنها مخرج جديد في هياكله ووسائله، ليحقق نفس الأهداف الاستعمارية، والرأسمالية ليزداد الأغنياء غنًى، والفقراء فقراً.

يقدم لنا الفيلسوف الفرنسي الشهير «روجيه جارودي» هذا التحليل للعولمة:

---

(١) نقلاً عن كتاب: إمبراطورية الشر الجديدة (٢٦٧، ٢٦٨).

(٢) مقاربتان عربيتان للعولمة: ياسر عبد الجواد، مجلة المستقبل العربي عدد (٢٥٢) (ص١٢).

(٣) العولمة الاقتصادية: عباس برادة (١٥، ١٦).

يقول: «العولمة هي نظام يمكن الأقوياء من فرض الدكتاتوريات اللاإنسانية التي تسمح بافتراس المستضعفين بذريعة التبادل الحر، وحرية السوق»[(١)].

ويعتبر مؤلفا كتاب «فخ العولمة»: «هانس بيتر مارتن» و«هارالد شومان»: «أن العولمة هي إيصال البشرية إلى نمط واحد في التعبير، والأكل والملبس والعادات والتقاليد»[(٢)].

وهنا تختلط العولمة الاقتصادية التي على أساس التبادل المشترك بالعولمة الثقافية التي تدمر ثقافات الشعوب وأديانها وقيمها.

ويقدم لنا رئيس وزراء ماليزيا السابق «مهاتير محمد» شهادته الواقعية من موقعه كرئيس لدولة عانت من الأضرار الوخيمة للعولمة.

يقول: «إن العالم المعولم لن يكون أكثر عدلاً ومساواة، وإنما سيخضع للدول القوية المهيمنة، وكما أدى انهيار الحرب الباردة إلى موت وتدمير كثير من الناس؛ فإن العولمة يمكن أن تفعل الشيء نفسه، وربما أكثر من ذلك، في عالم سيصبح بإمكان الدول الغنية المهيمنة فرض إرادتها على الباقين الذين لن تكون حالهم أفضل مما كانت عليه عندما كانوا مُسْتَعْمرين من قبل أولئك الأغنياء»[(٣)].

ويلخص الأستاذ «سيّار الجميل» أهداف العولمة الخطيرة، فيقول: «إنها عملية اختراق كبرى للإنسان وتفكيره، وللذهنيات وتراكيبها، وللمجتمعات وأنساقها، وللدول وكياناتها، وللجغرافية ومجالاتها، وللاقتصاديات وحركاتها، وللثقافات وهويتها، وللإعلاميات وميدياتها»[(٤)].

لقد نمت بشكل سريع أخطار اقتصادية واجتماعية ونفسية كبيرة نتيجة للعولمة بكل أبعادها، ويحدد لنا مؤلفا كتاب «فخ العولمة» الآثار الخطيرة في الآتي:

١ ـ زيادة نسبة البطالة في كل البلدان حتى التي تمتلك ثروات طبيعية.

٢ ـ تدني نسبة الأجور للعمال والطبقة المتوسطة. بما لا يتناسب مع غلاء المعيشة.

---

(١) العولمة المزعومة ـ الواقع ـ الجذور ـ البدائل (١٧).

(٢) فخ العولمة (٥٥، ٥٦).

(٣) نقلاً عن مجلة: الإسلام اليوم، عدد (١٦) (ص١٩).

(٤) العولمة والمستقبل وإستراتيجية تفكير (٣٢).

٣ ـ تدهور مستوى المعيشة. نظراً للغلاء الفاحش للسلع والعقارات.

٤ ـ تقلص الخدمات الاجتماعية التي تقدمها الدولة.

٥ ـ ابتعاد الحكومات عن التدخل في النشاط الاقتصادي وقصر دورها على حراسة النظام.

٦ ـ تفاقم التفاوت في الثروات بين مواطني البلد الواحد[١].

وكان للعولمة آثارها الاجتماعية والأخلاقية الخطيرة والمتمثلة في:

١ ـ التدمير للنسيج الأُسري والتفكك العائلي وضياع أو ضعف قوامة الرجل على زوجه وأهله وولده، وضياع حقوق الوالدين، وضياع أو ضعف صلات الأرحام وحقوق الجيران.

ومن دلالات القرآن الكريم العظيمة ربطه بين الفساد في الأرض وبين التفكك الأسري وضياع حقوق الأقارب والأرحام.

قال الله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٢ ـ ٢٤].

وفي قوله تعالى: ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾، وجهان من التفسير لأهل التفسير:

الأول: ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾؛ أي: أعرضتم عن كتاب الله تعالى وتنزيله، وفارقتم أحكام كتابه، وأدبرتم عن محمد ﷺ وعما جاءكم به، فينتج من ذلك الفساد العريض في الأرض من الكفر بالله وسفك الدماء وأكل الأموال بالباطل وقطع الأرحام.

قال الإمام قتادة: «فهل عسيتم، كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله، ألم يسفكوا الدم الحرام وقطعوا الأرحام، وعصوا الرحمٰن»[٢].

والثاني: أن معنى قوله تعالى: ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ من الولاية؛ أي: وَلِيتُم أمور الناس والحكم فيكم، أن تفسدوا في الأرض.

قال أبو العالية: «المعنى: فهل عسيتم إن توليتم الحكم فجعلتم على الناس

---

(١) فخ العولمة (٥٥ ـ ٥٨).

(٢) تفسير الطبري (١١/ ٣٢٠).

حكاماً أن تفسدوا في الأرض بأخذ الرُشا»[(١)].

وقال الكلبي: «فهل عسيتم إن توليتم أمر الأمة أن تفسدوا في الأرض بالظلم»[(٢)].

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عموماً، وعن قطع الأرحام خصوصاً؛ بل وقد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض، وصلة الأرحام، والإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال، وبذل الأموال»[(٣)].

وهذا ما صنعته العولمة، فلما ولي أمور الناس في العالم بارونات الربا، ودهاقنة رأس المال وشركات الاحتكار وأنظمة منظمة التجارة الحرة، وأخلاق السوق، أدبر الصلاح وشاع الفساد في كل اتجاه، وتفككت الأسر، وضاعت القيم، وأهدرت الحقوق، ودُمرت الأخلاق.

يعترف الرئيس الأمريكي السابق «جيمي كارتر» بذلك، فيقول: «في دولة كانت تتباهى بالعمل الدؤوب، والعائلات المترابطة، والمجتمعات المتينة في بنيانها وإيمانها، أصبحت اليوم تميل إلى عبادة الانغماس الذاتي، والاستهلاك، ولم يعد تعريف الهوية الإنسانية بما يفعله الإنسان؛ بل بما يملكه، ولذلك اكتشفنا أن امتلاك الأشياء واستهلاكها لا يشبع حاجتنا إلى الأمور المعنوية والروحية، وقد تعلمنا أن تكديس السلع المادية لا يكفي لملأ الفراغ الذي يكتنف الحياة عندما لا يكون فيها إيمان أو غرض»[(٤)].

يعلّق الدكتور «عبد الحي زلوم» على هذا فيقول: «لا يسفر هذا النموذج من الرأسمالية ذات القيم المادية عن شيء إلا الجريمة، والجريمة المنظمة وما شاكلها. وقد أوردت شركة الإذاعة الوطنية الأمريكية «NBC» عام (١٩٩٧م) في تقرير لها عن مدينة «لوس أنجلوس»، ما يفيد أن أغلبية الـ (١٥٠) ألفاً من أعضاء العصابات المسلحة من المراهقين، ويلقى حوالي (٩٠٠٠) شخص سنوياً حتفهم على أيدي تلك العصابات منهم (٢٥٪) من المارة الأبرياء.

(١) تفسير القرطبي (١٦/ ١٦٢).
(٢) تفسير القرطبي (١٦/ ١٦٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٦٥٩).
(٤) نقلاً عن كتاب: إمبراطورية الشر الجديدة (١١، ١٢).

في ثقافة المادة والنمو الاقتصادي والرغبات المباحة، يُغَذَّى هؤلاء المراهقون بالثقافة التي تشجعهم على العنف وتحرضهم على الجريمة؛ لأنها تجارة مربحة، فالمال في النظام «الأنجلو ساكسوني»، الرأسمالي هو المقياس النهائي للنجاح»[١].

يقول المفكر الأمريكي «نعوم تشومسكي» مبيناً طرفاً من النتائج الكارثية للعولمة الاقتصادية وسيادة أخلاق السوق: «أدت نهاية التحالف الثري، وانطلاقة العصر الأمبريالي الجديد، إلى تشديد الحرب الطبقية الداخلية، إن ترسّخ المظاهر «العالمثالثية» عندنا هو من النتائج الملازمة لعولمة الاقتصاد: الميل الثابت نحو مجتمع ثنائي الإطار تكون فيه قطاعات كبيرة من السكان فائضة من وجهة نظر تعزيز ثراء أصحاب الامتيازات، ولا بد الآن من أي وقت مضى من السيطرة على الرعاع أيديولوجيا ومادياً، وحرمانهم من حقوق التنظيم وتبادل الرأي التي هي شروط أولية للتفكير البناء والفعل الاجتماعي»[٢].

ويضيف الدكتور «زلوم» إيضاحاً فيقول: «إن قيم هذا النظام أوجدت تبايناً صارخاً في الثروات حيث يهيمن (١٪) فقط من الشعب الأمريكي على ثروات تزيد أضعاف المرات على ما يمتلكه (٨٠٪) من الشعب مجتمعين.

في مطلع القرن الواحد والعشرين فقد صنف المكتب الأميركي العام للإحصاء حوالي: (٦٠) مليون أميركي كفقراء كثير منهم مشردون دون مأوى. وفي كل مدينة أميريكية توجد أحياء فيها فقر مدقع وبذلك توجد: «عوالم ثالثة» داخل أميركا نفسها.

وصف «روبرت. إي. دافولي» «Robert E. Davoli»، المدير التنفيذي لإحدى الشركات الأميريكية العملاقة، النظام الأميركي بقوله: «إن الرأسمالية هي انحراف وتضليل. لدينا أعلى معدلات الجريمة في العالم، لدينا أناس يعيشون على قارعة الطريق دون أن يُلقي أحد لهم بالاً».

لقد أفرز نظام الرأسمالية الاستعمارية تفاوتاً وعدم مساواة بين الأمم على صعيد العالم كله وهو أمر آخذ في التزايد، وهناك (٣٥٨) ملياردير اً يتربعون على

---

(١) المصدر السابق (١٢).

(٢) سنة (٥٠١م)، الغزو مستمر (٤٤٥، ٤٤٦).

ثروة مجتمعة تعادل إجمالي ما يملكه أفقر (٢,٥) مليار إنسان على ظهر الأرض.

إن الرأسمالية والمصالح متعددة الجنسيات أفرزت طبقة (الواحد بالمئة) «One percent ClAss» في كل الدول القطرية، وترابطت مصالح البارونات القطريين في كل دولة مع البارونات العالميين، وتشابكت معاً، وتقدم تلك المصالح على المصالح الوطنية لكل قُطر، لقد أصبح البارونات القطريون في بلدانهم أقل حجماً فصاروا حراساً لمصالح البارونات الكبار اللصوص غير القطريين، بينما تم التخلي عن سيادة الدول القومية ليحل محلها نظام الدول القطرية العميلة التي تدار لحساب البارونات الكبار غير القطريين، إن أصحاب النظام العالمي الجديد هم البارونات اللصوص عرّابو «وول ستريت» لقد صادروا القيم الأميريكية الأصلية، وحولوا الحلم الأميركي إلى كابوس، ورفعوا من شأن الرأسمالية المعلوماتية لترقى إلى مستوى عقيدة ذات قيم ومبادئ تناصب قيم كافة العقائد الأخرى وأخلاقياتها العداء»[١].

٢ ـ الفساد الأخلاقي، وانتشار الإباحية وهدر الأعراض، والاستخدام المذل للمرأة، ونتج منه انتشار مخيف للأمراض الجنسية وعلى رأسها (الإيدز) نتيجة لهذه الفوضى والإباحية.

إحدى أبرز معالم الفساد العريض للعولمة، والنظام الرأسمالي المادي الغربي، تقول الإحصائيات:

- (٤٠) مليون مصاب بالإيدز في العالم حتى عام (٢٠٠٠م).
- (٦٥٪) من النساء العاملات يتعرضن للتحرش الجنسي في مكان العمل في أوروبا. حسب مسؤولية التوظيف والسياسة الاجتماعية في المجلس الأوروبي في بروكسل.
- (١٥٪) إلى (٢٠٪) من نساء أمريكا اغتصبن بحسب دراسة أعدت بتكليف من وزارة العدل والصحة الأمريكية[٢].

٣ ـ أصبح الاتجار بالبشر خصوصاً النساء والأطفال سلعة رائجة في عالم

---

(١) إمبراطورية الشر الجديدة (١٣، ١٤).

(٢) انظر: عولمة الغرب وعالمية الإسلام، العربي بوسلهام (٤٧، ٤٨) من منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط.

اليوم المعولم، لقد عادت بفضل الرأسمالية والعولمة «تجارة الرقيق» إلى البشرية ودخلت فيها شبكات ووكالات دولية تتاجر بالنساء لأجل الجنس، وكذا الأطفال لأغراض جنسية، وشارك فيها في بعض الأحيان رؤساء دول من دول العالم الثالث. وهدفها جمع المليارات على مصائر هؤلاء المخطوفين البؤساء.

الأرقام التي تعلنها الهيئات الدولية تشير إلى أن هذه الكارثة البشرية استشرت بشكل مخيف في العقود الأخيرة.

• أعلنت منظمة «اليونيسيف» العالمية للطفولة التابعة للأمم المتحدة في تقرير لها عام (٢٠٠١م) أن أكثر من (٢٠) مليون طفل بيع خلال العشر سنوات الأخيرة في العالم لأغراض جنسية وغيرها. وأن أكثر من مليون امرأة وطفل يتعرضن للخطف والخداع ثم البيع كل عام. وأصبحت تجارة الرقيق الأبيض هذه ثالث أكبر مداخيل رأسمالية مربحة بعد تجارة السلاح والمخدرات.

ومعظم هؤلاء يُؤتى بهم من أفريقيا وأمريكا اللاتينية وأوروبا الشرقية.

• في روسيا توجد ثماني مؤسسات أمريكية تحتكر سوق تجارة الأطفال العالمية مقابل أسعار تتراوح بين عشرة آلاف وخمسين ألف دولار للطفل الواحد.

• في ألمانيا تشهد تجارة النساء والأطفال انتعاشاً ظاهراً.

فقد ذكرت المنظمة الإنسانية الألمانية في تقريرها السنوي عام (١٩٩٧م) أن حالات التبني القانونية للأطفال الأجانب عبر المنظمات الإنسانية لا تشكل سوى (٢٥٪) من مجموع (١١٠٠) طفل تم تبنيهم عام (١٩٩٦م) أما الجزء الأكبر فيتم عبر وسطاء مشبوهين من خلال التهريب والتزوير والخطف.

• في الصين ارتفع عدد النساء والأطفال المخطوفين بهدف التجارة والاستغلال الجنسي، فقد تمكنت الشرطة الصينية خلال عملية استمرت عشرة أيام من تحرير أكثر من (١٦٠٠) امرأة وطفل خطفوا في مقاطعة جاندونج جنوب الصين. وحسب الإحصاءات الرسمية ارتفعت نسبة النساء والأطفال المخطوفين بقصد البيع والاستغلال الجنسي من (٤ ـ ١١٪) عام (١٩٩٩م).

• وفي شرق آسيا أصبحت فيتنام وكمبوديا مصدراً رئيساً لبيع أبناء الأسر

الفقيرة إلى شبكات دولية تعمل في تجارة الرقيق الأبيض[١].

٤ ـ الفساد بكل أشكاله وصوره وألوانه ينخر في عظام ومفاصل هذا العالم بجميع دوله وحكوماته، مما ينذر بانهيار كبير ودمار للحياة عظيم.

تصرخ الكاتبة الفرنسية: «فيفيان فوستر» في كتابها الشهير «الرعب الاقتصادي» صرخة نذير بالدمار الكبير لهذا العالم، المعولم.

تقول: «ما الذي يحصل عندما نعلم أنه ليست ثمة أزمات؛ بل مجرد تبدل وتحول يقودان المجتمع بأكمله؛ بل وحتى الحضارة بأجمعها إلى المجهول؟ بدون أن ندرك أن الحضارة السابقة ولّت إلى الأبد»[٢].

والمحصلة النهائية: أننا أمام فساد عريض... في هذا العالم متى ما بقي النظام الرأسمالي هو القائم. لا تزيده القوى الغربية في الدول الكبرى والبنوك العالمية ومنظمة التجارة الحرة إلا طغياناً كبيراً.

المحصلة كما تحددها منظمة الشفافية العالمية[٣] في تقريرها الضخم الذي طرحته بعنوان: «شبكات الفساد والإفساد العالمية»[٤].

وبعد أن جالت هذه التقريرات في أنواع وصور الفساد في العالم وتحت عنوان «الخلاصة».

يقول التقرير: «الفساد في كل مكان، في البلدان الصناعية الغنية، وفي الأقاليم الفقيرة، وفي الشمال والجنوب، وفي الشرق والغرب، ولأول وهلة يرسم تقرير الفساد العالمي صورة باعثة للتشاؤم. ففي كل مكان يبدو الفساد شيئاً لا سبيل إلى استئصال شأفته، وربما كان في وسع المرء أن يقول: إننا كتبنا على أنفسنا نحن في مؤسسة «الشفافية العالمية» أن ننهض بعبء عمل من أعمال الجبابرة الأسطوريين. ففي كل يوم تُضاف متغيرات جديدة من الرشوة والغش

---

(١) المصدر: مجلة المستقبل، عدد (١٢٧) فبراير (٢٠٠٢م) (٣٦ ـ ٣٨).

(٢) الرعب الاقتصادي (١١).

(٣) منظمة دولية مقرها ألمانيا أسسها أحدى مسؤولي المصرف الدولي السابقين وهو «بيتر آيغن» «Peter Eigen».

(٤) صدر هذا التقرير باللغة الإنجليزية والألمانية عام (٢٠٠٣م)، وصدر بالتعاون بين كل من الصندوق الثقافي الاتحادي ومعهد غوته ومعرض فرانكفورت للكتاب، وصدرت الطبعة العربية منه سنة (٢٠٠٥م) دمشق.

والمخادعة، فكأننا نتصدى لوحش مرعب ينبثق من كل رأس مقطوع من رؤوس الأفعى الأسطورية المتعددة الرؤوس...

يسعى الناس على النطاق العالمي إلى التذمر، أما مدى ما كان من تمييز الأثر القاتل للفساد، فذلك يتجلى في كل مكان، إذ لا يوجد بلد في العالم يكشف عن حالات الفساد الخاصة به، وبينما تشعر الحكومات في بعض البلدان أن الصحفيين المنقِّبين، وتجمعات المجتمع المدني يهددونها اليوم، وترد على ذلك بالأعمال الانتقامية. يؤدي التزام «الأمم المتحدة»، ومؤسسات «برايتون وودز»، ومنظمات المجتمع المدني كمؤسسة (الفساد العالمية) وكثير من البشر الملتزمين إلى القيام بأعمال مطّردة الزيادة، ضد الفساد، وهناك قوانين تصدر وتوجِّه الاتهامات إلى السياسيين والموظفين، ويلاحقون ملاحقة جنائية، وهناك مؤسسات تضع لنفسها قواعد وتأبى دفع الرشاوى، بينما يلح المجتمع المدني على المشاركة في عملية الرقابة...

وما من شك في أنه ما زال هناك الكثير والكثير جداً مما يترتب فعله، ولقد كانت لنا انطلاقة حسنة، على أنها لا تخدعنا عن حقيقة أن الفوز في الكفاح ضد هذا الوبال لم يتهيأ حتى ولا في شطر منه»[1].

والعالم العربي له نصيبه الأوفى من هذا الفساد الاقتصادي نظراً للتبعية، وعدم الشفافية.

يقدم لنا التقرير السنوي للمنظمة العربية لحقوق الإنسان هذه الصورة.

- **تحت عنوان: «الفساد وهدر الموارد يلتهمان ثمار النمو والتنمية»:**

تخلص الدراسات المتخصصة بالشفافية ومكافحة الفساد إلى أن الفساد ونقص الشفافية يتوغلان في المنطقة العربية مما يعرقل مسيرة التنمية والمساءلة العامة، وتخلص أيضاً إلى نقص إمكانية الوصول إلى بيانات دامغة حول أشكال معينة من الفساد وطبيعته.

ويترتب على الفساد آثار مدمرة ليس على صعيد التنمية الاقتصادية فحسب؛ بل أيضاً على صعيد المشروعية السياسية والعمليات المنفذة في المنطقة كما أن

---

(١) خاتمة تقرير: شبكات الفساد والإفساد العالمية (٣٣٢، ٣٣٣).

الفساد يؤدي إلى تفشي سيطرة الدولة من خلال الأحزاب الحاكمة أو الصفوة من الأقلية»[١].

إن صلاح هذا العالم لا يكون إلا بالتشريع الإلـٰهي الكريم، فخالق الإنسان هو الذي يعلم أدواءه وهو الذي يعلم ما يصلح له ويصلحه.

إن أعظم ما أنتجه النظام الإسلامي هو العدل الاجتماعي وسيادة مبدأ الرحمة والإحسان.

تكتب «كارين آرمسترونغ» «Karen Armstrng» هذه الشهادة:

«لقد كان العدل الاجتماعي هو المفهوم الأكثر أهمية في الإسلام، ولقد أُمِرَ المسلمون كأولى مهامهم بِبناء أمّة تتميز فيما بينها بالرحمة والتي يسودها توزيع عادل للثروة إن هذا هو الأكثر أهمية من الطقوس الأخرى»[٢].

وتقدم «منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية» «OECD» هذه الشهادة: «تختلف المفاهيم الإسلامية عن الرأسمالية في أنها تعارض كنز الثروات، وعن الاشتراكية من حيث أنها لا تنكر حقوق الملكية، بما فيها ملكية وسائل الإنتاج، فالمجتمع الإسلامي الصحيح ليس بأي حال من الأحوال حلبة تتصارع فيها المصالح المختلفة وتتناحر؛ بل إنه مكان تسوده العلاقات المنسجمة التي يمكن تحقيقها والوصول إليها من خلال الإحساس بالمسؤوليات المشتركة. ولا بد لحقوق الأفراد أن تكون متوازنة مع مصالح المجتمع بأكمله على نحو متساوي»[٣].

---

(١) حقوق الإنسان في الوطن العربي، التقرير السنوي (٢٠٠٩ ـ ٢٠١٠م) (٢٥١).

(٢) كتاب: الإسلام (٦).

(٣) من كتاب: إمبراطورية الشر الجديد (٣٨٠).

خاتمة

ما نؤكّد عليه في خاتمة هذا الكتاب:

أولاً: إن أي انقلاب على مشروع الاستصلاح الإلـهي الحنيف المتمثل كمالاً وجمالاً في الدين الإسلامي الحنيف: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، هو بالضرورة عود بالبشرية إلى مشاريع بشرية وضعية. لا تزيد الإنسان إلا ارتكاساً في بشريته المظلمة. ثم إنها شئنا أم أبينا تعبيدُ البشر للبشر في أي صورة من الصور.

ثم هناك الخوض الفلسفي العقيم في تحديد محددات الحرية التي يبحث عنها الإنسان وهو خوض لا يزيد مفهوم الحرية إلا غموضاً.

لقد أصاب «مونتسكيو» عندما قال في كتابه: «روح القوانين»: «ليس هناك مصطلح تلقّى من الدلالات المختلفة أكثر مما تلقّاه مصطلح الحرية»[1].

تقول الدكتورة: «يمنى طريف الخولي» في مقدمة بحثها: «الحرية في الطبيعة ماذا تعني؟

أول ما يقال من مقولة الحرية هو أنها هلامية فضفاضة، مترامية الأطراف، ضائعة الحدود، لا مبتدأ لها ولا منتهى، فالحرية تكاد تكون المقولة الوحيدة التي تتداخل في شتى كليات وجزئيات التجربة الإنسانية وسائر جوانب عالم الإنسان المعيشي، وأيضاً لقلة عقله... فلا غرو من شيوع القول: إن الحرية مشكلة

(١) نقلاً عن العرب وسؤال الحرية، عبد القادر بوعرفة ضمن أعمال الندوة الفلسفية السابعة عشرة، جامعة القاهرة (١٥٦).

تائهة، أوراق اعتمادها ضائعة»[١].

ثانياً: أصبح مصطلح الحرية في واقعنا العربي المعاصر وبشكل مغلوط يرتبط أشد الارتباط بالمقولات السياسية والاجتماعية ذات التوجّه الليبرالي.

فالحرية المتداولة في الشارع العربي تتجه نحو تغليب النظرة الغربية التي تحاول تصدير مفاهيم الحرية وحقوق الإنسان.

ومن أجل ذلك ربط الوعي العربي الصراع القائم بين العالم الغربي والعالم الإسلامي ضمن صراع القيم وخاصة قيمة الحرية.

لقد أدرك «صموئيل هنتنغتن» في كتابه الشهير: «صراع الحضارات» هذا الأمر الحاسم فقال: «يخشى المسلمون، ويتبرّمون من قوة الغرب، وما تعنيه من تهديد لمجتمعهم ومعتقداتهم، فهم يرون الحضارة الغربية حضارة مادية، فاسدة، متعفنة، ولاأخلاقية، ويرغبون في درء مخاطرها عن طريقتهم في الحياة، ويزداد هجوم المسلمين على الغرب لا لكونه متمسّكاً بدين غير كامل، فالغربيون على كل حال من أهل الكتاب، ولكن هجومهم أساسه أن الغرب لا يتمسك بأي ديانة على الإطلاق»[٢].

فالمشروع الليبرالي جعل من الحرية ومنظومة الحقوق «حصان طروادة» من أجل الولوج بسهولة إلى القيم الإسلامية الكريمة ومن ثم تدميرها، بعد أن تعذر ذلك على الغرب بأسلوب المواجهة الصريحة.

لقد عادت أفكار منظمة «النيهلست» من جديد من مدخل الحرية الليبرالية، يعرّف منير البعلبكي في قاموس «المورد» النيهلسم «Nihilism». «بأنها العدميَّة، وهي نظرة تقول بأن القيم والمعتقدات التقليدية لا أساس لها من الصحة، وأن الوجود لا معنى له ولا غناء فيه، وتنكر أن يكون للمبادئ الأخلاقية أي أساس موضوعي، وترى أن الأحوال في المجتمع قد وصلت حداً من السوء بجعل الهدم مرغوباً فيه لذاته بمعزل عن أي برنامج إنشائي»[٣].

---

(١) الحرية في الطبيعة... ماذا تعني، ضمن أعمال الندوة الفلسفية السابعة عشرة بجامعة القاهرة (٦٩).

(٢) صراع الحضارات «The Clash OF Civilizations»، (١٥٧).

(٣) قاموس المورد (٦١٣).

فأصبح الطرح الليبرالي الرافع لشعار الحرية يعيد صياغة مقولات الإلحاد، وشبهات منكري الغيبيات والساخرين بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام من جديد.

بتراتيبيّة وشبهات مكرورة، ما زادت هدي الأنبياء ﷺ إلا بريقاً وظهوراً ولا الإلحاد إلا زيفاً وتعرياً.

على حد قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة: ٦٤].

فالذي لا يزيده ما أنزل الله على أنبيائه إلا الكفر والطغيان سيكون بحكم الله القدري على هذا الحال:

١ ـ العداوة والبغضاء، لكل قيمة كريمة والسعي لتحقيق الأنا الفردية مما سيجعله مبغضاً معادياً لكل ما سواه وسوى رغبته وهواه. خصوصاً ما فيه قيمة فضيلة وصلاح للبلاد وخير للعباد.

٢ ـ أنهم وقود نار لكل شر وفتنة، وحرب على الدين القويم والأخلاق المستقيمة والطهر والعفة وكل خلق كريم جميل، مما سيجعلهم دوماً أسّ كل شر، ورأس كل بلاء، ووقود كل حرب على القيم والأخلاق.

٣ ـ السعي الحثيث والعمل الدؤوب للإفساد في الأرض، فصارت مادتهم الروحية وقيمهم النفسية من طبيعة الفساد نفسه، فلا تستعذب غيره ولا تستطيع أن تعيش إلا به ولأجله، فيصبح عدوها هو النور والضياء والكرامة والشرف، والصلاح والإصلاح، على حد قول الله تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [النساء: ٨٩].

وقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وعلى حد قول القائل: «ودت المرأة الزانية أن النساء كلهن زواني».

والشاعر يقول:

خفافيش أعماها النهار بضوئه ووافقها قطع من الليل مظلم

ثالثاً: لقد ناضل الإنسان في مراحل من التاريخ وأنواع من المجتمعات من أجل الحرية ضد كل أشكال العبودية، ولكن ما إن يظن أنه حصل عليها حتى يجد نفسه أسيراً عبداً مملوكاً لقوى أخرى جديدة تكبله فينشأ صراع جديد ضدها، ويجد الإنسان نفسه في حاجة إلى قوة تحميه وتحفظ كرامته.

ليطلبها بعضهم في الديمقراطية كبديل للدكتاتورية.

ويراها بعضهم في إطلاق العنان للحرية الفردية من كل عقال: لتحقيق الأنا الذاتية، وكسر أي نوع من التسلط على حساب الأسرة والمجتمع والأمة والقيم، والمورث الثقافي كله، لتبدأ دورة صراع جديدة والشعار المرفوع دائماً والغاية المطلوبة باستمرار هي: الحرية.

عبّر أحدهم وهو: «جون ستيوارت مل» عن هذا الصراع.

فقال: «ما زال النزاع بين الحرية الشخصية، والسلطة الأميرية أوضح الظواهر فيما نعرف من تاريخ أقدم الأمم لا سيما اليونان، والرومان، والإنجليز.... فكان معنى الحرية حماية الأفراد من استبداد الحكام... كان مَثَل الرعية مَثَل قطيع من الغنم تهدده طائفة من الذئاب فيلجأ الأفراد إلى أقواهم ليحميهم، لكنه عاد عليهم فكان أشد بطشاً بهم»[1].

فصار الصراع لأجل الحرية والبحث عن الأمان هو الواقع. وشعور الإنسان بالضعف والعجز أمام القوى التي تستذله وتستعبده هو الشعور الدائم المصاحب لناشدي الحرية.

وهذا يشبه ما ذكره الله تعالى عن العرب أيام جاهليتهم، فشعورهم بالخوف الدائم من القوى المسيطرة عليهم فيلجؤون لما يرونه أقواها فيزيدهم رعباً ويسومهم ذلاً.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: ٦].

---

(١) كتاب: الحرية، ترجمة طه السباعي (٥، ٦).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في معنى هذه الآية: «كنا نرى أن لنا فضلاً على الإنس لأنهم كانوا يعوذون بنا إذا نزلوا وادياً أو مكاناً موحشاً من البراري وغيرها كما كانت العرب في جاهليتها يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان أن يصيبهم بشيء يسوؤهم... فلما رأت الجن أن الأنس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم رهقاً؛ أي: خوفاً وذعراً حتى بقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذاً بهم»[1].

حتى طلبُ الإنسان لحريته الشخصية ومطالبته بكسر كل ما يعوقها هو ارتكاس خطير، وتمرد أثيم على المجتمع والأمة وفتح للهوى والشهوة بما يعني بالضرورة العدوان والفساد.

يقول «كارل ياسبرز»: «في القرن التاسع عشر انتهى الكفاح في أوروبا ضد السلطات التي يرجع عهدها إلى العصور الوسطى، بمنح كل فرد قدراً من الحرية، ربما لم يسبق لها مثيل في التاريخ، ونجم من ذلك فيما يظهر أن كثيرين من الناس لم يدركوا ما يصنعون بالحرية التي ظفروا بها فقد انحرفت، وصارت أقرب إلى الهوى والتحكم»[2].

ظهرت النزعة الليبرالية التي دعت إلى تحرير الإنسان من كل أشكال العبودية؛ لكنها حوّلت الإنسان إلى جزء من آلة اقتصادية وتقنية وبيروقراطية ضخمة تضاءلت فيها حريته واغترب بسببها عن روح أمته واغترب بها حتى عن ذاته، وعاد ساخطاً ذاماً لكل موروثه الديني والثقافي محملاً إياه كل خلل سابق ولاحق.

رابعاً: لا بد من حدود ونظام ممكن التطبيق لتنظيم مستويات وحدود ما يطالب به كل فردٍ من حرية من جهة، ومن جهة أخرى عدم مصادمة حرية الفرد مع حقوق المجتمع والأمة.

وهنا تتعدد الأطروحات ويستنفد الجهد الفكري البشري في ما هو أشبه بالخيالات والمثل الأفلاطونية.

يقدم أحد المفكرين نتيجة بحثه بعد ثلاثين عاماً من التفكير والدراسة...

يقول «كارل بوبر» في كتابه: «بحثاً عن عالم أفضل، محاضرات ومقالات ثلاثين عاماً»:

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٩٤).

(٢) مدخل إلى الفلسفة (٢٩١، ٢٩٢).

«المجتمع المثالي مستحيل. ذلك أن كل القيم تتعارض مع القيم الأخرى. حتى الحرية التي تعد أسمى القيم الاجتماعية والشخصية، حتى هذه لا بد أن تكون مقيدة. . . وهذا يعود بنا إلى ما قاله «إمانويل كانط» من أن مهمة التشريع هي أن يسمح للقدر الأقصى الممكن في حرية كل فرد، بأن يوجد جنباً إلى جنب مع أقصى قدر ممكن من الحرية لكل فرد آخر» بمعنى آخر: إن الحرية لا بد للأسف أن يقيدها القانون والنظام، إن النظام معادل ضروري للحرية»[(١)].

لكن لا حل يرجى عندما يضع البشر بأنفسهم هذا التشريع الضامن لتساوي الحريات وعدم تصادمها كما طالب «كانط»؛ لأنه سيكون ناقصاً حسيراً فيه الصنعة البشرية المأزومة الجاهلية، ذات الهوى والشهوة.

والحق ما قاله خالق هذا الإنسان: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون: ٧١].

يقول الإمام «ابن جرير الطبري» رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولو عمل الربّ تعالى ذكره بما يهوى هؤلاء المشركون، وأجرى التدبير على مشيئتهم وإرادتهم وترك الحق الذي هم له كارهون، لفسدت السموات والأرض ومن فيهن؛ وذلك أنهم لا يعرفون عواقب الأمور، والصحيح من التدبير والفاسد، فلو كانت الأمور جارية على مشيئتهم وأهوائهم مع إيثار أكثرهم الباطل على الحقّ، لم تقرّ السموات والأرض ومن فيهنّ من خلق الله؛ لأن ذلك قام بالحق»[(٢)].

وقال «الإمام القرطبي» رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقيل: لو اتبع الحق أهواءهم؛ أي: بما يهواه الناس ويشتهونه لبطل نظام العالم؛ لأن شهوات الناس تختلف وتتضاد، وسبيل الحق أن يكون متبوعاً، وسبيل الناس الانقياد للحق»[(٣)].

ومن حسن دلالات القرآن العظيم وترتيبه أن الله تعالى قال بعد هذه الآية في وصف النبي ﷺ، وما أنزل عليه، وما يدعو من الخير والصلاح إليه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [المؤمنون: ٧٣، ٧٤]؛ أي: تدعوهم إلى دين قويم وخير عميم وهدى مستقيم،

---

(١) كتاب: بحثاً عن عالم أفضل، ترجمة أحمد مستجير (١٥١).
(٢) تفسير الطبري (٩/٢٣٣).
(٣) تفسير القرطبي (١٢/ ٩٤).

فمن عدل عنه ونكب عنه عاد إلى أهواء البشر واستعباد بعضهم بعضاً.

إن الضامن لكرامة الإنسان وحقوقه حقاً هو الشرع المنزل من عند الله خالق الإنسان العالم بأدوائه ودوائه.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ [الإسراء: ٩ ـ ١١].

قال الشيخ المفسر محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: «فَالْمَصَالِحُ الَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ الشَّرَائِعِ ثَلَاثَةٌ:

الْأُولَى: دَرْءُ الْمَفَاسِدِ، الْمَعْرُوفُ عِنْدَ أَهْلِ الْأُصُولِ بِالضَّرُورِيَّاتِ.

وَالثَّانِيَةُ: جَلْبُ الْمَصَالِحِ، الْمَعْرُوفُ عِنْدَ أَهْلِ الْأُصُولِ بِالْحَاجِيَّاتِ.

وَالثَّالِثَةُ: الْجَرْيُ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الْعَادَاتِ، الْمَعْرُوفُ عِنْدَ أَهْلِ الْأُصُولِ بِالتَّحْسِينِيَّاتِ وَالتَّتْمِيمَاتِ. وَكُلُّ هَذِهِ الْمَصَالِحِ الثَّلَاثِ هَدَى فِيهَا الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ لِلطَّرِيقِ الَّتِي هِيَ أَقْوَمُ الطُّرُقِ وَأَعْدَلُهَا.

فَالضَّرُورِيَّاتُ الَّتِي هِيَ دَرْءُ الْمَفَاسِدِ إِنَّمَا هِيَ دَرْؤُهَا عَنْ سِتَّةِ أَشْيَاءَ:

الْأَوَّلُ: الدِّينُ، وَقَدْ جَاءَ الْقُرْآنُ بِالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ بِأَقْوَمِ الطُّرُقِ وَأَعْدَلِهَا.

الثَّانِي: النَّفْسُ، وَقَدْ جَاءَ الْقُرْآنُ بِالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا بِأَقْوَمِ الطُّرُقِ وَأَعْدَلِهَا.

الثَّالِثُ: الْعَقْلُ، وَقَدْ جَاءَ الْقُرْآنُ بِالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ بِأَقْوَمِ الطُّرُقِ وَأَعْدَلِهَا.

الرَّابِعُ: النَّسَبُ، وَقَدْ جَاءَ الْقُرْآنُ بِالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ بِأَقْوَمِ الطُّرُقِ وَأَعْدَلِهَا.

الْخَامِسُ: الْعِرْضُ، وَقَدْ جَاءَ الْقُرْآنُ بِالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ بِأَقْوَمِ الطُّرُقِ وَأَعْدَلِهَا.

السَّادِسُ: الْمَالُ، وَقَدْ جَاءَ الْقُرْآنُ بِالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ بِأَقْوَمِ الطُّرُقِ وَأَعْدَلِهَا.

أما الْمَصْلَحَةُ الثَّانِيَةُ: جَلْبُ الْمَصَالِحِ...، فَفَتَحَ الْقُرْآنُ للناس الْأَبْوَابَ لِجَلْبِ الْمَصَالِحِ فِي جَمِيعِ الْمَيَادِينِ... وأَبَاحَ الْمَصَالِحَ الْمُتَبَادَلَةَ بَيْنَ أَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَشْرُوعِ، لِيَسْتَجْلِبَ كُلٌّ مَصْلَحَتَهُ مِنَ الْآخَرِ.

أما الْمَصْلَحَةُ الثَّالِثَةُ: وهي الْجَرْيُ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الْعَادَاتِ،

وَقَدْ حَضَّ الْقُرْآنُ عَلَى مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الْعَادَاتِ»[١].

خامساً: الإنسان يجهل نفسه ومرضه، وما زادته الحضارة المعاصرة إلا بعداً عن نفسه وهروباً من واقعه، لقد أصبح الإنسان في قلق وعدم توازن واضطراب بين نفسيته وطمأنينته وبين استجابته لصخب هذه الحضارة.

يقول الدكتور «ألكسيس كاريل» في كتابه الشهير «الإنسان ذلك المجهول» واضعاً إصبعه على الداء القاتل: «إن الحضارة المعاصرة تجد نفسها في موقف صعب لأنها لا تلائمنا، فقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية، إذ إنها من خيالات الاكتشافات العلمية، وشهوات الناس، وأوهامهم ونظرياتهم، ورغباتهم، وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا.

من الواضح أن العلم لا يتبع أية خطة، وإنما يتطور اعتباطاً... إن نظم الحكومات أنشأها أصحاب المذاهب في عقولهم، عديمة القيمة، فمبادئ الثورة الفرنسية وخيالات ماركس ولينين تنطبق على الرجال الجامدين، فيجب أن يفهم بوضوح أن قوانين العلاقات البشرية ما زالت غير معروفة؛ فإن علوم الاجتماع والاقتصاديات علوم تخمينية افتراضية.

وهكذا يبدو أن البيئة التي نجح العلم والتكنولوجيا في إيجادها للإنسان لا تلائمه لأنها أنشئت اعتباطاً وكيفما اتفق دون اعتبار لذاته الحقيقية...

إن علوم الجماد حققت تقدماً عظيماً بعيد المدى، بينما بقيت علوم البشر في حالة بدائية، لقد أدى تطبيق الاكتشافات العلمية إلى تغيير العوالم المادية والعقلية، وهذه التغييرات تحدث فينا تأثيراً عميقاً، وتأثيرها التعيس إنما هو نتيجة لأنها عملت دون أدنى تفكير في طبيعتنا. يجب أن يكون الإنسان مقياساً لكل شيء، ولكن الواقع هو عكس ذلك، فهو غريب في العالم الذي ابتدعه، إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه لأنه لا يملك معرفة علمية بطبيعته.... إننا قوم تعساء لأننا ننحط أخلاقياً وعقلياً، إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هي على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة في

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٥٣٢ ـ ٥٤٢) باختصار.

الضعف والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها، ولكنها لا تدرك ذلك... إن القلق والهموم التي يعاني منها سكان المدن العصرية تتولد عن نظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية... إننا ضحايا تأخر علوم الحياة عن علوم الجماد»[١].

هذا هو مصير هذا الإنسان المكبل بالعبوديات المشينة التي تستعبده ويسلّم لها هو قياده ويرضى في استسلام ذليل لها فقط، عندما يصر على الهروب من خالقه، والمجادلة في آيات ربه ومبدعه، والإعراض عن شرعه ودينه الذي يعيد لحياته ونفسه استقامتها وتوازنها وطمأنينتها.

«في ظلال المجتمع العلماني يتمزق الإنسان بناءً على تمزق مصيره، وتزدوج شخصيته اعتماداً على الثنائية التي اصطنعها بين المادة والروح، والجدران التي أقامها بين تجربتي الحس والوجدان، والجفاء الذي باعد به زيفاً بين عالمي الحضور والغياب، وبين ما هو قريب مرئي وما هو بعيد لا تراه العيون، والتصور الذي يصدر عنه ذلك الإنسان لا يوائم بحال بين العلاقات المعقدة المتشابكة التي تحكم الكون والعالم والحياة؛ بل هو تصور يفصل بالقسر والعناد بين هذه العلاقات جميعها ويمزقها تمزيقاً، ويعمل فيها تقطيعاً وتشويهاً فتغدو طاقات الكون والإنسان والحياة وما بينها جميعاً من وشائج وارتباطات، تغدو في حس العلماني وتصوره فوضى يسودها الانفصال والصداء والجفاء، الدين يتناقض مع العلم، والفلسفة العقلية ترفض التشبث الطبيعي بالواقع الملموس، والمذاهب الطبيعية لا تلزم نفسها بقيم خلقية أو إنسانية.

وهكذا سلسلة من المصادمات التي لا تقتصر آثارها على العالم الخارجي فحسب بل في أعماق الإنسان وتجربته الذاتية كذلك... هذا هو السبب العميق الذي يؤدي في العلمانية إلى التمزق والازدواج»[٢].

«أشعر كما يشعر كثير من الناس الذين هم من جيلي، أن هناك خطأ في التفريق بين الروح والجسد. إنني أحلم بشكل من الحياة فيه يسعى الإنسان (كله) روحاً وجسداً في سبيل تحقيق ذاتي أعمق بشكل لا تكون فيه الروح والمشاعر

---

(١) الإنسان ذلك المجهول (٣٧ ـ ٤٢) باختصار.

(٢) تهافت العلمانية، الدكتور: عماد الدين خليل (٨١ ـ ٨٣).

عدوَّيْن كل منهما للآخر، وفيه يستطيع الإنسان أن يتحقق بالوحدة في ذات نفسه وبمعنى مصيره»[١].

وهذه دعوة كريمة من الله رب العالمين، خالق هذا الإنسان لينجو ويفلح ويجد برد اليقين.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾ [النساء: ١٧٠].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء: ١٧٤، ١٧٥].

---

(١) الطريق إلى مكة، محمد أسد (٦١).

١ ـ المصادر والمراجع

- **أبو يزيد البسطامي**، المجموعة الصوفية الكاملة، تحقيق: تامر عباس، ط٢، ٢٠٠٦م، دار المدى، دمشق.
- **إتحاف المهرة الخيرة، بالفوائد المبتكرة، من المسانيد العشرة**، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. زهير الناصر، ١٤١٥هـ.
- **أحكام القرآن**، محمد بن عبد الله ابن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط٢ مصر، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٨م.
- **أخبار الحلاج**، لويس ماسينيون وبول كراوس، ط٢٠٠٦م، التكوين للطباعة والنشر، دمشق.
- **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي، تحقيق: علي محمد عوض، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م.
- **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، عز الدين بن الأثير الجزري، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٩٧م.
- **الإصابة في تمييز الصحابة**، ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٥م.
- **اصطلاحات الصوفية**، عبد الرزاق الكاشاني، ط١، طهران، ١٣٨١هـ.
- **أصول السُنَّة**، عبد الله بن الزبير الحميدي، تحقيق: عبد الله الغفيلي، ط١، مكتبة الرشد ٢٠٠١م.
- **أصول مذهب الشيعة الإمامية عرض ونقد**، ناصر القفاري، ط٣، دار الرضا، مصر، ١٩٩٨م.

- **الأصول من الكافي**، محمد يعقوب الكليني، طهران، المكتبة الإسلامية، ١٣٨٨هـ.
- **الأضحوية في أمر المعاد**، ابن سينا، تحقيق: د. حسن عاصي، ط الثانية، ١٩٨٧م.
- **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، محمد الأمين الشنقيطي، دار عالم الفوائد، ط١، ١٤٢٦هـ.
- **إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان**، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت، دار المعرفة.
- **الأغاني**، لأبي نعيم الأصفهاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، مؤسسة دار الشعب، ط الأولى.
- **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: د. ناصر العقل، ط٨، مكتبة الرشد، ٢٠٠٠م.
- **إكمال المعلم بفوائد مسلم**، عياض بن موسى، تحقيق: يحيى إسماعيل، ط١، دار الوفاء، ١٩٩٨م.
- **الأم**، محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق: رفعت فوزي، ط١، دار الوفاء، ٢٠٠١م.
- **أهل البيت في الكتاب والسُّنَّة**، محمد الريّ شهري، طهران، دار الحديث، ١٣٧٥هـ.
- **البحر الزخار المعروف بمسند البزار**، أبو بكر البزار، تحقيق: محفوظ الرحمٰن زين الله، ط١، مكتبة العلوم والحكم، ١٩٨٨م.
- **البداية والنهاية**، إسماعيل بن كثير، تحقيق: عبد الله التركي، دار هجر، ١٩٩٩م.
- **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**، محمد بن علي الشوكاني، بيروت دار المعرفة، بدون تاريخ.
- **التاريخ الأوسط**، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد بن إبراهيم اللحيدان، دار الصميعي، ط١، ١٩٨٨م.
- **التاريخ الكبير**، محمد بن إسماعيل البخاري، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.
- **التصوف بين التمكين والمواجهة**، محمد بن عبد الله المقدي، ط١، ١٤٢٩هـ، دار الصفوة، القاهرة.
- **التعريفات**، للشريف الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **الثقات**، محمد بن حبان، ط١، الهند، ١٩٧٣م.
- **الجامع الصحيح**، سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر.

- **الجامع الصحيح**، للإمام البخاري، دار السلام، الرياض، ١٩٩٩م.
- **الجامع لأحكام القرآن**، للقرطبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٦م.
- **الحلاج أو وضوء الدم**، ميشال غريب، ط١، مكتبة الحياة، بيروت.
- **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، الراغب الأصبهاني وأبو اليزيد العجمي، دار الوفاء، ط٢، ١٩٨٧م.
- **الرسالة القشيرية**، عبد الكريم القشيري، تحقيق: د. عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة.
- **الروض الأنف**، للسهيلي، تحقيق: عبد الرحمٰن الوكيل، ط١، دار النصر، مصر، ١٩٧٦م.
- **السنن الكبرى**، للبيهقي، دار المعرفة بيروت.
- **السنن الكبرى**، للنسائي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠١م.
- **الشذرات الذهبية في تراجم الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية**، لمحمد بن طولون الدمشقي، تحقيق: مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
- **الشفا بالتعريف بحقوق المصطفى**، القاضي عياض بن موسى، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، ١٣٩٢هـ.
- **الضوء اللامع**، للسخاوي، مكتبة القدس، القاهرة.
- **العبودية**، شيخ الإسلام ابن تيمية، تقديم: عبد الرحمٰن الباني، المكتب الإسلامي، ط الأولى.
- **الكامل في ضعفاء الرجال**، لابن عدي، دار الفكر، بيروت.
- **اللفظ المكرم بخصائص النبي ﷺ**، لمحمد بن محمد الخيضيري، تحقيق: د. محمد الأمين المولود الجكني، دار البخاري، المدينة المنورة، ط٢، ١٤١٧هـ.
- **اللمع في التصوف**، عبد الله بن علي الطوسي، شركة القدس للنشر، القاهرة، ١٤٢٩هـ.
- **المباحث المشرقية**، للفخر الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **المجروحين**، لابن حبان تحقيق: محمد إبراهيم زايد، دار المعرفة، ١٩٩٢م.
- **المختصر من كتاب الموافقة بين أهل البيت والصحابة**، للزمخشري محمود بن عمر، تحقيق: سيد إبراهيم صادق، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠١م.
- **المستدرك على الصحيحين**، للحاكم النيسابوري، دار الكتاب العربي.
- **المصنف لابن أبي شيبة**، دار الكتب الثقافية.

- المصنف، عبد الرزاق بن همام، تحقيق: حبيب الرحمٰن الأعظمي، ط١، بيروت منشورات المجلس العلمي، ١٩٧٢م.
- المعجم الصوفي، د. محمود عبد الرازق، دار ماجد عسيري، ط١، ١٤٢٥هـ.
- المعجم الكبير، للطبراني، حققه: حمدي السلفي، دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٢م.
- المفردات، للراغب الأصبهاني، دار الفكر العربي، بيروت.
- المناقب والمثالب، لأبي حنيفة النعمان بن محمد التميمي المغربي، تحقيق: ماجد أحمد العطية، ط١، ٢٠٠٢م، مؤسسة الأعلى للمطبوعات.
- المواهب اللدنية، للقسطلاني أحمد بن محمد، تحقيق: صالح الشافي، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤١٢هـ.
- بغية الباحث عن زوائد الحارث، علي بن سليمان الهيثمي، تحقيق: حسين الباكري، الجامعة الإسلامية، ١٩٩٢م.
- تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت.
- تاريخ الإسلام، محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٣م.
- تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٢٢هـ.
- تاريخ دمشق، ابن عساكر، تحقيق: مجد الدين العمري، دار الفكر بيروت، ١٩٩٥م.
- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن كثير، تحقيق: أبي إسحاق الحويني.
- تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، الراغب الأصبهاني، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٨٨م.
- تقريب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر، دار الكتب العلمية.
- تلخيص الذهبي على مستدرك الحاكم، دار الكتاب العربي، بيروت.
- تهذيب الأخلاق، لأحمد بن مسكويه. مكتبة الثقافة الدينية، ط الأولى.
- تهذيب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر، دار الكتب العلمية، بيروت.
- تهذيب اللغة، للأزهري، بيروت، دار المعرفة، ٢٠٠١م.
- جامع البيان، محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٢م.
- جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، خير الدين الألوسي، دار المدني، جدة.

- **زاد المعاد في هدي خير العباد**، ابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط١٣، ١٩٨٦م.
- **سبل الهدي والرشاد**، للصالحي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م.
- **سنن أبي داود**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **سنن ابن ماجه**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار المكتبة العربية.
- **سنن النسائي بحاشية السندي**، مكتبة تحقيق التراث الإسلامي، بيروت، ١٤٢٠هـ.
- **سير أعلام النبلاء**، للذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، دار الرسالة، ط٢، ١٩٨٢م.
- **شرح مشكل الآثار**، للطحاوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٢، ٢٠٠٦م.
- **شرح النووي على صحيح مسلم**، دار الكتب العلمية.
- **صحيح ابن حبان ترتيب ابن بلبان**، خرجه شعيب الأرنؤوط، ط٣، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٧م.
- **طبقات الأطباء**، لابن أبي أصيبعة، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **طبقات الأمم**، صاعد الأندلسي، تحقيق: حياة العيو بوعلوان، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.
- **غاية السول في خصائص الرسول ﷺ**، لابن الملقن، تحقيق: عبد الله بحر الدين، دار البشائر الإسلامية، ط١، ١٤١٤هـ.
- **فتح الباري بشرح البخاري**، أحمد بن علي بن حجر، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، سنة، ١٣٩٨هـ.
- **فضائل الصحابة**، للإمام أحمد، تحقيق: وصي الله عباس، دار ابن الجوزاء، ط٢، ١٤٢٠هـ.
- **كشاف اصطلاحات الفنون**، للتهانوي، حيدر آباد، الهند، ط الثانية.
- **لسان العرب**، لابن منظور، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٣م.
- **مجمع الزوائد**، للهيثمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٩٨٢م.
- **مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية**، جمع عبد الرحمٰن بن قاسم وابنه، طبع بأمر خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود.
- **محاسن الكلم**، للمبشر بن فاتك، الدار الفلسفية، بيروت، ١٩٩٧م.
- **مذكرات السلطان عبد الحميد**، تحقيق: محمد حرب، دار الوثائق، الكويت.

- **مسند أبي داود الطيالسي**، ١٣٢١هـ، دائرة المعارف النظامية، حيدر أباد، الهند.
- **مسند أبي يعلى الموصلي**، تحقيق: إرشاد الحق الأثري، ط١، مؤسسة علوم القرآن ١٩٨٨م.
- **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط٢، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٩م.
- **معجم المؤلفين**، الخليل بن أحمد الفراهيدي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط الأولى، ١٤٠٨هـ.
- **مقاتل الطالبيين**، لأبي الفرج الأصفهاني، تحقيق: السيد صقر، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ.
- **مقدمة ابن خلدون**، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠١١م.
- **مناقب آل البيت**، لأبي الحسن ابن المغازلي، تحقيق: محمد كاظم المحمودي، مركز التحقيقات والدراسات العلمية، طهران، ط١، ٢٠٠٦م.
- **منهاج السُّنَّة النبوية**، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية، ط٢، ١٩٨٩م.
- **نسب قريش**، لمصعب الزبيري، تحقيق: أ. ليفي بروفنسال، دار المعارف، ط٤.
- **نصوص من التراث الصوفي في الغرب إسلامي**، تحقيق: د. محمد العدلوني، ط١، ١٤٢٩هـ.
- **وفيات الأعيان**، أحمد بن محمد بن خلكان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت ط الرابعة، ٢٠٠٥م.

٢ ـ مراجع حديثة

- **أرض الميعاد**، د. عبد الوهاب المسيري، القاهرة. ط الثانية، ٢٠٠٦م.
- **أسرار الماسونية**، جواد رفعت آتلخان، المختار الإسلامي.
- **إمبراطورية الشر الجديدة**، د. عبد الحي يحيى زلوم، ط الأولى، ٢٠٠٣م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
- **البعد الديني في السياسة الأمريكية**، د. يوسف الحسن، مركز دراسات الوحدة العربية، ط الأولى، ١٩٩٠م.
- **الحركة القومية العربية بعيون عثمانية**، حسن قايالي، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠٣م.
- **الخديعة الكبرى**، محمد جاد طحان، بيروت، ٢٠٠٠م.
- **الخرافات المؤسسة لدولة إسرائيل**، روجيه جارودي، ط الثانية، بيروت ٢٠٠٢م.
- **الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية**، د. قاسم عبده قاسم، ط الأولى، ١٩٩٩م، عين للدراسات والبحوث الإنسانية.
- **الخلفية التوارثية للموقف الأمريكي**، إسماعيل الكيلاني، مكتبة الأقصى الإسلامية، قطر، ط الأولى، ١٤٠٧هـ.
- **السلطة في الإسلام**، نقد النظرية السياسية، عبد الجواد ياسين، المركز الثقافي العربي، ط الأولى، ٢٠٠٩م.
- **الطريق إلى مكة**، محمد أسد، القاهرة، الأولى، ١٩٨٠م.
- **العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة**، د. عبد الوهاب المسيري، دار الشرق، القاهرة، ط الثانية، ٢٠٠٥م.

• **العلمانية نشأتها وتطورها وأثرها في الحياة الإسلامية المعاصرة**، د. سفر الحوالي مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى.
• **العولمة الاقتصادية**، عباس برادة، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٧م.
• **العولمة وآثارها في الاجتهاد وآفاقه**، أعمال الندوة العلمية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، تنسيق فاروق حمادة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط الأولى، ٢٠٠٨م.
• **الفاتيكان والإسلام**، د. زينب عبد العزيز، القدس للنشر والتوزيع، القاهرة، ط الثانية، ٢٠٠١م.
• **الفكرة الصهيونية**، أنيس الصايغ، دمشق، ٢٠٠٤م.
• **القدس بين الوعد الحق والوعد المفترى**، د. سفر الحوالي، مكتبة السُّنَّة، ط الأولى، ١٤١٤هـ.
• **المسألة الشرقية**، دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية، محمود ثابت الشاذلي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط الأولى، ١٩٨٩م.
• **المعتقدات الدينية لدى الغرب**، د. عبد الراضي محمد بن عبد المحسن، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط الأولى، ٢٠٠١م.
• **النقشبندية بين ماضيها وحاضرها**، نور الدين آيدن، ط الثانية، ٢٠٠٥م، إسطانبول.
• **النكبة**، عارف العارف، الدار الفلسطينية، بيروت.
• **النكبة**، وليد الخالدي، الدار الدمشقية، دمشق.
• **اليهودية العالمية، وحربها المستمرة على المسيحية**، إيليا أبو الروس، دار الطليعة، بيروت، ط الأولى، ١٩٩٣م.
• **تاريخ الأقباط**، زكي شنودة، القاهرة، ١٩٧٧م.
• **تلفيق صورة الآخر في التلمود**، زياد منى، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠٢م.
• **تهافت العلمانية**، عماد الدين خليل، بيروت، ط الأولى.
• **حقوق الإنسان في الوطن العربي**، تقرير المنظمة العربية لحقوق الإنسان + التقرير السنوي (٢٠٠٩، ٢٠١٠م) ط الأولى، ٢٠١٠م، مركز دراسات الوحدة العربية.
• **حكم الزنا في القانون وعلاقته بمبادئ حقوق الإنسان في الغرب**، د. عابد محمد السفياني، ط الأولى، ١٤١٨هـ.
• **دائرة معارف القرن العشرين**، فريد وجدي، ط الثانية، ٢٠٠٠م.

- صدام الأصوليات، نهاية إسرائيل، نهاية العالم، عاطف عبد الغني، دار الخيال، ط الأولى، ٢٠٠٠م.
- ظلّة على الأرض ألقاب حكام المسلمين في رقوم مقدسية، أسامة العيسة، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠٤م.
- عودة إلى التاريخ المقدس الحريدية والصهيونية، نبيه بشير، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠٥م.
- فلسفة الحرية، أعمال الندوة الفلسفية السابعة عشر، جامعة القاهرة، طبع مركز دراسات الوحدة العربية، ط الأولى، ٢٠٠٩م.
- قاموس المورد، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، ط الأولى.
- كيف يربي اليهود أطفالهم، سناء عبد اللطيف، الدار المصرية، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- مؤشر الفساد في الأقطار العربية، أعمال الحلقة النقاشية للمنظمة العربية لمكافحة الفساد، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، ط الأولى، ٢٠١٠م.
- مخطوطات البحر الميت، قصة الاكتشاف، أسامة العيسى، دار القدس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠٣م.
- مشكلة الحرية، زكريا إبراهيم، الدار المصرية. ط الثانية.
- نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، يوسف رزق الله غنيمة، مكتلة الثقافة الدينية، ط الأولى، ٢٠٠١م.
- وتذكروا من الأندلس الإبادة، أحمد رائف، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط الثانية، ١٩٩١م.

٣ ـ مراجع أجنبية

- **الأب يوحنا والمغول**، ديفيد مورغان، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ١٠٠٥م.
- **استخدام التاريخ ذريعة للاستيلاء على الأرض**، نيلز لمكة، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠٤م.
- **إسرائيل من منظور أمريكي**، بيتر غروس، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٤م.
- **الإسلام في القرون الوسطى**، دومينيك سور ديل، ترجمة علي المقلد، ط الأولى، ٢٠٠٧م، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت.
- **الإسلام**، كارين آرمسترونغ، الدار العصرية، بيروت.
- **إعادة اكتشاف تاريخ فلسطين القديمة**، كيث وايتلام، ترجمة زياد منى، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠٤م.
- **إلى أين تتجه الرأسمالية**، جون.هـ. دتنغ، دار الطليعة، بيروت.
- **الإنسان ذلك المجهول**، أليكسس كارل، ترجمة شفيق أسعد، مكتبة المعارف، بيروت، ط الأولى، ١٩٩٩م.
- **أنشودة انتصار مر فتتاح**، إسرائيل وشعب فلسطين، توماس طمسن وإنغرد هيلين، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠٤م.
- **التعريف بالداوية في يونغ زينغ**، دار الكتب الصينية، ١٩٩٣م.
- **التلمود البابلي**، الطبعة الأوروبية، ١٩٤٢م.
- **التنصير**، الترجمة الكاملة لأعمال المؤتمر التبشيري الذي عقد بكلورادو بالولايات المتحدة، سنة ١٩٨٧م.
- **الجغرافيا السياسية للفاتيكان**، الطبعة العربية، ١٩٩٧م.

- **الحرب المقدسة**، جان فلوري، ترجمة غسان مايو، دار المدى للثقافة، ط١، سنة ٢٠٠٤م.
- **الحرية**، جون ستيوارت مل، دار المدى، بيروت، ٢٠٠٧م.
- **الخلاصة اللاهوتية**، توما الأكويني، الكلية اليسوعية، ١٩٩٨م.
- **الخيار شمشون**، أسرار الترسانة النووية الإسرائيلية، سيمور هيرش، ترجمة فريق من الخبراء، دار الكتب العربي، ط الأولى، ١٤٢٢هـ.
- **الدولة اليهودية**، ثيودور هرتسل، الطبعة العربية، بيروت ١٩٧٧م.
- **الرعب الاقتصادي**، فيفان فوستر، منشورات الجمل، ٢٠٠٩م.
- **الشيعة والتحول في العصر الصفوي**، كولن تيرنر، منشورات الجمل، ترجمة حسين علي عبد الستار، ط الأولى، ٢٠٠٧م.
- **الصهيونية المسيحية**، بول مركلي، ترجمة فاضل جتكر، ط الأولى، ٢٠٠٢م، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق.
- **الطائفيون العرب والحركة الصهيونية**، بني مورس ولورا آيزينرغ، ط الأولى، ٢٠٠٥م، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق.
- **العالم العربي اليوم**، ستان دور، دار المدى للنشر والتوزيع، بيروت.
- **العالم مسطحاً التاريخ الملخص للقرن ٢١**، توماس فردمان، دار الفكر المعاصر، بيروت.
- **العقائد البدائية في الصين**، وان شاو دون، مكتبة الكتب القديمة، شان هاي، ١٩٨٩م.
- **الكتاب المقدس والاستعمار والاستيطاني**، الأب مايكل برير، ترجمة أحمد الجمل، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠٥م.
- **المدينة المقدسة**، ملاحظات تاريخية وطبوغرافية من القدس، الأب جورج وليمز، دار قدمس، دمشق، ٢٠٠٤م.
- **المولوخ**، آلة الشر، تاريخ الولايات المتحدة، كارلها ينتس دشتر، ترجمة محمد جديد، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠٣م.
- **النهايات**، الهوس القيامي الألفي، ديتر تسمرلنغ، ترجمة ميشيل كيلو، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ١٩٩٩م.
- **اليهود في كفة التاريخ**، الأب قسطنطين، الدار الفلسطينية، بيروت.
- **بحثاً عن عالم أفضل**، كارل بوبر، الجامعة الأميركية، بيروت، ٢٠٠٩م.

- **بيزنطة والإسلام**، فاز لييف، ترجمة حسين مؤنس ومحمد يوسف زايد، دار الفكر، ط الأولى، ١٩٩٦م.
- **بين الهلال والصليب**، وضع اليهود في القرون الوسطى، مارك. ر. كوهين، ترجمة معز خلفاوي، منشورات الجمل ألمانيا، ط الأولى، ٢٠٠٧م.
- **تاريخ الإرساليات المسيحية**، إستيفانت نيل، نشر دار الفكر العربي.
- **تاريخ الترك والمغول في آسيا من مبدأ نشأتها إلى عام ١٩٠٥م**، ليون كاهون، المقتطف، ١٩١٦م.
- **تاريخ التسامح في عصر الإصلاح**، جوزيف لوكلير، ترجمة جورج سليمان، مركز دراسات الوحدة العربية، ط الأولى، ٢٠٠٩م.
- **تلفيق إسرائيل التوارتية**، كيث وايتلام، ترجمة ممدوح عدوان، دار قدمس للنشر، دمشق، ط الأولى، سنة، ٢٠٠٠م.
- **توراة من؟ بأي حال**، تاريخ فلسطين في العصر الحديدي، إنغرد هيلين، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠٤م.
- **جاذبية الإسلام**، مكسيم رودنسون، ترجمة إلياس مرقص، ط٢، ٢٠٠٥م، دار التنوير، بيروت.
- **جدول أعمال التطوير وتحدي الفساد**، جمس دفلفزن، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٥م.
- **دراسة في التاريخ**، آرنولد تونبي، الدار العصرية، بيروت.
- **رسالة عبد الله بن إسماعيل الهاشمي إلى عبد المسيح بن إسحاق الكندي**، ورسالة الكندي إلى الهاشمي، الكلية اليسوعية، ١٩٩٨م.
- **سنة ٥٠١ الغزو مستمر**، نعوم تشومسكي، ترجمة مي النبهان، دار المدى، دمشق، ط الثانية، ١٩٩٩م.
- **شبكة الفساد والإفساد العالمية**، بيتر آيغن، ترجمة محمد جديد، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠٥م.
- **صراع الحضارات**، صموئيل هنتنغتون، ترجمة المشير أبو غزالة، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- **صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى**، ريتشارد سوذرن، ترجمة د. رضوان السيد، دار المدى الإسلامي، بيروت، ط الثانية، ٢٠٠٦م.
- **صورة الإله الوثنية والدموية في التوراة**، الأب حنا حنا، دار رام للنشر والتوزيع، دمشق ط الأولى، ٢٠٠٧م.

- **عقيدة الألوهية في الداوية**، دراسة مقارنة بالهندوسية، أيوب تور الحق شي رين رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد، باكستان، ١٩٩٦م.
- **عودة اليهود في الفكر البروتستانتي الإنجليزي**، مير فرته، ترجمة فاضب جنكر، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠١م.
- **فخ العولمة**.
- **فلسطين في العقل السياسي الأمريكي**، كاثلين كرستن، ترجمة مفيد عبدوني، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠٣م.
- **قديسات وملكات من المشرق السرياني وجزيرة العرب**، سبستين برك، سوزان هارفي وغلن بورسك، ترجمة فريد بولس وميسون الحجيري، تقديم المطران مارغر يغوريوس يوحنا، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠٠م.
- **قصة الحضارة**، ول ديورانت، الطبعة العربية، ١٩٩٥م.
- **لمحات من تاريخ العالم**، جواره لال نهرو، ترجمة عبد العزيز عتيق، دار المعارف، ط الأولى، ١٩٩٥م.
- **ما بين عصرين**، زبيجينو بزيجينسكي، الدار العصرية، بيروت.
- **ماركو بولو هل وصل إلى الصين**، فرنسس وود، ترجمة فاضل جتكر، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ١٩٩٩م.
- **محاكمة هنري كيسنجر**، كرستفر هتشنز، ترجمة فريد الغزي، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠٢م.
- **مختصر تاريخ الفلسفة الصينية**، فون بولان، ١٩٩٤م.
- **مخطوطات قمران**، البحر الميت، التوراة المنحول، تحقيق، أندريه دوبون وزميله، ترجمة موسى خوري، دار الطليعة الجديدة، بيروت، ١٩٩٨م.
- **مخطوطات قمران**، البحر الميت، الكتب الأسينية، تحقيق: أندريه دوبون، سومر مارك فيلو فنكو، ترجمة موسى ديب الخوري، دار الطليعة الجديدة، دمشق، ط الأولى، ١٩٩٨م.
- **مدخل إلى الفلسفة**، كارل باسبرز، الدار العصرية، بيروت.
- **مذكرات هرتسل**، الطبعة العربية، ١٩٥٣م.
- **مسيحية ضد الإسلام**، حوار انتهى إلى الإخفاق، لود فيغ هاغمن، ترجمة محمد جديد، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الثانية، ٢٠٠٥م.
- **مفهوم الحرية في الإسلام**، فرانز روز نتال، ترجمة د. رضوان السيد ود معن زيادة، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط الثانية، ٢٠٠٧م.

- مكافحة الفساد تقتضي نظاماً أخلاقياً، هانزكنغ، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٥م.
- مناهضة الشعوب السامية، برنار لازارية، الطبعة العربية، بيروت، ٢٠٠٣م.
- موجز تاريخ العالم، هـ.ج. ويلز، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مكتبة المتبولي، القاهرة، ١٩٨٦م.
- موسوعة أعلام الفلسفة، إعداد روني إيلي ألفا وجورج نخل، دا الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- نصر بلا حرب، ريتشارد نيكسون، إعداد المشير محمد أبو غزالة، الطبعة الثانية، ١٩٨٩م، مركز الأهرام للترجمة والنشر.
- نصوص مختارة من كنيسة الشرق، الأب جان ماريا السالسي، الدار العربية للموسوعات، ط الأولى، ٢٠٠٧م.
- هل ينبغي علينا أن نترك التاريخ لعلماء الآثار، توماس طمسن، ط الأولى، ٢٠٠٥م، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق.
- ورثة الإمبراطورية الرومانية، ريتشارد، أ ساليفان، ترجمة جوزيف نسيم يوسف، ط الأولى، ١٩٨٥م.
- يشوع والعنف الغربي، نيلز لمكة، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠٤م.

فهرس الموضوعات